

فَقِيرٌ

الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ

و

فَقِيرٌ

النُّصْحُ وَالْإِرْشَادُ

وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ

دراسة استنباطية تشتمل على :

بيان دُهورها ، وأُسرها ، ومنهجها ، وُسُبلها ، ووسائلها

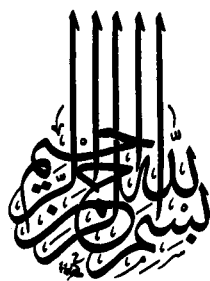
وآدابها ، ومآزج من تطبيقاتها .

الجزء الثاني

عبد الرحمن بن حنبله الميداني

دار الفقه

دمشق



فَقِيرًا

الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ

و

فَقِيرًا

النُّصُوحَ وَالْإِشَادَ

وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٢ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عمه طريقه

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الفصل الرابع

وسائل الأداء البيانيّ

- الوسيلة الأولى: الخطبة.
- الوسيلة الثانية: الدرس.
- الوسيلة الثالثة: المحاضرة.
- الوسيلة الرابعة: الحديث والمحادثة.
- الوسيلة الخامسة: مجالس السؤال والجواب.
- الوسيلة السادسة: الكتاب.
- الوسيلة السابعة: المقالة.
- الوسيلة الثامنة: الشعر.
- الوسيلة التاسعة: القصة.
- الوسيلة العاشرة: التمثيل.

الوسيلة الأولى

الخطبة

- ١ -

أهمية الخطبة

الخطبة إحدى وسائل الأداء البياني في الإسلام، للدعوة إلى الله، وتبليغ دينه، والتذكير بأصوله وفروعه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتّضح والإرشاد إلى الخيرات والفضائل الفكرية والسلوكية الباطنة والظاهرة.

وهي في الإسلام عنصرٌ من عناصر بعض العبادات الدورية:

● فخطبة الجمعة جزءٌ من عبادة صلاة الجمعة التي هي مع خطبتها بدلٌ عن صلاة الظهر في يوم الجمعة، واهتماماً بها قال الله عزّ وجلّ في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعْتُمْ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ .

● وخطبة عيد الفطر والأضحى جزءٌ تعبديٌّ ملحقٌ بصلاتي عيدي الفطر والأضحى.

● وخطبة عرفة عنصرٌ من عناصر عبادات يوم عرفة في الحج.

● وخطبة الاستسقاء عبادة مرتبطةٌ بصلاة الاستسقاء. وتُشرعُ حُطْبُ

أخرى تستدعيها المُلمَّات، وبعضُ المناسبات، التي يَحْسُنُ فيها الإِشهارُ العام، والتبليغُ الجماعي، أو استثارة حماسة الجمهور، أو تهييجُ عواطفهم وانفعالاتهم.

كالخطبةِ بمناسبةِ إجراءِ عَقْدِ زواج، وكالخطبةِ قبل المعركةِ الحربيَّة، وكالخطبةِ للحثِّ على البذلِّ والتضحية، وكالخطبةِ للتنبيةِ على أمرٍ مُهمِّ، أو الإعلامِ بحدِّثِ ذي خَطَر، أو تبليغِ قرارِ سُلْطاني في أمرٍ عظيم، أو نحو ذلك. والخطبةُ هي بمثابةُ مُحَرِّكِ ذي حرارةٍ وقُوَّة، يُوجِّهُ العقولَ، ويهزُّ النفوسَ والمشاعرَ الداخليَّة، لِيَسْتثيرَ ما فيها من طاقاتِ كامناتِ ساكناتِ، حتَّى تَعْمَلَ على توجيهِ الإراداتِ لتطبيقِ ما تهدي إليه، وتَنصَحُ به، أو لما تَأْمُرُ به وتنهى عنه.

- ٢ -

تعريف الخطبة

الخطبة: فنٌّ من فنون الأداء البيانيِّ في مخاطبة الجماهير ذاتِ المستوياتِ المختلفةِ، بطريقةٍ يُسْتَحْسَنُ فيها الاعتمادُ على مخزونِ الذاكرة، ومُبتكراتِ الفكر، أو مَعَ مُسَاعَدَةِ مَذَكِّراتِ مكتوبة، تُذَكِّرُ بعناصرِ مُهمَّة، وربما تَقُومُ مقامها الخطبة المكتوبة.

ويُستخدَمُ فيها مسلكان:

١ - مسلكُ الحكمة للإقناع الفكريِّ دون إسراف، أو للتذكيرِ باقناعِ فكريِّ سابق.

٢ - ومسلكُ الموعظةِ الحسنةِ بوفرة، لاستمالة النفس وإثارتها ترغيباً أو ترهيباً إثارة تخدمُ الأغراضَ المقصودة من الخطبة.

وظائف الخطبة

للخطبة أربع وظائف كبرى مهمة:

الوظيفة الأولى: الإقناع الفكري المنطقي بعناصر الموضوع الذي أراد الخطيب أن يجعله محور خطبته، إذا لم يكن لدى الجماهير حوله اقتناع سابق، أو التذكير الفكري بها، إذا كانت عناصره من المسلّمات لديهم.

وينبغي أن لا يكون في أداء هذه الوظيفة إسراف زائد عن الحاجة التي يتلقفها المستمعون، حتى لا يُجهد الإقناع المنطقي الأذهان، ويصرفها عن الإصغاء، فالجماهير ذات المستويات المتفاوتات من طبيعتها أنها لا تتحمل الأجهاد الفكري الزائد.

الوظيفة الثانية: التأثير على النفوس من محورين:

الأول: محور الطمع بمحابتها، فينتقي الخطيب لموضوعه الذي يريد توجيه الجماهير له مختارات تُرغب في الاستجابة لما يدعوهم إلى الأخذ به، مما تحبّه النفوس، لتتوجّه بقوةٍ مستجيبةً لدعوته، منقادةً له، مندفعةً للأخذ بما يحثّها عليه.

الثاني: محور الخوف من مكارهاها، فينتقي الخطيب لموضوعه الذي يريد إبعاد الجماهير عنه، مختارات تُنفّر مما يدعوها لاجتنابه، مما تكرهه النفوس، لتبتعد عنه بقوةٍ نفورٍ شديدةٍ، مستجيبةً لدعوته، مُنقادةً له، مندفعةً لاجتناب ما يحثّها على اجتنابه.

الوظيفة الثالثة: تخزين خلاصةٍ مكثفةٍ في أفكارهم ونفوسهم لما بسطه في أثناء خطبته، ويكون هذا التخزين في أواخر خطبته، وأبرعه ما يأتي سهلاً مُنسباً انسياً يسهل استيعابه وحفظه واستدكاره، وانشغال النفس بتدبره،

والاعتاظ والاعتبار بما فيه من مواعظ وعبر، وتسهل روايته والحديث عنه بتفصيل بعد الخطبة.

الوظيفة الرابعة: اصطياًد من يُستطاع صيئده من الجماهير، لربطهم بعد الخطبة ربطاً يجعلهم يتحققون مستقبلاً بما دعاهم إليه أو نصحهم به.

وهذا الاصطياًد هو من ذبول وظائف الخطبة، لكنه الأهم من وظائفها، باعتباره الوظيفة التي تُربى فيها الثمرة، ثم تُجتنى اجتناءً حسناً.

ولهذه الوظيفة دوامٌ مع الساعات والأيام، ومن عناصرها الربط بالتعلم، والمتابعة بالعمل.

فالربط بالتعلم يكون بإحاطة من تمَّ اصطياًده بتعليمه في دروسٍ يوميةٍ علومَ الدين وأدواتها.

والمُتابعة بالعمل تكون بتلبيته تدريجياً لممارسة تطبيقاتٍ عمليةٍ، على أنواع السلوك الإسلامي، بالوسائل التربوية النافعة، وعلى سُلَمِ الأولويات ضمن قاعدة التدرُّج.

فالخطبة إذا لم تُلحق بهذه الوظيفة كانت كمن يثير البركة ليُهيج الأسماك من مكامنها، ثم يتركها حتى تهدأ وتعود إلى مكانها ومواطن سكونها أو حركتها الهادئة، دون أن يصطاد منها شيئاً.

فإذا اعتاد السمك هذه الإثارة مرّاتٍ متعدّات دون أن يصطاد شيئاً منها، لم تجذ في الإثارات الجديدة ما يدفعها إلى التحرك والخروج من مكامنها ومواطن سكونها.

وكذلك يكون حال الخطباء الذين يُكرّزون الإثارات، دون أن يصطادوا للعلم والعمل أحداً من جماهيرهم، ودون أن يتابعوه بالتعليم، وبالتطبيق العملي على السلوك الإسلامي.

مراحل الخطبة

من الأفضل دواماً في الخُطْبِ الدَّعْوِيَّةِ، وخطْبِ التُّصْحِ والإرشاد والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر ولا سيَّما خُطْبَةُ الجمعة، أنْ تُكوْنَ لها ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: المقدّمة العامّة.

المرحلة الثانية: الوَسْطُ الشارح.

المرحلة الثالثة: الخاتمة التلخيصية.

الشرح:

● أما المقدّمة العامّة: فيخسُنُ فيها أنْ تَجْمَعَ أُسُسَ العناصر التي ستدورُ تفصيلاتُ الخُطْبَةِ في وَسْطِهَا حَوْلَهَا، بطريقة لا تُشعرُ بأنَّ الخطيبَ يُعدِّدُ عناوينَ العناصر التي سيشرحها، فيكفي فيها ذِكْرُ كُليّاتِ عامّةٍ تشتمل على هذه العناصر، أو عَرْضُ نُصُوصٍ من القرآن الكريم أو السُنَّةِ المطهّرة تُلمِحُ إليها، أو عَرْضُ مقولاتٍ مشهورات، تحقّق هذه الغاية، ويكون هذا بعد حَمْدِ الله والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة على رسوله محمّد، والسّلام على عباده الذين اصطفى.

● وأما الوَسْطُ الشارح: فينبغي أن يشتمل على شرح وتفصيلٍ مقرونٍ بالإقناع واستمالة العواطف وإثارتها، لعناصر الموضوع المُعدّد للخطبة، مع بيان فروعه وأدلّته وشواهد، واستخدام ما يُؤلّد في الأنفس الاستجابة للتطبيق العملي، من الترغيب والترهيب وضرب الأمثال التاريخية ذات العبر، إلى كلّ ما من شأنه امتلاك الألباب والتأثير فيها، والقبض على نواصي النفوس وتوجيهها وقيادتها.

● وأما الخاتمة التلخيصية: فينبغي أن تشتمل على زُبْدَةٍ مكثفة لما جاء مبسوطاً في الوَسَطِ الشارح، ويُشترطُ فيها أن تكون واضحةً، سهلةَ الحفظِ، والاستذكارِ، والرّواية والتّحديثِ بها بعد الخطبة.

ومن المفروض في هذه الخاتمة التّلخيصية أن تكون صالحةً للامتصاص التخزيني في أفكار المستمعين ونفوسهم، مع تحميلهم مسؤولية التطبيق والتّبلغ، وقد يحسن في غير خطبة الجمعة أخذ العهد منهم على ذلك.

الاستطرداد في أثناء الخطبة:

قد يعرض للخطيب أثناء خطبته أفكاراً استطرديةً مهمّةً، جلبتها مناسبةٌ ما، وقد يراها دون سابق إعدادٍ وتخطيطٍ أهمّ من أصلِ موضوعِ خطبته التي حضّرها ليؤدّي عناصرها.

فإذا رأى أن الجماهير أحوجُ في موقفه إلى ما جرّه إليه الاستطرداد فلا مانع من التركيز عليه، ويُمْكِنُه حينئذٍ أن يتحوّلَ تحوُّلاً غير مستنكر إلى هذا الموضوع الجديد الذي استطرد إليه، ولكنّ مثل هذا لا يُحسِنُه إلاّ نواذرُ الخطباءِ الموهوبين، ذوي الذكاء اللّماح، والفتنة الممتازة، مع واسع علم وثقافة عامّة، وقدرة على التصرف الحكيم البليغ، والتأثير في جمهور المستمعين، بيد أنّه يَحسُنُ أن يُشيرَ إلى أنّه باستطراذه هذا قد خرج عن أصلِ الموضوع لأنّه قد رآه أنفع وأجدى في هذا الموقف من متّابعة أصلِ موضوع خطبته.

وربّما يكون هذا التحوُّلُ بمثابة المفاجأة المثيرة للانتباه والإعجاب، وربّما يكون تأثيرُ عناصر الموضوع الجديد أكثرَ من تأثير عناصر الموضوع الذي كان قد أعدّه لخطبته.

لكن لا ينبغي أن يقومَ بمثل هذا من لا يُحسِنُه، فإذا تولّاه من لا يُحسِنُه

تأه في الشتاتِ الفكري، ووقع في فخ الخروج المذموم عن أصل الموضوع، وهذا من العيوب التي تُحَسَّبُ على الخطيب بدون شك.

- ٥ -

ما يجب التزمه في الخطبة

مع ما سبق بيانه في (الفصل الأول - المنهاج البياني ومسالكه) تدعو الحاجة هنا إلى التنبيه على وجوب التزام ما يلي في الخطبة:

١ - أن يكون لسان الخطيب بالعربية منضبطاً لا لحن فيه، ولا خطأ في تلاوة نصوص القرآن، وألفاظ الأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال الناس المروية كشعر نفيس، وحكمة مشهورة، ومثل سائر.

٢ - التزام الصحة في المرويّات من النصوص والأخبار، واجتناب رواية الأحاديث الموضوعية أو الضعيفة التي لا يصح الاستشهاد بها، والقصص المصنوعة، والخرافات والأساطير التي لم تثبت صحتها، واجتناب الإتيان بمعلومات غير صحيحة في مختلف العلوم الدينية وأدواتها، والعُلوم الكونية الطبيعية والحوادث التاريخية.

٣ - الابتعاد عن الإصرار على حكم ديني اختلفت فيه اجتهادات المذاهب الفقهية المعتمدة لدى جمهور المسلمين.

وحسب الخطيب إذا احتاج أن يذكر الحكم الذي ينص فيه مذهباً معيناً، أن يشير إلى أن هذا هو الأرجح فيما يرى بالنظر إلى ما فهم من الدليل، ويذكر أن بعض فقهاء المذاهب قالوا بخلافه.

فالإصرار على وجهة نظر معينة في المسائل الخلافية أمام جمهور من المسلمين لهم انتماءات مذهبية مختلفة، يولد شقاقاً بين المسلمين لا يرضاه الله ورسوله.

٤ - أن لا تكون الخطبة دائرةً حول أفكار فلسفية صعبة، أو مفاهيم عويصة، لا تستوعبها أفكار جمهور المستمعين.

وعلى الخطيب أن يتذكر دوماً وصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «خاطبوا النَّاسَ على قَدْرِ عُقُولِهِمْ أَتْرِيدُنَّ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!».

٥ - أن يقرن بكليات عناصر موضوعه الذي يخطب حوله الأدلة عليها من القرآن والسنة، وأن يفعل ذلك أيضاً في الفروع ما تيسر له الأمر.

٦ - أن لا يواجه المخالفين في مذاهبهم وآرائهم، لبعض مبادئ الإسلام وشرائعه وأحكامه من حاضري خطبته، باتهامهم بالسفاهة والجهالة وقلة العقل، أو بالتحقير والاستهزاء والسخرية، أو بسوء الطوية وفساد الفطرة، ويجب عليه أن يقتصر على عرض الحق مقترناً بأدلة، فقد يكون فيهم من هو مخدوعٌ مغررٌ به، فإذا سمع شتيمة والسخرية منه نقر وأصر على باطله، وقابل بالمثل أو بأشد منه.

والواجب تليينه وتأنيسه واستمالته وترقيق قلبه، وإيجاد العذر له فيما مضى بأنه لم يجد من يقنعه بالحق، فهذا الأسلوب من شأنه أن يخرج من ظلمات الباطل، ويدخله في أنوار الحق.

٧ - الابتعاد عن غرائب الألفاظ المعجمية التي لا يفهم جمهور المستمعين معناها، وعن كل لفظ فيه تقعر وتقيهُق.

٨ - إذا لم تدع الحاجة الاجتماعية الملحة لتطويل الخطبة فمن الخير تقصيرها ما بين (٢٠ - ٣٠) دقيقة والاستعاضة عن طولها بدروس قبل الخطبة أو بعد الخطبة إن أمكن، فمن السنة عدم إطالة الخطبة.

إعداد الخطبة

الخطيبُ الذي يدعو إلى دين الله، أو يتولّى مهمة الوعظ والإرشاد والتذكير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في مناسباتٍ دوريّةٍ ينبغي له أن يكون على تفكّرٍ باهتمام ما بين الخطبتين، مع مراقبة مستمرة لتطوّرات الأحداث اليوميّة في مجتمعه وفي العالم، ليُحسّن اختيارَ الموضوعِ الذي يكون عمادَ خطبته الآتية، التي يُعالج فيها أولويّاتِ الأمور.

فإذا استقرّ على اختيار الموضوع تفكّر في عناصره، وأدلّته وشواهد، والأمثال التي يضرّبها فيه إذا كان يناسبه ذلك.

وينبغي له أن يستصحب معه ما يُدوّن فيه عنوان الموضوع، وموجزَ خواطره حوله، وما يتصيّد له من أدلّةٍ وشواهد وأمثال.

وينبغي له أن يكون كثير القراءة والاطلاع على الكتب المعاصرة النافعة، والمقالات والمحاضرات المكتوبة بأقلام كبار رجال الدّعوة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذين يحسنون متابعَةَ الأوضاع المعاصرة، ومعالجتها بحكمة، مع تزوّده المستمرّ من كتُب التراث الموسّعة لعلماء المسلمين الذين لهم نفسُ بيانيّ دعويّ وإرشاديّ طويلٌ في تفسير كتاب الله، أو شرح أحاديث رسول الله، وبسط الوصايا والنصائح التوجيهيّة لفضائل الأخلاق ومَحاسِن السلوك الإسلاميّ، والترغيب في التزام أحكام الدّين، والترهيب من مخالفتها.

وينبغي له لدى اختياره موضوعه أن يهتمّ بالتركيز على ما هو أولى بالتأسيس أو التثبيت أو الحثّ على التطبيق من أصول الدّين وفروعه، وأن تكون خطبته من واقع الحياة وما يدور فيها، وما يحيط بالناس من ملاسبات ومستجدات، وأن يهتم بالبحث عن العلاج النافع من مفاهيم القرآن والسنة.

وَلِيَحْذَرُ أَنْ يَجْعَلَ مَوْضِعَهُ كُلَّهُ دَائِرًا حَوْلَ صَغِيرَةٍ مِنَ الصَّغَائِرِ، مَعَ أَنْ
مَعْظَمَ جُمْهُورِ مُسْتَمْعِيهِ يَحْتَاجُونَ إِلَى حُتْمِهِ عَلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ الْعَظْمَى،
وَاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، فَمِرَاعَةُ التَّدْرِجِ فِي سُلْمِ الْأَوْلِيَّاتِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِلدَّاعِيَةِ،
وَلِلْوَاعِظِ الْمَذْكَرِ الْمُرْشِدِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ لِكُلِّ خُطْبَةٍ مِنْ خُطْبِهِ مَوْضِعًا مَنَاسِبًا تَدُورُ حَوْلَهُ.

فَمِنْ أَمْثَلَةِ مَوْضُوعَاتِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ: (آيَاتُ اللَّهِ فِي الْكُونِ - آيَاتُ اللَّهِ
فِي الْأَنْفُسِ - دَعْوَةُ جَمِيعِ رُسُلِ اللَّهِ إِلَى التَّوْحِيدِ - قِصَّةٌ مِنْ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ - إِعْجَازُ الْقُرْآنِ وَلَا سِيَّمَا مَا فِيهِ مِنْ إِعْجَازٍ عِلْمِيٍّ - أُسُسُ
الْإِسْلَامِ الْاِعْتِقَادِيَّةِ - أُسُسُ الْإِسْلَامِ الْأَخْلَاقِيَّةِ - أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعُهُ
الْقَائِمَةُ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَإِنصَافِ الْمَظْلُومِينَ - تَحْرِيرُ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ
إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ - اِهْتِمَامُ الْإِسْلَامِ بِإِصْلَاحِ الْمَجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ وَسَعَادَتِهَا -
رَحْمَتُهُ بِالنَّاسِ أَجْمَعِينَ - كَوْنُ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ - كَوْنُ رِسَالَتِهِ
عَامَّةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ - أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُكْرَهُ أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِي الدِّينِ، لَكِنْ
يُنذِرُ مَنْ أَبِيْ بَعْدَ خَالِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بَعْدَ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي دَارِ الْعَذَابِ
الْأَلِيمِ، وَيُبَشِّرُ مَنْ آمَنَ وَاتَّبَعَ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْفَوْزِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ . . .) إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ الدَّعْوِيَّةِ.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ مَوْضُوعَاتِ النَّصِيحِ وَالْإِرْشَادِ وَالتَّذْكِيرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ (الْإِيمَانُ وَأَرْكَانُهُ - الْإِسْلَامُ وَأَرْكَانُهُ - التَّقْوَى مَفْهُومُهَا
وَعِنَاصِرُهَا - الْكُفْرُ وَالْمُكْفَرَاتُ وَعِقَابُ الْكَافِرِينَ الْمَعْجَلِّ وَالْمَوْجَلِّ - النِّفَاقُ
وَصِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ وَعَاقِبَتُهُمْ - الصَّلَاةُ وَقِيَمَتُهَا وَحِكْمَتُهَا وَكَوْنُهَا عِمَادَ الدِّينِ -
الزَّكَاةُ وَأَهْمِيَّتُهَا وَحِكْمَتُهَا وَعِنَاصِرُهَا وَعَقُوبَاتُ تَارِكِيهَا - الصِّيَامُ وَفَضَائِلُهُ
وَمَنْزِلَتُهُ فِي الدِّينِ وَأَثَارُهُ فِي النَّفْسِ وَالْمَجْتَمَعِ - الْحَجُّ وَفَضَائِلُهُ وَمَنْزِلَتُهُ
وَحِكْمَتُهُ - أَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَعَقُوبَتُهُ الْمَعْجَلَةُ وَالْمَوْجَلَةُ - الرِّبَا

وعقوبة مرتكبيه - الزنا ومخاطره وعقوباته - عمل قوم لوط ومخاطره وعقوبته - الصدق - الأمانة - العفة - الجرأة الأدبية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - الجهاد في سبيل الله بالأنفس وبالأموال - الصدقات وفضائلها - حُسنُ تربية البنين والبنات ومسؤوليات الآباء والأمهات نحوهم - المشاركة في أعمال الخير - الذكر والدعاء وقيمتُهما وفضائلهما - حُسنُ المعاشرة بين الزوجين وحقوق كلٍّ منهما وواجباته تجاه الآخر وتجاه ذريتهما وضرورة بناء الأسرة المسلمة...) إلى غير ذلك من فيض موضوعات إسلامية في أصول الدين وفروعه الأخلاقية والتعبديّة والتعاملية مع المسلمين ومع غيرهم من خلق الله .

وينبغي لمن يَحْمِلُ مُهَمَّةَ الخطابة ولكلِّ داعٍ إلى الله أو ناصحٍ مذكّرٍ مرشدٍ أمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من فئة المتخصّصين، أن يتخذ لنفسه معجماً مفهرساً، يُدَوّن فيه بالتتابع مع مرور الزمن كُلَّ عنوانٍ لموضوع من الموضوعات التي تخدمه في أداء رسالته، فكَلِّمًا قرأ في كتابٍ من الكتب المناسبة لرسالته بحثاً، أو مقالة، أو حديثاً، أو قصة، أو مثلاً أو عبرة أو كلاماً منمّقاً نفسياً، أو شعراً جيداً، سجّل في معجمه الخاصّ عنوان هذا الموضوع الذي أعجبه مما يناسب رسالته، في الحرف الذي هو تابع له، ويُدَوّن في صحيفة هذا العنوان ما يلي:

١ - يُرْجَع للاستفادة إلى كتاب كذا في صفحة كذا فيذكر اسم الكتاب ورقم الصفحة، أو إلى مجلة كذا أو صحيفة كذا، ويذكر رقم العدد ورقم الصفحة، ويحتفظ عنده بنسخة من ذلك .

ثمّ كَلِّمًا قرأ بحثاً آخر حولَ الموضوع نفسه أضافه إلى صفحة الموضوع برقم جديد كما يلي:

٢ - ويُرجع إلى كتاب أو مجلة أو صحيفة... في صفحة... وكذلك يفعل في الآيات والأحاديث النبوية والشواهد التاريخية، مشيراً

إلى السورة ورقم الآية، وإلى الحديث ومكان وجوده في كتب الحديث وشروحها^(١).

وَيُنَبِّحِي لِمَنْ يُعِدُّ نَفْسَهُ لِأَنْ يَكُونَ خَطِيباً مُؤَثِّراً فِي جَمَاهِيرِهِ، وَقَادِراً عَلَى الْارْتِجَالِ وَإِلْقَاءِ خُطْبَتِهِ إِلْقَاءً، دُونَ أَنْ يَقْرَأَهَا مِنْ وَرَقَةٍ، أَنْ يَبْدَأَ رِحْلَتَهُ بِأَنْ يَكْتُبَ خُطْبَتَهُ كَامِلَةً، فَإِنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ الْإِسْتِطَاعَةَ وَالْجَرَأَةَ عَلَى أَنْ يُمْلِيَهَا ارْتِجَالاً فَلْيَفْعَلْ عَلَى سَبِيلِ تَدْرِيْبٍ نَفْسَهُ فِي جُمْهُورٍ يَتَقَبَّلُ مِنْهُ الْعَثْرَاتُ، وَلَا يُحَاسِبُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَيْهَا. وَإِذَا لَمْ يَتَجَرَّأْ عَلَى ذَلِكَ فَلْيَقْرَأْهَا مِنَ الْوَرَقَةِ، بَعْدَ أَنْ يَضَعُ عُنَاصِرَهَا فِي ذَاكِرَتِهِ، وَلِيَكْرَرَ قِرَاءَتَهَا فِي جَمَاهِيرٍ مُخْتَلِفَةٍ، ثُمَّ يَدْرِبُ نَفْسَهُ عَلَى إِقَائِهَا ارْتِجَالاً.

ثُمَّ يَكْتُبُ خُطْبَةَ أُخْرَى وَيَكْرُرُ الْعَمَلِيَةَ الْأُولَى، ثُمَّ خُطْبَةَ ثَالِثَةٍ، وَرَابِعَةٍ، وَخَامِسَةٍ، وَهَكَذَا حَتَّى تَتَجَمَّعَ لَدَيْهِ عَشْرَاتُ الْخُطَبِ أَوْ مِائَتَاهَا، وَفِي كُلِّ خُطْبَةٍ يَدْرِبُ نَفْسَهُ عَلَى قِرَاءَةِ الْخُطْبَةِ مِنَ الْوَرَقَةِ، وَإِقَائِهَا ارْتِجَالاً مِنَ الذَّاكِرَةِ مُسْتَعِيناً بِمَذَكَّرَةٍ يَسْجَلُ فِيهَا عُنَاصِرَ الْمَوْضُوعِ، وَالنُّصُوصِ الَّتِي يَسْتَشْهَدُ بِهَا، أَوْ مَقْدِمَاتِ النُّصُوصِ إِذَا كَانَتْ مَحْفُوظَةً لَدَيْهِ.

إِنَّهُ بَعْدَ مَدَّةٍ تَطْوُلُ أَوْ تَقْصُرُ سَيَجِدُ نَفْسَهُ قَادِراً عَلَى أَنْ يَرْتَجِلَ خُطْبَةَ كَامِلَةً، مُسْتَعِيناً فِيهَا مَا سَبَقَ أَنْ سَجَّلَهُ فِي أَوْرَاقِهِ الْمَكْتُوبَةِ، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَوْهُوبِينَ بِفَطْرَتِهِ أَنْ يَكُونَ خَطِيباً، فَإِنَّهُ سَيَكْتَسِبُ بِعَوْنِ اللَّهِ مَلَكَةَ الْإِلْقَاءِ الْارْتِجَالِيِّ بِالْتَدْرِجِ، وَلَوْ فَوْجِيءً بِالذَّعْوَةِ إِلَى أَنْ يَخْطُبَ بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ خُطْبَةَ لَمْ يُعِدَّ لَهَا سَابِقاً.

حَتَّى إِذَا اكْتَسَبَ مَلَكَةَ الْارْتِجَالِ الْمَوْفُوقِ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ دَائِمَ الْمَرَاجِعَةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالْإِطْلَاعِ، وَالْإِضَافَةِ إِلَى مَخْزُونَاتِ ذَاكِرَتِهِ، وَإِلَى مَعْجَمِهِ

(١) لو اهتمت إلى هذه الطريقة منذ بداية رحلتي العلمية لوفرت على نفسي جهداً عظيماً، ولكن من الممكن صرفه في الإنتاج.

المفهرس، وأن يُواظب على كتابة خُطبه، ولو لم يقرأها من أوراقه، فإنها ستكون له عوناً وزاداً دائماً يعطيه ثراءً جديداً من المعرفة، ثم تكون مرجعاً مفيداً له ولغيره من الذين يُعدّون أنفسهم ليكونوا خطباء.

* * *

- ٧ -

هل الخطابة استعداد فطري أم ملكة تكتسب؟

اتَّفَق الباحثون على أن القُدرة على الخطابة الارتجالية، هي في الأصل استعدادٌ فطري، وهذا الاستعداد ينمو بالعلم والممارسة، ولكلّ ذي استعدادٍ نصيبٌ من الارتقاء في سلّم الخطباء الموهوبين بالممارسة والمِران، حتّى يصل إلى الدرجة التي يمكن أن يرتقي إليها استعدادُه الفطري، وهنا لا بُدّ أن يتفاوت الخطباء في مراتبهم، كسائر الاستعدادات الفطرية في الناس.

وبعض الناس ضعيفُ الاستعداد الفطريّ لأن يكون خطيباً مفوّهاً، ولكن بإمكانه أن يُدرّب نفسه، حتّى يصل إلى درجةٍ تَصُلح لجمهور يُناسِب ما وصل إليه، فيُسْتَفاد منه في حدود هذا الجمهور وأشباهه.

أمّا إذا كان كثير العثرات على الرُّغم من طول الممارسة، فمن الخير له دواماً، أن يعتمد على قراءة خطبته المكتوبة، من إنشائه، أو ممّا نقل من كلام أساطين الخطباء والكتّاب المعاصرين أو غيرهم.

* * *

- ٨ -

الصفات المفضلة للخطيب عند الخطبة

ينبغي للخطيب أن يتحلّى بالصفات التالية عند خطبته:

١ - أن يكون وقوراً حَسَنَ الهيئة في زيِّ يُشعرُ بالمهابة.

٢ - أن يخطب وهو واقف .

٣ - أن يختار مكاناً مُشرفاً مناسباً يراه فيه جميع جمهور المستمعين أو أكثرهم، ولا يُشترط أن يكون المكان مُشرفاً بالنسبة إلى خطيب المحافل التي لا يوجد فيها مكان مشرف، ويكتفي بالوقوف في مكان مشهود .

٤ - أن لا يكون جامداً جمود الوثن الذي لا تتحرك منه إلا شفتاه، وأن لا تكون حركاته دالةً على خفته وطيشه، بل يكون رزيناً رصيناً، مُتدفق الحيوية تدلُّ حركاته الرزينة على كمال عقله وحسن مخاطبته لجمهوره،

٥ - من براعته أن تكون إشاراته في حركات يديه وقسمات وجهه مشاركةً لكلماته في التعبير عن مراداته، وأن تكون بمثابة وسائل إيضاح تعليمية لا إسراف فيها، وأن لا يوجد فيها ما لا يليق بوقار الخطيب ومهمته رسالته .

ومن الإشارات الوقورة البارعة ما جاء في قول الرسول ﷺ، فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ» .

وأشار الرسول بأصبعيه السبابة والوسطى، وفيما رواه البخاري أيضاً عن سهل: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى وفرَّج بينهما. ومنها ما رواه الطبري بسنده عن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال: «هكذا بأصبعه» ووضع النبي ﷺ أصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر: «فَسَاخَ الْجَبَلُ» .

فدلَّت هذه الإشارة على مقدار التجلي من الربِّ جلَّ وعلا الذي ساخ به الجبل .

٦ - أن يُعطي من نظراته وتوجُّهه وعنايته كلَّ جمهورٍ مستمعيه، ويخصُّ أن يخصَّ الشيوخ الكبار والفتيان الصغار بتوجُّهٍ مقصود، ففي توجُّهه لكبار السنِّ تكريمٌ له أثارٌ حميدة، وفي توجُّهه للفتيان والصغار إيناسٌ يربطهم بالدين ويرغبهم فيه .

زخرفيات الخطبة بصفة عامة

الخطبة المؤثرة التي تَسْتَحُوذُ على مشاعر المستمعين هي التي تجمع طائفة ذات تأثير على الأفكار والنفوس من الزخرفيات البيانية اللفظية والفكرية المتنوعة، ومنها ما يلي:

١ - سهولة تناول أفكار الموضوع وسهولة الاقتناع بها.
٢ - جمال الأسلوب البياني وحلاوته في الخطبة، مع اشتغالها على جماليات بلاغية غير متكلفة، مما كشفت عنه فنون البلاغة العربية ليشعر المستمع بلذّة الأصغاء والمتابعة.

٣ - التلاؤم بين الكلمات المختارة والأفكار الدالة عليها.
٤ - التلاؤم بين الصّوت ونبراته ونغمته وقوّته وضعفه، ولينه وقسوته، وبين المعنى الذي يؤدّيه القول ويُدلُّ عليه.

فلكلّ صنف من المعاني ما يلائمه من صوت ونبرة، ونغمة، وقوة وضعف، ولين وقسوة، إلى غير ذلك.

ومن أصناف المعاني ما يلي: (التشويق لمحجوب - التحزين على عزيز - الترغيب في خير ذي فائدة ونفع - التخويف من مكروه أو مصيبة أو شرّ فيه خسارة وضرّ - التشجيع على بذل وتضحية - التجبّب والتودّد والتأنيس - الدُعاء والاستجداء بتدلّل وخضوع...) إلى غير ذلك من صنوف المعاني.

ومعلوم أنّ إدراك الفروق ووضع كلّ صنف من الأصوات وصفاتها مع ما يلائمه من المعاني يتطلب دَوْقاً سمعياً جيداً، وممارسة طويلة يراقب فيها الخطيب بذكاء لِمَاحِ رُدُودِ أفعالِ المستمعين، ومدى تأثرهم واستجاباتهم، أو بُروءهم وانصرافهم عنه بأجسادهم أو بأفكارهم ونفوسهم.

٥ - استجماع الخطبة لمُنْتَقِيَاتٍ من طرائف ودُرَرٍ جميلةٍ نفيسةٍ من النوادر والأفكار والأقوال التي تَمْتَلِكُ إعجاب المستمعين، من نثر أو شعر.

٦ - الاستشهاد بنماذج مناسبة لموضوع الخطبة من القصص والأخبار الثابتة التي تستميل الأفكار والنفوس للإصغاء والتأثر.

زائد خرفيات الخطبة في موضوع من الموضوعات الدينية:

أما الخطبة في موضوع من الموضوعات الدينية، فلها مع الزخرفيات السابقة زخرفياتٌ زائدةٌ خاصةٌ بها، ومنها ما يلي:

٧ - تدعيم أفكار الخطبة بنصوص ملائمة من القرآن الكريم، تقع في صلب الموضوع، أو تلتقي معه بمناسبةٍ قويةٍ.

إذا شَرِحَتْ هذه النصوص شرحاً بارعاً يَكْشِفُ صِلَتَهَا بالموضوع، كان هذا أعظم تأثيراً وامتلاكاً للقلوب والنفوس.

٨ - تدعيم الخطبة بمختارات من الحديث النبوي الشريف، وبصُورٍ من السيرة النبوية، وقصص الأنبياء.

٩ - التزيين بمختاراتٍ من أقوال كبار الصحابة والتابعين ومواعظهم.

١٠ - التزيين بمختاراتٍ مُلائِمَاتٍ من الحِكَمِ المأثورة، والأمثال المشهورة.

١١ - التزيين بمَقَلَّدَاتٍ من عُيُونِ شِعْرِ كِبَارِ الشُّعْرَاءِ، مما يشتمل على حكمة أو موعظة.

١٢ - عرض نماذج من سِيرِ الصحابة، وفضلاء التابعين والعلماء والصُلَحَاءِ، وأبطال المسلمين، وقادة الفتح الإسلامي.

فلمثل هذا العرض تأثيرٌ قويٌّ في النفوس، لما فيه من تقديم صُورٍ من

حياة مَنْ هُمْ القدوةُ الحسنَةُ لجماهير المسلمين .

١٣ - البراعة في إفهام مَسَائِلِ الدِّين، ومعاني النصوص، بأسلوبٍ سَهْلٍ مُيسِّرٍ مُستَساغٍ، لا تعقيد فيه ولا غُمُوضٍ، وليس فيه التزام، بمصطلحاتٍ علميةٍ .

١٤ - بيّانُ الحِكمِ التشريعية التي تشتمل عليها تطبيقاتُ أحكامِ الدين وتعليماته، وما فيها من تحقيقٍ لمصالح العباد وسعادتهم، في الدنيا دار الابتلاء، ثمَّ في الآخرة دار الجزاء .

* * *

- ١٠ -

عيوب الخطبة

تنقسم عيوب الخطبة إلى عيوبٍ في شكل الأداء، وإلى عيوبٍ في المضمون الفكري :

أولاً - بيان العيوب التي تكون في شكل الأداء :

١ - كثرة اللَّحن في الكلام العربي الفصيح، والخطأ في تلاوة أو قراءة النصوص من القرآن والسنة وغيرهما .

٢ - الركَاكَةُ وسوءُ التعبير عن الأفكار، والتلعثمُ الكثير في الكلام .

٣ - التدفُّقُ السَّريعُ كشلالٍ يَنحدرُ من الأعلى بقوة، فيراه النظَّارةُ مشهداً مُثيراً للدهشة، ذا حركات متكررات أو متشابهات، إلَّا أنَّهم لا يستطيعون الاقترابَ منه للشرب المريع، الذي يُروي الظماء، ويملأ البطونَ بعذبِ الماء، فلا يروِّقُهُمُ منه إلَّا المنظر الجميل المريح .

٤ - البرودُ الذي يُورثُ نَوْمَ المستمعين، إذ يكون حالُهُمُ معَهُ كحال من

يجلسُ في غرفة باردة رَطْبِيَّةٍ مظلمة تجلُبُ الكَسَلَ فالنوم.

٥ - الصياحُ الشديدُ الذي يُؤذي الأسماع، إذ يتجاوز الحدَّ المقبول، ولا سيما إذا كان من صوت ذي نكارةٍ بخشونته، أو قَلَقَلْتِهِ وارتجاجه، أو حَدَّتِهِ الجارحة كالشفرة، أو الواخِزَةِ كالإبْرَةِ.

٦ - الوتيرة الواحدة في الأداء على نمط رَتِيبٍ متماثل، يتجمَّع حَشْدًا، وَيَتَعاقَبُ سَرْدًا.

٧ - اهتمام الخطيب بالتوجُّه لبعض الحاضرين، دون إعطاء الباقين حقهم من الاهتمام.

ثانياً - بيان العيوب التي تكون في المضمون الفكري:

١ - الإيجاز المُخِلَّ، والتطويلُ المُملِّ.

٢ - التَّنَوُّع غير المترابط في الأفكار، الذي لا يسير على وفق نظام الترابط الشجري، بل تأتي الأفكار فيه أكواماً غير متناسقة ولا متلائمة، كمن يقبضُ من كلِّ محلِّ تجاريٍّ في السوق قبضةً أو قطعةً، ثُمَّ يَنْثُرُها على جمهوره نثراً عشوائياً.

٣ - أن تُورثَ الخطبةُ المللَ والسَّامَ، بِسَبَبِ الجَهْدِ في فَهْمِ أفكارها، أو الغموضِ في معانيها لكثرة ما فيها من تَوْرِيَّاتٍ وإيماءات رمزية بعيدة عن الأفهام، أو لغرابة ألفاظها، والتعقيد في تراكيبها، أو لغير ذلك.

٤ - اشتغال الخطبة على مثيراتٍ مشاعرٍ الاشمئزازِ والتقرُّزِ والغضب. سِوَاءَ أكان ذلك من ألفاظها القبيحة المعاني، أم من معانيها القاسية المُرَّة، التي لم تُغَلَّفْ بما يُطَرِّبُها، أَوْ يَجْعَلُها - ولو في الظاهر - حلوة المذاقٍ مستساغةً في البلع.

٥ - اختيار موضوعٍ غيرٍ ملائم، كاختيار موضوع من الموضوعات التي

ليس لها في الحياة المعاصرة صلة بالناس، كبحث أحكام الرقيق وعِتق الأرقاء، وشغل الخطبة به، في عصر اصطلحت فيه دَوْلُ العالم على إلغاء الرقيق، وكتفصيل أحكام زكاة الإبل المقتناة، في جمهور لا يعرف اقتناء الإبل.

٦ - تَضَمَّنُ الخطبة ما يَدُلُّ على أَنَّ للخطيب مَصَالِحَ خاصة من خطبته، لشخصه، أو لجماعته، أو للشريحة الاجتماعية التي هو منها.

٧ - الإغراق في بحثٍ علميٍّ تخصصيٍّ.

٨ - تشعُّبُ موضوع الخطبة تشعُّباً يَضَعُ على المستمع ربط عناصره بخطوط موضوعه الأساسي الذي يُعالجُ ربط عناصره بخطوط موضوعه الأساسي الذي يُعالجُ فيها.

٩ - توجيهُ الاهتمام لصغائر الأمور، وجعلها محور الموضوع، فصغائر الأمور لا يَحْسُنُ أن تأتي إلّا عرضاً، وضمن المناسبات التي تدعو إلى ذكرها، وبصورة خفيفة لا يَشْتَدُّ التركيزُ عليها.

١٠ - التكرار المملّ، والدوران في الأفكار، كالخط الذي يدور عائداً إلى بعض الدوائر السابقة فيخترقها ويرجعُ كلِّما تقدَّم خطوةً إلى الأمام.

فبعضُ الخطباءِ والكتّابِ تراه يتقدَّم في الأفكار إلى الأمام، ثم يرجع فيستأنف من بعض المراحل الفكرية التي قطعها من قبل، ويكرِّرها، فإذا وصلَ إلى ما انتهى إليه زاد بعض الأفكار، ثُمَّ عاد فاستأنف من بعض المراحل السابقة، وهكذا دواليك.

* * *

الخطيب وجمهوره

ينبغي أن لا يكون الخطيبُ مكروهاً لدى جمهور مُسْتَمِعِيهِ، أو غير محترم لديهم، أو غير موثوق به علماً أو خلقاً أو سلوكاً.

فإذا كان كذلك فَعَلَيْهِ أَنْ يُمَهِّدَ بِمُخْتَلَفِ الْوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ حَتَّى يُكَوْنَ مَقْبُولاً لَدَيْهِمْ وَمُحْتَرِماً وَمَوْثُوقاً بِهِ، وَقَدْ يَحْتَاجُ هَذَا إِلَى مَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَقَدْ يُضْطَرُّ أَنْ يُوَجِّهَ نَشَاطَهُ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى يُقْبَلُ لَدَى أَهْلِهَا، حَتَّى إِذَا ذَاعَ صَيْتُهُ أَمْكَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ انْتِشَارٌ عَامٌ.

* * *

أمثلة من خطب الأُسُوةِ الحسنة

المثال الأول:

خطبة نبوية قصيرة دعت إليها مناسبة
(المناسبة)

عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال:

كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ قَوْمٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ^(١)، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ^(٢)، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا رَأَى فِيهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ^(٣)، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِبِلَالٍ فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ:

(١) مجتابي النمار: أي مقطعي الثياب. النمار: ثياب من صوف يلبسها الأعراب.

(٢) مضر: قبيلة عربية تنسب إلى مضر بن نزار بن معد.

(٣) تمعر: أي: تغير لونه. الفاقة: الفقر والحاجة.

(مقدمة الخطبة)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَجَدَكُمْ لَهَا رُحْمًا وَأَنْتُمْ كَمَا كُنْتُمْ يَوْمَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء / ٤)

(النساء / ٤)

والآية التي في الحشر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحشر / ٥٩)

(الحشر / ٥٩)

(الخطبة الموجزة)

«تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

(أثر الخطبة)

قال: فجاء رجلٌ من الأنصارِ بصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعَجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ.

قال: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ^(١).

(مرحلة المتابعة بعد الخطبة)

فقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَنَّ فِي الْأِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

(رواه مسلم)

(١) يتهلل: يستنير ويتلألأ. كأنه مذهبة: أي: كأنه فضة مموهة بالذهب.

فاشتملت هذه الخطبة على المقدمة، وفي أغلب الظن أن الرسول قد حمد الله وأثنى عليه كما هو عادته، وإن لم يأت هذا في رواية الحديث، والمقدمة هي تلاوة آيتين لهما علاقة بموضوع الخطبة، وهو الحث على البذل لهؤلاء الفقراء من الأعراب.

وبعدها جاءت الخطبة موجزة جداً فلم تحتج إلى خاتمة تلخيصية. وكان من أثر الخطبة التطبيق العملي بالبذل.

ثم استفاد الرسول من سبق السابقين إلى البذل فعلق عليه ببيان أصل من أصول الجزاء، لمن سن سنة حسنة، ولمن سن سنة سيئة.

المثال الثاني:

خطبة نبوية قصيرة دعت إليها مناسبة

(المناسبة)

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن قریشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ؟ فكلّم رسول الله ﷺ، فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟!!

(الخطبة الموجزة)

ثم قام فخطب فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ (١)، لَوْ أَنَّ

(١) وإيّم الله: قسم، أصلها: أيمن الله، همزته في الأصل للقطع، ثم أصبحت بكثرة الاستعمال همزة وصل.

فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا» .

وجاء في رواية: ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقُطِعَتْ يَدُهَا .

المثال الثالث:

خطبة الرسول ﷺ يوم النحر

روى البخاري ومسلم عن أبي بكر رضي الله عنه قال: خَطَبَنَا رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ:

«إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ، ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمِ، وَرَجَبٌ مُضَرَّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ» .

وَقَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» .

قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ .

فَقَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟»

قُلْنَا: بَلَى .

قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» .

قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ .

قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدَةَ؟» .

قُلْنَا: بَلَى .

قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» .

قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ .

قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» .

قلنا: بلى .

قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا.

وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ .

أَلَا هَلْ بَلَّغْتُمْ؟» .

قالوا: نعم .

قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» .

هذه خطبة عجيبة بما فيها من طرَح أسئلة حول الشهر والبلد واليوم، لإعداد النفوس إعداداً تَسْتَشْعِرُ به عظمة حُرْمَتِهَا، حَتَّى إِذَا تَمَّ إِعْدَادُهَا، أَبَانَ الرَّسُولُ ﷺ حُرْمَةَ الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ، وَخَوْفَهُمْ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ وَسْؤَالِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، وَبَعْدُ أَخَذَ اعْتِرَافَهُمْ بِأَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِالتَّبْلِيغِ .

المثال الرابع:

مقطع من خطبة طويلة للرسول ﷺ

روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: صَلَّى بِنَا النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ، ثُمَّ قَامَ خَطِيْبًا، فَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ:

«إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَتَاطَرُّ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» .

أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ
بِحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ.

أَلَا إِنَّهُ يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ غُدْرَتِهِ، وَلَا غُدْرَةَ أَعْظَمَ
مِنْ غُدْرَةِ إِمَامٍ عَامَّةٍ.

أَلَا إِنَّ الْعُضْبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ حُمْرَةَ عَيْنَيْهِ، وَانْتِفَاحَ
أُودَاجِهِ، فَمَنْ أَحْسَسَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصِقْ بِالْأَرْضِ».

فواتح خطب الرسول ﷺ:

قال ابن قتيبة^(١): (تَبَعْتُ خُطْبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فوجدت أوائل أكثرها:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ: نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنُؤْمِنُ بِهِ، وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ
إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ،
وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

ووجدت في بعضها:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْتُكُمُ عَلَى طَاعَتِهِ».

ووجدت كلَّ خُطْبَةٍ مفتاحها: الحمد، إلا خطبة العيد، فإنَّ مفتاحها
التكبير، وتكبير الإمام قبل أن ينزل أربع عشرة تكبيرة) اهـ.

المثال الخامس:

خطبة لسيد الأنصار سعد بن مُعَاذِ قَبِيلِ

المعركة في غَزْوَةِ بَدْرِ الْكَبْرَى

لَمَّا عَلِمَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَمَا خَرَجَ بِالْمُسْلِمِينَ لِمَصَادَرَةِ قَافِلَةِ قَرِيشٍ، أَنَّ
أَبَا سَفْيَانَ تَحَوَّلَ بِالْقَافِلَةِ عَنْ خَطِّ سِيرِهَا وَنَجَا بِهَا، وَعَلِمَ أَنَّ جَيْشَ قَرِيشٍ قَدْ

(١) في كتابه «عيون الأخبار» (٢/ ٢٣١) عن كتاب الخطابة . اد . محمود عمارة
ص ٢٠١.

خرج مقاتلاً بَعْدَ وَعْدَةٍ، اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ وَأَحْسَنَ الْقَوْلَ،
وَأَعْلَنَ الْاسْتِعْدَادَ لِمُوجَهَةِ الْعَدُوِّ وَمِقَاتِلَتَهُ، إِذَا رَأَى الرَّسُولَ ﷺ ذَلِكَ .

ثم قام عمر فقال وأحسن القول. ثم قام المقدادُ بنُ عمرو، فأحسن
المقال بشجاعة وصدق.

وهؤلاء كلهم مهاجرون، والرسول ﷺ يريد أن يسمع من الأنصار،
فقال: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ» .

فقال له سعدُ بنُ مُعَاذٍ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ»
فَقَامَ سَعْدٌ فَأَلْقَى خُطْبَةً مُوجِزَةً رَائِعَةً:

قَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ
عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَائِقَنَا، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَاْمُنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا
أَرَدْتَ، فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ
فَنَخَضْتَهُ لَخَضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا
غَدًا.

إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللَّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقْرُبُ بِهِ
عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ).

ولسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه روائعُ خُطَبٍ يَحْسُنُ الْإِطْلَاعُ
عَلَيْهَا، وَالِاسْتِفَادَةُ مِنْهَا.

* * *

المثال السادس:

خطبة موجزة للحسن البصري

كان الحسن البصري إماماً حكيماً قوي التأثير في مستمعيه، ومن خطبه
الوجيزة في الموعدة الحسنة قوله:

(يَا ابْنَ آدَمَ، طَا الْأَرْضُ بِقَدَمِكَ، فَإِنَّهَا عَمَّا قَلِيلٍ قَبْرُكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ

تَزَلْ فِي هَذِمِ عُمْرِكَ مُذْ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمَّكَ، فَرَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا نَظَرَ فَتَفَكَّرَ،
وَتَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ^(١).

- ١٣ -

انتكاسة في تاريخ الخطب المنبرية

مرَّ عصرٌ في تاريخ الخطب المنبرية قلَّ فيه العلم، وجمدَ فيه خطباء المنابر على نماذج تقليدية، وصار الخطباء المؤهلون لأداء خطبة مؤثرة نافعة نادرين جدًّا، حتَّى كاد المسلمون لا يجدون لمئة منبر من منابرهم خطيباً صالحاً لأداء خطبة مؤثرة نافعة، تُحرِّك مشاعرهم، وتوجِّههم توجيهاً فاعلاً لأداء الواجبات، وترك المحرمات، وفعل الخيرات والمبرات.

وصار أشباه الأئمين هم خطباء الجمعة والعيدين، وانصرف علماء العلوم الإسلامية عن اكتساب ملكة الخطابة، إلى حفظ مسائل العلوم من خلال متون مختصرة جدًّا تُبعدُ حفاظها عن التعبير عنها بعبارات مبسوطة يُنشئونها من عند أنفسهم.

واضطر هؤلاء وهؤلاء إلى الاعتماد على خطب مكتوبة أخذت طريقها إلى المطابع فيما بعد، وهي بعدد خطب الجمع والعيدين في السنة، وقد راعى مُنشئوها في ترتيبها مناسباتها، وأنشئوها على نظام السجع في جملي متكلفة، لا تشبع حاجة فكرية ولا حاجة نفسية، ولا تثير عاطفة.

حتَّى حفظ بعض المواظبين على حضور خطب الجمع موضوع

(١) عن (الخطابة) للدكتور محمود عمارة ص ١٧٧.

خطبة الأسبوع وبعض عباراتها، وبذلك فقدت الخطب المنبرية أهدافها، وصار بعضُ خطباء الجمعة والعيديين محلَّ سُخريةٍ الساخرين، وهزاء المستهزئين من الأدباء وذوي الفكر.

والسبب في هذا عمومُ الجهل، وعدمُ إعداد من يصلحُ لأداء هذه الوظيفة الجليلة من وظائف الأمة الإسلامية.

أما الآن فقد صلح بحمد الله حال كثير من خطباء المنابر على وجه العموم، مع أنه لا يزال بحاجة إلى تحسين وتجويد كثيرين.

* * *

الوسيلة الثانية

الدّرس

- ١ -

بيان عام

الدرس: فنّ من فنون الأداء البياني، للعتاء العلمى المتقاطر، فى عملية بناء معرفي متدرج، وللتوجيه الإرشادي الحكيم والنصح الهادي المتدرج، الذي يسري إلى عمق النفس برفق، كما يسري النسيم العليل بعناصره إلى كل خلايا الجسم عن طريق التنفس.

والدرس أهم وأخطر وسائل التعليم والتربية، ولا تشترط فيه جلسة خاصة في مسجد أو غيره، بل يصاحب الحياة، في الإقامة والسفر، والبدو والحضر، وفي المجالس الخاصة، وفي اللقاءات العابرات، وفي مركبة، وعلى ظهر دابة، وفي السجن، وعند البيع والشراء، وعند إجراء أي عقد بين طرفين، وداخل الأسرة، وفي رحلات النزهة، ورحلات الاطلاع على الآثار وفي كل لقاء بين قادر على عطاء تعليمي أو نصحي أو إرشادي، ومستعد لتقبل بيان ما حول شيء من ذلك.

ولقد كانت حياة الرسول محمد ﷺ وحياة النبيين من قبله في معظمها دروساً تعليمية وتوجيهية إرشادية تربوية، باستثناء مواقف خطب الإثارة لأمر مهم.

فمعظمُ أحاديث الرسول ﷺ القولية مقتبسةٌ من دروسه، وقد أخذ أئمة علماء المسلمين ومرشديهم ووعاظهم منهج الرسول ﷺ في دروسه التعليمية والتوجيهية الإرشادية والتربوية.

فلقد كانت الدروس النبوية دروس تعليم وتوجيه وإرشادٍ وموعظة حسنة، وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، وكانت على الدوام مصحوبة بتربية فكرية، ونفسية، وخُلُقِيَّة، وسلوكية، مع حركة حياة الرسول ﷺ، وحياة أصحابه من حوله.

وعلى هذه السُنَّةِ درج علماء المسلمين ومرشدهم ووعاظهم ومرتبوهم، وكان لكلِّ منهم حظٌّ ما من التزام هذا المنهج النبوي، فتخرَّج على أيديهم أئمةٌ أعلامٌ كانوا القُدوةَ الحسنة لجماهير المسلمين في معظم بلدان العالم الإسلامي.

وتَسَلَّسَلَتْ هذه الطريقة ذاتُ الأثر العظيم التعليمي والتربوي، حتَّى غرنا المدرسة الغربية بطرائقها التعليمية المقتنَّة، التي كان لها بالنسبة إلى التعليم الديني المصحوب بالتربية الدينية المثلى أثرٌ عكسيٌّ صار.

فانفصل التعليم الديني عن التربية الدينية السوية أولاً، وانفصل عن الحياة ومواقفها، وعن حركة تطبيق أحكامه وشرائعه في السلوك، ثم اقتصر التعليم الديني على نُتفٍ متناثرة غير مترابطة من مُجَزَّاتٍ فُتِنَ وَأَضِعُّوها بما جعلوا له عنوان «التخصُّص الدقيق» قبل أن يستكمل الطالب ما هو ضروريُّ له من قاعدة علمية عريضة، واجبة التحصيل لكل طالبٍ علم من طُلاب العلوم الدينية.

ثم اقتصر التعليم الديني على سَنَوَاتٍ دراسية لا يُدْرَسُ من مناهجها الموضوعية لها إلاً مقاديرٌ يسيرة، ومتى نجح الطالب من فَصْلِ مِنْ فصولها الدراسية، ولو بطريقة كاذبة مزورة، انتقل إلى ما فوقه، دون النظر إلى ثبات

معلوماته وتمكّنها لَدَيْهِ، وهي في الغالب من الأحوال تَنْسَفِحُ مُرَاقَةً مِنْ وَعَاءِ الطالب، أو تَبَخَّرُ بعد تفرينها في أوراق الامتحان الكتابي، إذ صار العِلْمُ تدريياً للذاكرة على الحفظ المؤقت الذي يُنسى عَقَبَ صَبِّهِ في ورقة الامتحان.

فضاع العلم الديني، وصار كثير من المتخرجين حَمَلَةً شهاداتٍ ليس لها في مَخزُونِ ذكراتهم إلا بقايا، كبقايا طعامٍ في إناءٍ، قَدْ صُبَّ ما فيه على كَفِّ عاصفة هوجاء.

وضاعت التربية الدينية الإسلامية الشاملة، إذ لم يَبْقَ لها بمقتضى أسلوب التعليم وفق أنظمة المدرسة الغربية وجودٌ في واقع التدريس العملي. وَعَدَّتِ الرابطةُ بين مُدَرِّسِ العلوم الدينية وبين طلبته، مثل الرابطة بين مدرِّس اللُّغة الأجنبية غير المسلم، وبين تلاميذه المسلمين، باستثناء أفرادٍ قليلين لهم حرصٌ خاصٌّ بدافع إيماني إسلامي، مصحوبٍ بهمةٍ عليّة، ورغبةٍ قويّة، في القيام بواجبه الديني الذي يفرضُ عليه تعليمَ وتربيةً من يستطيعُ تربيته من طُلابه على الكمالات الإسلامية المختلفة، الفكرية والنفسية والخلقية والسلوكية.

- ٢ -

مسؤولية حامل الرسالة

وحامل رسالة الدّعوة إلى الله، أو رسالة التّضح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسؤولٌ عن القيام بدروس عطاءٍ علميٍّ، ودروسٍ نُصِحَ وإرشادٍ وأمرٍ بالمعروف ونهيٍّ عن المنكر، مقتدياً فيها بالدروس النبوية، التي هي الأسوة الحسنة لكلّ المعلمين، والناصحين، والمرشدين، والآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، وأن تكون هذه الدروس مُسايِرةً لحياته وحياة من حوله، من الذين ينتظمون في حلقاته، أو

يستجيبون لدعوته، وعطاءاته، ونصائحه، وإرشاداته، وأوامره ونواهيه الدينية.

وعليه أن يحرص على ما في المساجد من بركة عظيمة يُمدُّ بها حلقات العلم والنصح والإرشاد والذكر فيها، دون أن يقصّر بواجباته خارج المساجد.

وعليه أن يجعل قُدوته دوماً الدروس النبوية التي هي الأسوة الحسنة، وعليه أن يتصبّد من يُضغِي إليه عقب الصلوات، أو بين المغرب والعشاء، أو عقب صلاة الفجر حتّى طلوع الشمس وامتدادها قليلاً، غير الأوقات التي يخصصها لمن ينتظم في درسٍ دوريٍّ من طلاب العلم.

- ٣ -

الدروس التعليمية ومنهجيتها المفضّلة

أما الدروس التعليمية فيجب أن يُبنى فيها علم المتعلّم بناءً تدريجياً تكاملياً ارتقائياً، بدءاً من الأساس لكلّ علم مطلوب في هذا التعليم، وارتقاءً إلى ما فوقه شيئاً فشيئاً، كما تُبنى القصور في الحسيات، ولا يصحّ مُطلقاً البَدْء من الأعالي والشرفات قبل وضع الأسس، واستكمال بناء القواعد والجدران التي يقوم عليها ما فوقها، وفق التسلسل الطبيعي للأشياء.

ويجب أن يكون هذا التعليم مصحوباً دوماً بالتربية الفكرية والتفسيّة والخلقيّة والسلوكيّة، على منهج المدرسة النبويّة.

وينبغي أن تُستخدَم فيه الطرُق والوسائل التعليمية المناسبة، مما تُرشِدُ إليه أحدثُ وأحسن طرق التدريس ووسائله، وأن تُستخدَم فيه وسائل تخزين المعارف المكتسبة، وفق أحدث وأحسن وسائل التخزين، مع المراجعة الاستذكارية آناً ثمّ آناً.

وأن تستخدم فيه أيضاً طرقاً تدريب فكر المتعلم على أن يكون باحثاً مُنقِباً، ومُستنبطاً مُنتجاً، ومستخرجاً أشياء جديدة، وأن يقرن أحكامه في المسائل بأدلتها، وأن يتدرّب على الرجوع في كل مسألة إلى مظانها في الأمهات من الكتب المراجع حتى يكتسب ملكة البحث والتنقيب .

ولهذا ينبغي أن تكون لدى المتعلم مكتبة صُغرى تساعده، وأن تكون في دائرة عمل الأستاذ المعلم مكتبة عامة كبرى، أو مكتبة متوسطة، ملحقة بمؤسسة تعليمية، أو بمسجد، مع إمكان الرجوع إليها ومراجعة مسائل العلم في كتبها .

ولا يصح أن يكون العلم مجرد حفظ أحكام تُلقَى على المتعلم، لا يعرف الطالب منها أكثر من نعم أو لا، وأن الحكم كذا، دون أن يكون قادراً على الشرح والبيان والتعليل والاثبات بالدليل، باستثناء بعض مسائل العلم التي لا تقبل الزيادة ولا الاجتهاد، ولا يوجد حولها وجهات نظر مختلفة .

أما كتاب الله فينبغي تلقيه مُجوداً بالسَّماع، والمتابعة بالأداء، لكن يبغي فهمه بأسلوب التدبُّر السليم، المقرون بالدليل وبالتعليل، مع إعمال الفكر بأناة وروية لاستنباط المفهومات والمعاني الدقيقة .

وكذلك أحاديث الرسول ﷺ يبغي تلقيها بالضبط، وحفظ قدرٍ مناسب منها، ثم فهمها فهماً تدبُّرياً مقروناً بنظرات شاملة لكل ما يتعلق بالمدرّوس منها أو له به صلة من قرآن كريم وسنة مطهّرة، واجتهادات لأئمة علماء المسلمين، مع معرفة ما يتعلق بها من مقرّرات العلوم الكونية والطبيعية .

إنّ الأحكام التقريرية المجردة عن أدلتها وحكمها من شأنها أن تُدرّب الذاكرة على الحفظ، وأن تُعطل في الفكر قدرات الفهم والاستنباط، والنظر إلى القضايا من جوانبها المختلفة، وأن تُعطل في الفكر القدرة على إدراك الأدلة، وربطها بالأحكام التي دلت عليها، وأن تولد الجمود التعصبي لبعض

الآراء الاجتهادية الضيقة التي هي نتاج مذهب مُعَيَّن، أو نظراتُ مجتهدٍ خاصٍ من الأقدمين أو من المعاصرين، على الرُّغم من وجوب احترام الآراء الاجتهادية للأئمة المشهود لهم بالإمامة من جمهور علماء المسلمين، ولكن هذا الاحترام لا يَصِحُّ أن يَصَلَ إلى حدِّ التنزيه عن الخطأ، واعتقاد العصمة في الفهم والاستنباط، لأيِّ إمامٍ مرموقٍ مُتَّبِعٍ، فالعصمة البشرية في أحكام الدين لَيْسَتْ إِلَّا لرسول الله ﷺ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد عصمه بالوحي وبمتابعة اجتهاداته المأذونِ بها بالتصويب.

- ٤ -

وصايا للمدرس ينبغي له أن يتعهد مراعاتها ما أمكنه

الدروس التعليمية والإرشادية والنُصحية والوعظية وغيرها ينبغي للمدرس أن يتعهد ما استطاع وهو يقوم بمهامه فيها ما يلي:

١ - اتِّخاذ ما يلزم لجذب انتباه المتلقِّي خلال الدرس لما يُوَجِّه له.

٢ - على المدرِّس أن يُوَجِّد الدافع للتعلُّم ومتابعته بالوسائل التي تُحَبِّبُ إليه دراسةَ عُلُومِ الدين، والعلومِ المساعدة على دراستها، وعلى حُسن فهم النصوص الدينية، والاستنباط منها.

٣ - الإيضاح الكافي للإفهام بقدر حاجة المتلقِّي دون زائدٍ عليها، فالإيضاح الزائد عن حاجة المتلقِّي مُملٌّ له، وربما أضرَّه.

٤ - التأمُّن في العطاء لتمكين المتلقِّي من ابتلاع ما يتلقَّاه مَصًّا، لا عبًا ولا تَجْرُعًا، وتمكينه من اختزانه، حتَّى يتمثِّله، كما يتمثل الجسمُ السليمُ الغذاءَ الذي يَدْخُلُ إلى المعدة مَمَّضُوعًا هنيئًا مريئًا.

٥ - التكرير بمقدار الحاجة إلى تثبيت المعرفة في خزانة الذاكرة، ثم

تمثلها في النفس والسلوك الظاهر والباطن.

٦ - العطاء المقترن بحلاواتٍ وجمالياتٍ ومشهياتٍ فكريةٍ ولفظيةٍ، تُحَبَّبُ إلى النفس الواردَ الفكريِّ إليها، والاحتفاظ به، ثم الانتفاع بما يهدي إليه.

٧ - ضرورة التلاؤم بين مستوى العلم ومستوى قدرات المتعلم على التعلم واستيعاب مسائله.

٨ - العطاء المقترن بما يُرضي العواطف الشريفة الهادئة، ويغذيها بالغذاء الَّذِي يُقَوِّي قُدْرَاتِهَا الموجهة للعمل المفيد.

ولا يُطلَبُ في الدرس إثارة الانفعالات العاطفية التي تندفع بقوةٍ على غير إدراكٍ وإعٍ للأمور، ما لم يُقصد ذلك في بعض الأحوال التي يُريدُ المدرسُ أن يجعلَ الدرسَ فيها بديلاً للخطبة، بل يُطلَبُ في الدرس تقوية العواطف التي إذا تحركت تحركت بوعيٍ وبصيرةٍ وحكمةٍ وتقديرٍ لعواقب الأمور.

فالعواطف الراسخة العميقة الرصينة، الفاعلةُ بهدوءٍ ورويةٍ، هي التي تعملُ بدأبٍ متلاحقٍ، لبناء الكُبرىاتِ التاريخيةِ الإنسانيةِ، من عِلْمٍ، وظاهراتِ حضاريةٍ، وجهادٍ كبيرٍ، وبناءِ أُمَّةٍ.

٩ - العطاء المقترن دوماً بالتوجيه لضرورة تطبيق العلم الديني بالعمل، مع الربط بالواقع في حياة الناس.

ومن المفيد تعليقُ بعضِ المسؤولياتِ الإصلاحيةِ في المجتمع، بأحدٍ أو جماعاتٍ من المتلقين.

١٠ - على مُقدِّمِ العطاء أن يتعرَّفَ دوماً على مقدارِ فهمِ المُتلقينِ، ومقدارِ استجابتهم الفكريةِ والنفسيةِ، ومقدارِ استيعابهم للمسائل، ومقدار ما

اختزنوه منها، أَنَا فَنَآ، أَوْ أَنَا ثُمَّ أَنَا، مع استرجاع ما سَبَقَ اختزانه منذ زمن.

١١ - التدرُّج في البناء المعرفي، وفي التربية الفكرية والنفسية والجسدية، كالتدرُّج في بناء المباني الحسنية، وكالتدرج في تربية فسائل الأشجار مع نموها الطبيعي المتدرج، وتعهدها حتى تكون ثمرة ذات عطاء وفير، وأكُل كثير.

١٢ - تدريب المتلقّي على أن يُعطي ما تلقّاه، في دروس لمن هم دونَه علماً وتربيّة، مع ضرورة محافظته على دوام تلقّيه في دُروس شيخه ومُربيّه.

١٣ - أن يكون المدرّس المرَبّي بمثابة الطبيب الذي يبحث عن العِلل وأسبابها، ليكون حَسَنَ المعالجة، فَعِلُّ النفوس لا بُدَّ أن تكون لها عوامل وأسبابٌ إذا أدركها المدرّسُ كان أقدر على معرفة العلاج التربوي الملائم.

١٤ - أن يتَّسع صدر المدرّس للسؤال والجواب والمناقشة والاعتراض، وأن يعالج كل ذلك بعقل ورُشد وحكمة.

١٥ - عقدُ النَّاحِي بين المنتظمين في الحلقات، وتكوين جمعيات منهم ذواتُ أنشطة اجتماعية، تتعاون على البرِّ والتقوى وعمل الخير، والاشترك معهم في رحلات جماعية، تنعقد بينهم فيها روابط أُخُوَّة، ومُشاركاتٍ تَعَاوُنِيَّة، كما كان الرسول ﷺ مع أصحابه في أسفاره ورحلاته الجهادية وغيرها كالحج والعمرة، وقد اتبعها أئمة المسلمين من بعده علماء ومربين.

١٦ - تشجيعُهُم على حفظ القرآن وحفظ مقدارٍ وافرٍ من أحاديث الرسول ﷺ، وتكوين جمعياتٍ منهم لتحقيق هذه الغاية. وإعداد مسابقات بينهم لتمييز المتفوقين ومنحهم جوائز تشجيعية وامتيازات تقديرية.

١٧ - أن يكون المدرّسُ أُسْوَةً حَسَنَةً في حَيَاتِهِ لِكُلِّ مَنْ يَتَلَقَّى عَنْهُ، وَأَنْ يَعْمَلَ بِوَصِيَّةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّتِي قَالَ فِيهَا كَمَا ذَكَرُوا:

(مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ. وَمُعَلِّمٌ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ بِلِسَانِهِ فَحَسَبٌ).

وَأَنْ يَعْمَلَ بِوَصِيَّةِ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّوَلِيِّ الَّتِي قَالَ فِيهَا:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ	هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى	كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ
وَتَرَاكَ تُصَلِّحُ بِالرِّشَادِ عَقُولَنَا	أَبْدًا وَأَنْتَ مِنَ الرِّشَادِ عَدِيمٌ
إِبْدًا بِنَفْسِكَ فَاذْنَعْنَا عَنْ غَيْبِهَا	فَإِذَا انْتَهَيْتَ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
فَهَنَّاكَ يُسْمَعُ مَا تَقُولُ وَيُهْتَدَى	بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ
لَأَنَّه عَنِ خُلُقٍ وَتَأْسِي مِثْلَهُ	عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

١٨ - مراعاة طرق التدريس النافعة التي يذكرها علماء التربية، بقدر

الإمكان، وعلى وفق مقتضيات الأحوال التي يُلْقَى فيها الدرس.

فمنها الدرس الذي يكون في مجلس دوري يعقد في أوقات دورية منتظمة، والدرس الذي تستدعيه مواقف عابرة، أو أحوال طارئة في مسرات أو أحزان، أو مناسبة من المناسبات الاجتماعية، إلى غير ذلك.

ومن أمثلة الدروس النبوية التي لم تكن ضمن نظام دوري ما يلي:

المثال الأول:

روى الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ لِي:

«يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَيْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى»

لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَيَّ أَنْ يَضْرُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي:

«إِحْفَظِ اللَّهَ تَجِدَهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١).

المثال الثاني:

روى البخاري في صحيحه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ غَيْرُ آخِرَةِ الرَّحْلِ فَقَالَ: «مُعَاذُ».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

ثم سار ساعة فقال:

«يَا مُعَاذُ».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

قال: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيَّ عِبَادِهِ؟».

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قال: «حَقُّ اللَّهِ عَلَيَّ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ

سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ:

«يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ».

(١) انظر: الأربعين للنووي.

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ .

قال: «هَلْ تَذْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟» .

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قال: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ» .

* * *

الوسيلة الثالثة

المحاضرة

- ١ -

التعريف

المحاضرة: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ المشتملِ على بحثٍ علميٍّ هاديٍّ، مُعدٌّ بأنّاةٍ وتفكيرٍ ورجوعٍ إلى مصادر الموضوع المبحوث فيه، الفكرية، أو التجريبية، أو الاستنباطية، أو أقوال وآراء العلماء السابقين، ومُستندٌ إلى أدلّةٍ تدعّمُ المقولاتِ المعروضةَ فيه، والنتائج التي توصلَ إليها الباحث.

- ٢ -

هدف المحاضرة

وهدف المحاضرة إقناع أهل الفكر والعلم بالمقولات المشتملة عليها، رجاءً تبنيها والعمل على توسيع دائرة انتشارها، فهي تُعدُّ القيادات الفكرية المتعلّمة الواعية، مع ما فيها من نفعٍ عامٍّ لكلِّ مستعدٍّ لأنّ يستفيد من مقولاتها وما اشتملت عليه من معارفٍ وبحوث.

- ٣ -

مستويات المحاضرات

وللمحاضرة مستويات متفاوتة دقة وعمقا، وجمعاً واستيعاباً. وحسن تنظيم معرفي شجري، وأسلوباً بيانياً.

فمنها ما يناسب طلاب الجامعات، ومنها ما يناسب كبار المثقفين، ومنها ما يناسب أساتذة الجامعات، ومنها ما يناسب المتخصصين الكبار في علم من العلوم.

والمحاضرات العلمية العالية من شأنها أن تشمل على بحوث متقنة رائدة، أو بحوث مبتكرة في أفكارها، أو في جمعها واستيعابها، أو في تقديمها مفاتيح بحوث جديدة أبار.

- ٤ -

كبرى المهمات

ومن كبرى مهمات المحاضرات العاليات أن يعتني أصحابها بتأسيس المعرفة الرصينة الصحيحة، لدى دوائر المثقفين والأساتذة، وكبار طلاب الجامعات الذين يصدرون المعرفة الصحيحة للأجيال من دونهم، ويعلمونها للجماهير ذوات الدوائر الواسعة في المجتمع.

- ٥ -

إعداد المحاضرة وأداؤها

والمفروض في المحاضرة أن تعدد إعداداً تاماً، وأن تكتب كتابةً محررةً بدقّة.

والأصلُ فيها أن يؤدِّيها المحاضرُ جالساً وبأناةٍ مع حيويَّةٍ لإصغاءِ المتلقِّينِ ووَعْيِهِمْ.

وقد يؤدِّيها واقفاً إذا وجدَ الحاجةَ داعيةً للوقوفِ، ولا سيما حين استخدام وسائل الإيضاح.

- ٦ -

الأسئلة والمناقشات والاعتراضات

والمفروض في المحاضر أن يتسع صدره للأسئلة والإجابة عليها، وللمناقشة البناءة المنصفة، وللاعتراض الذي يحمل وجهة نظر ذات اعتبارٍ ما، وأن يُعالج كل ذلك بعلمٍ وهدوءٍ وعقلٍ ورُشدٍ وحكمة، وأن يحترم السائلَ والمناقشَ والمعارضَ، وأن لا يُقابلَ واحداً منهم باحتقارٍ أو هُزءٍ وازدراءٍ وسُخريَّةٍ، إلا إذا تيقن أنه مُشاغب يريد أن يُفسدَ جوَّ المحاضرة لعداوةٍ شخصيَّةٍ، أو خلافٍ حزبيِّ، أو مذهبيِّ، فيُخسِنُ حينئذٍ إحالته على جلسةٍ خاصَّةٍ تُعقدُ لمناقشةٍ ما طرحه وأنه مُستعدٌّ لذلك بحضور نُخبَةٍ من أهل الاختصاص.

- ٧ -

عنوان المحاضرة

والمفروض في عنوان المحاضرة أن يكون موجزاً جذاباً في صيغته، مع شموله لكليَّاتِ الموضوع الكبرى.

- ٨ -

خطبة في محاضرة

بعض المحاضرين قد يكون له في محاضرتِهِ هدفٌ خطابيٌّ، فيدمج

محاضرته المعدّة إعداداً متقناً بأنفاس ومشاعر ودَفَقَاتِ خطابيّة، ويَعْرِضُهَا أو يَعْرضُ بعضَ مقاطعها عرضاً خطابياً، وهو بهذا يُريدُ أن يُؤدّي في مُحَاضَرَتِهِ أهدافَ محاضرةٍ وأهدافَ خطبةٍ معاً، وهذا قد يكون مقبولاً أحياناً.

- ٩ -

نفع المحاضرة الدينية

ويظهر نفع المحاضرة الدينية بأنّها وسيلةٌ لإعدادِ القَادَةِ والأئمةِ المبلغين والمُوجِّهين للعامة، الذين يحملون رسالة الدعوة العامة، والنُّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للجماهير على اختلاف مستوياتهم الثقافية والفكرية.

* * *

الوسيلة الرابعة

الحديث والمحادثة

- ١ -

التعريف

الحديث: هو الخطابُ الموجهُ من متكلّم لشخص أو أكثر في مجلس أو موقف مساوٍ لمجلس أو موقف المتحدّث معه، دون إشعارٍ بأي استعلاءٍ بعلمٍ، أو تجرّبةٍ، أو مكانةٍ اجتماعيةٍ، أو سُلطةٍ ما، ولو كان المتكلّم في الواقع متفوّقاً أو ذا سلطة أمرٍ ونهيٍ وجزاءٍ بثوابٍ أو عقابٍ.

والحديث بالمواجهة قد يُجرّزُ إلى المحادّثة، وعلى المحدث أن يتّسعَ صدْرُهُ للمحادّثة الجادّة المفيدة، فما تُفيدُهُ المشاركة في الحديث قد لا يَحْضُلُ إذا استأثر المحدثُ بالكلام، ولم يتركْ لجليسه فُرْصَةً لِيُعَبِّرَ عن أفكاره وخواطره وما لديه من معلومات.

- ٢ -

القرآن حديث بين الله وبين عباده

ونظراً إلى قيمة تأثير الحديث في النفوس، وإلى أهميّة تأديّة رسالة الدعوة إلى الله، أو رسالة التّصحّح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، بأسلوب الحديث الذي قد يفتح مجالاً للمحادثة، وصف الله عز وجل القرآن بأنه حديث بينه وبين عباده، على سبيل الحديث مع كل فرد أحياناً، أو على سبيل الحديث مع الجماعة أحياناً أخرى، فقال الله عز وجل في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّشَ فِيهِ مِنْهُ جُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُودَهُمْ وَقَلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴿٣٩﴾ .

أي: ومن يحكم الله عليه بالضلالة فليس له بعد الله من يستطيع أن يحكم له بالهداية.

فالقرآن أحسن الحديث، ومع اختلاف أساليبه وصيغته البيانية فهو متشابه متماثل في الحسن.

والقرآن مثاني، أي: فيه محاذيف مطوية بين جملة تدل عليها لوازم فكرية، وإشارات لفظية تفسح عنها، مثل: ﴿ فَعَلْنَا أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ . . . ﴿البقرة/ ٢﴾ .

أي: فضرب موسى بعصاه الحجر فانفجرت.

وقال الله عز وجل في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ .

فوصف الله آيات كتابه بأنها من نوع الحديث، تلطفاً منه بعباده، وتودداً لهم وتكريماً، وحتى لا يكون في نفوسهم داع للنفور، فربهم الذي يمدهم دواماً بعباءته يحدثهم بآيات كتابه.

وأمر الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ بأن يحدث بنعمة ربه، وهي نعمة

القرآن، وَنِعْمَةٌ مَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ تَعَالَى لَهُ فِي سُورَةِ (الضُّحَىٰ/ ٩٣ مَصْحَف/ ١١ نَزُول):

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

فَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُوجِّهُ مَعْظَمَ أَقْوَالِهِ فِي دَعْوَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَنَصِيحَتِهِ وَإِرْشَادِهِ بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ لِفَرْدٍ أَوْ لِأَكْثَرٍ.

- ٣ -

أَهْمِيَّةُ الْحَدِيثِ

إِنَّ تَوْجِيهَ الْكَلَامِ بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ الْهَادِيءِ يُعْطِي مَنْ يُوجِّهُ لَهُ مَجَالًا لِأَنَّهُ يَتَفَكَّرُ بِنَفْسِهِ مَنفَرِدًا، أَوْ مَعَ قَرِينٍ لَهُ يُوَدِّهِ، وَالتَّفَكُّيرُ الْفَرْدِيُّ أَوْ مَعَ قَرِينٍ ذِي فِكْرٍ وَرَأْيٍ، يَسْتَخْرِجُ مِنْ طَاقَاتِ النَّفْسِ كُلِّ قُدْرَاتِ التَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ لَدَى الْمُتَفَكِّرِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ خِلَالَ أَوْقَاتِ الرَّاحَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّفَاءِ الذَّهْنِيِّ، الَّتِي تَسْتَنِيرُ فِيهَا الْبَصِيرَةُ، وَتَتَضَحَّى فِيهَا الرَّؤْيِيَّةُ بِجَلَاءِ، دُونَ أَنْ تُغْشَى عَلَيْهَا مَوْثِرَاتُ جَمَاعِيَّةٍ، تَتَدَخَّلُ فِيهَا عَوَامِلٌ مُخْتَلِفَةٌ تَمْنَعُ عَنِ فِكْرِ الْفَرْدِ الرَّؤْيِيَّةِ السَّلِيمَةِ، الْخَالِيَةِ مِنْ شَوَائِبِ الْأَهْوَاءِ، وَالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى وَالضَّغْطِ الْجَمَاعِيِّ، وَالاعْتِمَادِ عَلَى رُؤْيَةِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ قَدْ يَرَاهُمْ أَعْلَمَ مِنْهُ، أَوْ أَكْثَرَ فِطْنَةً وَذِكَاءً، أَوْ يَرَى أَنَّ مِنَ الْمَسْتَبْعَدِ اتِّفَاقَ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ عَلَى خَطَاٍ أَوْ بَاطِلٍ.

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (سَبَأُ/ ٣٤ مَصْحَف/ ٥٨ نَزُول) خُطَابًا

لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَجْدِي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفَرَدَيْ ثُمَّ نَنفَكُوا مَا يُصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١١﴾ ﴾

مِنْ جِنَّةٍ: أَي: مِنْ جُنُونٍ كَمَا اتَّهَمَهُ بَعْضُكُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا.

إنَّ معظم الناس في إطار التفكير الجماعي، يفقدون من قوَى تفكيرهم مقاديرَ بحسب ما لديهم من رغبة في إلقاء تَبَعَاتِ التفكير على غَيْرِهِمْ، إمَّا لأنَّهم لا يُريدون إجهادَ أفكارهم، وإمَّا لثقتهم بِحُسْنِ الرأى الذي يقدِّمه من لهم في العادة تَمَيِّزٌ فِكْرِيٌّ بين الجماعة فهم يَتَّبِعُونَهُمْ تقليداً.

وقد يستخدم الواحد من العَشْرَةِ من طاقاته التفكيرية بنسبة واحدٍ من عشرة فقط، إن لم يُعْطَها كُلياً، وقد يستخدم أكثر من ذلك، لكن يَنْدُرُ أن يستخدم كُلَّ طاقاته التفكيرية.

حتَّى غدا مُتَدَاوِلاً لدى كثيرٍ من الباحثين المُدَقِّقين في دراسة نفسية الجماعة، ولدى كثيرٍ من مراقبي الجماعات ومجالسها، أنَّ عَقْلَ الجماعة ضمن التفكير الجماعي يُشبه عَقْلَ قَطِيعٍ، فهو تَبِعِيٌّ لِمَنْ يَقُودُهُ، وَيَتَقَبَّلُ الدَّعايات الإعلامية التي لا تعتمد على حقائق، وَيُنْقَادُ بِغَيْرِ وعيٍ وَلَا رُؤية واضحة، لذوي دَهَاءٍ وَمَكْرٍ وَمُصْلَحَةٍ يُوجِّهُونَ الحركة الفكرية في الجماعة لتحقيق مصالحهم.

ومن جَرَّبَ المجالسَ الجماعية على اختلاف مستوياتها يُدْرِكُ أن مُوجِّه الفكر فيها شخصٌ أو اثنان أو أكثر قليلاً اتَّفَقَتْ مصالحهم، أمَّا الآخرون ففي أكثر الأحوال لا يُشاركون في الإجهاد الفكري، والمناقشات الجوهرية الجادة ولا يُهْمُهُمْ أن يُجهدوا أَنفُسَهُمْ، بل تكون مُهْمَتُهُمْ في المجلس الموافقة والتوقيع على المقررات التي تُطْرَحُ فيه، بعد استَرْضائِهِمْ بمَنافع ومصالح تُيسِّرُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ أولي الأمر التنفيذي.

وتَبْدُو أهمية الحديث أن من طبيعته فتح مجال المشاركة والمحادثة التي تُشبع رَغْبَةَ المجلس في أن يُحَادِثَ وَيُقَدِّمَ رأيه، فهو عندئذٍ يَسْتَدْعِي كُلَّ طاقاته الفكرية لكي يشارك بحديث ما، وهذا الاستدعاء يجعله أكثر استعداداً

لفهم الحديث الذي يتلقاه من جلسيه المحدث له .

وإذ لا يشعر بأنَّ مُحدِّثه يستغلي عليه بفضِّلِ علمٍ أو ذكاءٍ أو مكانةٍ اجتماعيَّةٍ أو سلطةٍ، فإنَّه يفتح كلَّ أبواب نفسه وفكره لاستقبال حديث جلسيه، ليجد فيه ما يمكنه المشاركة فيه بالمحادثة، وهذا من شأنه أن يجعله أكثر فهماً لأقوال محدِّثه، وأصحَّ نظراً للقضية المطروحة فيها، وأجلى بصيرة، فشهوة المشاركة بالكلام والرأي موجودة لدى كثير من الناس .

إنَّ معظم قناعات الناس، ومعظم المفاهيم التي تنتشر بينهم إنما تنمَّ عن طريق الحديث والمحادثة في مجالس صغرى مؤلَّفة من اثنين فأكثر .

وبالحديث والمحادثة كان للدعوة الإسلاميَّة انتشار عظيم في شعوب الأرض .

- ٤ -

الأحوال التي يظهر فيها الأثر الأكبر للحديث

ويظهر الأثر الأكبر للحديث في نفس المتحدِّث إليه في الأحوال التالية :

١ - أن يكون عرضُ الحديث عرضاً وُديّاً، مشعراً بأنَّ الدافع إليه مشاعر الإخاء والمحبة والصفاء، وتبادُلِ التناصح والتواصي بالحق، والتواصي بما هو خيرٌ جالبٌ للسعادة، ودافع للشقاء، وإن خالف الهوى وشهوات النفوس، إلَّا أنَّ الالتزام به قد يحتاج صبراً، لكنَّ هذا الصبر يجلبُ سعادةً عظيمة وخيراً كثيراً .

٢ - أن يكون الحديث على مقدارٍ ما لدى فكر المتحدِّث إليه من قدرات فهم، ومقدارٍ ما في نفسه من استعداد للاستجابة، فقد يكون لدى

الإنسان استعداداً للاستجابة لموضوع الحديث بمقدار عشرة في المئة، فليقتصر المحدث على التركيز على هذا القدر، فإذا حصلت الاستجابة له، جرَّ ورائه إمكانيَّة استجابة لمقدارٍ آخر، وهكذا حتَّى تتمَّ الاستجابة لكلِّ عناصر الموضوع، بأسلوب التدرُّج شيئاً فشيئاً.

٣ - أن تستدعي الحديث مُناسبةً ملائمةً في المجلس تُشعرُ بأنَّه جاء تلقائياً، ولم يكن مُعدَّاً للمجلس إعداداً سابقاً لانعقاده.

وإذا كان الحديث مُعدَّاً إعداداً سابقاً، فينبغي أن لا يكون بتوجيه إلزاميٍّ، بل يُعرضُ على سبيل المشاركة في الرأي، أو على سبيل تقديم معلوماتٍ يُؤمن بها المحدث دون أن يُلزمَ غيره بها، بل يُعرضُها عليه ليتفكَّرَ فيها، وهو حرٌّ في أن يقبلها أو يرفضها.

٤ - أن يشتمل الحديث على عرض الدواعي التي جعلت المحدث يُؤمن بأفكاره التي يُقدِّمها في حديثه.

٥ - أن يلتزم المحدث الصدقَ وتحريَّ الحقِّ فيما يُعرضُ من أفكار ومفاهيم وأخبار وأقوال وقصص وحوادث، وأن ينسب المرويَّات إلى رواتها إذا كان يعلمُ مَنْ رَواها، وإلاَّ اكتفى بأن يقول: سَمِعْتُ من بعض الناس كذا، إذا كان في الحديث به فائدة، وإلاَّ أعرضَ عنه ولم يُحدِّث به.

٦ - أن لا يكون المحدث كثير اللغَطِ مَهذاراً يُحدِّث بكل ما سمع، فحَسْبُ المرءِ كذباً أن يُحدِّث بكلِّ ما سمع، كما جاء في كلام الرسول ﷺ، وقالوا في الحِكم: مَنْ كَثُرَ لَغَطُهُ كَثُرَ غَلَطُهُ.

فينبغي للمحدث دواماً أن ينتقي الصحيح من الأخبار والمرويَّات التي يعلمُ صدقَ رواتها، أو أن تكون من مشاهداته أو خبراته.

٧ - أن يكون المحدث كثير الإحساس بأحوال من يتحدَّث إليه، فإذا

وَجَدَهُ مُضْغِيًّا لَهُ مُسْتَمْتِعًا بِمَا يُحَدِّثُهُ بِهِ تَابِعَ حَدِيثِهِ مِنَ الْمَسَالِكِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي يَرَاهُ مَعْجَبًا بِهَا، حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ قَدْ بَدَأَ يَتَمَلَّمُ أَوْ يُعْرِضُ فَلْيَكْفُفْ بِرَفْقٍ عَنِ الْمَتَابَعَةِ، وَيُحْسِنُ أَنْ يَسْتَدِرَّ مِنْهُ الْمَشَارَكَةَ بِالْحَدِيثِ، لِيَهْتَبِلَ مِنْ خِلَالِ حَدِيثِهِ الْمُنَاسِبَةَ الْمَلَائِمَةَ لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَعْضِضَهُ مِنْ أَفْكَارٍ وَمَفَاهِيمٍ، فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، أَوْ التُّصْحِحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

٨ - أن يكون المحدث حكيماً في اختياره نوعَ الحديث الذي يحدث به، فيختار لمن يتحدث إليه ما يؤثر فيه اقتناعاً، وأن يتدرَّج معه بدءاً من الأسس والأصول التي يجعله يُشارك في التحدُّث بها، فإذا وَجَدَهُ اسْتَأْنَسَ وَأَنْشَرَ صَدْرَهُ لِسُلْسَلَةِ الْحَدِيثِ انْتَقَلَ بِهِ إِلَى الْفُرُوعِ شَيْئاً فَشَيْئاً، حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَا يُرِيدُ نُصْحَهُ بِهِ، أَوْ إِرْشَادَهُ إِلَيْهِ، فَيُحَدِّثُهُ بِهِ اسْتِكْمَالاً لِسُلْسَلَةِ حَدِيثِهِ السَّابِقِ، دُونَ أَنْ يُشْعِرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ سَاقَهُ تِلْكَ الْمَقْدَمَاتِ لِيَصِلَ إِلَى نُصْحِهِ حَوْلَ مَا يَعْغَلُ مِنْ عُيُوبِهِ، وَسَقَطَاتِهِ، وَزَلَّاتِهِ، أَوْ مَعَاصِيهِ وَمُخَالَفَاتِهِ.

٩ - أن لا تتحوَّلَ المحادثة الودِّيَّةُ الأخويَّةُ إِلَى مَجَادَلَةٍ تَجَرُّ إِلَى مَنَازَعَةٍ وَمَشَاتِمَةٍ.

فإذا بدأت تتحوَّلَ إِلَى مَجَادَلَةٍ فَعَلَى الْمَحَدِّثِ النَّاصِحِ عِنْدَئِذٍ أَنْ يُعْلِنَ أَنَّ الْحَدِيثَ قَدْ خَرَجَ عَنِ دَائِرَتِهِ التَّبَادُلِيَّةِ التَّلَقَّائِيَّةِ، إِلَى مَجْلِسِ جَدَلِيٍّ، وَالْمَجْلِسُ الْجَدَلِيُّ لَا تُسْمَعُ فِيهِ الْمَشَاتِمَةُ وَالْمَنَازَعَةُ الْأَنَانِيَّةُ.

فإذا كَانَ الْمَحَدِّثُ أَهْلًا لِعَقْدِ مَجْلِسِ جَدَلِيٍّ، فَلْيَقْتَرِحْهُ، وَلْيَشْرَطْ عَلَى جَلِيسِهِ الَّذِي يَتَبَادَلُ مَعَهُ الْحَدِيثَ أَنْ يَخْضَعَ الطَّرْفَانِ لِأَصُولِ الْمَنَازَعَةِ وَقَوَاعِدِهَا وَأَدَابِهَا.

١٠ - أن لا يَصُبَّ الْمَحَدِّثُ كُلَّ مَعْلُومَاتِهِ حَوْلَ مَوْضِعِ الْحَدِيثِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، لِيَتْرَكَ لِنَفْسِهِ مَجَالاً لِإِضَافَاتٍ جَدِيدَةٍ كُلَّمَا أَعَادَ

التحدُّث حول هذا الموضوع في مَجْلِسٍ آخَرَ، فهذا من أساليب القرآن المجيد
البيانية التَّربويَّة.

١١ - من المستحسن أحياناً أن يَطْرَحَ المحدثُ بداياتِ حديثه على
شكلِ قضيَّةٍ أو مُشكلةٍ تحتاجُ إلى بيانٍ أو حلٍّ، لِيَسْتَيْزِرَ ابتداءً اهتمامات من
يحدثهم، فَيَسْتَحِثُّ أفكارَهُم للمشاركة بما عندهم من بيانٍ للقضيَّة، أو حلٍّ
للمُشكلة التي طرحها عليهم.

حتَّى إذا انتهوا إلى عَرْضِ ما لديهم من بيانٍ أو حلٍّ، ثَبَّتَ ما رآه صواباً
وَقَرَّرَهُم عليه، وأثنى عليهم بما قَدَّمُوا، ثُمَّ أَضَافَ من عنده التَّصْويباتِ
والإضافات المناسبة التي يراها على سبيل المشاركة، لا بأسلوب التَّعليم
المُشعر بالتَّفَوُّقِ.

ومن الخير دواماً تقديم الأفكارِ والمفاهيم مُقترنةً بأدلتها.

* * *

الوسيلة الخامسة

مجالس السؤال والجواب

- ١ -

البيان العام

من وسائل الأداء البياني مجالسُ السؤال والجواب، ولهذه الوسيلة قيمةٌ تأثيريةٌ عظيمةٌ، لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقَّونَ الإجابات على أسئلتهم ممَّن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، وذلك لسببٍ أو أكثر من الأسباب التالية:

السبب الأول: أن من طبيعة السائلين أن يطرَّحوا أسئلتهم عادةً على من يحترمونه، ويُقدِّرونه، ويثقون بعلمه وأمانته العلمية، وبقدرته على فهم أسئلتهم فهماً دقيقاً، فإذا كان لديه علمٌ بالأجوبة عليها أجاب، وإلا طلب تأجيل الإجابة، حتَّى يستوثق من الجواب الصحيح، أو أحال على متخصصٍ كُفءٍ في نوع العلم الذي يتعلَّق السؤال بمسألةٍ من مسائله.

فهم إذا تلقَّوا منه الجواب تلقَّوه تلقُّفاً، لأنَّ كلَّ أبواب أفكارهم ونُفوسهم متفتحةٌ لتلقِّي الإجابة منه.

السبب الثاني: أن طارحي الأسئلة، إذا كان دافعهم إلى طرح أسئلتهم ما يُعانونه من مشاكل فكرية أو نفسية أو اجتماعية في حياتهم، فلا بُدَّ أن يكونوا مُتلهِّفين لمعرفة الحلِّ الأمثل لها، فيفتحون كلَّ أبواب قدراتهم الفكرية

ومشاعرهم النفسية، لتلقف الإجابات عليها، والنظر فيها بامعان.

وحين تكون الإجابات عليها مقتبسة من أحكام الدين باجتهادات سليمة مشرقات واضحات الأدلة، فإنها تقع من نفوسهم في مواقع الرضا والتسليم والافتناع، وقد يتفكرون في حكمة الله من أحكام دينه، وهم يستمسكون بالمعرفة التي ظفروا بها، وحين تُقدّم لهم الأجوبة مُغلّفة بالحكمة والموعظة الحسنة، فإنها تكون أرجى لأن يقبلوا ما فيها من نصح وإرشاد، وأن يأخذوا ما اشتملت عليه من أحكام بقبولٍ وتسليم تامين كاملين، مع الاستعداد النفسي الصادق للتنفيذ، ابتغاء رضوان الله عز وجل، ولو خالف أهواء نفوسهم وشهواتها ومطالبها.

السبب الثالث: أن طارحي الأسئلة إذا كانوا لا يعانون من مشكلة، ولكن يريدون اكتساب معرفة، حول ما طرحوا من أسئلة، فهم أيضاً في حالة استعدادٍ فكري ونفسي لمعرفة أجوبة أسئلتهم التي طرحوها.

وهذا الاستعداد أمرٌ مهمٌ جداً لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك.

فيجب على حامل الرسالة أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حدٍّ ممكن.

السبب الرابع: أن حاضري مجالس السؤال والجواب لا بد أن تثير الأسئلة المطروحة فيها انتباههم لمعرفة الأسئلة المطروحة. إذ يشعرون بأن الدافع إليها في الغالب أمرٌ مهمٌ في نفوس السائلين، وأن تثير فيهم الرغبة في معرفة الجواب، وقد تنزع نفوسهم إلى المشاركة في الإجابة عليها كأنهم هم المسؤولون، وفي كلتا الحالتين تفتتح أذهانهم لمعرفة الجواب، من المتصدر للإجابة، العالم بأجوبة المسائل المطروحة.

وعندئذ يتلقون المعرفة باستقبالٍ حسن، إذا لم يكن لديهم اعتراض ما

عليها، ويختزنونها برغبة منبعثة من نفوسهم، ولا يجدون في نفوسهم أيّ عقبة تصرفها عن ذلك .

ثم تدفعهم الرغبة إلى الحديث عمّا ثبت في أذهانهم من الأسئلة والأجوبة عليها في مجالس مختلفة، فيزؤونها كما جرت في مجلس السؤال والجواب .

- ٢ -

مسؤولية حامل الرسالة

فعلى حامل الرسالة الدينية، الدعوية، أو التّصحيّة والإرشاديّة، أن يعقد مجالس للسؤال والجواب، أو أن يجعل في آخر درسه حصّة من الزمن للسؤال والجواب، وأن يستثمر هذه الوسيلة المؤثرة النافعة من وسائل الأداء البياني، للقيام ببعض واجبات وظيفته التي يضطلع بأعبائها .

وعليه أن يكون حكماً، كثير العلم بما يتصدّر للإجابة عليه، حاضر الذّهن يقظاً، حسن التصرف، واسع الصّدر حليماً، مُحترماً لأسئلة السائلين ولو كانت ضحلة وساذجة، وفي هذه الحالة يتلطف بالسائل ولا يُشعره بما يجرح مشاعره، وعليه أن يكون قادراً على البيان المفهم بأسلوب حسن .

وإذا لم تخضّره الإجابة الصحيحة على السؤال، فلا يجوز له أن يُجيب بغير علم، وليخذز أشدّ الحذر من ذلك، فإنّ أجب بغير علم عرض نفسه للسقوط من الاعتبار والاحترام والتقدير بين الناس، وعرض نفسه لسخط الله وغضبه، لدخوله حينئذ في فئة من يضلّ ويضلّ، ويكون ممّن اتخذهم الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضّلوا وأضلّوا، كما جاء في أقوال الرسول ﷺ التي سبق الاستشهاد بها .

وإذا كان في مجلسه بعض أهل العلم فيحسُن أن يُحيل عليهم السؤال،

فلعلّ عند بعضهم علماً بالجواب عليه، فيتولّى منهم من استعدّ للمشاركة وقبّل الإحالة تقديم ما لديه من علم. وإلاّ وعدّ بمراجعة المسألة والإجابة عليها في جلسة لاحقة إن شاء الله.

ولا مانع من أن يعترف بواقع حاله بالنسبة إلى هذه المسألة التي لم يحضّرهُ الجوابُ عليها، فيقول: نسيتُ حكم هذه المسألة، أولاً أعلم، أو أنا في شكّ من الجواب، وسأبحثُ الأمر بعون الله ومشيتته.

وليتذكّر في نفسه دوماً أن الإمام مالكاَ إمام دار الهجرة، قد سُئلَ عن مسائل كثيرة فأجاب على بعضها بما يعلم، وقال في بعضها الآخر: لا أعلم، ولم يستحي من جهله بها.

وليتذكّر في نفسه دوماً قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿... وَمَا أوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾

وقد كان كثير من الفقهاء لا يُجيبون على ما يُطرحُ عليهم من المسائل إلاّ إجابات مكتوبة، وبعد مراجعة في المصادر، ولو كانوا يعلمون الإجابة عليها ممّا هو في ذاكراتهم.

وهكذا كان يفعل المفتون في دوائر الفتوى الرسميّة، في معظم بلدان العالم الإسلامي، ومنها جمعتُ كتُبُ الفتاوى.

ومن المستحسن إذا كانت الأسئلة مكتوبة أن يُنحَى المتصدّر للإجابة الأسئلة التي ليس لديه إجابات عليها بعلمٍ مؤكّد، وأن يجيب على الأسئلة التي يملك الإجابة الصحيحة الواضحة عليها، ثمّ يُعطي الوعد بالإجابة على الأسئلة الباقية في لقاء آخر إن شاء الله.

ثمّ يُعدّ بأنّ الإجابات الملائمات بالرجوع إلى المراجع، ثمّ يجيب

عليها في مجلس لاحق، إذا وجد لذلك سبيلاً.

- ٣ -

خاتمة

إن مجالس السؤال والجواب مجالسٌ مفيدةٌ ونافعةٌ جداً، في نشر المعرفة وتثبيتها، وتناقُلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحةً وجلياتٍ مُفصَّلاتٍ لا غموض فيها ولا التباس، وبشرط أن يكون المجيب على علمٍ مؤكَّدٍ بالجواب الصحيح، وإذا كانت المسألة من المسائل الخلافية عند الفقهاء المعتمدين لدى جمهور المسلمين، فليس للمجيب أن يقطع جازماً بوجهة نظره، ولكن يقول: في المسألة خلاف بين العلماء، والراجع فيما أرى هو ما ذهب إليه فلان من الأئمة، وإذا كان يحضُّره الدليلُ فليذكره.

وإذا كان له اجتهادٌ خاصٌّ فعليه أن يُبيِّنَه مع ذكر أدلته عليه.

* * *

الكتاب

- ١ -

الأمة الإسلامية أمة (اقرأ)

دلّتنا المفاهيم القرآنيّة على أنّ الأمة الإسلاميّة هي أُمَّة (اقرأ) وذلك بمقتضى أمر الله عزّ وجلّ لنبيه محمّد ﷺ قائدها وأول مؤمنها ومسلميها النبيّ الأميّ منذُ بدء الوحي إليه بأن يقرأ، فقال له في أول بيان أنزل عليه: ﴿اقرأ﴾ وعرض جبريل عليه نمطاً من ديباج وقال له: اقرأ^(١).

وبما أنّ الرسول لم يؤمّر بعد ذلك بأن يتعلّم القراءة والكتابة، لثلا تروّج بين العرب فريّة أنّه يؤلّف القرآن اقتباساً من كُتُب الأولين ومسطوراتهم، فلا بدّ أن نفهم أنّ الأمر بالقراءة التي تستلزم الكتابة بالقلم، أمرٌ موجّهٌ لعموم الأمة الإسلاميّة، المكلفة أن تتبع الرسول النبيّ الأميّ، فالأمر الذي يوجّهه لقائد الأمة وإمامها هو أمرٌ موجّهٌ لها.

فالأمة الإسلاميّة مُطالبَةٌ بأن تتعلّم بالقلم، وتقرأ ما خطّ بالقلم،

(١) ذكر ابن حجر في كتابه «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» وقع عند ابن إسحاق في مرسل عبيد بن عمير أنّ النبيّ ﷺ قال: «أتاني جبريل بنمط من ديباج فيه كتاب قال: اقرأ. قلتُ: ما أنا بقارئ» انظر (ص ٧١٨ من الجزء الثامن) عند شرح الحديث (٤٩٥٣).

النمط: نوع منسوج كالسباط. الديباج: ثوب سدها ولحمته من حرير.

ومطالبةً بأن تُدَوَّنَ وتُسَجَّلَ معارفها المنزلة عليها من ربها بالقلم، وتدوَّن وتسجَّل بالقلم المعارف التي تصلُّ إليها بأي طريق من طُرُق المعرفة، وأي وسيلةٍ من وسائلها، وأيِّ أداة من أدواتها، لتكون المسطورات مُبَيَّنَاتٍ لعلومها ومعارفها، ومراجع لاستذكارها، ووسائل لنشرها بين القراء الذين يقرؤون المسطورات وكلِّ مخطوطٍ بالقلم ويُلحِقُ بالقلم كلُّ وسيلة تُثَبِّتُ بها رموزُ الكلماتِ، أو صُورُ نُطقِها.

وقد أخذ المسلمون بهذا التوجيه الربّاني، فكتبوا القرآن المجيد أولاً بأمرٍ من الرسول ﷺ، ثُمَّ كَتَبُوا ما حفظوه من أحاديث الرسول ﷺ، ثم دَوَّنوها في مُدَوَّنَاتٍ كبرى، ثم أخذوا يُفَسِّرُونَ آياتِ القرآن المجيد، ويشرحون أحاديث الرسول الكريم، ويكتبون ما يستنبطونه من مفاهيم، وما يجمعونه من آثار، وما يكتسبونه من معارف هي من نتاج وسائل المعرفة الإنسانية، واهتمُّوا بِخِدْمَةِ اللُّغَةِ العربيَّةِ خدمات جليلات، مُسْتَنْبِطِينَ قواعدها، وجامعين معاني مفرداتها، لأنَّ فهم اللُّغَةِ هو المساعد الأوَّل على فهم نصوص القرآن والسُّنَّة، واهتمُّوا أيضاً بتدوين أحداث سيرة الرسول ﷺ، وسيرِ أصحابه الكرام، والتابعين لهم بإحسان، وتوسَّعوا في تدوين التاريخ توسُّعاً كبيراً.

ثُمَّ انطلقوا إلى اقتباس العلوم التي توصلت إليها الأمم من قبلهم، فألَّفُوا فيها المؤلَّفَاتِ، وتوسَّعوا في البحث العلمي والتأمُّل والتجربة والابتكار، حتَّى كانت لهم مخطوطاتٌ من الكتب لا تدانيها مخطوطات الأمم السابقة لهم مُتَّفِرِّقَةً وَلَا مجتمعة.

وكان للمسلمين بذلك حضارة شاملة رائدة لشعوب الأرض جميعاً.

ثُمَّ أغارت على مخطوطات كتبهم الكثيرة جدًّا جحافلُ هَمَجِ جَهْلَةٍ، من شعوب الشرق (المغول والتتار) فأتلفتها، وألقت عشرات الألوف منها في دجلة.

وكذلك فعلت جحافل همج النصارى، إذ أغارت على مخطوطات كتبهم الكثيرة في الأندلس، فأحرقتها علناً، ولم تستجب لنداءات عقلاء النصارى، ومنهم بابا الفاتكان يومئذ.

- ٢ -

الكتاب قديماً

وكان الكتاب قديماً كتاباً مخطوطاً بأيدي المؤلفين، ثم بأيدي السُسخ، وكان مرجع الدارسين المتخصصين، باستثناء كتاب الله عزّ وجلّ، فقد كان جلس كلّ قارىء وقارئة من المسلمين، الذين يحرصون على اغتنام الحسنات، بقراءته من المصحف، أو بتلاوته من الحفظ، وباستثناء بعض كتب الحديث، أو كتب السيرة والتاريخ.

أما كتب العلوم المختلفة عند المسلمين فكان لا يُزاول القراءة فيها إلا طلاب العلوم، الذين يتابعون ما يدرسون منها في الكتب المؤلفة فيها، بيد أن هؤلاء كانوا كثيرين جداً، إذا قورنوا بمتعلمي الشعوب الأخرى، إذ كانت الأمة الإسلامية هي رائدة العلم والحضارة، قبل الحروب الصليبية، وأثناءها، وبعدها قليلاً.

ثمّ تراجعت شعوب الأمة الإسلامية تراجعاً خطيراً إلى الأمية بعوامل مختلفة، واستمرت في التراجع عدّة قرون.

ثم بدأت تستعيد في العصر الحاضر خطواتها الارتقائية، بعوامل داخلية وخارجية مختلفة، فمنها ما كان بتأثير الاقتباس من الحضارة الغربية المادية، ومنها ما كان من أثر الصراع الفكري مع الشعوب غير المسلمة الطامعة ببلدان العالم الإسلامي، والطامعة بالاستيلاء على خيراتها واستعباد شعوبها، ومنها ما كان من أثر الرغبة الشديدة في إحياء تراثها العلمي وتنميته.

الكتاب بعد انتشار المطابع

لكن صار للكتاب أهمية عظيمة جدًا بعد وجود المطابع الآلية وانتشارها بوفرة، وطباعتها لعشرات ومئات الألوف من كُتُبِ كتابِ تخصُّصِيٍّ أو غير تخصُّصِيٍّ، وبعد أن أخذت الشعوبُ الغربيَّةُ ثمَّ الشَّرقيَّةُ غيرُ المسلمة سبيلها إلى الارتقاء الحضاريِّ الماديِّ، لكسب المال، وتحقيق الرفاهية، وصار الكتاب أحد أعمدة المعرفة لديهم إذ قلَّت فيهم الأمية جدًا إلى أدنى الحدود.

ثم صار للكتاب أهمية عظيمة لدى شعوب الأمة الإسلامية بعد أن بدأت تتخلَّص من الأمية العارضة الخارجة عن هويتها شيئاً فشيئاً، وصار للكتاب عندهم نسبة ما من القراء، إذ بدؤوا يرتقون في أوائل درجات سلم الأخذ بوسائل المعرفة بالتدرج، إلا أن هذه النسبة فيهم ما تزال قليلة، ودون المطلوب منها بمقتضى كونها أُمَّةً (اقرأ) لعدة أسباب، منها ما يرجع إلى طبيعة تطوُّر خلاص الشعوب الإسلامية من أعراضها المرضية الطارئة على كياناتها، وإلى طبيعة تطوُّر ارتقائها في اتجاه ذروات المعرفة العليا، ومنها ما يرجع إلى مكر الدول العظمى غير المسلمة، لإبقاء شعوب الأمة الإسلامية متخلِّفة عن مُسايَرة ركب الحضارة المادية، ومحجوبة عن الارتقاء الحضاريِّ المعنويِّ الفكريِّ والخلقيِّ والنفسيِّ والاجتماعيِّ الذي تَمَلِّكُ كُلَّ أُسُسِهِ وأسبابه دون أُمَّمِ الأَرْضِ جميعاً.

ودوافع هذه الدُّول ترجع إلى رغباتِ استثمارٍ ما لدى شعوب الأمة الإسلامية من خيرات كثيرات، بنزعات استعمارية، وإلى تخوُّفها من عودة الإسلام إلى الظهور القويِّ، بحلَّةٍ حضاريةٍ جديدة، تؤهله لامتلاك عقول ونفوسِ الشُّعوبِ غير المسلمة، وللنُّهوض بالشعوب الإسلامية مُسَابِقَةً في

مسيرة ركب الحضارة المادية كل الشعوب الأخرى .

- ٤ -

الدعوة إلى القراءة

فعلى حملة رسالة الرسول محمد ﷺ الدَّعْوِيَّةَ وغيرها، أن يَبْدُلُوا جَهْدًا عظيمًا في توجيه شعوب الأمة الإسلامية للتحقق بما وجهها الله له، إذ أرشدها أن تكون أُمَّةً (أقرأ) وأن تتخلص من أُمِّيَّاتِهَا التي كانت فيها قبل أن تدخل في الإسلام .

وعليهم أن يَعْمَلُوا بِجَهْدٍ مُكْتَفٍ على تدريب الأجيال الناشئة على قراءة الكتب النافعة المفيدة، بأمل أن يكون الكتاب النافع المفيد جليس كل رجل وامرأة من الأمة الإسلامية، وكل ناشئ وناشئة من ذرايعهم، بحسب مستوياتهم وإمكاناتهم العلمية والثقافية، وبحسب أعمارهم من الطفولة إلى التمييز إلى الرشد، ثم إلى المستويات الثقافية الرفيعة .

على أن يكون كتاب الله ومستويات ملائمت من تفسيره، أو تفسير بعض سُورِهِ، وكتب أحاديث الرسول ﷺ وبعض ما يتعلق بها من شروح، بمثابة القوت اليومي لكل فرد منهم، وأن تكون لهم وجبات يومية من الكتب الشارحة للإسلام، ولسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولسير أصحابه الكرام، وسير الذين اتبعوهم بإحسان، ومن الكتب التي تحذّرهم من مكائد شياطين الإنس والجن، وتبصّرهم بوسائلهم وحيلهم وأساليبهم، التي ينشرون بها في الأرض الفساد، والكتب التي تُدرّبهم على أن يُصارعوا بالحق الجلي الجميل، أفكار أعداء الإسلام الباطلة المزخرفة بالأقوال الكاذبة، والمزينة بالأصباغ والألوان الخلبية الخادعة. ثم من كتب العلوم النافعة المختلفة، التي يعتمد عليها الارتقاء الحضاريّ الشامل لهذه الأمة الإسلامية المصطفاة،

الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ إِذَا حَافِظَتْ عَلَى هَوِيَّتِهَا الَّتِي
أَوْصَاهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِأَنْ تَحَافِظَ عَلَيْهَا.

- ٥ -

حُسْنُ اخْتِيَارِ الْكِتَابِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُوجَّهَ لِقِرَائَتِهِ

وعلى حامل الرسالة أن يتوسع في قراءة الكتب، ولا سيما ما يؤلفه كبار الكتاب الإسلاميين الموثوقين بدينهم، وبأمانتهم العلمية، وبحسن تأليف الكتب وإتقانها، وحسن عرض القضايا فيها بأساليب جذابة مُشْرِقة، مُمتعة للقراء، ومقنعة للأفكار، ومستثيرة للعواطف النبيلة الصادقة.

ثم عليه أن يختار لكل مستوى من الراشدين والناشئين والأطفال، الكتب المناسبة له، ليوجهه لاقتنائها، وينصحه بقراءتها، مع متابعتها لمعرفة ما اقتنى وما قرأ منها.

فإذا علم بأن أحداً منهم قد قرأ كتاباً، أو قسماً من كتاب، ناقشه فيما قرأ، وصحح له المفاهيم التي أخطأ فيها، وأقره على الصواب منها، حتى إذا وجده قد استوعب الأفكار، واستقامت في ذهنه، طلب منه تلخيص ما قرأ أمام أترابه، وشرح أهم الأفكار، وإيراد أهم الشواهد.

ثم إذا وجدته قد تمكن من معلوماته التي قرأها ووجدها معلومات نافعات لجمهور من الناس، واستشعر أنه صار قادراً على أن يُقدّمها عطاءً توجيهاً، لجمهور من الناس، دعاه إلى إلقاء هذه المعلومات أمام جمهور من رواد المسجد على شكل خطبة أو درس، بعد أن يُقدّمه إليهم مُثنيّاً عليه بأنه قد قرأ الكتاب الفلاني واستوعبه، ووعى ما فيه من أفكار ومعلومات، فمن الخير أن يُوفر علينا الجهد، ويُقدّم لنا المعلومات التي استفادها من الكتاب بإيجاز.

وبهذا يستطيع حاملُ الرسالة أن يُنشِئ حركةً علميةً ثقافيةً إسلاميةً، فرديةً وجماعيةً، في مجال نشاطه، وأن يُعدَّ بالتدريج ذوي استعداد لأن يكونوا مستقبلًا خطباءً، ومُدْرَسِينَ، ومعلّمين، وواعظين، وناشرين للإسلام، وداعين إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، متحلّين بعلم ومهارة وقدرة على مخاطبة الجماهير، ببيان مشرق، وأساليب مُحَبِّبة للنفوس.

وحين تدور حركة هذا البرنامج الإصلاحيّ والإعدادي، ويكثرُ القُرَّاء الذين تُمنَحُ لهم فُرْصُ التدرُّبِ على العطاء التعليمي والتوجيهي، فلا بُدَّ أن يَجْرِي التنافس بينهم في التدرُّب على حمل الرسالة والقيام بوظائفها بصورة آليّة، ولا سيما إذا وَجَدَ المتفوقون مُشَجَّعَاتٍ وحوافزَ لِهَمِّهِمْ.

وعندئذٍ تتسعُ حَلَقَةُ القُرَّاءِ، وتكثرُ أعدادُ ذوي الرغبة في العطاء، الذين لديهم استعدادٌ له، ويتجهُ الناشئون في مجال نشاط حامل الرسالة إلى النَّهْمِ في القراءة، والاستزادة من المعرفة، والرغبة في التعليم والتربية والعطاء التوجيهي.

وبهذا يكونُ حاملُ الرسالة قد أَدَّى وظيفتهُ أداءً حسنًا، يُكسِبُهُ رِضْوَانُ رَبِّهِ، ويرْفَعُ منزلتهُ عندهُ وفي جنّاتِ النعيم.

- ٦ -

صفات الكتاب الجدير بالاعتبار والتقدير

توجد للكتاب الجيد الجدير بالاعتبار والتقدير، صفاتٌ تتعلّق بالشكل، وصفات تتعلّق بالمضمون:

● أمّا الصفات التي تتعلّق بالشكل: فتتلخّص بحُسن الطباعة وأناقتها،

وَجَوْدَةَ الورق، ووضوح الحروف، وإيجاد الفواصل بين الفقرات التي تفصلها فروغ أو أغصان، وتمييز الجمل بفواصل مطبوعة، واتباع مصطلحات النقط، والشرطات، والواو المقلوبة، وإشارات الاستفهام والتعجب، وتزويد الكتاب بما يحتاج إليه من وسائل إيضاح، كالخرائط، والصُّور، والمشجرات، والجداول، ونحو ذلك.

● وأما الصفات التي تتعلق بالمضمون ففيما يلي بيانها:

الكتب التي تصلح لأن تُوصف بأنها كتبٌ جيِّدةٌ أو أكثر من جيِّدة ذوات أنواع وأغراضٍ مختلفات، وذوات مستويات متفاوتات في إتقانها، وذوات تلاؤمات مع الشرائح الاجتماعية مختلفات.

١ - فمنها كتبٌ للفكر تبني معرفةً صحيحةً رصينةً، قائمةً على أصولٍ ثابتة، وقواعد علمية منطقية.

٢ - ومنها كتبٌ مقالاتٍ متناثراتٍ تطوفُ حول محورٍ واحدٍ.

٣ - ومنها كتبٌ للاستمتاع النَّفسي بآدابها وطرائفها، مع ما فيها من فوائد علمية وإرشادية.

٤ - ومنها كتبٌ وعظٌ نافع، وإرشادٌ عامٌّ، وترغيبٌ وترهيبٌ.

٥ - ومنها كتبٌ تاريخٍ وقصصٍ إنسانية.

٦ - ومنها كتبٌ وصفٍ للطبيعة وقوانينها وأنظمتها.

٧ - ومنها كتبٌ إرشادية لمعالجة أسباب العيش من المآكل والمشارب، والمناخ، والمساكن، والبيع والشراء، والإقامة والسفر، ونحو ذلك.

٨ - ومنها كتبٌ للترف الفكريِّ العالي، كبعض الرياضيات العليا،

ومسائل الفلسفة المعقدة التي ليس لها جدوى عملية في حياة الناس .

٩ - إلى غير ذلك .

الكتاب الذي يبني معرفة صحيحة مهمّة :

أما الكتاب الذي يبني معرفة مهمّة صحيحة مؤصّلة فالصفات التي تجعله جيّداً فما فوق الجيد، بحسب مقدار إتقانه، هي ما يلي :

الصفة الأولى : أن تكون المعارف فيه منظمّة في أصولها وفروعها على وفق النظام الشجريّ في الطبيعة، ضمن روابط منطقيّة :

إن لكلّ صنف شجرة من أشجار الطبيعة بزرّة تنفلق في اتجاهين :

● اتّجاه إلى العمق، إذ تتغلغل في الجذور بحثاً عن القوت من التراب والماء، وتمتد الجذور متشعبة من ساق فأكثر إلى فروع، فأغصان، ففروع، فشعيرات تمّصّ الماء مع العناصر المنحلّة فيه من التراب .

● واتّجاه إلى الأعلى يَشُقُّ الأرض ويذهب نامياً صاعداً في السماء، بحثاً عن القوت من الرياح والضياء، وهذا يمتدّ متشعباً إلى ساقٍ فأكثر، فالإلى فروع، فأغصان كبرى وصغرى، فأوراق، وثمار إذا كان من الأشجار المثمرة .

وهكذا كلُّ موضوعٍ علميٍّ من الموضوعاتِ الأصول أو الفروع هو بمثابة شجرة، لها بزرّة هي المنطلق، ولها شطران رئيسان : شطرٌ يمتدُّ جذوراً متفرعة في أرضية الفكر . وشرطٌ يمتدُّ ساقاً أو أكثر، ففروعاً فأغصاناً في سماء الفكر، وهذا هو الذي يُورِق، ويُعطي الثمار غالباً .

فمن بنى أفكار كتابه بناءً منطقيّاً، ضمن نظامٍ شجريٍّ، متدرّج، مترابط، متكامل، فقد أجاد البناء، وأحسن الإنشاء .

ومن لم يتبع البناء المنطقيّ ضمن النظام الشجريّ الطبيعيّ للموضوع

الذي ألف فيه كتابه، أو بحثه، فقد أخلّ، وأنزل كتابه عن مستوى الجودة بمقدار عدم التزامه بهذا النظام.

الصفة الثانية: أن تكون جذوره، وسوقه، وفروعهما، وأغصانهما، وكلّ الأقسام فيه، واضحات المعالم، ذوات عناوين وفواصل مُميّزة، ومُتميّزة، كما جعل الله عزّ وجلّ لكلّ قسمٍ من أقسام الشجرة وأقسام أيّ كائن حيّ صفاتٍ خاصّةً به تميّزه عن غيره.

إنّ للجذر صفاتٍ خاصّةً به. وإنّ للساق صفاتٍ تختصّ به، وإنّ للفروع صفاتٍ تختصّ بها، وإنّ للأغصان صفاتٍ تميّزها، وكذلك الأوراق والبُراعمُ والثمار، ولكلّ شيءٍ فيها.

أما الكتاب الذي تدورُ شجرةُ أصوله وفروعه وفروع فروع، مختلطةٌ ببعضها، فهو شبيهٌ بجهازٍ معدّةٍ لهضمّ الطعام، ولا ينسجم مع جهاز الفكر الذي خلقه الله متلائماً مع النظام الشجريّ، فإذا وردت إليه هذه المختلطات اضطرّ إلى أن يبذلَ جهداً عظيماً حتّى يفصلَ بعضها عن بعض، ويجعلَ كلّ منها في موضعه ضمن النظام الشجريّ، أو اضطرّ إلى أن يُفسدَ فطرته التي فطره الله عليها، ويحفظ المختلطات حفظاً كما وردت إليه، فإذا أراد أن يُصدّرَها صدّرَها مختلطةً أيضاً.

وهكذا نجد كثيراً من العلماء، وكثيراً من المؤلفين يدفعون ما في ذكراتهم من علومٍ دفعاً مختلطاً.

إنّ الناس بحسب فطرهم التي فطرهم الله عليها، لا ينسجمون مع مختلطات الأفكار، لأنّها إذا زادت في اختلاطها عن المعتاد في أساليب الناس صارت في تصوّره هذياناً، أو دالّةً على لؤثةٍ ما في فكرٍ من صدّرت عنه، أو عدم انتظامٍ فكريّ لديه، أو هو مضللّ.

وإذا لم ينسجم الناس مع الكتاب المختلطٍ هجره، ولم يحتفلوا به،

ولا باقتنائه، مهما أُحيط بترويج دعائي قويٍّ إبَّانُ ظُهوره، فمعظم الناس غيرُ مستعدِّين لإفساد فطرهم التي فطرهم الله عليها، إكراماً للمروِّجين الإعلاميين.

ومن أمثلة هذه المختلطات ذاتِ الهَدَفِ التضليلي أكْداَسُ كُتُبِ الشِيعِيِّينَ، الَّتِي رَوَّجَهَا يوماً ما الإعلامُ الشِيعِيُّ، الَّذِي كَانَ مَسْخَرًا لِلاتِّحَادِ الشُّوْفِيَّتِيِّ وَالْيَهُودِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ، فِي أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ الْمِيلَادِيِّ، قَبْلَ سَقُوطِ الشِيعِيَّةِ وَدَوْلَتِهَا الْعَظْمَى.

الصفة الثالثة: أن تكون عباراتُ الكتابِ واضحاتِ الدلالاتِ، خفيفاتِ الظلِّ، مشرقاتِ الأسلوبِ، تتخلَّلُهَا بَتَلَقَائِيَّةٌ وَدُونَ تَكْلُفٍ صُورٌ بَيَانِيَّةٌ بَدِيعَةٌ، تُسَاعِدُ عَلَى فَهْمِ الْأَفْكَارِ، وَلَا تُتَسَبَّبُ فِي خَلْخَلَةِ الْمَعَانِي، أَوْ إِخْرَاجِ الْكِتَابِ عَنِ جَدِّيتِهِ الْعِلْمِيَّةِ، وَطَرَائِقِهِ وَأَسَالِيْبِهِ الْإِقْنَاعِيَّةِ.

الصفة الرابعة: أن يُمَسِكَ الْكِتَابُ فِكْرَ قَارِئِهِ إِمْسَاكًا يَجْعَلُهُ شُغُوفًا بِمُتَابَعَةِ سُلْسَلَةِ أَفْكَارِهِ الْمُرَابِطَةِ حَتَّى آخِرِ صَفْحَةٍ مِنْهُ.

وهذا لا يتحقَّقُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ أَفْكَارُ الْكِتَابِ سَائِرَةً سِيرًا طَبِيعِيًّا مَنْطِقِيًّا ضَمِنَ النِّظَامَ الشَّجَرِيَّ الَّذِي فَطَرَ اللَّهُ الْعُقُولَ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ أَقْسَامُهُ وَاضِحَةً الْمَعَالِمَ مَعَ تَسْلُسُلِهَا الشَّجَرِيِّ، وَكَانَتْ عِبَارَاتِهِ مَشْرُوقَةً جَذَابَةً تُرْضِي أذْوَاقَ النُّفُوسِ الْجَمَالِيَّةِ.

الصفة الخامسة: أن يكون الكتابُ مناسباً لمستوى قارئه فكريًّا وعلميًّا وثقافيًّا، ومناسباً لعمره ومقدارِ خِبرَاتِهِ فِي الْحَيَاةِ.

أَمَّا إِذَا كَانَ أَعْلَى مِنْ مُسْتَوَاهُ فَإِنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَلَى قِرَاءَتِهِ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ أَدْنَى كَثِيرًا مِنْ مُسْتَوَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاهُ غَيْرَ مُفِيدٍ لَهُ، فَهُوَ لَا يَحْتَقِلُّ بِهِ، وَلَا يَكْتَرِثُ لَهُ.

الصفة السادسة: أن لا يكون الكتاب منحازاً بدافع من هوى نفسي،
موجّهاً لنصرة جماعةٍ معيّنة، أو مذهبٍ معيّنٍ من مذاهب أهل السنة
والجماعة، أو لُنصرةٍ سياسةٍ زمنيّةٍ معينه، فيها حقٌّ وباطلٌ، وصوابٌ وخطأٌ،
واستقامةٌ واعوجاجٌ.

بينما يجب في الكتاب الإسلامي أن يكون دائراً مع الحقّ حيث دار،
وسائراً معه حيث سار، غير متحيّزٍ ولا متعصبٍ لجماعةٍ ذاتِ رأيٍ خاصّ، أو
مذهبٍ ذي اجتهادٍ خاصّ به.

إنّ الكتاب الإسلامي الدّعويّ العامّ، والذي يحمل رسالة النصح
والإرشاد لعموم جماعات المسلمين يجب أن يكون جامعاً غير مفرّق، يصل
القارئ بكلّ الأمتة الإسلاميّة، على اختلاف جماعاتها ومذاهبها الاجتهاديّة
لدى جمهور علماء أهل السُنّة والجماعة.

أمّا نصرةُ اجتهادٍ معيّنٍ فينبغي أن يفتَصِرَ ناصرُه على قوله: هذا ما ترجّح
لديّ بالنظر إلى الأدلّة، إذا كان فعلاً هو الذي ترجّح لديه بالأدلّة الصحيحة.

* * *

الكتاب الموضوع للوعظ والإرشاد:

وأما الكتاب الموضوع للوعظ والإرشاد والتوجيه لالتزام الإسلام بوجه
عامّ، فلا يشترط فيه اتّباع النظام الشجريّ، وإن كان اتّباع هذا النظام فيه - ولو
بوجهٍ من الوجوه - يجعله أكثر إتقاناً وترابطاً وتأثيراً.

ولكن يشترط فيه إشراق العبارة، وخفة الظلّ، وأن يكون أسلوبه ذا
تأثير على مشاعر النفوس، وقُدرةٍ على استثارة عواطفها النبيلة، وتوجيهها
لفعل الخير وترك الشرّ، والتزام الفضيلة واجتناب الرذيلة.

ولا مانع من أن يكون على شكل مقالات أدبيّة متناثرات، تطوّف حَوْلَ

مُحَوَّرٍ دَعَوِيٍّ أو إرشادي نصحيٍّ واحد، أو تتناول موضوعات إسلامية متفرقة، في العقيدة والأخلاق والآداب ونظم الإسلام إلى غير ذلك، فمحورها الإسلام بوجه عام، ولكن تنزل بهذا قيمة الكتاب، ويغدو بمثابة مجلة أو صحيفة إسلامية.

ولا مانع أيضاً من أن يكون شرحاً لنصوص منتقاة من القرآن المجيد، أو من أحاديث الرسول ﷺ في مختلف الموضوعات الإسلامية.

ويحسُنُ في هذا النوع من الكتب أن يشتمل على وافٍ من الشواهد العلمية المختلفة من كلِّ التخصصات، والأمثلة التاريخية، وأقوال كبار العلماء والحكماء، ونفائس الشعر والأدب.

* * *

الكتاب الموضوع للاستمتاع بالآداب والطرائف:

وأما الكتاب الذي يُقصدُ به الإمتاع بالآداب والطرائف، فلا يشترط فيه اتباع النظام الشجري، وإن كان اتباع هذا النظام فيه يجعله أكثر إتقاناً وجمالاً.

ولكن يشترط فيه إشراق العبارة، وخفة الظلّ، وحسُنُ انتقاء المختارات من الآداب والطرائف والنوادر، وحسُنُ تقسيمها إلى أشباه ونظائر، ووضعها في أصناف بحسب ما فيها من أشباه، أو بحسب المجالات والموضوعات التي تنتمي إليها فكرياً.

ويمكن أن يستفاد من هذا النوع من الكتب في اختيار آداب وطرائف ونوادر تصلح لرسالة الدعوة، أو لرسالة النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* * *

كتب السِّيَرِ والتواريخ:

وأما كُتُبُ السِّيَرِ والتواريخ، فيجب أن تكون معتمدة على الأخبار الصحيحة الموثَّقة. وأن يستفاد من الأحداث المعروضة فيها للتنبيه على العظات التي تشتمل عليها، وعلى سُنَّةِ الله في عباده، كلما وُجِدَتْ مناسبةً لذلك.

ويشترط فيها أيضاً إشراق العبارة، وسلاستها، وانسيابيتها، وخِفَّةُ الظلِّ، وحُسْنُ التقسيم والتفريع، والتلاؤم بين العبارة والموقف العاطفي للحدث التاريخي، ومراعاة تسلسل الأحداث في الواقع، وأن لا يكون في الأخبار تعارض ولا تناقض، وأن لا تكون الأخبار مما تحكُّم العقول السليمة بسقوطها ومنافاتها للأحداث الإنسانية الطبيعية، باستثناء المعجزات وخوارق العادات الرَبَّانِيَّة.

* * *

كتاب القصة:

وأما كتاب القصة فقد أوفت الدراسات والبحوث الأدبية ما تحتاجه القصة من شروط فنية، حتى تكون جذابة لقارئها، ومؤثرة فيه.

فينبغي لحامل الرسالة الدعوية أو الإرشادية، أن يستفيد مما كُتِبَ في هذا المجال، إذا أراد أن يكتب قصة ذات نفع في موضوع من موضوعات رسالته التي يضطلع بمهامها، أو إذا أراد أن ينتقي كتاباً صالحاً في هذا المجال ليوجّه لقراءته.

وأما الكتب الأخرى فهي تدخل في اهتمامات المختصين بموضوعاتها، ولكن يجب تنقيتها وتصفيتها مما يتعارض مع الإسلام، وتزويدها بما يخدم أصوله وفروعه، كلما وُجِدَتْ مناسبةً صالحةً لذلك.

* * *

المقالة

المقالة: هي بمثابة بحثٍ ملخّص، أو فصلٍ منتقى، من كتابٍ علميٍّ، أو دَعَوِيٍّ، أو إرشاديٍّ نصحيٍّ، أو أدبيٍّ، أو تاريخيٍّ، أو قصصيٍّ، مع مقدّمة أو خاتمة تعطيناه استقلالاً، وتجعلانه صالحاً لأن يُنشر مستقلاً، في مجلّةٍ علميّة أو عامّة، أو صحيفة دوريّة.

والمقالة قد تنوب مناب خطبة، أو درس، أو كُتَيْبٍ صغير.

وتبدو أهميّتها في أنّ وسيلة توصيلها إلى القُرّاء أكثر انتشاراً، وأيسرُ كُلفة، فهي محمولةٌ على شواغر قافلة سائرة بها وبدونها، وتصلُ إلى مواقع كثيرة لا يصلُ إليها الكتاب، وينتفع بها متصيّدوها المترقّب، أو عابر سبيل.

غير أنّ القليل من الناس من يفصلها ويصنّفها، بغية أن يرجع إليها للاستذكار، أو الاستشهاد ببعض ما جاء فيها، أو عندما يحتاج إلى أفكارها وما اشتملت عليه من معارف أو توجيهات أو آداب، أو غير ذلك.

وليس لها في نفوس القراء أو النقاد والباحثين عادةً ما للكتاب من ثقلٍ علميٍّ موثوق به، بسبب مجاورتها غالباً للأخبار ومقالاتٍ ودعايات ذات طابع إعلاميٍّ ترويجيٍّ، لا يعتمد الصدق فيما يُروّجه، بل الغاية منها تحقيقُ أغراض وأهدافٍ نفعيّةٍ خاصةٍ فرديةٍ أو جماعيّة.

باستثناء المجلات العلميّة التي تهتمّ بالتوثيق العلميٍّ، لا بالترويج الإعلاميِّ القائم على الدعاية المصحوبة بالمؤثرات النفسية.

* * *

الوسيلة الثامنة

الشعر

الشعر: فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ الجميل، المؤثر في النفوس المحبّة للفنون الجماليّة، عمادُه الإيقاع الموسيقي الموزون، والمقاطع المتناظرة القوافي، والاستفادة من المهارة التصويريّة، والحيّل الخيالية، واصطيادُ نواذر الأفكار الطائرة السوانح والبوارح والمحلّقة في الأجواء العالية.

وباستطاعة حامل الرسالة ذي المواهب الشعريّة أن يستخدم الشعر في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والتّصحّح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وباستطاعة من لم تكن لديه مَوَاهِبُ شعريّةٌ أن يحفظ نفيس الشّعر مما يخدم رسالته، ويستشّهد بما يراه مناسباً منه للموضوع الذي يتحدّث فيه، لدى أدائه بعض وظائف رسالته، ممّا كتبه الشعراء الموهوبون.

إنَّ الشّعْرَ فنٌّ من فنون الأدب، ومعلومٌ أنّ حملة رسالة الرسول ﷺ مدعُؤون إلى استخدام الأدب لتأدية رسالتهم بصورة جميلة محبّبة للنفوس، وبوجوه مختلفة ذات تأثير في الذين تُوجّه لهم الرسالة، إذ الأدب أحدُ وسائل التأثير الجمالي في النفس الإنسانيّة، وأحد وسائل الإعلام الرفيع، وسلاحٌ بيانيٌّ فعّالٌ في كثيرٍ من الأحيان.

وقد أنزل الله عزّ وجلّ القرآن المجيد معجزاً في بيانه، مع وجوه إعجازه

الأخرى، وكان رسول الله ﷺ أفصح العرب الذين كانوا أفصح الناس، وكان ﷺ أعلاهم بياناً، وأقدرهم على التأثير بكلامه البليغ، وكذلك كان معظم الأنبياء والمرسلين في أقوامهم، إذ كانوا أبلغ أقوامهم كلاماً، وأعلاهم بياناً وحُجَّةً وتأثيراً.

ولما كان الشعر فنّاً من فنون البيان الجميل الرفيع، جاء فيما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ قال:

«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمًا»^(١).

وقد كان للرسول ﷺ شعراء ينافحون بالشعر عن دين الله، ويكافحون أعداء الرسول والمسلمين، ويذُبُّون عن الحق، منهم: «حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ» رضي الله عنهم، وقد أورد ابن هشام في سيرته لهم شعراً كثيراً.

وجاء في صحيح مسلم أن حسان بن ثابت قال لأبي هريرة: أنشدك بالله، هل سمعت النبي ﷺ يقول:

«يَا حَسَّانُ أَجِبْ عَن رَسولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ؟» فقال أبو هريرة: نعم.

وعند مسلم أيضاً عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: «اهْجِهِمْ أَوْ هَاجِهِمْ وَجَبْرِيلُ مَعَكَ».

وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَن اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

(١) انظر الحديث (٢٢١٥) من صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني.

وقد كان الشعر عند أكثر الشعراء ومكافئهم وسيلة إعلامية دعائية،
إلا أنه يمكن - كما صار يستخدم فيما بعد ذلك - أن يكون وسيلة نافعة
خطيرة، صالحة لأن تستخدم في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة
الحسنة، وفي النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
والتوجيه للخير، والتحذير من الشرّ، وإجراء الحكمة سائرة على ألسنة
الناس.

* * *

الوسيلتان التاسعة والعاشره

القصة والتمثيل

سبق بيان ما يتعلق بهاتين الوصيلتين في الفصل الأول «التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر» باعتبارهما من وسائل التوجيه غير المباشر. ولهما أيضاً موقع هنا باعتبارهما من وسائل الأداء البياني، ولكن لا داعي إلى إعادة شرحهما، تخلصاً من عيوب التكرار دون غرض يقصد علمياً أو تربوياً أو بلاغياً.

فيحسن الرجوع إلى ما سبق أن ذكرته عنهما.

* * *

الفصل الخامس

أدوات التوصيل الإعلامي ومسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إليها

وفيه أربع فقرات:

- ١ - استعراض تاريخي .
- ٢ - أدوات التوصيل الحديثة .
- ٣ - مسؤولية حملة الرسالة بالنسبة إلى أدوات التوصيل الإعلامي المختلفة .
- ٤ - الرأي في حكم التصوير بالأدوات المستحدثة .

استعراض تاريخي

١ - كانت أداة التوصيل للإعلام البياني في بدايات التاريخ الإنساني، الإشارة بالحركات الجسدية، وأن يُسمع الإنسان كلامه الدالّ في المتعارف بين الناس على المعاني التي يُريدها، بصوته مباشرة، وكان هذا قاصراً على مدى ما يصلُ إليه الصوتُ عند إعطائه غاية ارتفاعه.

٢ - ثمَّ وجدَ الإنسانُ أنه إذا علاَ فوقَ مُرتفعٍ من الأرضِ استطاعَ أن يوصلَ صوتهَ إلى مدى أبعدَ، وأن يُسمعَ به مَنْ يبلُغُهُمْ صوتهُ، وكذلك الإشارةُ الدالَّةُ على معنى متعارفٍ عليه تكونُ في المرتفعِ أوسعَ رائيينَ، وأبعدَ مدىً.

٣ - ثم صار أصحابُ البيان الذين يَضْعُبُ عليهم إبلاغَ كثيرين من الذين يُريدون إبلاغَهُمْ إيَّاه، يستخدمون أشخاصاً آخرين يُبلِّغونَ عنهم ما يُريدون توصيله إليهم بأصواتهم، لأنَّ أصواتَهُمْ لا تصلُ إليهم، مَهْمَا أَعْطَوْهَا غايةَ مداها.

وفي المجامع العامة التي يجتمع فيها جمهور كبير، لاستماع كلام كبير من كبراء القوم، أو مُعلِّمٍ أو خطيبٍ، كانَ صاحبُ البيان يَضْعُ مُبلِّغينَ لكلامه في مجلسه، على مسافاتٍ مُتناظرات، فيُلقي هو بصوته الجملة التي يُمكنُ أن يلتقطها المُبلِّغُ الأوَّل، فيلتقطها هذا المبلغ ويُلقيها بأعلى صوتِهِ، ويلتقطها منه المُبلِّغُ الثاني، ويُلقيها لِسَمْعِهَا مَنْ هُمْ أبعد منه مسافة، وهكذا حتَّى يَسْمَعَهَا آخر المحتشدين.

ثم يلقي صاحبُ البيان جملةً ثانية، و ينتظر حتى يتِمَّ تَبْلِيغُهَا، وهكذا حتى يُنْهِيَ كُلَّ كَلَامِهِ .

وكان المحدثونَ والوعاظُ في المساجد والجوامع الكبيرة، التي يجتمع عليهم فيها خلقٌ كثير، يتخذون لأنفسهم مبلِّغين، يُبَلِّغُونَ ما يتحدَّثون به، وكان يُسَمَّى هذا المبلِّغُ مُسْتَمْلِيًا، ويُخْتَارُ عادةً من نأبهي الطلاب، ذوي الصوت العالي، وقد يصلُ المستملون في المجلس الواحد إلى عشرة .

واكتشف المهندسون في أماكن العبادة الكبرى طرائق في بنائها صالحة لتجميع صدئ الصَّوتِ، وتوصيلِ صَوْتِ الخطيب المرتفع فيها إلى جميع الذين هم داخل جُدران البناء .

٤ - ومُنذُ ابتكرَ الناسُ الكتابةَ على الجلودِ والصفائحِ الحَجَرِيَّةِ، وعِظَامِ أَكْتافِ الحَيَوَانَاتِ الذَّبِيحَةِ بعدَ تَنظِيفِهَا من آثارِ اللَّحْمِ والدَّهْنِ، اتَّخَذُوا إِحْدَى أَدْوَاتِ تَوْصِيلِ البَيَانِ الكَلَامِيِّ الَّذِي يُرَادُ الإِعْلَامُ بِهِ .

واستخدم الناسُ البَريدَ، والحَمَامَ الزاجِلَ لتوصيلِ رسائلهم إلى من يُريدون إعلامَهُ ببياناتِ تَهْمُهُمْ، إذ يكون هؤلاء وهؤلاء متباعدين في بلدانٍ نائية عن بعضها .

وتوسَّعَ الناسُ في استخدامِ وسيلةِ الكتابةِ وأدواتها، حين اكتشفوا صِنَاعَةَ الورقِ، وكان الصينيون هم أوَّلُ المبتكرين لهذه الصناعة .

وبدأتِ الصُّحُفُ والمؤلَّفاتُ تُدَوَّنُ على قِطَعٍ من الجلودِ، وكانت الجُلُودُ المختارةُ للكتابة من جُلُودِ الغزلانِ، لرقتها وميلها إلى البياضِ، وتُدَوَّنُ أيضاً على صحائفٍ من المصنوعاتِ الورقيةِ، ثم تُجَمَّعُ على شَكْلِ رسائل أو كتب كبيرةٍ ومجلِّداتٍ .

وكان الخطاطون هم الذين يكتبون نسخ الكتب المؤلفة ويوسعون بكتابتهم لها انتشارها.

واستمرّ حال الناس عصوراً مديدة مقتصرين على أدوات التوصيل السابقة.

٥ - ثمّ ابتكرت المطابع الحجرية، فكانت أداة مهمّة وعظيمة لتوسيع انتشار المؤلفات.

ثم تطوّرت المطابع تطوّراً عظيماً، وصارت المطابع الآلية تُصدّر الألوف والملايين من الكتب والرسائل والجرائد والمجلات.

وسايرت بلدان العالم الإسلامي مسيرة الحضارة في استخدام المطابع الآلية، متابعاً ما تتطوّر إليه، وكان لاستخدام هذه الآداة المعاصرة نفع عظيم في نشر الكتب الإسلامية، وتوسيع توصيلها إلى كلّ طالب علم، سواء أراد طالب العلم اقتناء الكتاب لنفسه، أم أراد أن يُطالعهُ أو يُراجع بعض مسائل فيه في مكتبة عامّة، فقد انتشرت أيضاً المكتبات العامّة الكبرى منها، والوسطى، والصغرى، وزوّدت بعض المساجد بطائفة من الكتب النافعة التي يَرجع إليها الراغبون في القراءة المفيدة، وإن كانت هذه المكتبات العامّة بحاجة إلى انتشار أكثر، وإتقان أكثر، كما يجب استخدام كلّ أدوات التوصيل المطبوعة غير الكتاب، مثل المجلات، والجرائد، والنشرات، والإعلانات، لتوصيل رسالة الهداية ورسالة الإصلاح.

أدوات التوصيل الحديثة

وبالإضافة إلى أدوات التوصيل التقليدية وما تطوّرت إليه ظهر في العصر الحديث أدوات توصيل حديثة مدهشة .

١ - فاكْتُشِفَتْ أدوات حفظ الصوت في أسطوانات، واسترجاعه منها في آلة خاصة تكبِّرُ الصوت .

٢ - ثم اكتُشِفَتْ الوسائلُ لصناعة أدوات تكبير الصوت وتوصيله في المجامع إلى كلِّ الحاضرين، مهما كانت أعدادهم وابتعدت أماكنهم، واستغنى الناس بها عن المبلِّغين .

٣ - ثم ظهَرت في المبتكرات الإذاعةُ اللاسلكيةُ، فاستغنى الناس بها عن الارتحال في البلدان إلى المواطن البعيدة لتبليغ أصواتهم، وما يُريدون توصيله للناس بها .

وكانت الإذاعة أداة خطيرةً جدًّا ومهمَّةً جدًّا، لتعميم توصيل الأداء البياني، وتهيأت بها إمكاناتُ إبلاغ البيان إلى كلِّ من يُريدُ سَماعَ صوتِ صاحبِ البيانِ كأنه حاضرٌ في مجلسه .

٤ - ثم ظهرت في المبتكرات أدوات تُقلِّلُ صوتَ المتحدث مع صورته، السلكيةُ واللاسلكيةُ، فيما يُسمَّى «التليفزيون» فارتقى تأثير توصيل الأداء البياني ارتقاءً مذهشاً، لأنَّ النَّفوسَ تميل إلى رؤية صورة شخصٍ مُحدِّثهم وهو يحدث .

وظهرت في المبتكرات أدوات تسجيل الصوت على أشرطة، مع إمكان استعادة سَمَاعِ الصوت ما لا حَصَرَ له من المَرَّات، ومع قابليتها لأن يُنسخَ عنها ما لا حصر له من الأشرطة.

٥ - ثم ظهرت أدوات تسجيلِ الصَوْتِ والصورةِ معاً، مع إمكان استعادةِ صُورَةِ الحدثِ كالأصل تماماً، بواسطة الجهازِ المسمَّى «الفيديو» مع «التلفزيون»، ومع إمكان نسخ ما لا حصر له من الأشرطة أخذاً من الشريطِ الأوَّلِ، بواسطة جهاز «الفيديو».

وكانت هذه قفزةٌ مُذهِشةٌ في أدواتِ نَقْلِ صُورِ الأحداثِ وأصواتِها، إلى كلِّ موقعٍ يُوجَدُ فيه إنسانٌ يَسْمَعُ ويشاهد، وإلى استعادتها وتكريرها ما لا حصر له من المَرَّات.

٦ - وقد تهيَّأتْ بهذهِ الأدواتِ إمكاناتٌ عظيمةٌ جدًّا، لتوصيلِ الأَدَاءِ البياني الذي يحمل للناس خيراً أو يحمل للناسِ شَرًّا.

فالدعاة إلى الإيمان بالله أو اتِّباعِ صراطه المستقيم، والهُدَاةُ الناصِحُونَ المرشدون، والآمرون بالمعروفِ الناهون عن المنكر، يجدون في هذه الأدوات ما يُعِينُهُمْ على تَوْصِيلِ دَعْوَتِهِمْ وهدايتهم ونُصْحِهِمْ وإرشادهم إلى كلِّ ذي سمع وبصر، راغِبٍ في معرفة الحق وطريق الهدى والخير.

ودُعاةُ الشرِّ المَضِلُّونَ المفسدون في الأرض الذين يسترضون أهواءِ الناس وشهواتهم، يجدون في هذه الأدوات ما يُسَهِّلُ لهم أن ينشروا ضلالتهم وإفسادهم، في كلِّ من هم مستعدون للاستجابة لإغراءاتهم وتزييناتهم، واتِّباعهم إذا أمروهم بالمنكر، ونهوهُهم عن المعروف.

* * *

مسؤولية حملة رسالة الهداية والإصلاح

فعلى حَمَلَةِ رِسَالَةِ الْهَدَايَةِ بِالذَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، أَوْ سَلُوكِ سَبِيلِهِ، أَوْ رِسَالَةِ الْإِصْلَاحِ بِالنُّصُوحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ كُلِّ أَدَاةٍ تَوْصِيلِيٍّ إِعْلَامِيٍّ يَتَوَصَّلُ النَّاسُ إِلَى ابْتِكَارِهَا، بِاكتِشَافِ خِصَائِصِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ فِي كَوْنِهِ، مِمَّا يُسَهِّلُ لَهُمْ صِنَاعَتَهَا، بِشَرَطِ أَنْ لَا يَكُونَ فِي الشَّيْءِ الْمَبْتَكَّرِ شَرٌّ لِدَاتِهِ، أَوْ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ.

وعلى جميع المؤمنين المسلمين القادرين، من ذوي المال والأعمال والسلطان، أَنْ يُعِينُوهُمْ فِي ذَلِكَ، لِيُؤَدُّوا وَظَائِفَهُمْ أَدَاءً حَسَنًا، وَلِيَبْلَغُوا رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَأَنْ لَا يَأْلُوا جَهْدًا فِي إِعْدَادِهَا وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ لَهَا، إِذْ هُوَ جِزَاءٌ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَعَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَقْتَصِرُوا عَلَى اسْتِخْدَامِ أَدْوَاتِ التَّوَصِيلِ التَّقْلِيدِيَّةِ، الَّتِي سَبَقَ أَنْ اسْتِخْدَمَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْعَصُورِ الْخَالِيَةِ، لِأَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ أَنْ يَبْلُغُوا دِينَ اللَّهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ دَانِيَهُمْ وَقَاصِيَهُمْ، وَأَنْ يَكُونُوا هُدَاةً نَاصِحِينَ مَرشِدِينَ أَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

إِنَّ كُلَّ وَسِيلَةٍ أَوْ أَدَاةٍ غَيْرِ مُحَرَّمَةٍ لِدَاتِهَا، يَتَحَقَّقُ بِهَا تَبْلِيغُ دِينِ اللَّهِ، وَنَشْرُهُ فِي النَّاسِ، فإِعْدَادُهَا وَاسْتِخْدَامُهَا وَبَذْلُ الْأَمْوَالِ فِي ذَلِكَ هُوَ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِهَادَ بِالْمَالِ سَابِقَ لِلْجِهَادِ بِالْأَنْفُسِ،

قال الله عز وجل في سورة (الحجرات/ ٤٩/ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

فمن الخير المأجور عند الله استخدام مكبرات الصوت في المجمع الكبيرة، بشرط أن لا يكون في استخدامها إزعاج أو تنفير من الدين، وكرهية للدعاة إليه، والهداة الناصحين المرشدين، ومن المزعجات المنفرات إيصال أصواتها إلى الناس في منازلهم في أوقات راحتهم، أو إذا كانت الأصوات تُشوش عليهم وهم مُنهمكون في أعمالهم الخاصة، كقراءة، أو كتابة، أو عبادة، أو غير ذلك من شؤون الحياة.

ومن الخير المأجور عند الله أن يستفيدوا من الإذاعة لتوصيل أصواتهم الحاملة لأدائهم البياني، وكل من يعينهم على ذلك مأجور عند الله بشرط الإخلاص لله في العمل من الجميع.

وأن يستفيدوا من «التلفزيون» ومن «الفيديو» لتوصيل صورهم وأصواتهم الحاملة لأدائهم البياني، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وأن يستفيدوا من أشرطة تسجيل الصوت، وأشرطة تسجيل الصورة والصوت معاً، وأن يُوسَّعوا دائرة انتشارها.

وأن يستفيدوا من الأقمار الصناعية، التي يكون بها انتشار أوسع في الأرض، إذا استطاعوا أن يستخدموها أدوات لتوسيع نشر أدائهم البياني، بكل لغة من لغات شعوب الأرض.

الرأي في حكم التصوير بالأدوات المستحدثة

والرأي الذي انتهى إليه أكثر أهل العلم المعاصرون العارفون بطبيعة عمل آلات التصوير المستحدثة، أنه لا حرج في نقل الصور بهذه الآلات التصويرية المستحدثة المختلفة، ومنها التصوير التليفزيوني، لأن هذا الثقل ليس مضاهاةً لخلق الله، بل هو اكتشاف لعناصر هي من خلق الله. وهو يُشبه المرايا التي تعكس الصور، بزيادة صفة الثبات لهذه الصور، على أوارق، أو صفائح، أو أشرطة، حساسة للأشعة، أو نحو ذلك مما خلق الله في كونه.

إنما الحرج في نوع الشيء الذي يُعرض للتصوير بهذه الأدوات، كتصوير العورات والفواحش، وما يدعوا إلى كفر أو معصية لله عز وجل.

فإذا كان المعروض للتصوير بهذه الأدوات من نوع المحرمات كان الثقل بها محرماً، وإذا لم يكن من المحرمات لم يكن الثقل بها محرماً، بل ربما كان من المندوبات أو الواجبات أحياناً.

إن معظم الوسائل المبتكرة في هذه العصور وسائل حيادية بذاتها، وهي قابلة لأن تُستخدَم في الخير، ولأن تُستخدَم في الشر، حتى القنابل الذرية لا تخرج عن كونها أداة قتل وتدمير مشابهة بصورة معظمها جداً،

لأدوات القتل والتدمير التي كان يعرفها الناس قديماً، من جهة وظيفتها، فإذا استعملت في الخير كانت خيراً، وإذا استعملت في الشر كانت شراً.

أما الوسائل المحرمة لذاتها فلا يجوز استخدامها للتوصل بها إلى فعل خير، كالمسكرات، والمخدرات، والفواحش، والأوثان ونحوها مما فيه مضاهاة لخلق الله، وكذلك أشباه هذه المحرمات.

* * *

الفصل السادس

المنهج الرباني للسياسة الحكيمة الموجهة للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمته

- وفيه مقدمة عامة وواحد وعشرون تعليماً جاءت في إحدى وعشرين سورة:
- التعليم الأول: جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).
 - التعليم الثاني: جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).
 - التعليم الثالث: جاء في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).
 - التعليم الرابع: جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).
 - التعليم الخامس: جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).
 - التعليم السادس: جاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).
 - التعليم السابع: جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول).
 - التعليم الثامن: جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).
 - التعليم التاسع: جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).
 - التعليم العاشر: جاء في سورة (الصفات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).
 - التعليم الحادي عشر: جاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول).
 - التعليم الثاني عشر: جاء في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول).

- التعليم الثالث عشر: جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).
- التعليم الرابع عشر: جاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).
- التعليم الخامس عشر: جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول).
- التعليم السادس عشر: جاء في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول).
- التعليم السابع عشر: جاء في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول).
- التعليم الثامن عشر: جاء في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول).
- التعليم التاسع عشر: جاء في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول).
- التعليم العشرون: جاء في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول).
- التعليم الحادي والعشرون: جاء في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول).
- التعليم الثاني والعشرون: جاء في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول).



المقدمة العامة

لا بُدَّ من أن يُواجه حاملُ رسالة الدعوة إلى الله والنُّصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عقباتٍ وصُعوباتٍ تتطلب منه مجاهداتٍ ومعالجاتٍ حكيماً، ومنها ما يؤديه أو يُثير غضبه ويؤلمه من هُزءٍ وسُخرية، وهمزٍ ولمزٍ وغَمْزٍ وضَحِكٍ ساخرٍ، وتجريحاتٍ واتِّهَاماتٍ باطلاتٍ، قد تصلُّ أحياناً إلى اتِّهَامه بالضلالة، أو السفاهة أو الجنون، أو اتِّهَامه بابتغاء مصالح شخصيةٍ دنيويةٍ، لدى الذين يؤدي مُهمَّاتِ رسالته بينهم، أو اتِّهَامه بأكثر من ذلك.

وقد يتعرض لمطالبٍ تعنُّيةٍ تعجيزيةٍ أو استدراجاتٍ إلى التنازل عن بعض ما يُؤمِّنُ به، أو بعض ما يدعو إليه، إلى غير ذلك من أمور.

وقد رسم الله عزَّ وجلَّ لرسوله فيما أنزلَ عليه بوصفه إمام الدعوة إلى الله تعليماتٍ ووصايا، تبيِّن له السياسة الحكيمة التي ينبغي أن يلتزم بها هو وكلّ داعٍ إلى سبيل ربِّه من أمته.

وفيما يلي استعراضٌ للتعليمات والوصايا التي استطعت استخراجها من القرآن الكريم، وأنا أكتب هذا الكتاب لإرشاد الدُّعاة إلى الله، وحملة رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أولاً - أخذاً من سورة (ق/ ٥٠ / مصحف/ ٣٤ نزول):

الوصية الأولى: ينبغي لحامل الرسالة أن يتحلَّى بالصَّبْرِ على ما يقول فيه من يوجِّه لهم رسالته مما يسوؤه.

الوصية الثانية: على حامل الرسالة أن يُداوي قلبه ونفسه بدواء التسبيح
بحمدِ ربِّه في أربعة أوقات:

- قبل طلوع الشمس .
- وقبل الغروب .
- وأثناء الليل .
- وعقب الصَّلوات .

الوصية الثالثة: على حامل الرسالة أن يَعْلَمَ أنه مُبَلَّغٌ ومُبَيَّن رسالة ربِّه،
وأته غَيْرُ مُجْبِرٍ وَلَا مُكْرِهٍ، وأن يوطن نفسه لِتَلَقِّي رَفُضِ استجابة من يُؤدِّي
بينهم رسالته، مهما كان الحق فيما يدعوهم إليه واضحاً جلياً .

فالذين يؤدِّي بينهم رسالته لا يُقْبَلُ منهم أن يَسْتَجِيبُوا بالسَّوْقِ الجبري،
بل لا بُدَّ أن يَسْتَجِيبُوا باختيارهم الحُرِّ، فإذا لَمْ يَسْتَجِيبُوا فَإِنَّ عَلَيْهِمْ أن
يَتَحَمَّلُوا عند ربِّهم نتائج رَفُضِهِمْ .

الوصية الرابعة: ينبغي لحامل الرسالة أن يُدَكِّرَ بالقرآن بعد التبليغ
والبيان الكافي مَنْ يَتَحَسُّسُ أَنَّهُ يخافُ خوفاً ما من وَعِيدِ الله، فمن لَدَيْهِ مقدارُ
ما من الخوف من عذاب الله فاستجابته مطموحٌ بها على وجه الإجمال،
فِيحْسُنُ تذكيره حيناً فحيناً طمعاً في استجابته .

ثانياً - أخذاً من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

الوصية الخامسة: ينبغي لحامل الرسالة أن يأخذ العفو، لا أن يريد
العقاب والانتقام .

الوصية السادسة: ينبغي لحامل الرسالة أن يأمر أصحاب السَّعة والقُدرة
بالعُزْف، وهو البذل والعطاء ومساعدة ذوي الضرورات والحاجات .

الوصية السابعة: ينبغي لحامل الرسالة أن يستعِذ بالله السميع العليم
كَلِّمًا نَزَعَ الشَّيْطَانَ فِي نَفْسِهِ نَزْعًا مَا .

ثالثاً - أخذاً من سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

الوصية الثامنة: أن يُعْلِنَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ أَنَّهُ مُكَلِّفٌ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُؤَدِّيَ
وِضَائِفَ رِسَالَتِهِ، فَهُوَ يَعْْبُدُهُ وَحْدَهُ فِي أَدَائِهِ رِسَالَتَهُ، وَلَا يَتَلَقَّى الْأَوَامِرَ مِنْ غَيْرِهِ
جَلًّا وَعَلَا، فَلَيْسَ لَدَيْ سُلْطَانٍ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِرِسَالَةٍ يَعْْبُدُ بِهَا
اللَّهُ وَحْدَهُ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَالَمِينَ جَمِيعًا، لِذَلِكَ فَهُوَ سَيِّئَابِعُ
عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ فِي تَبْلِيغِ دِينِهِ، وَنَشْرِهِ بَيْنَ النَّاسِ، مَهْمَا وَاجَهَ مِنْ عَقَبَاتٍ، وَتَلَقَّى
مِنْ ضُغُوطٍ وَأَذْيَاتٍ .

الوصية التاسعة: أن يُعْلِنَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِلَّذِينَ يُؤَدِّي
رِسَالَتَهُ بَيْنَهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ بِهِ إِذَا رَفَضُوا الِاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ، وَلَا يَمْلِكُ مَا
يُجْبِرُهُمْ بِهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ إِذَا خْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ سُبُلَ الضَّلَالِ، وَمُجَانِبَةَ
صِرَاطِ الْهُدَى وَالرِّشَادِ .

الوصية العاشرة: أن يُعْلِنَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ لِلَّذِينَ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ،
أَنَّهُ إِذَا تَوَقَّفَ عَنْ أَدَاءِ رِسَالَتِهِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ وَقَعَ تَحْتَ طَائِلَةِ عِقَابِ اللَّهِ لَهُ،
الَّذِي لَا يُجْبِرُهُ وَلَا يَحْمِيهِ مِنْ أَحَدٍ، فَلَا نَجَاةَ لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا بِأَنْ يَقُومَ
بِأَدَاءِ رِسَالَتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ .

الوصية الحادية عشرة: أن يُنذِرَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ الَّذِينَ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رِسَالَتَهُ
بِعَذَابِ اللَّهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَقُولَ لَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الجن):

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ (١٣) .

والمراد من المعصية في هذه الآية عَدَمُ الِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ إِلَى
الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ .

رابعاً - أخذاً من سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

الوصية الثانية عشرة: أن لا يَحْزَنَ حَامِلُ الرِّسَالَةِ إِذَا قَالَ فِيهِ الَّذِينَ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رِسَالَتَهُ مَقَالَاتٍ تَسُوُّهُ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ بِمَا يَقُولُونَ فِي سِرِّهِمْ وَفِي عِلَانِيَتِهِمْ، وَهُوَ يَتَوَلَّى حَامِلَ الرِّسَالَةِ الَّذِي يَبْتَغِي رِضْوَانَهُ، وَمَنْ تَوَلَّاهُ اللَّهُ كَفَاءً، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْخَيْرِ مُنَاهُ.

خامساً - أخذاً من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

الوصية الثالثة عشرة: أن يَتَّخِذَ حَامِلُ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ أُسْلُوبَ الإِعْرَاضِ الَّذِي هُوَ وَسْطٌ بَيْنَ المَوَاجِهَةِ وَالإِدْبَارِ فِي تَوْجِيهِ بَيَانَاتِ الدَّعْوَةِ وَالتَّذْكِيرِ بِهَا عَمَّنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ، بَعْدَ أَوْ وَصَلَ إِلَى حَالِ المَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ، وَمَعَادَاةِ الرِّسُولِ وَالمُؤْمِنِينَ، وَالعَمَلِ عَلَى قَمْعِ الدَّعْوَةِ بِالقُوَّةِ.

ولكن لم يصل عناده وإصراره إلى حالة ميئوس منها.

الوصية الرابعة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يهتم بإقناع الذين يؤدي بينهم رسالته، بوسائل الإقناع المختلفة ومنها الوسائل التالية:

١ - بيان الحق وإتباعه بالأدلة التي تُثبِتُ أَنَّهُ حَقٌّ، كأدلة إثبات التوحيد.

وبيان الباطل وإتباعه بالأدلة التي تكشف أَنَّهُ باطل، كأدلة إبطال الشرك.

٢ - الإحالة على دليل الملاحظة والتجربة، كتوجيه الأنظار للتأمل في الظواهر الكونية، بُعْيَةَ ملاحظة الآيات التي فيها الدلالات على صفات الرب الخالق جلَّ جلاله، أو لتجربة ما يُجَرَّبُ منها، وللتنقيب عن خفاياها بُعْيَةَ التوصل إلى دقائق المعارف، واستنباط الكوامن، وإدراك ما وراء الظواهر.

٣ - الإحالة على سُنَّةِ اللَّهِ فِي تَارِيخِ البَشَرِيَّةِ.

٤ - سؤال المجريين أهل الخبرة للتوصل عن طريق خبراتهم وتجاربهم إلى الحق .

٥ - تفسير تراتيب القضاء والقدر بما يكشف وجه الحكمة الربانية .

الوصية الخامسة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يهتم باستخدام وسيلة الترغيب والترهيب، بأساليب مختلفة، تأسياً بالقرآن. وأن يوجه أفكار الذين يؤدي بينهم رسالته للاعتبار والاعتاظ بما جرى في سالف التاريخ البشري من جزاءات ربانية، مع بيان أنّها من ظواهر سنن الله في خلقه التي لا تبدل فيها ولا تحويل.

الوصية السادسة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يهتم بعرض نماذج الأسوة الحسنة، مع تمجيدهم والثناء عليهم، رجاء الاقتداء بهم.

الوصية السابعة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن يصبر على أنواع الأذى التي يلقاها من الذين يؤدي بينهم رسالته، وأن يضع في تصوّره دوماً أنّه مُمتحنٌ بهم.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية الأولى .

الوصية الثامنة عشرة: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يطيع الكافرين، فلا يتأثر بمقترحاتهم ومزالقهم وما يطرحونه من تشكيكات .

الوصية التاسعة عشرة: على حامل الرسالة أن يجاهد بالقرآن جهاداً كبيراً، بشرح وبيان ما في القرآن من حقائق وأدلة تثبتّها، وعرض وشرح وسائل تربيته للناس .

الوصية العشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يضع في تصوّره دوماً أنّ رسالته رسالة تبليغ وبيان وإقناع وترغيب وترهيب وتربية، وتبشير وإنذار،

وأنه ليس مكلفاً أن يحوّل الناس من الكفر إلى الإيمان، إذ عليهم أن يؤمنوا باختيارهم الحرّ.

وهذه الوصية قد جاءت تأكيداً لمضمون الوصية «الثالثة».

الوصية الحادية والعشرون: على حامل الرسالة أن يُعلِن للجميع أنّه ما يسأل الناس أجراً على ما يُقدِّمُ لهم من هداية وخير، وما يَبْذُلُهُ لهم من نُصْحٍ ومجاهدة.

الوصية الثانية والعشرون: على حامل الرسالة أن يَتَوَكَّلَ على الحيّ الذي لا يموت في مسيرته ذات الأعباء الشاقّة.

الوصية الثالثة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُسَبِّحَ بحمد الله آناء الليل وآناء النهار وكلّما حزبهُ أمر.

الوصية الرابعة والعشرون: على حامل الرسالة أن لا يَحْمَلَ هَمّاً ما يشاهدُ من ذُنُوبِ عباد الله الكثيرة، وأن يوقن بأن الله خير بهم، عليم بأحوالهم وكفى بالله خبيراً بذنوب عباده.

الوصية الخامسة والعشرون: على حامل الرسالة أن يُبَيِّنَ للكافرين أنّ الله عزّ وجلّ لا يَعْجَبُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ بِإِيمَانِهِمِ والتزامهم صراطه المستقيم، ولا يتأثر من أَجْلِ نَفْسِهِ بِكُفْرِهِمْ ومعاصيهم، إذ هو سبحانه غنيّ عن العالمين.

إنّما يعبأ بهم من أجلهم أَنفُسِهِمْ، لهذا فهو يُوجِّهُ لهم في كتابه وعن طريق حملة رسالته دُعاءه، رغبةً في نجاتهم وسعادتهم.

سادساً - أخذاً من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

الوصية السادسة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يحزن على الكافرين المصّرّين على كفرهم بعنادٍ، مُعَرِّضِينَ أَنفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمِ العنادي لعذاب الله الأبدي.

الوصية السابعة والعشرون: ينبغي لحامل الرسالة أن لا يكونَ في ضيقٍ

مما يَمْكُرُ الكافرون ضده، وضدَّ الذين آمنوا به، وضدَّ الإسلام.
فطبيعة حياة الابتلاء أن يكون فيها هذا المكر، وأن يَقُومَ فيها صراعٌ بين
الحقِّ والباطل.

على أَنَّ الله سَيُحِيطُ ما يَمْكُرُ الكافرون، أو يجعل مكرهم يُحِيطُ بهم،
إذا صَدَقَ المؤمنون المسلمون، وقاموا بما يجب عليهم أن يقوموا به.

الوصية الثامنة والعشرون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أَنَّهُ مأمور بأن
يَعْبُدَ الله وحده في عباداته الخاصَّة، وفي قيامه بأداء واجب الدعوة إلى الله،
وواجب النَّصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً لما جاء في الوصية «الثامنة».

الوصية التاسعة والعشرون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أَنَّهُ مأمورٌ بأن
يكون واحداً من المسلمين، فهو مُلْزَمٌ بِكُلِّ أَحكام الإسلام وشرائعه، وليس له
إِعْفَاءٌ خاصٌّ يعفيه من الالتزام بها.

الوصية الثلاثون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أَنَّهُ مأمورٌ بأن يَتْلُو القرآن
على الناس، وليس مُكَلَّفاً أن يلزمهم بالجبر. والإكراه أن يُؤْمِنُوا به، وأن
يَتَّبِعُوا ما جاء فيه.

لكن عليه أن يبشِّرهم بأن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، وأن ينذرهم
بأن من اختار لنفسه الضلال فعليه أن يُعِدَّ نفسه لتحمل عذاب ربه.

الوصية الحادية والثلاثون: على حامل الرسالة أن يُبَيِّنَ للناس بَعْدَ الشَّاء
على الله بأن الحمد كُلُّه له، ثلاث قضايا:

الأولى: أن الله عزَّ وجلَّ سيريهم آياته فيعرفون أنها آيات الله في كونه.

الثانية: أن الله عليم بكلِّ ما يفعلون في رحلة امتحانهم في الحياة

الدنيا.

الثالثة: أن الله سيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم الإرادية، وعلى ما اختاروه لأنفسهم في الحياة الدنيا من خيرٍ أو شرٍ.

سابعاً - أخذاً مما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

الوصية الثانية والثلاثون: على حامل الرسالة أن لا يُخزِنَه قَوْلُ أَغْدَاءِ رسالته فيه ممَّا يَسُوؤُهُ، فالله عزَّ وجلَّ سَيُنْصِرُهُ بِقُوَّتِهِ الغالبة، إذا صَدَقَ وأخلص لله في دعوته.

وعليه أن يكون على ثقةٍ بالله إذا توكلَّ عليه، فإنَّ العزَّةَ لله جميعاً، وليسأل الله تأييدهً ونصره، فهو السميع العليم الذي ينصرُ رُسُلَهُ والذين آمنوا.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية «الثانية عشرة».

الوصية الثالثة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يرُدَّ على مَنْ يَتَّهِمُهُ بالافتراء على الله، فيقول له: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ.

الوصية الرابعة والثلاثون: على حامل الرسالة أن يتَّبَعَ بيانات الوحي، فلا يَحِيدَ عنها، ولا يَكْتُمَ شيئاً منها، ولا يزيد من عنده شيئاً عليها.

أما المفاهيم الاستنباطية والقياسية فليست من الزيادة عليها، بل هي من توابعها.

الوصية الخامسة والثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَصْبِرَ على أذى الذين يُؤدِّي بينهم رسالته، حتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فيجعل له فرجاً ومخرجاً، واللهُ خير الحاكمين.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية السابعة عشرة، وللوصية الأولى.

ثامناً - أخذاً ممَّا جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

الوصية السادسة والثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَصْفَحَ صفحاً جميلاً عمَّا يَنَالُهُ من أذى، من قِبَلِ الذين يُؤدِّي بينهم رسالته.

والصَّفْحُ هو الإعراض عن مقابلتهم بمثل أعمالهم السيئة، وعدمُ الاشتغال بدفع إيذائهم.

والجمالُ في الصَّفْحِ يكونُ بإبقاء الوجهِ طَلْقاً سَمْحاً لا تظهر عليه علامات الغضب، أو الغيظ والكرهية. ويكون بإبقاء الكلام عادياً لا تظهر فيه أماراتُ الاضطراب أو الإلماحات المستخفية. ويكون أيضاً بعدم شغل القلب برغبات الانتقام.

الوصية السابعة والثلاثون: على حامل الرسالة أن لا يمدَّ عَيْنِيهِ إلى ما مَتَّعَ اللهُ به من الدنيا أصنافاً من الناس ولو كانوا كُفَّاراً، فَلَلهُ حِكْمٌ في كُلِّ تصاريفه بعباده.

الوصية الثامنة والثلاثون: على حاملِ الرسالة أن لا يَحْزَنَ على الكافرين بسبب تعريضهم أَنفُسَهُمْ لعذاب جهنم خالدين فيها.
وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية السادسة والعشرين.

الوصية التاسعة والثلاثون: ينبغي لحامل الرسالة أن يخفض جناحه للمؤمنين، تواضعاً لهم، وحناناً عليهم، ورحمةً بهم، ورعاية وحفظاً لهم.

الوصية الأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُوجِّه الإنذار الواضح المبين لأئمة المشركين، بأنَّ اللّهَ سَيُنزِلُ بهم عقابه الشديد، إذا أَصْرُوا على ما هم فيه.

الوصية الحادية والأربعون: على حاملِ الرسالة أن يَصُدِّعَ بما أَمَرَ اللهُ بتبليغه للناس.

أي: أن يَجْهَرَ بتبليغه مَقْرُوناً بالوسائل التي تؤثر في النفوس القاسية، فَصُدِّعُهَا، كما تَصُدِّعُ الحجارة فتحدث بها شقوق دون أن تنكسر.

الوصية الثانية والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُعْرِضَ عن

المشركين الذين بلغوا من دعوته مبلغ العناد والمكابرة، لكنهم لم يبلغوا مبلغ إعلان العدا، وإعداد وسائل المقاومة بالعنف المسلح.

الوصية الثالثة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يداوي ما يحدث له من ضيق صدر يُسبِّبه أذى خصوم رسالته بدوآئِن:

١ - أن يُسبِّح بحمد ربّه .

٢ - أن يكون من الساجدين لله المؤدِّين غَايَةَ الخُضوع والذلّ له .

الوصية الرابعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يُتابع عبادته لربّه، ومنها قيامُهُ بوظائف رسالته ومهمّاتها، حتّى آخر لحظة من عُمره التي يأتيه فيها يقين الموت .

تاسعاً - أخذاً من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

الوصية الخامسة والأربعون: على حامل الرسالة أن لا يستجيب لطلب كبراء قومه طمعاً في إيمانهم إذا طلبوا منه أن يطرد من حوله من فقراء المؤمنين الذين يدعون ربّهم بالعداء والعشيّ يريدون وجهه .

عاشراً - أخذاً من سورة (الصفّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

الوصية السادسة والأربعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُدير ظهْرَهُ لِمَنْ وصل إلى حالة ميثوس مَعَهَا من استجابته لدعوة الحقّ، وأن يوجّه اهتمامه ومجاهدته لآخرين مطْمُوعٍ باستجابتهم، ولم يَصِلُوا بَعْدُ إلى حالة ميثوس منها .

الوصية السابعة والأربعون: على حامل الرسالة - مع إدارته ظهْرَهُ لمن وصل إلى حالة ميثوس منها - أن يكون شديد المراقبة له بِبَصَرِهِ، لئلاّ يُدَبِّرَ ضده وضدّ الإسلام والمسلمين مكايِدَ، وهو عنّه غافلٌ لا يشعر بما يُدَبِّر .

أحد عشر - أخذاً من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

الوصية الثامنة والأربعون: على حامل الرسالة أن يتحلّى بالصَّبْرِ دواماً .

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية «الأولى» والوصية «السابعة عشرة» والوصية «الخامسة والثلاثين».

الوصية التاسعة والأربعون: على حامل الرسالة أن يستغفر الله لذنبه، أي: أي يسأل الله دواماً أن يَغْفِرَ له ذنبه.
غَفْرُ الذَّنْبِ هُوَ سَتْرُهُ.

الوصية الخمسون: أن يُسَبِّحَ بحمد ربه بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ.
العشي: نصف النهار الثاني إلى الغروب.

الإبكار: من وقت دخول الفجر إلى طلوع الشمس.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً لبعض ما جاء في الوصية «الثانية» وتأكيداً للأمر بالتسبيح الذي جاء في الوصية «الثالثة والأربعين».

اثنا عشر - أخذاً من سورة (فُصِّلَتْ / ٤١ مصحف / ٦١ نزول):

الوصية الحادية والخمسون: على حامل الرسالة أن يكون قُدوةً حسنة للناس في عَمَلِهِ الصَّالِحِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ.

الوصية الثانية والخمسون: على حامل الرسالة أن يُعْلِنَ أَنَّهُ فَرَدُّ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ، مَسْئُولٌ تُجَاهَ رَبِّهِ كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَطَالِبٌ بِأَنْ يَعْمَلَ الْأَعْمَالَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعْمَلُوهَا، وبأن يجتنب كل ما أمر الله المسلمين أن يجتنبوه، وبأن ينتهي عن كل ما نهى الله المسلمين عن أن يفعلوه.

وَأَنْ يُعْلِنَ أَنَّهُ تُطَبَّقُ عَلَيْهِ جَمِيعُ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَالْأَحْكَامِ الَّتِي شَرَعَ اللَّهُ أَنْ تُطَبَّقَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَلَا اسْتِثْنَاءَ لَهُ بِشَيْءٍ، وَلَا إِعْفَاءَ لَهُ عَنْ شَيْءٍ.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً لما جاء في الوصية «التاسعة والعشرين».

الوصية الثالثة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يدفع كل ما يسوؤه

في مجال أدائه رسالته بالتّي هي أحسن، متحلّياً بالصّبر، وبمكارم الأخلاق ومحاسن الشّيم.

الوصية الرابعة والخمسون: على حامل الرسالة أن يفرّج إلى الاستعادة بالله كلّما نزعه من الشيطان نزعاً، مستحضراً في تصوّره أنّ الله هو السّميع العليم.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية السابعة وهي التي جاءت في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزل).

ثلاث عشرة - أخذاً من سورة (الزخرف/ ٤٣/ مصحف/ ٦٣ نزل):

الوصية الخامسة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يذّر المعاندين المكابرين في خوضهم ولعبيهم، حتّى يلاقوا عقابهم الذي أنذروا به، في اليوم الذي قضى الله أن يُنهي فيه إمامهم، ويُنزل فيه نعمته عليهم.

الوصية السادسة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يصفح عن إيذات الذين يؤدّي بينهم رسالته، مُعرضاً عن معاقبتهم عليها، ومقابلتهم بمثلها، وأن يقول لهم: سلام.

أي: أعطيك منّي السلام، ولا أقيم بيني وبينكم الآن صراعاً مادّياً، لأنّ الله لم يأذن لي بذلك.

وهذا الصّفح سياسةً مرحليّة يلتزم بها حامل الرسالة، ما دام التحرك الإسلامي يسير في طريق جهاد الدّعوة فقط.

والتوصية بالصفح جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية «السادسة والثلاثين».

أربع عشرة - أخذاً من سورة (الذاريات/ ٥١/ مصحف/ ٦٧ نزل):

الوصية السابعة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يتولّى عن تذكير

المعاندين من أئمة الكفر الذين وصلوا إلى دركة ميثوس منها، فَيُدِيرَ إِلَيْهِمْ ظهره، ليوَجِّهَ اهتمامه ونشاطاته لآخرين لم يَنَأسْ بَعْدُ من استجابتهم.

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية الخامسة والأربعين، وهي مقرونة بما جاء في الوصية السادسة والأربعين، من لُزومِ شدة مراقبة من يتولَّى عن تذكيرهم، حَذَرَ مكايدهم.

الوصية الثامنة والخمسون: على حامل الرسالة أن يتابع تذكير الذين ما زال الطمع باستجابتهم لدعوة الحق موجوداً، لم ترشَّخْ منه قطراته الأخيرات.

خمس عشرة - أخذاً من سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

الوصية التاسعة والخمسون: ينبغي لحامل الرسالة أن يدفع السيئة التي يُواجهُ بها في مجال دعوته بالتّي هي أحسن.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية «الثالثة والخمسين» التي جاءت في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مع إضافة قيد «السيئة» بالنسبة إلى المدفوع.

الوصية الستون: على حامل الرسالة أن يستعيد برّبه من هَمَزَاتِ الشياطين، وأن يستعيد به من أن يحضروا عنده، فيقول: «رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ».

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية «الرابعة والخمسين» والوصية «السابعة» مع النصّ على العبارة المختارة للاستعاذة.

ست عشرة - أخذاً من سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

الوصية الحادية والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُعْرِضَ في دعوته عن مواجهة من بلغ إلى أقصى درجات الإعراض عن بيانات الدعوة التي سبق أن وُجِّهَتْ له، لكنّه لم يَتَوَلَّ وَلَمْ يَصِلْ إلى حالة ميثوس منها.

ومع الإعراض عن مواجهته ينبغي إسماعه دون مواجهته ومقابلته .

وهذه الوصية جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية «الثانية والأربعين»
والوصية «الثالثة عشرة» .

الوصية الثانية والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يكون في حالة
إعراضه عن مواجهة من بَلَغَ أَقْصَى درجات الإعراض منتظراً مترقباً، فإذا شَعَرَ
بحسِّه المرهَفِ أَنَّهُ قد بدأ يَلِينُ ويخفَّفُ من شِدَّةِ إعراضه، انعطف نحوه بشيءٍ
من التَّوَجُّهِ، ليساعده على نفسه، رجاء أن يَلِينَ ويستجيب لدعوة الحقِّ .

وهذه سياسة حكيمة في مجال أداء رسالة الدعوة إلى الله، والتُّصْح
والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

سبع عشرة - أخذاً من سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

الوصية الثالثة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يتابع تذكير من لم
يَصِلُوا إلى حالة ميثوسٍ معها من استجابتهم لدعوة الحق، مهما واجه من
بعض قومه من اتِّهام له بالكهانة أو بالجنون أو بأنه شاعر .

وهذه الوصية جاءت تأكيداً للوصية «الثامنة والخمسين» .

الوصية الرابعة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَرُدَّ على القائلين
بشأنه: ننتظره حتى يُدْرِكه الموت فتتخلَّص منه ومن دعوته، بأن يقول لهم
وهو مطمئنُّ القلب هادئ النفس:

«تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ» .

الترَبُّصُ: الانتظار .

الوصية الخامسة والستون: على حامل الرسالة أن يترك من يُلاحِظ أَنَّهُم
يُرِيدُونَ كَيْدَهُ، فلا يَكْشِفْ لهم أَنَّهُ قد أدْرَكَ ما يُرِيدُونَ من كَيْدِ ضِدِّهِ، واثقاً من
أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ناصِرُهُ، ومترلِّ بِهَمِّ عِقَابِهِ، إذا التزم هو بتعليمات الله في

أخذ حذره، وفي الاستعداد الكافي لإحباط كيدهم .

الوصية السادسة والستون: على حامل الرسالة أن يَصْبِرَ لحكم ربّه، مُخْضِرّاً في تصوّره دواماً أنّ الله عزّ وجلّ لا يختار له إلّا ما فيه الخير له، إذا صدّق وأخلص لله في أداء رسالته، والتزام تعليماته وبياناته .

والوصية بالصبر قد جاءت في الوصية «الأولى» والوصية «السابعة عشرة» والوصية «الخامسة والثلاثين» والوصية «السابعة والأربعين» .

الوصية السابعة والستون: على حامل الرسالة أن يُسَبِّحَ بحمْدِ ربّه في ثلاثة أوقاتٍ من كلّ يومٍ من أيام حياته .

الوقت الأول: حين يقوم من نومه، أو من مجلسه .

الوقت الثاني: أثناء الليل .

الوقت الثالث: عند غروب النجوم من آخر الليل .

والوصية بالتسبيح بحمد الله قد سبقت في الوصية «الثانية» والوصية «الثالثة والأربعين» والوصية «الخمسين» .

لكن في «الثانية» قد جاء التوجيه للتسبيح في أربعة أوقات: «قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وأثناء الليل وأدبار السجود» .

وفي «الثالثة والأربعين» قد جاء التوجيه للتسبيح بصفة عامة .

وفي «الخمسين» قد جاء التوجيه للتسبيح في وقتين:

العشي «وهو نصف النهار الثاني إلى الغروب»، والأبكار «وهو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس» .

ثماني عشرة - أخذاً من سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

الوصية الثامنة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يتحلّى بالصَّبْرِ الجميل على تكذيب المكذّبين بيوم الدين .

والصَّبْرُ الجميل هو الذي تُصَاحِبُهُ بشاشة في الوجه، وتلقائِيَّة في الأقوال والأعمال، دون قلق ولا اضطراب، ولا امتعاضٍ ولا تذمُّر، ولا ضيق في الصَّدْر، ولا شكوى.

والوصية بالصبر قد جاءت في الوصايا: «الأولى، والسابعة عشرة، والخامسة والثلاثين، والثامنة والأربعين والسادسة والستين» للأهميَّة القصوى، فلا نجاح في أداء رسالة من دون صَبْر.

الوصية التاسعة والستون: ينبغي لحامل الرسالة أن يَدْرَ الكافرين المصْرِينَ على عنادهم يخوضون في جرائمهم وفسقهم وفجورهم وشركياتهم، وَيَلْعَبُونَ كما يَهْوُونَ في الحياة الدنيا، حتَّى يلاقوا مَصِيرَهُمْ الوخيم، في يومهم الذي يُوعدون، وهو يوم الدين، يوم الحساب وفصل القضاء والجزاء. «وهذه سياسة مرحلية».

وأن يُجَاهِد في الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، موجِّهاً رسالته لمن يَطْمَعُ في استجابتهم.

تسع عشرة - أخذاً من سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

الوصية السبعون: على حامل الرسالة أن يَصْبِرَ فلا يستعجل تحقيقَ وعْدِ الله بالنَّصْر.

وينبغي أن يعمل المسلمون جميعاً بهذه الوصية.

الوصية الحادية والسبعون: على حامل الرسالة أن لا يستخفَّه الكافرون للقيام بأعمال توقَّعُ أو توقع جماعة المسلمين في ورطات لا تُحْمَدُ عواقبها.

عشرون - أخذاً من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

الوصية الثانية والسبعون: على حامل الرسالة أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، في استدراجاتهم ومقترحاتهم ومزالقهم.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية «الثامنة عشرة» مع إضافة المنافقين هنا إلى الكافرين الصرحاء هناك .

الوصية الثالثة والسبعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يدع أذى خُصوم رسالته وأعدائها فلا يشتغل بدفعه .

الوصية الرابعة والسبعون: على حامل الرسالة أن يتوكل على الله مع قيامه بالأسباب التي أمر الله بالقيام بها .

وهذه الوصية قد جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية «الثانية والعشرين» .

إحدى وعشرون - أخذاً من سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

الوصية الخامسة والسبعون: ينبغي لحامل الرسالة أن يستخدم أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن، حول أسس العقيدة الإيمانية، مع الاستفادة من صورة تعليمية لطريقة من طرائق مجادلة المشركين، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، كافرين بصفة الله الرحمن .

الوصية السادسة والسبعون: على حامل الرسالة أن يكف عن التطع لطلب المعجزات المادية والخوارق، في تعجيل عقاب أئمة الكفر المعاندين المعلنين عداءهم ومقاومتهم للرسول والذين آمنوا .

فله حكيم جليل في إمهاله، وفي آجاله التي يحددها لتصاريفه . وما على الداعي إلى الله إلا البلاغ المبين، والله عز وجل هو الذي عليه الحساب، فلا ينبغي للعباد أن يتدخلوا فيما هو من خصائص الله عز وجل .

ومضمون هذه الوصية ينبغي أن يلتزم به كل المسلمين إلى أن تقوم الساعة .

الوصية السابعة والسبعون: على حامل الرسالة أن يكون شديد الحذر

من اتباع أهواء أهل الكتاب، في مطالبهم واستدراجاتهم إلى ترك شيء من دين الله وأحكام شريعته لعباده.

وقد جاءت هذه الوصية مُبَيَّنَةً خُصُوصَ أهل الكتاب، بينما جاءت الوصية «الثامنة عشرة» تنهى عن طاعة كُلِّ الكافرين، وجاءت الوصية «الثانية والسبعون» تنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين.

ومضمون هذه الوصايا ينبغي أن يلتزم به كلَّ المسلمين إلى أن تقوم الساعة.

اثنان وعشرون - أخذاً من سورة (الإنسان/ ٧٦/ مصحف/ ٩٨ نزول):

الوصية الثامنة والسبعون: على حامل الرسالة أن يتحلَّى بالصَّبْرِ، مع الاستسلام التام لحكم الله، وانتظار ما يقضي به.

والوصية بالصبر قد جاءت في الوصايا: «الأولى»، والسابعة عشرة، والخامسة والثلاثين، والثامنة والأربعين، والسادسة والستين، والثامنة والستين» لشدة أهمية الصبر لحامل الرسالة.

الوصية التاسعة والسبعون: النهي عن طاعة أيِّ آثمٍ أو كَفُورٍ، في مشورة، أو مقترح، أو غير ذلك، لما في هذه الطاعة من تورُّطٍ في أمور لا تُحمد عقباها.

وهذه الوصية قد جاءت تأكيداً لما جاء في الوصية (١٨) والوصية (٧٢) مع التركيز هنا على الآثم والكفور.

الوصية الثمانون: على حامل الرسالة أن يشتغل بذكر اسم ربّه بكرة وأصيلاً.

البُكْرَة: أوّل النهار إلى طلوع الشمس.

الأصيل: هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

وينبغي أن تجمع هذه الوصية مع الوصايا بالتسبيح بحمد الله «الثانية»،
والثالثة والأربعين، والتاسعة والأربعين» للاستفادة من زوائد الأوقات
الموجودة في بعضها دون بعضها الآخر.

الوصية الحادية والثمانون: ينبغي لحامل الرسالة أن يعبد الله بالسجود
له في الصلاة أثناء الليل.

فلقيام الليل تأثيرٌ في علاج ذوي الهموم العظيمة، والأعباء الجسيمة.
الوصية الثانية والثمانون: ينبغي لحامل الرسالة أن يُسَبِّحَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ
مُدَّةً طويلة من الليل في صلاة قيام الليل، أو خارج الصلاة.

فلهذا التسبيح أثره العظيم الفعال في النفوس القلقة المضطربة،
والمهمومة والمغمومة.

وهذه الوصية تُضَمُّ إلى الوصايا «الثانية»، والثالثة والأربعين،
والخمسین، والثمانين» فموضوعها واحد، ويُنظَرُ إليها نظرةً تكامليةً.

* * *

تفصيل التعليمات من السور:

التعليم الأول

جاء هذا التعليم في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم أربع وصايا موجهة للداعي إلى الله، وهي:

١ - لزوم التحلي بالصبر على ما يقول المدعوون في الداعي مما يسوؤه.

٢ - على الداعي أن يُداوي قلبه ونفسه بدواء التسبيح بحمد ربه في

أربعة أوقات:

● قبل طلوع الشمس.

● وقبل الغروب.

● وأثناء الليل.

● وعقب الصلوات.

٣ - أن يعلم أنه مبلغ رسالة ربه غير مُجبر ولا مُكره، وأن على

المدعوين أن يستجيبوا باختيارهم الحر لا بالسوق الجبري.

٤ - أن يُذكر بالقرآن بعد التبليغ والبيان الكافي من يتحسس أنه يخاف

ولو بمقدار يسير من وعيد الله، فمن لديه مقدار ما من الخوف من عذاب

الله، فاستجابته لدعوة الإسلام مطموع بها على وجه الإجمال، فيحسن

تذكيره حيناً فحيناً طمعاً باستجابته.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

كان موقف المشركين إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (ق/ ٥٠ / مصحف/ ٣٤ نزول) موقف إنكارٍ ورفضٍ لما جاءهم به الرسول ﷺ، وكان رفضهم مستنداً إلى تَعَجُّبٍ من أن يُرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَشَرًا مِنْهُمْ يُنذِرُهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ .

وقد جرَّهْمُ هذا الموقف إلى التكذيب بالحق الذي جاءهم به، ولا سيما قضية البعث بعد الموت للحساب وفصل القضاء والجزاء .

إلا أنهم لم يكونوا على رأي واحدٍ في شأن الرسول وما جاءهم به، بل كانوا في أمرٍ مريخ، أي: في أمرٍ مُخْتَلِطٍ، فقد كان لكل فريق منهم قولٌ في الرُّسُولِ ﷺ، وفي دعوته، وفي القرآن .

دلَّ على هذا الموقف قول الله عزَّ وجلَّ بشأنه في صدر السورة .

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ مُعْجِبٌ ﴾ ﴿١﴾ .

وقوله تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيخٍ ﴾ ﴿٥﴾ .

واقترضت الحكمة الربانية أن يُوجَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ لرسوله فلكلِّ داعٍ إلى الله من أُمَّتِهِ في أواخر السورة، وصايا تربوية تُنَاسِبُ الموقف الذي عليه المشركون في هذا الطور، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ ﴿٤٠﴾ .

وقال تعالى أيضاً فيها:

﴿ تَحَنَّنْ عَلَيْهِمْ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ ﴿٤١﴾ .

فاشتمل هذا التوجيه على الوصايا الأربع الآتية الذكر .

● أما لزوم التحلي بالصبر على ما يقول المدعون في الداعي مما يسوؤه . فظاهر من قول الله عز وجل : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ .

أي : لا تُقَابِلْ أذاهم لك في أقوالهم بأقوالٍ مماثلة ، ولا بأقوالٍ دونها ، بل تحمّلها بصبرٍ وسعةٍ صدرٍ .

● وأما مداواة القلب والنفس بدواء التسييح في الأوقات الأربعة التي سبق ذكرها ، فقد دلّ عليها قول الله عز وجل :

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ۝٤١﴾ .

إن التسييح لله ذكراً يتضمّن معنى تنزيه الله عز وجل في مشاعر القلب عمّا لا يليق بجلاله ، مع الحركة اللسانية والفكرية التلقائية ، التي تُشبه حركة السابح في الهواء أو في الماء .

ولمّا كان التسييح لله قد اختص بجانب التنزيه ، أمر الله بأن يكون تسييحه مقترناً ومُلتبساً بحمده جلّ وعلا ، أي : مقترناً بالثناء عليه بصفاته العظيمة ، وأسمائه الحسنى ، وبكلّ ما يستحقّ أن يُحمّد عليه ويُثنى عليه به .

وإن في التسييح بحمد الله الفوائد الجليلة التالية :

الفائدة الأولى : أنه عبادةٌ لله ينال بها العابد عند الله أجراً عظيماً ، إذ يشتغل بالتسييح لسان الذاكر وفكره وقلبه بربه .

الفائدة الثانية : أنه يُذكرُ المسبّح بحمد ربه على الوجه المطلوب بعناصر القاعدة الإيمانية ، وهذا التذكيرُ مع حضور القلب وتوجّهه للتفكير بمعاني تنزيه الله ، ومعاني الثناء عليه بصفاته الجليلة وأسمائه الحسنى ، يُوجّه العواطف نحو طاعة الله والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، والعمل بوصاياه ، فيكون

الذاكر المسبح بحمدِ ربِّه أكثر تقيُّداً بمقتضيات مرتبة التقوى، ثُمَّ مُقتَضِيَّاتِ
مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، ثُمَّ مُقتَضِيَّاتِ مرتبة الإحسان.

الفائدة الثالثة: أَنَّهُ بِمِثَابَةِ الْعِلَاجِ الَّذِي يُفَرِّغُ النَّفْسَ مِنَ الْأَحْزَانِ وَالْهَمُومِ
وَالْمَخَافِ وَالْآلَامِ، وَيَضْرِفُ عَنْهَا وَارِدَاتِهَا، وَبِهَذَا التَّفْرِيفِ تَكْتَسِبُ نَفْسُ
الْمَسْبُوحِ بِحَمْدِ رَبِّهِ عَافِيَتَهَا، وَتَسْتَجْمَعُ قُوَاهَا لِمُوَاجَهَةِ الصَّعَابِ مَهْمَا كَانَ
شَأْنُهَا.

الفائدة الرابعة: أَنَّهُ بِمِثَابَةِ السَّلْكِ الْكُهْرِبَائِيِّ الْمُوَصَّلِ بِمَصْدَرِ الطَّاقَةِ
الْحَقِيقِيَّةِ الْكُبْرَى فِي الْوُجُودِ، الَّتِي تُمَدُّ الْعِبَادَ بِأَمْدَادٍ، مِنَ الْعَوْنِ وَالتَّوْفِيقِ
وَالسَّدَادِ وَالرَّشَادِ.

أَمَّا حُظُّ الْمَسْبُوحِ بِحَمْدِ رَبِّهِ مِنْ هَذِهِ الْفَوَائِدِ الْأَرْبَعَةِ فَيَكُونُ بِمَقْدَارِ
حُضُورِ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وَفِكْرِهِ مَعَ رَبِّهِ فِي أَوْقَاتِ ذِكْرِهِ، إِذْ تَنْقُصُ مِنْ حِظِّهَا
الْغَفَلَاتِ، وَتَنْقُصُ مِنْهُ شِوَارِدُ الْأَفْكَارِ، وَتَنْقُصُ مِنْهُ عَوَارِضُ الْأَهْوَاءِ
وَالشَّهَوَاتِ، وَلَوْ كَانَ اللِّسَانُ مُشْتَغِلاً بِالتَّسْبِيحِ وَالْحَمْدِ، وَيَتَزَايَدُ النِّقْصُ حَتَّى
يَكُونُ الذِّكْرُ اللِّسَانِي حَرَكَةً آيَةً لَا يَتَجَاوَزُ تَأْثِيرُهَا الْعِضَلَاتِ وَالْأَعْصَابَ الْمَادِيَّةَ
الَّتِي تَتَحَرَّكُ بِالْفَاظِ التَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ وَصُورِهِ الَّتِي
يُؤَدِّيهَا الذَّاكِرُونَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

● وَأَمَّا عِلْمُ الدَّاعِي بِأَنَّ رِسَالَتَهُ تَقْتَضِرُ عَلَى التَّبْلِيغِ وَالْبَيَانِ الْإِقْنَاعِيِّ،
وَلَا تَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْإِجْبَارِ وَالْإِكْرَاهِ، أَي: أَنَّ يَضَعُ فِي تَصَوُّرِهِ دَوَاماً هَذِهِ
الْحَقِيقَةَ، فَوْصِيَّةً دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ...﴾

أي: أَنْتَ مُكَلَّفٌ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ وَتُبَيِّنَ وَتَقْدِمَ لَهُمُ الْحُجْجَ وَالْأَدْلَةَ وَوَسَائِلَ
الْإِقْنَاعِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَسْتَ مُكَلَّفاً أَنْ تَكُونَ مُسَلِّطاً عَلَيْهِمْ
مُجْبِراً مُكْرَهاً.

فالدِّين لا إكراه فيه، والدَّاعي إلى دين الله غَيْرُ مَأْذُونٍ بِأَنْ يُكْرِهَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ .

بل الناس هم المسؤولون عند الله ربهم عن الاستجابة لدعوة الحق بالاختيار الحرّ، لا بالسُّوقِ الإكراهيِّ الجبريِّ .

إن الإكراه قد يَصْنَعُ منافقين، لكنّه لا يَصْنَعُ مؤمنين، والنفاقُ أخصُّ وأخبثُ من الكُفْرِ الصريح .

● وأما مُتَابَعَةُ التَّذْكِيرِ بِالْقُرْآنِ بعد التَّبْلِيغِ والبيان الكافي لِمَنْ تَبَدُّو عليه مخايلُ الخوف من عذاب الله المؤجّل والمعجّل ولو بمقدارٍ يسير، فوصيّةٌ دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في خاتمة السورة:

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ﴿٤٥﴾ .

أي: فذكّر بالقرآن من تشعُرُ بأنّه يَخَافُ وَعِيدَ اللَّهِ أَقْلَ خَوْفٍ، فَهُوَ مَطْمُوعٌ باستجابته لدعوة الحق يوماً ما، فينبغي تذكيره بما سبق أن تَبَلَّغَهُ وَتَفَهَّمَهُ من بلاغاتٍ وبياناتِ القرآن .

* * *

التعليم الثاني

جاء هذا التعليم في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) وقد تضمن الوصايا الأربع التالية:

١ - أَخَذُ الْعَفْوِ .

٢ - الأَمْرُ بِالْعُرْفِ، وَهُوَ الْبَذْلُ وَالْعَطَاءُ وَمُسَاعَدَةُ ذَوِي الضَّرُورَاتِ وَالْحَاجَاتِ .

٣ - الإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ .

٤ - الاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ كُلَّمَا نَزَعَ الشَّيْطَانُ فِي دَاخِلِ النَّفْسِ نَزْعًا مَآ .

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

قال الله عز وجل لرسوله فلكلٍ داعٍ إلى الله من بعده في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) وهي سورة مكية نزلت في أواسط العهد المكي:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٤١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

جاء هذا النص بعد عشر آيات علم الله فيها رسوله فاللدعاة من أمته،

مُنَازَرَةٌ جَدَلِيَّةٌ يُنَازِرُونَ بِهَا الْمُشْرِكِينَ، لِإِقْنَاعِهِمْ بِأَنَّ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍَ ظَاهِرٌ
الْبَطْلَانِ بِلَا شُبْهَةٍ، وَبِأَنَّ تَوْحِيدَ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ هُوَ الْحَقُّ بِلَا شُبْهَةٍ.

وَالْمُتَدَبِّرُ اللَّمَّاحُ يُدْرِكُ أَنَّ مُنَازَرَةَ مُشْتَمَلَةً عَلَى حُجَجٍ بَرَهَانِيَّةٍ مَقْنَعَةٍ لِمَنْ
أَرَادَ الْحَقَّ، وَدَامِغَةٍ لِمَنْ أَصَرَ عَلَى الْبَاطِلِ، كَالْمُنَازَرَةِ الَّتِي أَرَشَدَتْ إِلَيْهَا
الآيَاتُ السَّابِقَاتُ لِهَذَا النَّصِّ، سَتُلْجِئُ الْمَصْرِينَ عَلَى بَاطِلِهِمْ أَنْ يَتَّخِذُوا
وَسَائِلَ يُغْطُونَ بِهَا هَزِيمَتَهُمْ فِي مَجَالِ الْمُنَازَرَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْحُجَجِ
الْبَرَهَانِيَّةِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْوَسَائِلِ اللَّجُوءُ إِلَى السَّبَابِ وَالشَّتَائِمِ وَالتَّجْرِيحَاتِ
وَالِاتِّهَامَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالشُّغْبِ وَالْعَوَّغَاتِيَّةِ، وَالْهَرُوبِ إِلَى الْمَغَالِطَاتِ،
وَالرَّوْغَانِ عَنِ سَاحَةِ الْمُنَازَرَةِ، وَالِاسْتِغَالِ بِأَطْرَافٍ بَعِيدَةٍ تَخْتَلِفُ حَوْلَهَا
وِجْهَاتُ النَّظَرِ، إِذَا نُظِرَ إِلَيْهَا دُونَ أَصُولِهَا وَجُدُورِهَا الْحَقِيقِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ
وَالْوَاقِعِيَّةِ.

فَمَا هُوَ مَوْقِفُ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، الْمُنَازِرِ بِالْحَقِّ وَالْحُجَجِ الْبَرَهَانِيَّةِ
تُجَاهَ هَذِهِ الْوَسَائِلِ الْقَدِيرَةِ، الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْمُنْهَزَمُونَ فِي مَجَالِ الْفِكْرِ
الْحَصِيفِ، وَالْعِلْمِ الْحَقِّ، وَالْأَدَلَّةِ الْبَرَهَانِيَّةِ؟

أَيُّتَابِعُ الْمَبْطِلِينَ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ؟

إِنَّهُ إِذَا فَعَلَ هَذَا تَحَوَّلَتْ حَلَبَةُ الْمُنَازَرَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ إِلَى حَظِيرَةِ تَشَاتُمٍ
وَسِبَابٍ، تُشْبِهُ حَظَائِرَ الْكِلَابِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ أَغْلَبُ الْخُصْمَيْنِ أَكْثَرُهُمْ سَفَاهَةً
وَأَعْلَاهُمْ نُبَاهًا.

أَمْ يَعْفُو، وَيَقْطَعُ أَلْسِنَةَ الشَّتَائِمِ بِالْإِطْمَاعِ بِالْعَطَاءِ، وَيُعْرِضُ عَنِ
الْجَاهِلِينَ السُّفَهَاءِ؟

إِنَّ التَّوْجِيهَ الْقِرَائِيَّ يَقُولُ لِمَنْ تَعَرَّضَ لِمِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

هذه الآية على إيجازها تحكي بالإيماء اللفظي واللوازم الفكرية قصة مُعَانَاةِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، الْمُنَاطِرِ بِالْمُنْطِقِ الْعَقْلِيِّ، وَالْحُجْجِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَمَا يَلْقَاهُ مِنَ الَّذِينَ يُوجِّهُ لَهُمْ دَعْوَتَهُ الْحَكِيمَةَ مِنْ تَصَلَّبٍ عَلَى الْبَاطِلِ، وَعِنَادٍ وَجَهْلٍ وَسَفَاهَةٍ، وَسِبَابٍ وَشَتَائِمٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَاتِّهَامَاتٍ بِالْبَاطِلِ، وَسُخْرِيَّةٍ وَاسْتَهْزَاءٍ، وَغَمَزٍ وَلَمَزٍ وَإِيذَاءٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ السَّفَهَاءِ الْأَعْدَاءِ، الَّذِينَ لَمْ تُهَذِّبْهُمْ حِكْمَةُ الْحُكَمَاءِ، وَلَمْ تَعْقِلْ أَهْوَاءَهُمْ أَعِنَّةَ الْعُقَلَاءِ.

إنها تقول للداعي إلى سبيل ربه .

أيها الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة، ستواجه أذى وعداء وكيداً، من الذين تدعوهم إلى دين الله، وتناظرهم ضمن أصول العقل السليم بالحجج البرهانية المنطقية المقنعة.

إنك أمام مواقف السباب والشتائم والإيذاء، وألوان الهمز واللّمز والهزء والسخرية والعداء، وسائر المزعجات والجارحات :

● إما أن تواجه من تدعوهم بمثل أعمالهم، فتخرج عن منهج دعوتك التي اضطلعت بأعبائها.

● وإما أن تعفو عن سيء إليك، وتبقي جسور الصلة بينك وبين من تسعى لهديتهم قائمة صالحة للعبور.

● وقد جاء التوجيه القرآني لضرورة العمل بمقتضى الاحتمال الثاني وهو العفو، فقال الله عز وجل: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾.

إن أكثر الناس وجماهيرهم يكونون في معظم الأحوال أتباعاً لقادتهم

الَّذِينَ يَتَصَدَّقُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَقْفُونَ فِي طَرِيقِ دَعْوَةِ الْحَقِّ عَقَبَاتٍ، تُقَارِعُ بِالْخُصُومَاتِ، وَتُثِيرُ الْعِدَاوَاتِ.

فمن قابلهم بمثل طريقتهم أعطاهم فرصة التمكن من أن يكونوا عقبات راسخات صادات، فتمنح الداعي من متابعة المسير.

أما من عفا عن أساء إليه وتغاضى، وأبقى جسور الصلة بينه وبين من يسعى لهدايتهم قائمة صالحة للعبور، فإنه بطريقته يحل عرائم القادة المتصددين للمواجهة، فلا يمنحهم فرصة التمكن والرأسوخ في مواقعهم الصادة، وبسبب ذلك يستطيع متابعة مسيرته في الدعوة إلى سبيل ربه، ليغنم عظيم الثواب لديه، وعسى أن يظفر بمن يستجيب له ويهتدي بدعوته.

والبديع في قول الله عز وجل للداعي: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ أنها جاءت بأسلوب المطالبة بأخذ العفو، دون عبارة: «فاغف» أو عبارة: «فالزم العفو» أو عبارة: «فالزم سبيل العفو» أو نحو ذلك.

إن جملة: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ تُشعر بأن العفو شيء ثمين يؤخذ، ويغتنم، ويُظفر به، وأمرٌ يحرص عليه أهل البصيرة الإيمانية.

ولدى التحليل يلاحظ المتدبر أن العفو له حلاوة في القلوب والنفوس، فمن عفا ذاق حلاوة العفو إذا فعله ابتغاء مرضاة ربه.

والأشياء ذات الحلاوة في الماديات تؤخذ، وتستعمل في الوجوه التي تُعطي بها حلاوتها، فجاء التعبير بالأخذ نظراً إلى هذا المعنى.

ولما كان مجرد أخذ العفو يُسبب في نفس المؤمن وقلبه مشاعر الحلاوة الإيمانية، قال الله تعالى للداعي: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾.

ويلاحظ المتدبر أيضاً أن الله عز وجل يُثيب على العفو ثواباً عظيماً جليلاً، وبما أن المؤمن شديد الحرص على الظفر بهذا الأجر العظيم، كان من فنيّة الأداء البياني البديع، والأدب الرفيع، إسناد الأخذ إلى السبب الذي

به يُؤخذ الأجر العظيم الجليل عند الله جلّ جلاله .

وجملة: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ تدلّ بلازمها الذهني على النهي عن أخذ التَّشْفِي، أي: ولا تأخذِ التَّشْفِي لِنَفْسِكَ بالانتقام، ومقابلة السيئة بمثلها، ومعاينة المُسيء من المدعويين، فحلاوة العفو ولذته مع ثواب الله العظيم، خير لك من لذة التَّشْفِي العابرة، التي قد لا تظفر بها، وقد تجلب لك شرًا كبيراً، مع ما تقيم من عقباتٍ وجُدُرٍ في سُبُلِ دعوتك إلى ربك، ومع ما تُدمرُ من جسورِ بينك وبين من تدعوهم .

إنّ العفو عن إساءاتِ المدعويين وإيذاءاتهم يُعبّد للداعي السُّبُلِ الوعرة، التي ينبغي أن يسلكها في دعوته، ابتغاء مرضاة ربه، وهذا أمرٌ يُرضي الله عزّ وجلّ، لأنّه أكثر تأثيراً في هداية الناس، بما يملك من قلوبهم ونفوسهم وعواطفهم، وبما يُمهّد من طُرُقٍ إلى استجابتهم، فيُثيبُ الله عليه ثواباً عظيماً .

● قول الله عزّ وجلّ للداعي: ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ .

أي: وليكن من سياستك في الدّعوة إلى سبيل ربك أن تأمرَ النَّاسَ بِالْعُرْفِ، والعُرْفُ في هذه المرحلة المكيّة التي نزلت فيها سورة (الأعراف) هو ما يُسمّيه العرب عُرفاً، وهو البذلُّ والعطاء والمساعدة .

هذا التوجيه يدلُّ بعمومه على أنّ الدّاعي إلى الله إذا اهتمّ في دعوته إلى سبيل ربه بقضايا ذوي الحاجات من الفقراء والمساكين والضعفاء، فدافع عنها، وأمر باصطناع المعروف معهم، وحثّ على العطف عليهم ومساعدتهم، استعطف إلى دعوته قلوبَ ونفوسَ الكثرة الكاثرة من جماهير الناس، إذ الكثرة الكاثرة منهم في كلّ عصر وكلّ أمة هم ذوُّ الحاجاتِ والضعفاء .

والدّعوة إلى صُنْعِ المعروف معهم تستعطفهم إلى الداعي، وتجعلهم

يَلْتَمُونَ حَوْلَهُ، وبذلك تَتَوَجَّهَ أفكارُهم بقوَّةٍ لقاعدة الإيمان التي يدعوهم إليها، فيستقبلونها ويتقبَّلونها لما تشتمل عليه من حقٍّ وخير، ثم يستجيبون لها.

ويدلُّ هذا التوجيه أيضاً بقرينة وُرُوده عَقِبَ قول الله تعالى للداعي: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ على التوجيه الإلماحيِّ لِقَطْعِ لِسَانِ من يُسِيءُ إلى الداعي، بأن يأمرُ الداعي إخوانَهُ وأتباعه وأصحابه وأنصاره بأن يَصْنَعُوا العُزْفَ معه، ومع ذوي الحاجاتِ من جماعتهِ وعُضْبَتِهِ وعَشيرَتِهِ.

فإذا رأى هذا المُسيء أن دَاعِيَ الله الَّذِي أَسَاءَ هو إليه قد أمرَ إخوانه وأصحابه وأنصاره وأتباعه بأن يُقَدِّمُوا لَهُ ولعشيرته العُزْفَ، ولا سيما بعد أن ثارتَ فيهم الحميَّة، وهمُّوا بأن يَنْصُرُوا داعي الله وَيُقَابِلُوا المُسيءَ بمثلِ إساءته أو بشرٍّ منها، فإنَّه لا بُدَّ أن يَتَصَاغَرَ في نفسه، ويتراجَعَ عن مَوْفِقِهِ، ويحاول التكفير عن إساءته.

وتَحْكِي لنا قِصَصُ شَمَائِلِ الرَّسُولِ ﷺ شيئاً كثيراً ممَّا يتضمَّن تطييقَ هذا التوجيه الرِّبَّانِيَّ.

إنَّ هذه الجملة: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ على اقتضابها وإيجازها الشَّدِيدِ تحكي قِصَّةَ الأَسْلُوبِ الأَنْجَعِ للداعي إلى سبيل ربِّه في دعوته.

إنَّه الأَسْلُوبُ الَّذِي يَجْذِبُ به الجمهور الأوسَعُ للإيمانِ برسالته، يُدْرِكُ هذا أهلَ التدبُّرِ من العارفين بطبائع الناس، وواقعِ الشعوب، والعارفين بأساليب استعطاف الجمهور الأعظم منهم.

● قول الله عزَّ وجلَّ للداعي: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

أي: إنَّ الذين يتمادون في الجَهالةِ عليك بعدَ العفوِّ عن إساءاتهم وأذاهم، وبعد أن تأمَّرَ بَصْنَعِ العُزْفِ لهم، ينبغي أن تقابلهم بمجرَّدِ الإعراضِ

عنهم، وهو إعطاء عارضك لهم، والعارض هو جانب الوجه والجسم.
ونفهم من هذا أنه لا ينبغي إدارة الظهر لهم، والتولي عنهم، بل ينبغي
الاكتفاء بمجرد الأعراس إذا تطاولوا في السفاهة.
الإعراض: هو منزلة بين المواجهة والإدبار.

الجاهلون: المراد منهم هنا الذين يتسافهون على الفضلاء،
فيخاطبونهم بالأقوال الثابتة القبيحة، أو بالشتائم وأنواع السباب، وهذا
المعنى هو ما عناه الشاعر العربي «عمرو بن كلثوم التغلبي» بقوله:

أَلَا لَا يَجْهَلْنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

هذه الآية الموجزة بفقراتها الثلاث تُلخّص ما يمكن أن يشرح في فصول
ثلاثة، تبين بعض عناصر الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتحدّد
سياسة الداعي إلى سبيل ربه مع الذين يدعوهم.

١ - خذ العفو.

٢ - وأمر بالعرف.

٣ - وأعرض عن الجاهلين.

هذه الجمل المقتضبة الحاملة لوصايا ثلاث، جمل مُلتقطة من ثلاثة
فصول، وهي تدلّ بلوازمها الفكرية على أمّهات عناصر فصولها، وهذا لكون
من ألوان الأدب الرفيع الذي يُدرّكه كبار البلغاء، ويعتمدون عليه في
بياناتهم.

معالجة نفس الداعي:

بعد الوصايا الربانية السابقة للداعي إلى سبيل ربه، جاء في النص ما
يتضمّن معالجة نفس الداعي، إذ تحرك فيها الدوافع للتشفي ممن أساء إليه.

فأبان الله له أنها من نَزْعِ الشيطان، أي: من تحريكه وتحريضه وإثارتِهِ إلى الغضب وفعل الشَّرِّ انتقاماً للنفس، وعَلِمه أن يستعمل الدواء الذي يَصْرِفُ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ هَذَا النَّزْعَ.

هذا الدَّوَاءُ هُوَ أَنْ يَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ بِعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ، وَهَمَّةٍ نَفْسِيَّةٍ وَاعِيَةٍ، سَمِعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اسْتِعَاذَتَهُ الصَّادِقَةَ الصَّادِرَةَ عَنْ عُمُقِ فَوَادِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا حَدَثَ فِي نَفْسِهِ مِنْ انْفِعَالٍ يَكَادُ يَسْتَحْفُهُ لِلانْتِقَامِ، فَاسْتَجَابَ لَهُ، وَصَرَفَ عَنْهُ نَزْعَ الشَّيْطَانِ، وَبِذَلِكَ يَعُودُ إِلَى حَالَةِ الْهُدَى وَالسَّكِينَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، وَكَلَّمَا كَرَّرَ الشَّيْطَانُ نَزْعَهُ فَعَلَى الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ أَنْ يُكْرِّرَ اسْتِعَاذَتَهُ بِرَبِّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٢١)

هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلِ الْوَصَايَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٢٩).

لَفْظُ ﴿ وَإِمَّا ﴾ مَرْكَبٌ مِنْ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ، وَ«مَا» الَّتِي قَدْ تُضَافُ لِتَأْكِيدِ مَعْنَى الشَّرْطِ وَتَعْصِيدِهِ، مَعَ مَا فِيهَا مِنْ تَرْيِينٍ لِلْكَلامِ إِذَا كَانَ مَا بَعْدَ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ يَلِينُ النَّطْقُ بِهِ لَدَى إِضَافَةِ حَرْفِ «مَا».

النَّزْعُ: فِي الْحَسِيَّاتِ هُوَ النَّخْسُ وَالغَرَزُ بِإِثْرَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، بَغِيَّةُ الْإِثَارَةِ وَالذَّفْعُ لِأَمْرِ مَا.

وَيَسْتَعْمَلُ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ التَّنْفِيسِيَّةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ مِنْ وَسَاوَسٍ مُثْبِرَةٍ لِلْغَضَبِ، وَمُهَيِّجَةٍ لِلانْتِقَامِ.

وَجَاءَ تَأْكِيدُ فَعْلٍ: ﴿ يَنْزَغَنَّكَ ﴾ بِبُؤْنِ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ النَّزْعَ قَدْ بَلَغَ مَبْلَغَ بَدَايَاتِ حَدُوثِ الْغَضَبِ وَتَحَرُّكِ ثَوْرَتِهِ.

والاستعاذة بالله هي اللجوء إليه بالدعاء في طلب الحماية والحفظ من وساوس الشيطان ونزغاته، وصرف تأثيراته الكيدية .

العوذ في اللغة: اللجوء والاعتصام، يقال لغة: عاذ به يعوذ عوذاً وعياداً، إذا التجأ إليه واعتصم به، ليحفظه ويحميه، والاستعاذة هي طلب العوذ .

ولما كان الله عز وجل هو الذي بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير، كان من قام بواجباته كما أمره الله واستعاذ به داخلاً في ملكاً الله، وفي دائرة عصمته وحمايته .

وختم الله عز وجل الآية بقوله في وصف ذاته مؤكداً: ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: إنه تبارك وتعالى ذو سمع عظيم يسمع به كل صوت، وذو علم عظيم يعلم به كل شيء حتى ما تكفه النفوس، وتضمرة القلوب .

وفي ذكر هذين الاسمين من أسماء الله الحسنى إشارة إلى أن الاستعاذة بكلام مصحوب بصوت مهما كان خافتاً ينبغي أن تكون مقرونة بنية صادقة من عمق الفؤاد، حتى يستجيب الله دعاء من استعاذ به، فيصرف عنه نزغات الشيطان، فما تنويه القلوب مشمول بصفة العلم، مع علمه تبارك وتعالى بكل شيء .

وفي ذكر هذين الوصفين مع سوابق العلم بأن الله عز وجل يجيب دعاء من دعاه إذا علم أن في دعائه الذي دعاه خيراً له في دنياه وأخراه، كالاستعاذة به من الشيطان الرجيم دلالة على أن الله عز وجل يعيده من نزغات الشياطين، ويصرف عنه ما يجد في نفسه من أثرها .

لقد جاء وصف الله عز وجل هنا في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) بأنه سميع عليم، دون إفادة معنى حصر هذين الوصفين بالله عز وجل .

لِكِنَ فِي التَّعْلِيمِ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١/ مِصْحَفُ/ ٦١ نَزُولِ) الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَ (الأعراف) بِوَاحِدٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً، جَاءَ حَصْرُ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، تَأْكِيداً لِلدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِأَنَّهُ لَا سَمِيعَ فِي الْوُجُودِ لِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا عَلِيمَ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَالَ تَعَالَى فِيهَا:

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

فَدَلَّ عَلَى الْحَصْرِ تَعْرِيفَ طَرَفِي الْإِسْنَادِ وَالتَّأْكِيدَ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ «هُوَ» وَأَدَاةَ التَّعْرِيفِ «أَل» فِي «السَّمِيعِ» وَ «العَلِيمِ» هِيَ لِلْكَمَالِ الدَّالَّةُ عَلَى اسْتِغْرَاقِ كُلِّ أَفْرَادِ جِنْسِ السَّمْعِ وَجِنْسِ الْعِلْمِ، وَكُلَّ مَسْتَوِيَاتِهِمَا.

وَبَعْدَ هَذَا انْتَقَلَ النَّصُّ مِنْ تَوْجِيهِ الدَّاعِي إِلَى تَوْجِيهِ كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ حَوْلَ قَضَايَا نَزْعِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ، فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْوَصْفَ الَّذِي يَتَحَلَّى بِهِ الْمُتَّقُونَ بِأَسْلُوبِ الْخَبَرِ، لَا بِأَسْلُوبِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ أَدَبِ التَّوْجِيهِ التَّكْلِيفِيِّ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾.

● قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿طَئِفٌ﴾.

● قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي: ﴿طَيْفٌ﴾.

وَبَيْنَ الْقَرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِكْرِيٌّ، فَالطَّائِفُ: هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الْوَسَاوِسَ وَالدَّسَائِسَ وَالتَّسْوِيلَاتِ، فَيَطُوفُ وَيَقْدِفُ بِهَا عَلَى فَرِيستِهِ.

وَالتَّطِيفُ: التَّخِيلَاتُ وَالرُّؤْيَى النَّفْسِيَّةُ.

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْمُتَّقِينَ لِلَّهِ الْحَرِيصِينَ عَلَى حِفْظِ أَنْفُسِهِمْ وَحِمَايَتِهَا مِنْ نَزْعَاتِ الشَّيَاطِينِ، إِذَا مَسَّهُمْ بِالْوَسَاوِسِ طَائِفٌ أَوْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا، أَيُّ: تَذَكَّرُوا رَبَّهُمْ وَسُلْطَانَهُ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ، فَاسْتَعَاذُوا

به، فأَعَادَهُمْ، فصرف عَنْهُمْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ، الَّتِي رُبَّمَا أَلْقَتْ غِشَاوَةً عَلَى بَصَائِرِهِمْ، فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، قَدْ مُسِحَتْ عَنْهُمْ الْغِشَاوَةُ الَّتِي جَلَّلَتْ بَصَائِرَهُمْ مِنْ بَخَارِ الْغَضَبِ أَوْ الشَّهْوَةِ أَوْ الْهَوَى، أَوْ دُخَانِهَا.

وَأَمَّا إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ الْمَصَاحِبُونَ لَهُمْ فِي الْمَسَالِكِ، وَالْمَتَابِعُونَ خَطَوَاتِهِمْ إِلَى الْمَهَالِكِ، الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، وَلَا فِي أَعْمَالِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ، فَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَقْعُوا فَرِيسَةً لِنَزَعَاتِ الشَّيَاطِينِ، فَيَسْتَدْرِجُونَهُمْ، وَيَسْحَبُونَهُمْ إِلَى أوديةِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ، حَتَّى يَقْذِفُوا بِهِمْ إِلَى شَقَائِهِمْ، وَيَطْرَحُوهُمْ يُعَانُونَ أَنْوَاعاً مِنَ الْمَصَائِبِ وَالنَّكَبَاتِ، وَتَتَوَالَى عَلَيْهِمُ الْآلَامُ النَّفْسِيَّةُ وَالْآلَامُ الْجَسَدِيَّةُ حَتَّى يَكُونُوا مِنَ الْهَالِكِينَ.

وفي شأن هؤلاء قال الله عز وجل في النَّصِّ:

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

وإخوانهم: أي: وإخوان الشياطين، وهي أخوة مصاحبة ومتابعة في مسالك الضلال والغي.

وجاء الضمير العائد على الشيطان بصيغة ضمير الجمع تنبيهاً على أن لفظ «الشيطان» اسم جنس يعم كل شياطين الإنس والجن.

فإخوان الشياطين هم الذين يتبعونهم ويصاحبونهم في مسالكهم، ويستجيبون لوساوسهم وتسويلاتهم التي يطمعونهم فيها بالباطل.

يَمُدُّونَهُمْ: من فعل: «مَدَّه - يَمُدُّه» إذا أعطاه مدداً، وزاده فيما هو فيه، وأعانه في شأنه، والممدُّ يكون في الماديات وفي المعنويات.

وهذه قراءة جمهور القراء العشرة، وقرأ المدنيان: نافع وأبو جعفر: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ من فعل: «أَمَدَّه - يَمِدُّه» وهو بمعنى: مده لغة.

في الْغَيِّ: الْغَيُّ: مصدر «غَوَى» يقال لغة: غَوَى يَغْوِي غَيًّا وَغَوَايَةً،

وهو ضد الرشد، فيشمل كلَّ ضلالٍ وانحرافٍ وخروجٍ وبُعْدٍ عن الحقِّ وصراط الله المستقيم.

ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ: أي: ثُمَّ لَا يَكْفُ الشياطين ولا يُمْسِكُونَ عن مُتَابَعَةِ إغوائهم وإضلالهم، حتَّى إبلاغهم إلى قَعْرِ شقائهم إن استطاعوا، وَقَعْرُ شقائهم هو الدرك الأسفل من النار يوم الدين.

يُقَالُ لَغَةً: أَقْصَرَ عَنِ الشَّيْءِ أَوْ الْأَمْرِ أَوْ الْعَمَلِ إِذَا كَفَّ عَنْهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ.

فالشياطين لا يكفون عن الإغراء والإغواء والإطماع بالباطل والاستدراج إلى أسفل سافلين.

والمعنى أَنَّ الشياطين مهما غوى تابعهم وأوغل في ضلاله، فَإِنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَهُ وَشأنه يتخبَّط بنفسه في الضلال ولو طال الزمن، بل هم لَا يُمْسِكُونَ وَلَا يَكْفُونَ عن إمداده في الغيِّ، لأنَّ دركات الغيِّ ذاتُ سحيقٍ بعيد، وهم يحرصون على أن يوصلوه إلى أسفل سافلين، ولا يكتفون بما دون ذلك من دركات، ولهذا جاء التعبير بحرف العطف «ثُمَّ» فقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

وحظُّ الدُّعَاةِ مِنْ هَذَا التَّوْجِيهِ التَّحْذِيرِ الشَّدِيدِ مِنَ الاسْتِجَابَةِ لِنَزَعَاتِ الشَّيَاطِينِ، حَتَّى لَا يَتَحَوَّلُوا مِنْ كَوْنِهِمْ دُعَاةً إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، إِلَى كَوْنِهِمْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَقَدْ تَكُونُ الْبَدَايَةُ ثَوْرَةً غَضَبٍ مِمَّا تَلَقَّوهُ مِنْ أَدَى مَنْ قَبْلَ الْمَدْعُوبِينَ دَفَعْتَهُمْ إِلَى الْإِنْتِقَامِ وَمُقَابَلَةِ الشَّتَائِمِ وَالْإِتِهَامَاتِ وَالتَّجْرِيحَاتِ بِأَمْثَالِهَا.

* * *

التعليم الثالث

جاء هذا التعليم في سورة (الجن/ ٧٢/ مصحف/ ٤٠/ نزول) وقد تضمن هذا التعليم أربع وصايا.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

كان موقف المشركين إبان نزول سورة (الجن/ ٧٢/ مصحف/ ٤٠/ نزول) قد تطوّر إلى أن كادوا يكونون مجتمعين على عداوته ومقاومة دعوته، واضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه، اجتماعاً متكاتفاً متلبّداً، كتَلَبَّدِ الصُّوفِ أو الشَّعْرِ، حينَ يتراكبُ بعضُهُ على بعضٍ دلّ على هذا الطور قولُ الله عزّ وجلّ في هذه السورة: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَأْقَامِ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۗ﴾.

وهذا الطورُ يستدعي من الرسول ﷺ معالجات ثلاثمه، وقد جاء في

السورة تعليمٌ من الله لرسوله يشتمل على أربع وصايا:

الوصية الأولى: (أن يقول لهم إنّما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) أي:

ما أَعْبُدُ إِلَّا رَبِّي فِي سُلُوكِي الشَّخْصِي، وفي دعوتي إلى سبيله، وفي البلاغات التي أَمَرَنِي أَنْ أُبَلِّغَهَا لِعِبَادِهِ، وأنا لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا، فأنا بهذا أقوم بما يجب عليّ من عبادة تُجَاهَ رَبِّي الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ.

ولهذا فأنا لا أَتَلَقَّى الأوامر منكم ولا من آلهتكم الباطلة، التي تَعْبُدُونَهَا

من دون الله عزّ وجلّ، حتّى أتوقّف عن عبادتي لربّي في القيام بما يجب عليّ من دعوة إلى سبيله، وفيما يجب عليّ من تبليغ كتابه الذي يُنزلُهُ عليّ تبعاً نجماً فنجماً.

إنكم تطالبونني بأن أكفَّ عن تبليغ رسالة ربِّي، وأنا لا أستجيب لمطلبكم هذا، فأنا أعبدُ ربِّي الذي لا شريك له، وهو الذي كلَّفني أن أقوم بهذا التبليغ، وأن أدعوَ إلى سبيله.

وسأتابع عبادتي لربِّي في تبليغ دينه، ونشره بين عباده، مهماً جمعتم جموعكم لحزبي ومقاومة دَعْوَتِي، ومهماً تلبَّدتم عليَّ متواطئين ضديَّ، وضاعطينَ على صدري، لإسكاتِ لساني، وقطعِ أنفاسي.

دلَّ على هذه الوصية قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله في السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

* * *

الوصيةُ الثانية: (أن يقول لهم: إني لا أملكُ لكم ضرراً ولا رشداً).

كان الرسول ﷺ والذين آمنوا معه في المرحلة التي نزلت فيها سورة (الجن) لا يملكون قوَى دفاع تحصنهم من قوَى مشركي مكة لو اجتمعوا عليهم، وأعدوا العدة لقمعهم، لكن أمرهم كان يتفاهم بتكاثر الذين يؤمنون، وهذا يجعل المشركين يتخوفون من احتمالات المستقبل، وأن عليهم أن يسارعوا بتدارك الأمر قبل أن يستفحل، ويقفَّت زمامه من أيديهم.

فاقتضت السياسة الحكيمة الربانية إعطاءهم جرعات تهدئة تُخدِّرهم، وتبرِّدُ لهيب توجسهم من احتمالات تفاهم قوَّة الرُّسول والذين آمنوا معه.

فإذا قال لهم: (إني لا أملكُ لكم ضرراً) ألقى في مشاعرهم أنه بعيدُ بُعداً كبيراً عن الاستعداد لمقارعتهم بقوة دفاعية، فتبرِّدُ حماسهم، ويتوقَّف - ولو إلى حين - تجمُّعهم للقمع، وإعداد القوَى القتالية لإيقاف مدَّ القوَّة الإسلامية.

وفي هذا الإعلان سياسة بارعة مُهدِّئة لقلق المشركين، وثورتهم ضده.

وفي بيان أنه لا يملك لهم رَشداً، إشعاراً لهم بأنه لا يملك وسيلةً
يُلزِمُهُمُ بها إلزاماً قَهْرِيًّا أن يكونوا راشدين، مسلمين، مُتَّبِعِينَ صراطِ الْهُدَى،
وهذا البيان يتضمّن أمرين:

الأول: أنه لَنْ يُلْزِمَهُمْ يوماً ما على الإيمان به واتباعه.

الثاني: أنه يُحْمَلُهُمْ مسؤولية اختيارهم الحرّ تُجاهِ رَبِّهِمْ، الَّذِي
سَيُحَاسِبُهُمْ وَسَيُجَازِيهِمْ يوم الدين.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة: ﴿قُلْ إِنِّي لَأَ
أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.

* * *

الوصية الثالثة: (أن يُبَيِّنَ الرسولُ لَهُمْ أنه إذا تَوَقَّفَ عن أدائه ووظائف
رسالته وَقَعَ تَحْتَ طَائِلَةِ عِقَابِ الله له الَّذِي لا يجيرُهُ منه أحدا).

رُوي أن كفّار قريش قالوا للنبي ﷺ: إِنَّكَ جِئْتَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَقَدْ
عَادَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ فَارْجِعْ عَن هَذَا فَنَحْنُ نُجِيرُكَ.

فاقتضى هذا أن يُبَيِّنَ لهم أنه مسؤولٌ تُجاهِ رَبِّهِ عن تبليغ ما يَأْمُرُهُ بتبليغه
للناس، وإن لم يَقُمْ بهذا الواجب العظيم فإنّ الله عزّ وجلّ سَيُعَاقِبُهُ عِقَاباً
شديداً، وَلَنْ يُجِيرَهُ فيحمله من عذاب الله أحد.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ
يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ... ﴿١٢٢﴾.

لَنْ يُجِيرَنِي: أي: لَنْ يَمْنَعَنِي ويحميني من عذاب الله أحد إن لم أقم
بوظائف رسالتي التي أرسلني للقيام بها.

مُلْتَحِداً: أي: مُلْجأً أَلْجَأُ إليه رجاءً أن يحميني من عذاب ربي. أي:

ولن أجد من دون الله ملجأً يحميني ويعصمني من عقاب الله، إلا ملجأً واحداً هو أن أقوم بوظائف رسالتي.

* * *

الوصية الرابعة: (أن يُخَوْفَهُمْ من عذاب نار جهنم إذا عَصَوْا الله ورسوله).

دل على هذه الوصية قول الله عز وجل في السورة: ﴿... وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾.

والمراد من المعصية هنا عدم الاستجابة لدعوة الرسول إلى الإيمان والإسلام.

* * *

التعليم الرابع

جاء هذا التعليم في سورة (يس/ ٣٦/ مصحف/ ٤١ نزول):

وقد تضمّن هذا التعليم وصية واحدة موجهة للداعي إلى الله، وهي:

● أن لا يَحْزَن الدّاعي إلى الله إذا قال المدعوون فيه مقالات تَسُوؤُهُ، فالله عزّ وجلّ عليم بما يقولون في سرّهم وفي علانيتهم، وهو يتولّى الدّاعي إلى سبيله ابتغاء مرضاته، ومن تولّاه الله كفاه، وأعطاه من الخير مَنَاه.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

كان موقف بعض أئمة المشركين إِبَانِ نزول سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) اتّهام الرسول ﷺ بأنّه شاعر، وبأنّ القرآن المجيد الذي يأتي به لَوْنٌ من ألوان الشعر، فهو يؤثّر به على الذين يؤمنون به، دلّ على هذا الموقف قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: وَمَا أعطيناهُ موهبةَ صِنَاعَةِ الشعر، وما علّمناهُ ضبطَ أوزانه، ولا سَوَقَ كلامه وفق أساليبه وطرائقه، وما ينبغي له أن يكون شاعراً تستهويه أغراض الشعراء فيما يقولون من شِعْر.

أمّا القرآن فليس من الشعر الذي تُضْطَادُ معانيه من الرؤى الخيالية الهائمة على غير هُدًى في كلِّ وادٍ مُنْجِدِرٍ من أودية أهواء النفوس، وتكثر فيه الادّعاءات الكاذبات.

إنما القرآن كلام مبين يتضمّن حقائق ووصايا هاديات وداعيات إلى
لخير، ومُبَشِّرَاتٍ لِمَن آمَنَ وَاتَّبَعَ هُدْيَهُ بِالْعَاقِبَةِ الْحَسَنَى، وَمُحَذَّرَاتٍ وَمُنذِرَاتٍ
مَن كَفَرَ وَلَمْ يَسْتَجِبْ بِالْعَاقِبَةِ الْوَحِيمَةِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذِكْرًا حَاضِرًا فِي
لذِكَرَاتٍ، لِلانْتِفَاعِ بِهِ دَوَامًا فِي حَرَكَةِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ.

فَمَن كَانَ حَيَّ الْفُؤَادِ انْتَفَعَ بِهَدَايَتِهِ، وَبِمَا فِيهِ مِنْ إِنذَارَاتٍ.

وَإِتِهَامُ الرُّسُولِ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ، وَبِأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي يُبَلِّغُهُ عَنِ رَبِّهِ لَوْزٌ مِنْ
أَلْوَانِ الشَّعْرِ، إِتِهَامٌ قَدْ كَانَ يُدْخَلُ عَلَى نَفْسِهِ سَحَابَاتٍ مِنَ الْحُزَنِ، فَأَوْصَاهُ اللَّهُ
فِي السُّورَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ: جُمْلَةٌ تَحَدَّثَتْ عَنْ سُؤْلِ عِلْمِ اللَّهِ بِمَا
يُسِرُّ الْكَافِرُونَ مِنْ أَقْوَالِ ضَدِّ الرِّسُولِ ﷺ، وَمَا يُعْلِنُونَ مِنْهَا.

وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ لَا تَخْفَى عَلَى الرُّسُولِ وَلَا عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ،
إِلَّا أَنْ إِيْرَادَهَا يُشْعِرُ بِأَنَّ عِلَّةَ التَّوْصِيَةِ بِأَنْ لَا يُحْزِنَهُ قَوْلُهُمْ، هُوَ أَنَّ الرَّبَّ
الْجَلِيلَ بَعْظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَقَدْرَتِهِ عَلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِهِ وَخَذْلِ أَعْدَائِهِ وَأَعْدَاءِ الدُّعَاةِ
إِلَى سَبِيلِهِ، عَلِيمٌ بِمَا يُسِرُّونَ وَبِمَا يُعْلِنُونَ مِنْ أَقْوَالِ وَأَعْمَالِ، وَالْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
الْقَدِيرُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَلَّى أَوْلِيَاءَهُ، وَيَنْتَقِمَ مِنَ الْمَجْرِمِينَ، مَتَى اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ
الانْتِقَامَ مِنْهُمْ.

* * *

التعليم الخامس

وصل موقف المشركين إبان نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) إلى طور اتهام الرسول ﷺ بأنه افترى القرآن من عنده ونسبه إلى ربه، وأعانه عليه قومٌ آخرون، وقال فريق منهم: هو أساطير الأولين اكتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً.

وَشَكَكُوا فِي رسالة الرسول، لأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكسب رزقه. زاعمين أن الرسول ينبغي أن يكون مَلَكًا، واقترحوا أن يكون معه مَلَكٌ، أو يُلقَى إليه كَتَرٌ من السماء، أو تكون له جَنَّةٌ يأكلُ منها.

وقالوا للمسلمين: إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، وطلبَ بعضهم أن يُنزل الله عليهم ملائكة لتبليغهم رسالات ربهم، أو أن يروا ربهم، واعترضوا على تنزيل القرآن مُنجمًا، وطلبوا أن ينزل جُملةً واحدة.

وبدؤوا يتكلمون لمقاومة دعوة الرسول ﷺ، وهم يملكون قُوَى قتالية لا يملكُ المسلمون من القوي المادية ما يحميهم منها في ذلك الوقت.

وقد جاء في السورة بيان كل هذا مع الرد عليه بالحجة الكافية للاقناع، وجاء فيها عَرْضُ طائفة من أدلة توحيد الربوبية لله عز وجل، الذي يلزم عنه عقلاً توحيد الإلهية له جلّ وعلا.

ونستفيد منها الدعوة ووسائل التربية من سورة (الفرقان) ما يلي:

التوجيه الأول:

اتخاذ أسلوب الإعراض الذي هو وسط بين المواجهة والإدبار في توجيه بيانات الدعوة وبلاغاتها عمّن تولّى وكفر، بعد أن وصل إلى حال المكابرة والعناد، ومعاداة الرسول والمؤمنين، والعمل على قمع الدعوة بالقوة، وهو الموقف الذي وصل إليه كفّار مكّة في مرحلة نزول سورة (الفرقان).

ونفهم هذا الإعراض من أسلوب الحديث عن الغائب في الكلام على أقوال المشركين في السورة، أو تكليف الرسول مخاطبتهم، دون مواجهتهم بالخطاب إلّا في الإنذار.

* * *

التوجيه الثاني:

التربية عن طريق الإقناع بوسائله المختلفة، ومنها الوسائل التالية:

الوسيلة الأولى: بيان الحقّ، وإتباعه بالأدلة التي تثبت أنه حقّ، كأدلة إثبات التوحيد في السورة (انظر الآيات من ٤٥ - ٤٩ و ٥٣ - ٥٤ و ٦١ - ٦٢).

وبيان الباطل، وإتباعه بالأدلة التي تكشف أنه باطل، كأدلة إبطال الشرك في السورة (انظر الآيتين ٣ و ٥٥).

الوسيلة الثانية: الإحالة على دليل الملاحظة والتجربة، كتوجيه الأنظار للتأمّل في الظواهر الكونية بغيّة ملاحظة الأدلة التي فيها، أو تجرّبة ما يُجرّب منها، وللتنقيب عن خفاياها بغيّة التوصل إلى دقائق المعارف، واستنباط الكوامن، وإدراك ما وراء الظواهر، «وهذا كثيرٌ في السورة».

الوسيلة الثالثة: الإحالة على سنّة الله في تاريخ البشرية (انظر الآية ٢٠).

الوسيلة الرابعة: سؤال المجربين أهل الخبرة، للتوصل عن طريق خبراتهم وتجاربهم إلى الحق (مثل ما جاء في الآية ٥٩ فأَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا).

الوسيلة الخامسة: تفسير تراتيب القضاء والقدر بما يكشف وجه الحكمة، كالتفسيرات التي كشفت في السورة وجوه الحكمة الربانية في اختيار رسول من البشر، وعدم إعطائه الخوارق التي طلبها الذين كفروا، لأنها مطالب تعنتية، لا مطالب باحث عن دليل لإثبات الحق والصدق، وكشفت وجوه الحكمة من اختيار تنزيل القرآن مفرقاً.

* * *

التوجيه الثالث:

التربية عن طريق الترغيب والترهيب بأساليب مختلفة، ومنها الوعد بالثواب المؤجل إلى يوم الدين، والمعجل في الدنيا، والوعيد بالعقاب المؤجل والمعجل، وتوجيه الأفكار للاعتبار بما جرى في سالف التاريخ البشري من جزاءات ربانية، مع الإشارة إلى أنها من ظواهر سنن الله في خلقه التي لا تبديل فيها ولا تحويل. وهذا كثير في السورة.

* * *

التوجيه الثالث:

تربية الرسول ﷺ والدعاة من أمته بالأسوة الحسنة، وفي هذه التربية إقناع، وتسلية، وتطبيب نفس (انظر الآية ٢٠ والآية ٣١).

* * *

التوجيه الرابع:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بالصبر على أنواع الأذى التي يتلقاها من الذين يؤدي بينهم رسالته، وأنّ عليه أن يضع في تصوّره دواماً أنّه مُمتَحَنٌ بهم.

دلّ على هذه التوصية في سورة (الفرقان) قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ .

* * *

التوجيه الخامس:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن لا يطيع الكافرين،
فلا يتأثر بمقترحاتهم ومزالقهم وما يطرحونه من تشكيكات .

دلّ على هذه التوصية قول الله عز وجل في السورة: ﴿فَلَا تُطِيعِ
الْكَافِرِينَ...﴾ ﴿٥٦﴾ .

* * *

التوجيه السادس:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يجاهد الكافرين
بالقرآن جهاداً كبيراً، ويكون هذا الجهاد، بشرح وبيان ما في القرآن من
حقائق، وأدلة تُثبتها، وعرضٍ وشرحٍ وسائل تربيته للناس الاقناعية والترغيبية
والترهيبية .

دلّ على هذه التوصية قول الله عز وجل في السورة: ﴿... وَجَاهِدْهُمْ
بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٦﴾ .

* * *

التوجيه السابع:

توصية الله رسوله وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يضع في تصوّره دواماً
أن رسالته رسالة تبليغ وبيان وإقناع وترغيب وترهيب وتربية، ثم إنذار
بعذاب الله لمن كفر وعصى، وليس مكلفاً أن يحوّل الناس من الكفر إلى
الإيمان، إذ عليهم أن يؤمنوا باختيارهم الحرّ .

فما عليه إلا أن يكون مبشراً لمن أطاع واتبع، ومُنذِراً لمن أبى وأذبر
أو أعرض.

* * *

التوجيه الثامن:

توصية الرسول ﷺ ويلحق به كلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يُعلنَ
للجميع أنه ما يسأل الناس أجراً على ما يقدم لهم من هدايةٍ وخير، وما يئذلهُ
لهم من نصْحٍ ومجاهدة.

* * *

التوجيه التاسع:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يتوكّل في مسيرته
ذات الأعباء الشاقة على الحيّ الذي لا يموت.

* * *

التوجيه العاشر:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته بأن يُسبِّح بحمد الله آناء
الليل وأناء النهار، وكلّما حَزَبَهُ أمر.

* * *

التوجيه الحادي عشر:

توصية الرسول ﷺ وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته، بأن لا يَحْمِلَ هَمَّ مَا
يُشَاهِدُ مِنْ ذُنُوبِ عِبَادِ اللَّهِ الْكَثِيرَةِ، وَأَنْ يُوقِنَ بِأَنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِهِمْ، عَلِيمٌ
بأحوالهم، وكفى بالله خبيراً بذنوب عباده.

* * *

التوجيه الثاني عشر:

توصية الرسول وكلّ حاملٍ لرسالته من أمته، أن يبيّن للذين كفروا،

أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَا يَعْبَأُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ بِإِيمَانِهِمْ، وَالتَّزَامِهِمْ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَلَا يَتَأَثَّرُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ بِكُفْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، إِذْ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، فَلَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئاً، لَوْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئاً لَوْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ.

إِنَّمَا يَعْبَأُ بِهِمْ مِنْ أَجْلِهِمْ أَنْفُسِهِمْ، لِهَذَا فَهُوَ يُوجِّهُ لَهُمْ دُعَاءَهُ رَغْبَةً فِي أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ، كَيْ يَظْفَرُوا بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي دَارِ النِّعَمِ، وَكَيْ يُنْجُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْجَحِيمِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ التَّوْصِيَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ فِي آخِرِ سُورَةِ (الْفِرْقَانِ):

﴿ قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ فِي تَوَلَّيْتُمْ دُعَاؤَكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴿٧٧﴾ ﴾ .

أَي: قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ، لَكِنْ يَعْجَبُ بِكُمْ مِنْ أَجْلِكُمْ أَنْتُمْ، فَيُوجِّهُ لَكُمْ بَيِّنَاتِهِ وَتَذْكَيرَاتِهِ وَنَصَائِحَهُ وَإِزْشَادَاتِهِ وَتَرْغِيْبَاتِهِ وَتَرْهِيْبَاتِهِ وَمَعَالِجَاتِهِ التَّربَوِيَّةَ الْمَخْتَلِفَةَ.

لَكِنْتُمْ بِإِصْرَارِكُمْ عَلَى الْكُفْرِ تَكُونُونَ أَنْتُمْ غَيْرَ عَابِثِينَ بِنَجَاتِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَظَفَرْتُمْ بِالنِّعَمِ الْأَبَدِيَّةِ الْمَقِيمِ، وَمَعْرِضِينَ أَنْفُسَكُمْ لِلْخُلُودِ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ الْعَذَابُ مَلَاذِماً لَكُمْ لِأَنَّ تَكْذِيبَكُمْ مَلَاذِمَ لَكُمْ.

* * *

التعليم السادس

جاء هذا التعليم في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم ستَّ وصايا:

١ - أَنْ لَا يَخْزَنَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ الْمَصْرِيْنَ عَلَى كُفْرِهِمْ
بعناد، مُعْرِضِينَ أَنفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمُ الْعِنَادِي لِعَذَابِ اللَّهِ الْأَبْدِي.

٢ - أَنْ لَا يَكُونَ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُ الْكَافِرُونَ ضِدَّهُ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
وَاتَّبَعُوهُ، وَضِدَّ الْقُرْآنِ وَمَبَادِيءِ الْإِسْلَامِ وَشُرَائِعِهِ وَتَعْلِيمَاتِهِ، فَطَبِيعَةُ حَيَاةِ
الابْتِلَاءِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا هَذَا الْمَكْرُ، وَأَنْ يَقُومَ فِيهَا صِرَاعٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ،
عَلَى أَنْ اللَّهَ سَيُحْبِطُ مَا يَمْكُرُ الْكَافِرُونَ، أَوْ يَجْعَلُ مَكْرَهُمْ يُحِيطُ بِهِمْ، إِذَا
صَدَقَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ، وَقَامُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِهِ.

٣ - أَنْ يُعْلِنَ الدَّاعِي أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ فِي عِبَادَاتِهِ الْخَاصَّةِ وَفِي
قِيَامِهِ بِأَدَاءِ وَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَوَاجِبِ التُّصْحِحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

٤ - أَنْ يُعْلِنَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَكُونَ وَاحِدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ،
فَهُوَ مُلْزَمٌ بِكُلِّ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَشُرَائِعِهِ، وَلَيْسَ لَهُ إِعْفَاءٌ خَاصٌّ يَعْفِيهِ مِنَ
الْإِتِّزَامِ بِهَا.

٥ - أَنْ يَبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَتْلُو الْقُرْآنَ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ مَكْلَفًا أَنْ

يُلْزِمَهُمُ بِالْجَبْرِ وَالْإِكْرَاهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا مَا جَاءَ فِيهِ .

لكن عليه أن يُبَشِّرَهُمْ بِأَنْ مِنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَأَنْ يَنْذِرَهُمْ بِأَنْ مِنْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الضلال فعليه أن يُعِدَّ نَفْسَهُ لِتَحْمَلِ عَذَابَ رَبِّهِ .

٦ - أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ بَعْدَ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّ الْحَمْدَ كُلَّهُ لَهُ ثَلَاثَ قَضَايَا :

الأولى : أَنْ اللَّهُ سِيرِيهِمْ آيَاتِهِ فَيَعْرِفُونَ أَنَّهَا آيَاتُ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ .

الثانية : أَنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مَا يَفْعَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

الثالثة : أَنْ اللَّهُ سَيَحَاسِبُهُمْ وَيَجَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الْإِرَادِيَّةِ، وَعَلَى مَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ .

التحليل أخذاً مما جاء في السّورة :

كانت الحكمة العلاجية إبان نزول سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) تَقْتَضِي مَجَادَلَةَ أُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، حَوْلَ قَضِيَّةِ التَّوْحِيدِ، رَغْبَةً فِي إِقْنَاعِهِمْ بِبُطْلَانِ الشُّرْكِ فِي رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ، وَالشُّرْكِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَإِقْنَاعَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِأَنَّهُ لَا إِلَهَ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ .

فَعَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ فِي السُّورَةِ مِنْهُجاً جَدَلِيّاً يَجَادُلُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ، لِيَقِيمَ لَهُمُ الْبُرْهَانَ الْقَاطِعَ عَلَى التَّوْحِيدِ .

والمجادلة لإثبات قضية التوحيد تجرُّ إلى إثبات قضية الدينونة عند الله، والجزاء يوم الدين، على الأعمال في الحياة الدنيا .

وهنا يجد المشركون منكرو البعث مهرباً يَنْزَلِقُونَ مِنْهُ لِرَفْضِ الاعْتِرَافِ بِأَنَّ الْآخِرَةَ حَقٌّ، إِذْ يَجِدُونَ مَجَالاً لِأَنْ يَتَسَاءَلُوا عَنْ زَمَنِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَجَوَابُهُمْ يَكُونُ بَيَّاناً أَنَّ وَقْتَهَا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي أَخْفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ فَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ .

وقد كان مَوْقِفُهُم في هذه المرحلة مَوْقِفَ الإصرار على ما هم فيه من شك وإنكار ليوم الدين، واعتبار الخبر عن البعث للحساب وفضل القضاء والجزاء من أساطير الأولين، مع أنهم لَيْسُوا في حقيقة قُلُوبِهِم جازمين بأنه لا بعث يوم القيامة ولا حساب ولا جزاء، بل هم في الحقيقة فريقان: فريق قارب أن يُدرك الآخرة، وفريق أدركها.

فالفريق الذين قاربوا إدراكها قد وصلت أفكارهم في موضوع الآخرة إلى قُرب إدراك أنها حق، دل على هذا قول الله عز وجل في السورة:

﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ...﴾

أي: بل تقارب متتابعاً في طريق المراحل الاستدلالية إدراكهم العلمي في شأن الآخرة إلى الوصول إلى العلم بها، وإدراك أنها حق.

أدراك: أي: تدارك متتابعاً متلاحقاً في طريق الإدراك الواضح. وهذه قراءة جمهور القراء العشرة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ﴾ وهذه القراءة تفيد أن فريقاً آخر منهم قد بلغ بحثهم الفكري إلى إدراك أن الآخرة حق، وصار هذا الإدراك لديهم علماً.

فهم فريقان إذن:

- فريق أدراك في موضوع الآخرة علمهم، أي: تقارب من الجزم.
 - وفريق أدراك في موضوع الآخرة علمهم بأنها حق، أي وصل إلى العلم بأن الآخرة حق، فهو عالم بها في قلبه، إلا أنه يجحدها بلسانه.
- والذين أدراك علمهم في الآخرة، لم يبق لديهم في طريق العلم إلا شك ضعيف لا يصح عقلاً أن يصرفهم عن الإيمان بها، دل على هذا قول الله عز وجل:

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مَتْنًا... ﴾ (١٦)

والسَّبَبُ في انصرافهم عن إعلان الإيمان بها، وإعلان الإسلام، واتباع الرسول والعمل بما جاء في القرآن، أَنَّهُمْ قَدْ عَشَّتْ عَلَىٰ بصائرهم أهواؤهم وشهواتهم ورغباتهم من الحياة الدنيا، التي يحرصون على الاستمتاع بها غاية الاستمتاع، ولا يريدون ضبط أنفسهم عن الانطلاق الفاجر في أوديتها بالإيمان والاتباع وطاعة الله ورسوله، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿ بَلْ هُمْ مَنهَا عَمُونَ ﴾ (١٦)

أي: بل هم بعدَ قُرْبِ الإذْرَاكِ، أو حُصُولِ الإذْرَاكِ، عَمُونَ عَن رُؤْيَةِ مَا هو الخير لَهُمْ في آجَلِ أمرهم حُبًّا بِالْعَاجِلَةِ، ونُفُورًا مِنَ الضَّوَابِطِ الَّتِي تُلْجِمُهُمْ عَنِ الانطلاق الفاجر إذا آمنوا بالله واليوم الآخر.

وإذ سَيَطَرَ عَلَيْهِمَ عَمَىٰ الأهواء والشهوات، لجؤوا إلى المراوغة والمكر في حِيلِ الألفاظ والجذليّاتِ الباطلات الزائفات.

وإزاء موقفهم هذا الذي يَنْزَلِقُ بِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ وبئس المَصِيرُ، أخذت تَمُرُّ بِقَلْبِ الرسولِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ ساحاباتٌ مِنَ الحزن عليهم، إشفاقاً عليهم من المصير الذي هم إليه صائرون بكُفْرِهِمُ العنادي.

فاقتضت الحكمة الربّانية أَنْ يُوجِّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ في السورة لرسوله وصيَّتين حول واقع المشركين هذا:

الوصية الأولى: أَنْ لَا يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، نظراً إلى أن كفرهم لم يكن عن جَهْلٍ بِالْحَقِّ، بل عَن عِنَادٍ وَإِصْرَارٍ عَلَى الباطل، واتباعٍ لأهواء نفوسهم وشهواتها، ورغبة في العاجلة وإيثارٍ لها على الآجلة.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ... ﴾ (٧٦)

الوصية الثانية: أن لا يكون في ضيق مما يَمَكُرُونَ بحيل أقوالهم، وتراتب أعمالهم، لمقاومة دعوة الرسول والذين آمنوا معه، وإيقاف امتدادها، والروغان عن بياناتها وحججها القواطع.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٧).

ضَيْقٍ: قراءة جَمْهُورِ القراء العشرة بفتح الضاد وإسكان الياء.

ضَيْقٍ: بكسر الضاد وياء مدية قراءة ابن كثير.

الضَيْقُ والضَيْقُ: الكربُ في النفس الضاغط عليها، من أمرٍ غير سارٍ، أو من تخوُّفٍ حدوثٍ مكروه.

وتتضمن هذه التوصية الطمأننة من الله، بأنه سيُحِطُ مكرَ الكافرين، ويجعلُ مكرهم السيئ يحيقُ بهم، ويكونُ عليهم لا لهم.

* * *

واقتضت الحكمة التربوية الربانية أيضاً أن يُوجه الله لرسوله أربع وصايا أخرى جاءت في آخر السورة:

الوصية الأولى: أن يُعلن لقومه أنه مأمور بأن يعبد الله، ومعلوم أن من أنواع عباداته لربه أن يؤدي واجبات رسالته.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ يُعلّم رسوله أن يقول:

﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْئاً ﴾.

الوصية الثانية: أن يُعلن لقومه أنه مأمور أن يكون واحداً من المسلمين، تنطبق عليه كلُّ شرائع الإسلام وأحكامه.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ :

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

الوصية الثالثة: أن يبين لقومه أنه مأمور بأن يتلو عليهم ما يُنزلُ الله عليه من القرآن، دون أن تكون له صلاحية الإجماع القسري على الاستجابة والاتباع.

لكن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، لأنه سينال عند ربه أجراً عظيماً، ونعيماً مقيماً خالداً، في جنات النعيم، وما أنا إلا مبشرٌ لمن استجاب لدعوة الله وأطاع، وواحدٌ من الرُّسلِ المبشرين.

ومن ضلَّ باختياره الحرَّ فإنه يجني على نفسه، لأنه سيذوق عند ربه في جهنم عذاباً أليماً خالداً فيها، وما أنا إلا مُنذِرٌ لمن ضلَّ ولم يستجب لدعوة الله ولم يطع، وواحدٌ من الرُّسلِ المنذرين.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السُّورَةِ :

﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ .

الوصية الرابعة: أن يقول لقومه كما جاء في الآية الأخيرة من السورة:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

* * *

التعليم السابع

جاء هذا التعليم في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم أربع وصايا موجهة للرسول ﷺ، ولكل داعٍ إلى الله من أمته، وهي:

١ - أن لا يُحزِنَ الداعيَ قَوْلُ الكافرين فيه مِمَّا يسُوؤُه، فالله سينصُرُه بقوَّتِه الغالبة، إذا صدق وأخلص لله في دعوتِه، وليكن على ثقة بالله إذا توكل عليه، فإنَّ العزَّةَ لله جميعاً، وليسأل ربه تأييده ونصره، فهو السميع العليم الذي ينصرُ رسله والذين آمنوا.

٢ - أن يرُدَّ على من يتَّهمُه بالافتراء على الله، فيقول له: إنَّ الذين يفترون على الله الكذب لا يُفلحون.

٣ - أن يتَّبَعَ بياناتِ الوحي، فلا يحيدَ عنها، ولا يكتُم شيئاً منها، ولا يزيد من عنده شيئاً عليها.

أما المفاهيم الاستنباطية والقياسية فليست من الزيادة عليها، بل هي من توابعها.

٤ - أن يضبرَ على أذى المدعوين، حتَّى يحكمَ الله فيجعل له فرجاً ومخرجاً، والله خيرُ الحاكمين.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

ظلّ موقف أئمة المشركين موقف المتعجب من أن يُرسل الله إليهم رسولاً بشراً منهم، على الرغم من كلّ ما سبق من إقناعات تكشف أنّ الحكمة تقتضي أن يكون الرسول إلى البشر بشراً منهم.

وإذ كذبوا الرسول مُتعلّلين ببشريته مع ما يرون من تأثيره على كثير من عقلائهم ودهمائهم، لم يكن أمامهم إلا أن يوجهوا للرسول الاتهام بأنّه سَاحِرٌ، والاثِّهَامُ بأنّه افترى القرآن من عنده، وزعم بأنّ الله أوحى به إليه، وطالبوه بأن يأتي بقرآن غير القرآن الذي يتلوه عليهم، أو بأن يبدّله، فإذا استدرجوه لذلك أدانوه بأنّه هو الذي يصنّع القرآن ويفتره على ربّه، وطالبوه أيضاً بأن يأتيهم بآية مادية، وأطلقوا مقالاتٍ تدلّ على أنّهم يَسْخَرُونَ بما أنذرهم به من عقابٍ مُعَجَّلٍ يُنزِله الله بهم.

دلّ على هذا الموقف المتعدّد الظواهر عدّة آياتٍ جاءت في السورة:

الآية الأولى: قول الله عزّ وجلّ في أوائل السورة:

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ .

﴿ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ أي: أنذِرِ الَّذِينَ لم يستجيبوا لِذَعْوَتِكَ، وهم أكثر الناس.

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: أنّ لهم قدماً ثابتةً مَحْمُودَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ، ومن له قدمٌ محمودةٌ عِنْدَ رَبِّه يكون ذا حظٍّ عظيم من الرِّضْوَانِ والأجر العظيم^(١).

(١) يصفّ العربُ بكلمة «صدق» ما يريدون مدحه، فيقولون: رجلٌ صدق، وامرأة صدق، أي: رجلٌ نعم هو رجلاً، وامرأة نعمت هي امرأة، ونحو هذا «مفعدُ صدق» =

﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: إن هذا الذي يدّعي أنه رسول الله ويبلغ عنه قرآناً يتلوه لساحرٍ واضح في كونه ساحراً.

الآية الثانية: قول الله عز وجل في أثناء السورة:

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِشْرَةٍ إِنَّا غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي نَفْسِي إِن أَسْبَغُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥).

الآية الثالثة: قول الله عز وجل في أثناء السورة أيضاً:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنبِئُهُمْ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٦).

فدلت هذه الآية على أنهم اتهموا الرسول بأنه يفتري القرآن على ربه، أي: يختلقه ويصنعه هو، ثم يدّعي أنه كلام من عند الله يوحى به الله إليه. وقد تحداهم القرآن تحدياً مُعجزاً بأن يأتوا بمثل سورة منه، فلم يستطيعوا فسقط بعجزهم الاتهام بالافتراء على الله.

الآية الرابعة: قول الله عز وجل في أثناء السورة أيضاً:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٧).

يخاطبون بهذا الرسول والذين آمنوا معه، أي: في أي وقت يتحقق إنذار الرسول لنا بالعقاب، وفي هذا الاستفهام معنى السخرية بما أنذرهم به، وهذه السخرية ناشئة عن عدم تصديقهم بما أنذرهم به.

فاقضت جملة ظواهر موقفهم في الطور الذي وصلوا إليه إبان نزول

= أي: مقعد نعم هو مقعداً، و«قدم صدق» أي: قدم نعمت هي قدماً ثابتة عند ربها، وذو القدم الثابتة عند ربه يكون محموداً مرضياً عنه.

سورة (يونس) أن يُوجّه الله لرسوله ويُلحَقْ به كلّ داعٍ إلى الله من أمته الوصايا الأربع التي سبق ذكرها في أوائل بيان هذا التعليم.

● فالوصية الأولى: دلّ عليها من السورة ما تَضَمَّنَهُ قول الله عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾﴾

أي: ولا يحزنُكَ ما يقوله الكافرون فيكَ ممّا يسوؤُكَ، فَتَحْنُ ناصرُوك بقوتنا الغالبة.

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا: أي: إِنَّ الْقُوَّةَ الغالبةَ كُلُّهَا لِلَّهِ وحده لا شريك له فيها، وفي هذا البيان إشعارٌ ضمّني بأنّ الله ناصرُهُ عليهم.

هو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ: أي: هو جلّ وَعَلَا السَّمِيعُ لما يقولون فيكَ، والسَّمِيعُ بدُعاتِكَ، والعلِيمُ بأحوالهم وأحوالك لا تخفى عليه خافية، وفي هذا البيان إشعارٌ ضمّني بأنّ الله حافظُهُ من تدبيراتهم ومكائدهم.

● والوصية الثانية: دلّ عليها قول الله لرسوله - ويُلحَقْ به كلُّ داعٍ إلى الله من أمته - في السورة:

﴿قُلْ إِنَّكَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أي: فلو كنُتُ من الَّذِينَ يفترون على اللَّهِ الكَذِبَ فلا يُمكن أنْ أفلح أبداً، وأنا لا أفعل ذلك لأنني حريصٌ على الفلاح، والمستقبل كشافٌ.

● والوصية الثالثة: دلّ عليها قولُ الله لرسوله في الآية الأخيرة من السورة:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ... ﴿٦٧﴾﴾

أي: ولا تفكّر في الاستجابة لمقترحاتهم ومطالبهم، فهي مزالِقُ فتنة يريدون استدراجك إليها، والتزمِ باتِّباع ما يُوحَىٰ إليك.

● والوصية الرابعة: دلّ عليها قول الله لرسوله في الآية الأخيرة من
السورة أيضاً:

﴿وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

أي: واصبر على ما يؤذيك من أقوال الكافرين وأعمالهم، حتى يحكم
الله بينكم، وهو خير الحاكمين، فإن أصروا على كفرهم وعنادهم فسيُنزلُ بهم
عقابه وينصروك وينصروا الذين آمنوا معك.

* * *

التعليم الثامن

- ١ -

موقف أئمة المشركين إبان نزول سورة (الحجر)

كان موقف أئمة المشركين إبان نزول سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) في أواسط المرحلة المكية من تاريخ دعوة الرسول مواجهة هؤلاء الأئمة للرسول بعنف وصراحة بأذيتين:

الأذية الأولى: شتيمته بأنه لمجنون، وغرضهم صدّ جماهيرهم الذين يثقون بكمال عقولهم، وصحة آرائهم، عن الاستماع إلى الرسول وعن اتباعه، مع تصوّرهم أنّ هذه الشتيمة قد تجعل الرسول يخفّف من نشاطه في دعوته، بما ينزل به من حُزنٍ أو غضب.

دلّ على هذه الأذية قول الله عزّ وجلّ في أوائل السورة.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٠١﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ كَإِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ۝ ﴾

إنّهم قد وصلوا في الوقاحة إلى مُواجهته بالشتيمة مؤكّدين فيها أنّه لمجنون.

الأذية الثانية: الاستهزاء به علناً في المحامل والمجامع العامة، بغية صدّه عن دعوتهم إلى دين الله الحق، وعن دعوة جماهيرهم الذين يتأثرون

بهم، أو بُغِيَّة استشارة غضبه إزعاجاً وإيلاًماً، ورُبِّمَا قَابَلَ شَتَائِمَهُمْ بِمِثْلِهَا، فتكون هذه المقابلة بمثابة الشاهد على صحَّة اتِّهَامِهِمْ له بالجنون، ورُبِّمَا كَانَ التَّشَاتِمُ مِفْتَاحاً لَصِرَاعِ جَسَدِي هُمْ حَيْثُ أَكْثَرَ قَدْرَةً عَلَيْهِ، وَأَكْثَرَ أَنْصَاراً.

مع ما في الاستهزاء من صدِّ جماهيرهم عن الاستماع إليه وعن اتِّبَاعِهِ، لِمَا فِي الاستهزاء الْعَامِّ مِنْ إِحْيَاءِ خَبِيثٍ فِي نَفُوسِ الْجَمَاهِيرِ يُشْعِرُهُمْ بِأَنْ مِنْ يُوَجِّهُ ضِدَّهُ الاستهزاء جَدِيرٌ بِأَنْ يُسْتَهْزَأَ بِهِ.

دلَّ عَلَى أَيْذَانِهِمْ لَهُ بِأَنْوَاعِ الاستهزاء الْمُنْكَرِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ خُطَاباً لِرَسُولِهِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

- ٢ -

الوصايا الرِّبَانِيَّة

وقد وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ (الْحَجْرِ) تِسْعَ وَصَايَا يُعَالِجُ بِهَا مَوْقِفَ أُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، وَيُعَالِجُ بِهَا نَفْسَهُ الَّتِي تَوَلَّمَهَا شَتِيمَتُهُمْ لَهُ، وَاسْتَهْزَاؤُهُمْ بِهِ، وَهَذِهِ الْوَصَايَا مَوْجَّهَةٌ لِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ يَتَعَرَّضُ لِمِثْلِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ الرَّسُولُ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ يُؤَدِّي بَيْنَهُمْ رِسَالَتَهُ.

الوصية الأولى: (الصَّفْحُ الْجَمِيلُ).

وهو الإعراضُ عَنْ مَقَابِلَتِهِمْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ، وَعَدَمُ الْاِسْتِغَالِ بِدَفْعِ إِيْذَانِهِمْ.

وَأَصْلُ الصَّفْحِ فِي اللُّغَةِ الْجَنْبُ، وَصَفْحُ كُلِّ شَيْءٍ جَانِبَهُ، وَيُقَالُ: صَفَحَ

فلانٌ عن المذنب، إذا أعرض عن ذنبه، فلم يؤاخذ به عليه، ولم يُقابله بمثله، وهذا المعنى مأخوذٌ من أنَّه أعطاه جانبه مُعرضاً عنه، غير مواجهٍ له بالعقاب.

والجَمالُ في هذا الصَّفحِ يكونُ بإبقاء الوَجْهِ طَلْقاً سَمْحاً لا تظهر عليه علاماتُ الغضب أو الغيظ والكرهية، وبإبقاء الكلام عاديّاً لا تظهر فيه أمارات الاضطراب أو الإلماحات المستخفية، ويكون أيضاً بعدم شَغْلِ القلبِ برغبات الانتقام.

دلّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر السورة:

﴿ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلِيقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

* * *

الوصيّةُ الثانيةُ: (أَنْ لَا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إِلَىٰ مَا مَتَعَ اللَّهُ بِهِ أَصْنَافاً مِنَ النَّاسِ وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَعْدَائِهِ الْكُفَّارِ).

فقد كان الرسول ﷺ هو وأصحابه في مكة إبان نزول سورة (الحجر) في موقفٍ ضَعْفٍ وحاجةٍ، وكان أئمة المشركين في موقف قُوّةٍ وسلطانٍ وثراءٍ، وهذا الأمرُ من شأنه أن يُحرِّك في النَّفسِ الرغبة في أن يكون له وللذين آمنوا معه ما لهؤلاء الأئمة، أو مثله لئلا يكون للكافرين امتياز دنيويٍّ على المؤمنين.

فاقتضت الحكمة التربويّة الربّانيّة أن يُوجّه الله لرسوله والغرض التوجيه لكلِّ مؤمنٍ من أمته هذه الوصيّة، لأنّ حكمة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا تقتضي الإمداد والإمهال للمعرضين عن الدعوة، حتى يأتي وقت عقابهم، وتمحيص المؤمنين بالشدائد حتى يأتي وقت نصْرِهِمْ، وإمدادهم بما يحبُّون من الحياة الدنيا.

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ... ﴾ ﴿٨٨﴾

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ: أي: لا تنظرَ نظرَ تشهٍّ إلى ما أمددنا به أصنافاً من المشركين وسائر الكافرين من متاع الحياة الدنيا، لامتحانهم واختبارهم بها. أزواجاً منهم: أي: أصنافاً من الناس ولو كانوا كافرين، يُطلقُ لفظ الزوج على الصنف من كلِّ شيء.

وجاء التعبير بمدَّ العين بدلَ النَّظَرِ، لبيان أنَّ نظرَ الشَّهْيِ والطلبِ يختلفُ عن النظرِ العاديِّ العابر.

فنظر الشَّهْيِ يقترن بدوافع تمتدُّ آثارها من داخل النفس، وسائرةً على خطوط أشعةِ النظر لتتناول المُشْتَهَى وتملكه حتَّى كأنَّ العَيْنَيْنِ يَدَانِ ممتدَّتَانِ تبتغيانِ أخذَ ما اشتَهتهُ النفس، لتستوليَ عليه وتملكه.

وفي هذا معنى الاعتراضِ على حكمة الله في عطائه ومنعه، وفي التوسعة على بعض عباده، والتضييق على آخرين منهم، ليبلو كلاً منهم بما يُلائمُ فطرتهِ نَفْسِهِ الَّتِي فَطَرَهُ عَلَيْهَا.

* * *

الوصية الثالثة: (أَنْ لَا يُخْزَنَ عَلَى الْكَافِرِينَ بِسَبَبِ تَعْرِضِهِمْ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا).

فقد كان الرسول ﷺ شديد الشفقة على قومه، شديد الرحمة بهم، حريصاً على أن يؤمنوا لينجوا من عذاب الله، وليظفروا بالسعادة الخالدة في جنات النعيم.

فإصرارهم على ما هم فيه من شركٍ وكُفْرٍ برسالته، وبما جاء به عن ربِّه، في مقابل شفقتهم عليهم، ورحمته بهم، أمرٌ من شأنه أن يُخْزِنَ، لأنَّ من يُخْزِمُ ممَّا هو شديد الحرص عليه، يُخْزِنُ لِقَوَاتِهِ، بمقتضى طبيعته البشرية، وهذا الحزن يؤثر على نفسه، وقد يُبْطِئُ من نشاطه في مجال تأدية رسالته،

المأمور بأن يبذل فيها قصارى ما يملك من جهدٍ ومجاهدةٍ لتوصيلها للناس .
فالحُزْنُ يشغلُ الحزِينَ عن القيام بالأعمال الجهادية التي تتطلبُ الرجاءَ
والتفاؤلَ .

ومعلومٌ أن إرادة الله الحكيمة قد قضتْ بأن يضعَ الناس في الحياة الدنيا
مَوْضِعَ الامتحان، وأنَّ على كُلِّ مُمْتَحَنٍ مُكَلِّفٍ أَنْ يختار بنفسه مصيره، بعد
البيان الكافي له .

فمن اختار لنفسه طريق جهنم وهو كامل الأهلية الفكرية والإرادية، فلا
يَبْنِي أَنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ مِنْ أَجْلِهِ، إِنَّهُ إِذَا لَمْ يَشْفَقْ هُوَ عَلَى نَفْسِهِ، وَهِيَ أَحَبُّ
شَيْءٍ إِلَيْهِ، أَفِيَسْتَحِقُّ أَنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ مِنْ أَجْلِهِ .

دلَّ على هذه الوصية قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله في أواخر السورة:

﴿... وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ...﴾

* * *

الوصية الرابعة: (أَنْ يَخْفِضَ جَنَاحَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ).

أي: أن يتواضع للمؤمنين، وأن يحيطهم بالحنان والرحمة والرعاية
والحفظ. وقد جاء في العبارة استعارة خفض الجناح للدلالة على هذه
الأمور، أخذاً من حركة الطائر حينما يخفض جناحه تواضعاً لطائر آخر،
وحينما يخفض جناحه ليحيط به فراخه الصغار ويضمها إلى دَفءِ صدره،
ويجللها بريشه، رحمةً بها، وحناناً عليها، ورعايةً وحمايةً وحفظاً.

ومثل هذا التعبير يُسَمَّى عند البلاغيين استعارةً مكنيةً، إذ حُذِفَ
المستعار الذي هو في الأصل مشبَّه به، واستُخْدِمَ في اللفظ بعضُ لوازمه:

دلَّ على هذه الوصية قول الله عزَّ وجلَّ في أواخر السورة:

﴿... وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

الوصية الخامسة: (أَنْ يُوجَّهَ الْإِنذَارَ الْوَاضِحَ الْمُبِينَ لِأُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ).

فَأَثَمَةُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ بَلَغُوا مَبْلَغَ الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ وَالْمُجَاهِدَةِ الصَّرِيحَةِ لِلَّهِ بِأَنَّهُ لِمَجْنُونٍ، بَعْدَ كُلِّ الْبَيِّنَاتِ وَالْمَعَالِجَاتِ الَّتِي سَبَقَتْ مِنْذُ بَدَأَ دَعْوَتَهُ حَتَّى نَزَلَ سُورَةُ (الْحَجْرِ) فِي أَوْسَطِ الْمَرَحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ مِنْ تَارِيخِ دَعْوَتِهِ، يَخَسُّ تَوْجِيهَ الْإِنذَارِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ لَهُمْ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَاخِرِ السُّورَةِ:

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾.

أَي: وَاجْهَهُمْ بِهَذَا الْإِعْلَانِ الْمُؤَكَّدِ بِشِدَّةٍ، الَّذِي اجْتَمَعَتْ فِيهِ الْمُؤَكَّدَاتُ الْمُتَعَدِّدَةُ الْمُتَظَاهِرَةُ.

المؤكد الأول: «إِنَّ».

المؤكد الثاني: الجملة الاسمية.

المؤكد الثالث: ضمير «أنا» فهو إما ضمير فصل، أو مبتدأ جملة هي خبر «إِنَّ».

المؤكد الرابع: تعريف طرفي الإسناد في الجملة الاسمية.

* * *

الوصية السادسة: (أَنْ يَصْدَعَ بِمَا يُؤَمَّرُ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ).

أَي: أَنْ يُجَاهِرَ بِمَا يُؤَمَّرُ بِتَبْلِيغِهِ وَيُعْلِنَهُ إِعْلَانًا عَامًّا، وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى الدَّعْوَةِ الْإِفْرَادِيَّةِ فِي آذَانِ الْمَدْعُورِينَ.

وَفِي الصَّدْعِ مَعْنَى تَوْجِيهِ الدَّعْوَةِ الصَّرِيحَةِ الْعَلْنِيَّةِ بِقُوَّةٍ تَجْعَلُ النُّفُوسَ الْمُتَحَجِّرَةَ الْمُتَصَلِّبَةَ تَنْصَدِعُ، كَمَا تَنْصَدِعُ الْأَوَانِي الرَّجَاجِيَّةُ، أَوْ كَمَا تَنْصَدِعُ

الحجارة، فَتَشَقُّ متأثرة بقوة ما يضطدُّ بها، لكنها تبقى متماسكة الاتصال فلا تنكسر.

والصدع بهذا المعنى كناية عن قوة الجهر بالبيان المقرون بالحجة المأثرة في النفوس والقلوب.

دل على هذه الوصية قول الله عز وجل في أواخر السورة:

﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ... ﴾ (١١)

الصدع: في اللغة أصله الشق في الشيء، كالصخرة والزجاج والأرض، ويأتي الصدع بمعنى الجهر والإعلان.

* * *

الوصية السابعة: (أن يُعرضَ عن أئمة المُشركين).

فالأئمة الذين بلغوا من دعوته مبلغ العناد والمكابرة، والمواجهة له بأنه مجنون، وسلطوا عليه أسلحة الهزء والسخرية، ينبغي أن لا يقابلهم على شتائمهم واستهزاءاتهم بأمثالها، وأن يُعرضَ عن توجيه الدعوة لهم، ليوجه اهتمامه لغيرهم، مكتفياً بأن يُسمعهم دون مواجهة، وذلك بإعطائهم عارضة وهو جانبه، فالإعراض وسط بين المواجهة والإدبار.

واقترنت هذه الوصية بطمأننة الله لرسوله بأنه كفاه عصابة المستهزئين الكبار، فأهلكهم.

دل على هذه الوصية قول الله عز وجل في أواخر السورة:

﴿... وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

جاء عند محمد بن إسحاق كما ذكر ابن كثير أن عظماء المستهزئين كانوا خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنانٍ وشرفٍ في قومهم، وهم:

١ - «الأسودُ بنُ أبي زَمْعَةَ» وهو من بني أسدِ بن عبد العزى بن قُصَيِّ .
رُويَ أن الرسول ﷺ دَعَا عليه لِمَا كان يبلغُهُ من أذَاهُ واستهزائه، فقال:
«اللَّهُمَّ أَعْمِ بَصَرَهُ، وَأَثْكِلْهُ وَلَدَهُ» .

٢ - «الأسودُ بنُ عَبْدِ يَعُوْثٍ» من بني زُهْرَةَ .

٣ - «الوليدُ بنُ الْمُغِيرَةَ» من بني مخزوم، وكان رأسَ المستهزئين،
وهو الذي جمعهم .

٤ - «العاصُ بنُ وائلٍ» من بني سَهْمٍ .

٥ - «الحارثُ بنُ الطَّلَاطِلَةَ» من خزاعة . ورُوي أنه: «الحارثُ بنُ
قيس» وأنه عَيْطَلَةٌ، أو عَيْطَل .

روى ابن إسحاق عن عُرْوَةَ بن الزبير أو غيره من العلماء، أن جبريل
عليه السلام، أتى رسول الله ﷺ وهو يطوفُ بالبيت، فَقَامَ وقام رسولُ الله ﷺ
إلى جنبه:

● فَمَرَّ به «الأسودُ بنُ عَبْدِ يَعُوْثٍ» فَأَشَارَ إِلَى بَطْنِهِ فَاسْتَسْقَى^(١) بَطْنَهُ،
فمات منه .

● ومَرَّ به «الوليدُ بنُ الْمُغِيرَةَ» فَأَشَارَ إِلَى أَثَرِ جِرَاحٍ بِأَسْفَلِ كَعْبِ رِجْلِهِ،
وكان أصابه قبل ذلك بسنتين، وهو يَجُرُّ إزاره، وذلك أنه مَرَّ بِرَجُلٍ من خُزَاعَةَ
يَرِيشُ نَبْلًا له^(٢)، فتعلَّق سَهْمٌ من نَبْلِهِ بإزاره، فَخَدَشَ رِجْلَهُ ذَلِكَ الخَدَشَ،
وليس بشيء، فانتَقَصَ به فَقَتَلَهُ .

● ومَرَّ به «العاصُ بنُ وائلٍ» فَأَشَارَ إِلَى أَحْمَصِ قَدَمِهِ، فخرج على

(١) يقال لغة: سَقَى بَطْنَهُ واستسقى، وأسقاه الله، إذا اجتمع فيه ماءٌ أصفر، وهو مرضٌ
معروف عند الأطباء، بداء الاستسقاء .

(٢) يریش نبالاً له: أي: يضع له الریش .

حمارٍ له يُريد الطائف، فَرَبَّضَ (أي: الحمار) عَلَى شِبْرَقَةٍ، فدخلت في
أَحْمَصِ قَدَمِهِ (أي: العاص) فقتلته^(١).

● ومَرَّ به «الحارثُ بنُ الطلائة» فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً،
فقتله.

* * *

الوصية الثامنة: أن يداوي ما يَخْذُثُ له من ضيق صدر تَسْبِيهِ مقالات
المشركين فيه من شتائم، واستهزاؤهم به، بدواءٍ ديني يشتمل على أمرين:

الأمر الأول: أَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ، أي: أَنْ يُرَدِّدَ فِي ذِكْرِهِ لِرَبِّهِ، عبارة:
سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وهي اختصار لعبارة: أَسْبَحُ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَأَحْمَدُ
بِحَمْدِهِ، وَالتَّسْبِيحُ، تَنْزِيهُ اللَّهِ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، وَالْحَمْدُ ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ
بِصِفَاتِ كَمَالِهِ، عَلَى وَفْقِ الْمُحَامِدِ الَّتِي يَحْمَدُ اللَّهُ بِهَا ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ عَلَى مَا
يَعْلَمُ مِنْ كَمَالَاتِهِ.

الأمر الثاني: أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ لِلَّهِ، الْمُؤَدِّينَ غَايَةَ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ
لَهُ.

وباستعمال هذا الدواء التَّعْبُدِيُّ لِلَّهِ يَشْرَحُ اللَّهُ لَهُ صَدْرَهُ، وَيَصْرِفُ عَنْهُ
مَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ، بِسَبَبِ إِذَاءَاتِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ له في أواخر السورة:

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ إِصْبِقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ
السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

* * *

(١) الربوض للذباب كالبروك للإبل، والشبرق: نبت حجازي يُؤْكَلُ وله شوك، وإذا بيس
سُمِّي الضريع.

الوصية التاسعة: (أَنْ يُتَابَعَ عِبَادَتُهُ لِرَبِّهِ وَمِنْهَا قِيَامُهُ بِوِظَائِفِ رِسَالَتِهِ حَتَّىٰ
آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ عُمُرِهِ).

أي: والواجب عليه أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ بِمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ
الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُ، وَمِنْهَا أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي أَدَائِهِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ تَبْلِيغًا وَتَعْلِيمًا وَتَرْبِيَةً
وَنُصْحًا وَإِرْشَادًا، وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيًا عَنِ الْمُنْكَرِ.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ له في آخر آية من آيات السورة:

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

أي: حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ يَقِينٌ لَا يَشُكُّ بِهِ شَاكٌّ مِنْ عُقْلَاءِ
الْأَحْيَاءِ.

* * *

التعليم التاسع

جاء هذا التعليم في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم نهي الرسول ﷺ عن أن يطرد عن مجالسه فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، استجابة لطلب كبراء قومه، طمعاً في إيمانهم.

قال الله عز وجل فيها خطاباً لرسوله:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

وأُنزل الله على رسوله بشأن فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه قوله في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) وهي مكية التنزيل، إلا أن هذا النص منها مدني التنزيل:

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿١٨﴾ ﴾ .

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا: أي: وجدنا قلبه غافلاً عن ذكرنا.

وكان أمرُهُ فُرْطاً: أي: وكان أمرُهُ في حياته ظلماً واعتداءً وتركاً للحق والخير والواجب.

البيان:

طلب كبراء مشركي مكة من الرسول ﷺ أن يَطْرُدَ عن مجالسه فقراء المؤمنين حتى يتبعوه، ازدراءً منهم لهؤلاء المؤمنين الفقراء والضعفاء، واستكباراً عن أن يتساووا معهم في المجلس، فأنزل الله على رسوله الآيتين (٥٢ - ٥٣) من سورة (الأنعام).

ثم أنزل بشأنهم في العهد المدني الآية (٢٨) من سورة (الكهف) المكية.

فنهى الله عزّ وجلّ رسوله بشدة عن أن يستجيب لطلب كبراء قومه في أن يطرد عن مجالسه فقراء المؤمنين، حتى يؤمنوا به ويتبعوه، والغرض نهى حملة رسالته من بعده عن أن يفتنهم كبراء القوم فيطردوا عن مجالسهم فقراء المؤمنين وضعفاءهم، بدليل نزول النصّ الثاني في العهد المدني وإضافته إلى سورة مكية وهي سورة (الكهف) وذلك لأن العهد المدني لم تظهر فيه مشكلة طلب كبراء المشركين طرد فقراء المؤمنين وضعفاءهم، فدلّ هذا الصنيع على أنّ توجيه الخطاب للرسول قد كان باعتباره إمام الدعاة من أمته، إلا أن المقصود منه الدعاة من أمته، فقد كان الرسول ﷺ متحققاً بمضمون التوجيه في النصين كليهما.

قول الله عزّ وجلّ في نصّ (الأنعام):

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

أي: ما عليك أيها الداعي إلى الله من حساب الناس من شيء إذا كفروا

ولم يؤمنوا، بل كل واحد منهم يحاسب عن نفسه، فلا تطرد الفقراء والضعفاء طمعاً بإيمان الكبراء والأغنياء لتتخلص من مسؤولية مُحَاسَبَتِكَ على عدم إيمانهم، إذ لا تحمِلُ أنت من حسابهم شيئاً، وبما أنك تقوم بواجب التبليغ فإنَّ عليهم أن يتبلَّغوا ويشاركوا في مجالس التبليغ سائر طالبي الهداية .

وأنت مسؤول عن تبليغ دين الله للجميع على سواء، فقراء الناس وأغنيائهم، ضعفاء الناس وساداتهم، فإذا طرَدت الفقراء والضعفاء وأبعدتهم عن مجالسك استجابةً لطلب الأغنياء والكبراء، فإنك تعرض نفسك للمحاسبة والمؤاخذه على إبعادهم عن مجالس العلم الديني، الذي أمرك ربك بتبليغه للناس دون تمييز ولا تخصيص، وإنَّ أغنياء المشركين وكبراءهم الذين تُريد إرضاءهم والاستجابة لطلبهم لئسَّلموا لا يحملون عنك من مسؤولية الحساب شيئاً، بل ستُدانُ وحدك بطرد الفقراء والضعفاء وعدم تبليغهم دين ربهم .

وعلى هاتين القاعدتين من قواعد المسؤولية والمحاسبة جاء التفريع بقول الله عز وجل لرسوله: ﴿ فَطَرَدُوهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أي: فطرد الفقراء بعد بيان هاتين القاعدتين ظلم، فلا تستجب لطلب الأغنياء والكبراء فطرد الفقراء والضعفاء فتكون من الظالمين .

وبعد هذا أبان الله أنَّ من سنته في الاجتماع البشري امتحان الناس بعضهم ببعض، ومنه امتحان الأغنياء والكبراء بالفقراء والضعفاء، وبالعكس، فقال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي: وكذلك الامتحان الذي جرى لأغنياء المشركين وكبرائهم تجاه فقراء المؤمنين وضعفائهم فتنا بعض الناس ببعض، ليقول الأغنياء والكبراء أهؤلاء الفقراء والضعفاء من الله عليهم من بيننا؟! وجاء الجواب الرباني: أليس الله بأعلم بالشاكرين!!؟ .

* * *

التعليم العاشر

جاء هذا التعليم في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) وقد تضمن هذا التعليم وصيَّتين:

١ - أن يُدِيرُ الداعي ظهره لمن وصل إلى حالة ميثوس من استجابته لدعوة الحقِّ معها، ويؤجّه اهتمامه ومجاهدته لآخرين مطموح باستجابتهم، ولم يصلوا بعدُ إلى حالة ميثوس منها.

٢ - أن يكون الداعي إلى الله - مع إدارته ظهره لمن وصل إلى حالة ميثوس منها - شديد المراقبة له ببصره، لئلا يُدَبِّرَ ضده وضدَّ الإسلام والمسلمين مَكَايِدَ، وهو عنه غافلٌ لا يَشْعُرُ بما يُدَبِّرُ.

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة:

كان معاندو أئمة المشركين إبان نزول سورة (الصافات) في موقفِ المواجهة بالسخرية من الرسول وممّا جاء به، وموقف المواجهة بادّعاء أنّ القرآن لَوْنٌ من ألوان السحر بالقول، إذ يؤثّر به الرسول ﷺ على فريق منهم، فيفرّق به بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والصديق وصديقه، ويفرّق به بين الأقرباء والأرحام، وقد سبق أن استقرّ في أذهانهم أنّ السّحرة يفرّقون بين المرء وزوجه.

فلمّا وجدوا أنّ دعوة الرسول بالقرآن تأخذ منهم فريقاً إلى الإسلام، مُنْشَقِّين عن تقاليد قومهم وعاداتهم الشركية، وجدوا هذا ذريعة لادّعاء أنّ القرآن وسيلة من وسائل السّحرة.

دل على هذا الموقف قول الله عز وجل في أوائل السورة خطاباً
لرسوله:

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي: بل عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدٌ من تكذيبهم إِيَّاكَ
ومن تكذيبهم بالحق الذي جتتهم به، والكافرون يسخرون منك ومن
دعوتك، ومن ثباتك على دَعْوَتِهِمْ وتذكيرهم تباعاً بما سَبَقَ أن دعوتَهُمْ إليه .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ أي: وإذا ذُكِّرُوا بما سَبَقَ أن بَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ، وبيَّنتَهُ
وشرحتَه لهم، وحاولتَ أن تقنعهم به، لا يَتَنَفَعُونَ بتذكيرك، ولا يستجيبون
لدعوتك، ولا يُلقُونَ أَسْمَاعَهُمْ لِمَا تُذَكِّرُهُمْ به، فهم لا يذكرون، أي: لا
يضعون ما تُذَكِّرُهُمْ به في ذاكراتهم للاستفادة منه .

والمعنيون بهذا القول هم مُعَانِدو أئمة مشركي مكة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي: وإذا رأوا آيةً ماديةً تتأثر بها جماهيرهم
يُبَالِغُونَ في توجيه السُخْرِيَةِ منها، ليوحوا إلى جماهيرهم بأنَّها مُزَيَّفَةٌ، وليست
آيةً حقيقيَّةً، فهي لا تَصْلُحُ لأن تكون علامةً على صِدْقِ نُبُوتِهِ ورسالته .

﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: وقالوا لجماهيرهم: ما هَذَا الذي
تُشَاهِدُونَهُ مما تَحْسِبُونَهُ آيةً من آياتِ نُبُوتِهِ ورسالته، إِلَّا عَمَلٌ من أَعْمَالِ
السُّحْرِ الَّتِي يُخَيَّلُ بها لِلأَنْظَارِ فترى ما لَيْسَ له حَقِيقَةٌ ثابتَةٌ في الواقع .

واقتضت الحكمة الربانية أن يُوجَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ لرسوله في آخر سورة
(الصفات) توجيهاً تَرْبُويّاً يناسب الطور الذي وصلَ إليه معانِدو أئمة
المشركين، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ له فيه:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَكُمْ آلِهَةً مِمَّنْ دُونِي فَأْتُوا بآيَاتِكُمْ إِن كُمْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٢٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ يَحْكُمُ الْأُمَمَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

الْعَالِيُونَ ﴿١٧٦﴾ فَنَزَلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٧﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٨﴾ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٩﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨٠﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٨١﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨٢﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٣﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٤﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٥﴾ .

اشتمل هذا النص على وعدٍ للرسول والذين آمنوا معه، ووعد للمعاندين من أئمة المشركين، وعلى وصيَّتين للرسول وللدعاة من أمته .

فالوعدُ: قد اشتمل على خَبَرٍ بأن الله سَيَنْصُرُ الرسولَ والجندَ المؤمنين الذين اتَّبَعُوهُ، وفي هذا إلماح إلى أَنَّ النصرَ سيكون في معارك تقوم بين الفريقين .

والوعد: قد اشتمل على تَهْدِيدٍ بما سيحدث حتماً للمشركين من عذاب وخزي وقتل وهزائم منكرة، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ .

والوصيةُ الأولى: هي وصيةُ الله لرسوله مرتين بأن يتولَّى عن هؤلاء المعاندين من أئمة المشركين، والتَّوَلَّى: هو إِدَارَةُ الظَّهْرِ لَهُمْ، وَعَدَمُ الاشتغال بتذكيرهم، لأنهم بلغوا إلى دركةٍ ميثوسٍ منها، دلَّ عليهما قوله تعالى: ﴿ فَنَزَلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ . ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

والوصيةُ الثانية: هي لزوم مراقبتهم بعناية عن طريق المشاهدة البصريَّة، متابعة لما يدبّرون من مكاييد، . دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿ وَأَبْصَرْتُمْ ﴾ - ﴿ وَأَبْصَرَ ﴾ .

* * *

التعليم الحادي عشر

جاء هذا التعليم في سورة (غافر/ ٤٠ / مصحف/ ٦٠ نزول).

وقد تَضَمَّنَ هذا التعليمُ ثلاثَ وصايا مُوجَّهة للداعي إلى الله، وهي:

١ - أن يتحلَّى الداعي إلى الله بالصَّبْرِ دوماً.

٢ - أن يستَغْفِرَ اللهَ طالباً أن يغفر له ذنبه، وعَفْرَ الذنبِ سَتْرُهُ.

٣ - أن يُسَبِّحَ بحمدِ ربِّه بالعِشِيِّ والإبْكَارِ.

العِشِيُّ: هو نصف النهار الثاني إلى الغروب.

الإبْكَارُ: وَقْتُ البُكْرَةِ، وهي العُذْوَةُ، ووقتها من دخول وقت الفجر إلى طلوع الشمس. والأصلُ في الإبْكَارِ الدخولُ في وَقْتِ البُكْرَةِ.

التحليل أخذاً ممَّا جاء في السورة:

يبدو أن بَعْضَ المسلمين استبطؤوا نصرَ الله لهم، واستطالوا إمْهَالَ الله لمعاندي أئمة مشركي مكَّة، واستطالوا تَرْكَ الله عزَّ وجلَّ لهم يتَقَلَّبُونَ في البلادِ أعزَّاءَ أقوياءَ يجادلون في آياتِ الله.

فأنزل الله عزَّ وجلَّ في أوائلِ السورة قوله:

﴿ مَا يَجِدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾

هذا الخطاب موجَّه للرسول ﷺ باعتباره إمام أمته وقائدهم، وهو موجَّه لكلِّ مؤمنٍ على سبيل الخطاب الإفراديِّ من بعد الرسول القائد.

وَأَتَّبِعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْقَوْلَ بَيَانِ إِهْلَاكِهِ الْأُمَّمِ السَّابِقَةَ الَّتِي أَهْلَكَهَا
بَعْدَ طُولِ إِمْهَالٍ .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَاسِطِ السُّورَةِ قَوْلَهُ :

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ ﴾ (٥٩) .

فَأَشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى ثَلَاثِ وَصَايَا :

الوصية الأولى : أن يتحلَّى بالصَّبْرِ ، ولا يستعجل وَعْدَ اللَّهِ بالنصر ، فالله
حكيم ، وعلى العباد أن يَتَّقُوا بحكمة الله في إِمهاله وفي كلِّ تصاريفه .

الوصية الثانية : أن يشتغل بالاستغفار لذنبه ، أي : أن يسأل الله كثيراً في
أوقات متكررات أن يغفر له ذنبه .

الوصية الثالثة : أن يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ، أي : أن يُنْزِعَهُ اللهُ
عما لا يليق بجلاله ، وأن يجعل هذا التسبيح مقترناً بِحَمْدِ اللهِ بما هو له أهل
من كلِّ كمال .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا أَيْضاً قَوْلَهُ :

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَقَّفُكَ فَإِلَيْنَا
يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧) .

فَأَكَّدَ اللهُ الْوَصِيَّةَ بِالصَّبْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَإِنْ تَوَقَّى اللهُ الدَّاعِيَ إِلَى سَبِيلِ
رَبِّهِ قَبْلَ أَنْ يُشَاهِدَ عِقَابَ اللهِ لِلْمَعَانِدِينَ الْمُجْرِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ ، فَسَيُفَرِّقُ اللهُ
عَيْنَهُ بِمَعَابِقَتِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ .

* * *

التعليم الثاني عشر

جاء هذا التعليم في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) وقد تضمنَ هذا التعليم أربع وصايا:

١ - أن على حامل الرسالة أن يكون قدوة حسنة للناس في عمله الصالح الظاهر والباطن.

٢ - أن على حامل الرسالة أن يُعلِنَ أنه فرْدٌ من أفراد المسلمين، مسؤولٌ تجاه ربّه كسائر المسلمين، ومطالبٌ بأن يعمل الأعمال التي أمر الله المسلمين أن يعملوها، وبأن يجتنب كل ما أمر الله المسلمين أن يجتنبوه، وبأن ينتهي عن كل ما نهى الله المسلمين عن أن يفعلوه.

وأن يُعلِنَ أنه تُطَبَّقُ عليه جميع الشرائع والأحكام التي شرع الله أن تُطَبَّقَ على المسلمين، فلا استثناء له بشيء، ولا إعفاء له عن شيء.

٣ - ينبغي لحامل الرسالة أن يدْفَع كُلَّ ما يسوؤه من الناس بالتي هي أحسن، متحلياً بالصَّبْر، وبمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

٤ - أن على حامل الرسالة أن يَنْزِعَ إلى الاستعاذة بالله كلما نزغته من الشيطان نزغ، مستحضراً في تصوّره أن الله هو وحده السميع العليم.

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية التي جاءت في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

قال الله عز وجل في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٦﴾
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّمَا
يَنزُغُنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٩﴾ .

هذا التعليم الرباني للدعاة صُدِّرَ باستفهامٍ ترغيبيٍّ يتضمَّن الحثَّ على القيام بوظيفة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمقترنة بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون الداعي إلى الله قُدوةً حسنة للناسِ بعمله الصالح، دلَّ عليه قوله تعالى في التعليم: ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ .

الشرط الثاني: أن يُعلن الداعي إلى الله أنه فردٌ من أفراد المسلمين مسؤولٌ تجاه ربه كسائر المسلمين، ومطالبٌ بأن يعمل بكل ما أمر الله المسلمين أن يعملوا به، وبأن يجتنب كل ما أمر الله المسلمين بأن يجتنبوه، وبأن يَنْتَهِيَ عن كل ما نهى الله المسلمين عن أن يفعلوه، وبأنه تُطَبَّقُ عليه جميع الشرائع والأحكام التي شرع الله أن تُطَبَّقَ على سائر المسلمين، فلا استثناء له بشيء، ولا إعفاء له عن شيء، دل على هذا الشرط قول الله تعالى في التعليم: ﴿ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

١ - قول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾!؟؟ .

جاء في هذه العبارة استفهامٍ ترغيبيٍّ لانتزاع الجواب من أهل الفكر والبصيرة الإيمانية، وهو: لا يُوجَدُ قائل من الناس يقول قولاً في غير الدعوة إلى الله هو أَحْسَنُ من قول من دعا إلى الله، وهذا لا يمنع من تَفَاضُلِ أقوال

الدعاة إلى الله في الحُسن، فبعض أقوالهم أحسن من بعض.

فدلّت هذه العبارة على أنّ الدعوة إلى الله التي تكون بوسيلة البيان الكلامي هي أحسن القول.

إنّه لما كان الإيمان بالله وبما جاء من عند الله، والعمل بما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، أحسن غاية يسعى إليها المخلوق الممتحن في هذه الحياة الدنّيا، لأنها تُحقّق له السعادة في الدنيا، والنجاة من النار والفوز بجنّات النعيم أبد الأبدين يوم الدين، كان القول الداعي إلى هذا الظفر العظيم أحسن كلّ قولٍ لا محالة.

إنّ الكلام بوصفه أداة تعبيرٍ ودلالةٍ وسيلةً محايدةً، يمكن أن تستعمل بحسب مضمونها ودلالاتها في الخير وفي الشرّ.

والوسائل المحايدة القابلة للاستعمال في الخير والشرّ تعتبر قيمتها بحسب قيمة ما تُستعمل فيه وتوظّف له، وبحسب قيمة الغايات منها، خيراً كانت أو شراً، حسنةً كانت أو قبيحة.

فما كان منها وسيلةً لخير عظيم، كانت قيمته مساويةً لذلك الخير العظيم. وما كان منها وسيلةً لشرٍّ أو ضرٍّ كانت قيمته مساويةً لذلك الشرّ أو الضرّ.

والكلام من حيث ذاته وسيلةً صالحةً لأن تستعمل في الخير على مراتبه ودرجاته، بحسب مضمونه الفكريّ وما يهدي إليه، وسيلةً صالحةً لأن تُستعمل في الشرّ على مهابطه ودركاته، بحسب مضمونه الفكريّ وما يقودُ أو يسوق إليه.

فإذا كان القول حقاً وصدقاً، واستعمل في الخير، كانت قيمته مكتسبة من قيمة الخير الذي استعمل لتحقيقه، بحسب مرتبة ذلك الخير ودرجته في مرتبته.

وإذا استعمل القولُ مهما كانت صفته في الشرِّ، كانت قيمته مكتسبةً من قيمة الشرِّ الذي استُعملَ لتحقيقه، بحسب مرتبة ذلك الشرِّ، ودرجته في مرتبته .

وَرُبَّ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ تُنْجِي قَائِلَهَا مِنَ النَّارِ وَتَدْخُلُهُ فِي الْجَنَّةِ، مَعَ مَا تَسْعَدُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ .

وَرُبَّ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ تُوَصِّلُ قَائِلَهَا إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، مَعَ مَا تُشْقِيهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَقْفَلُ دُونَهُ أَبْوَابَ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ .

٢ - قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَعَمِلْ صَالِحًا ﴾ عطفًا على قوله: ﴿ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ .

أي: جمع بين الدعوة إلى الله والعمل الصالح الذي يعملُه تطبيقاً في ذاته لما يدعو الناس إليه، ومُعَبَّرًا بعمله الصالح عن صدق إيمانه وبقينه بما يدعو إليه .

إنّ الدعوة إلى الله هي دعوة إلى الإيمان بالله وبكلّ ما جاء عن الله على لسان رسول الله، ودعوةٌ إلى العمل الصالح الذي يشتمل عليه صراط الله المستقيم، الذي أبانه لعباده فيما أنزل على رسوله .

فدلّ الجمع بين الوصفين: ﴿ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ على أنّه يُشْتَرَطُ في الداعي إلى الله أن يعمل صالحاً ليكون قُدْوَةً حَسَنَةً بعمله لمن يدعوهم إلى سبيل ربّه، إذ هو بعمله يُعْطِيهِمْ صُورَةَ تَطْبِيقِيَّةٍ وَاقِعِيَّةٍ مُشْهُودَةٌ لِمَا يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ .

أمّا من كانت أعمالُهُ مخالفةً لأقواله الحسنَةِ الجميلة، فإنّ دعوته تكون غيرَ ذات تأثير فيمن يدعوهم، لأنهم بتلقائِيَّةٍ غَيْرِ واعيَّةٍ يقولون في أنفسهم: لو كان ما يدعوننا إليه حقّاً وصدقاً وذاً أثرٍ نافعٍ، وثمراتٍ طيباتٍ، لكان هو

أول العاملين بما يقول، والملتزمين بما ينصح به غيره.

٣ - قول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ عطفاً على الجملتين السابقتين: ﴿ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾.

أي: جمع بين الدعوة إلى الله، والعمل الصالح، وإعلان أنه واحد من المسلمين.

وسبب الإلزام بهذا الإعلان، أن قادة المبادئ غير الربانية الذين يصدرون مبادئ إنسانية طيبة، إنما يفعلون ذلك لمخادعة الناس، حتى ينضموا إليهم، وينصروهم، وحتى يستغلوهم لتحقيق غاياتهم الشخصية.

فالاشتراكيون ينادون بالاشتراكية لاستعطاف الفقراء حولهم، ولإثارتهم على الأغنياء وأصحاب الثروات، فإذا وضع القادة أيديهم على أموال ذوي الثروات، عن طريق الثورة الاشتراكية، التي يذهب جمهور الكادحين والعمال والفقراء ضحاياها، ووقوداً للهبتها، استأثروا بالأموال التي وضعوا أيديهم عليها، وأخذوا في إذلال وإبادة ما تبقى من جنودهم الذين أوصلوهم إلى مراكز التسلط على ثروات البلاد والعباد، وأخذوا يستثنون أنفسهم من أي تطبيق أو قرار اشتراكي، وتُمسي القرارات الاشتراكية قرارات سلب ونهب، لملء صناديق القادة الاشتراكين، وأخذوا يستترون بالمعاذير الباطلات، ويخفون عن أعين الجماهير إقطاعياتهم التي يقطعونها أنفسهم وأهليهم وذويهم وبعض أنصارهم.

وهكذا يفعل الشيوعيون، والرأسماليون المخادعون، وكل الذين ينادون بمبادئ إنسانية ترضاها الجماهير العريضة، وتحسن الظن بدعاتها، فتندفع مع شعاراتهم الكواذب رجاء أن يحققوا لهم غايات إنسانية نبيلة.

وهنا نلاحظ أن التعليم الرباني تضمن في فقراته، ما يحمي به الدعوة الإسلامية، من أن ينحرف فيها الدعاة عن منهج الله، فيضعوا لأنفسهم

استثناءات تُغْفِيهِمْ مِنْ أَنْ يُطَبَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَذَوِيهِمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، كَمَا تُطَبَّقُ عَلَى سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ.

فَكَانَ عَلَى الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ بِمَقْتَضَى هَذِهِ الْحِمَايَةِ، أَنْ يُعْلِنَ مِنْذُ قِيَامِهِ بِوِظِيْفَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَلْزِمُهُ هَذَا الْإِعْلَانُ طَوَالَ حَيَاتِهِ، فَلَيْسَ لَهُ اسْتِثْنَاءَاتٌ خَاصَّةٌ بِهِ أَوْ بِذَوِيهِ، وَمَا يُطَبَّقُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي التَّكْلِيفَاتِ وَفِي الْعُقُوبَاتِ، يُطَبَّقُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ وَذَوِي قَرَابَتِهِ، وَأَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ، بَلْ رُبَّمَا تَكُونُ التَّكْلِيفَاتُ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ أَشَدَّ، نَظْرًا إِلَى أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَكُونَ قُدْوَةً حَسَنَةً فِي أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ، بِخِلَافِ آحَادِ النَّاسِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ رُبَّمَا خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، وَرُبَّمَا كَانُوا مُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِكَثْرَةِ مَعَاصِيهِمْ وَمَخَالَفَاتِهِمْ وَارْتِكَابِهِمْ كِبَائِرَ الْإِثْمِ.

تَرْبِيَةِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ تَجَاهَ مَا يُوَاجِهُهُ مِنْ أَدَى وَضْرٍ:

● إِنَّ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ قَدْ يُوَجَّهُ لَهُ الْمَدْعُورُونَ أَوْ بَعْضُهُمْ مَا يَسُوؤُهُ مِنْ أَدَى وَضْرٍ وَشَتَائِمٍ، وَأَنْوَاعٍ سَبَابٍ، وَاتِّهَامَاتٍ بِالْبَاطِلِ، أَوْ بِالْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي شَرْحِ النَّصِّ الَّذِي مِنْ أَوَاخِرِ سُورَةِ (الْأَعْرَافِ).

فَمَا هُوَ الْمَوْقِفُ الْإِسْلَامِيُّ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ؟.

لَقَدْ جَاءَ هُنَا فِي التَّعْلِيمِ إِرْشَادُ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ أَنْ يَدْفَعَ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ، أَي: أَنْ يَدْفَعَ بِالْخِصْلَةِ وَالْمَعَامَلَةِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالطَّرِيقَةِ وَالْمَقَالَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِمَّا وَاجِهَهُ بِهِ الْمَدْعُورُونَ مُؤْذِينَ وَمُتَّهِمِينَ.

فَإِذَا وَاجِهَهُ بِالشَّتَائِمِ وَالْمُؤْذِيَّاتِ وَالِاتِّهَامِ بِالْبَاطِلِ، أَعْرَضَ عَنِ مُقَابَلَتِهِمْ بِالْمِثْلِ، فَهَذَا الْإِعْرَاضُ أَحْسَنُ خِصْلَةٍ وَمَعَامَلَةٍ وَمُقَابَلَةٍ وَطَّرِيقَةٍ مِمَّا وَاجِهَهُ بِهِ.

وَإِذَا وَاجِهَهُ بِالْمُجَادَلَةِ بِالْبَاطِلِ، أَخَذَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى مَنْطِقِ الْحِجَّةِ وَالْبِرْهَانِ فَجَادَلَهُمْ بِالْحَقِّ وَالرَّفِيقِ.

وإذا واجهوه بعُتْفِ القول والغِلْظَةِ والفِظَاظَةِ، تَلَطَّفَ بهم، فدَفَعَ بالرفق واللين وجميل القول وحُسنِ التكريم.

وإذا رَاوَعُوا وانطَلَقُوا إلى الفروع كلِّما عجزوا عن دحض الأصول الفكرية الصحيحة التي يدعوهم إليها، بغية الشغب والتشويش، وتحويل وجهة النظر إلى أمورٍ فرعية قد يَشْتَبُه فيها وجه الحق بسبب ابتعادها عن أصولها، كان على الداعي أن يرجع بهم إلى مُناقشة الأصول، والاستدلال عليها بالأدلة البرهانية، والحجج الصحيحة المقنعة، متذرعاً بالرفق والحكمة الرفيعة.

وإذا شتموه بالضلالة اقتصر على أن يقول لهم: ليس بي ضلالة، ولكنني أدعوكم إلى سبيل ربكم، حرصاً على نجاتكم من عذابه، وظفركم بجنته، أسوة بما ردَّ به نوحٌ عليه السلام على قومه الذين اتَّهموه بالضلالة، كما جاء في الآية (٦١) من سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

وإذا اتَّهموه بالسفاهة، أي: بنقصان العقل، اقتصر على أن يقول لهم: ليس بي سفاهة، ولكنني أدعوكم إلى سبيل ربكم، حرصاً على نجاتكم من عذابه، وظفركم بجنته، أسوة بما ردَّ به هودٌ عليه السلام على قومه الذين اتَّهموه فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٦) قَالَ يَلْقَوْنَ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾.

وإذا اتَّهموه بالكذب اقتصر على أن يقول لهم: إنَّني لا أكذب، ولكنني أبلغكم دين ربكم الذي أنزله على رسوله.

دلَّ على سياسة الدفع بالتي هي أحسنُ قول الله عزَّ وجل في التعليم:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾.

أي: ولا تستوي مفردات جنسِ الحسنة، لأن هذه المفردات ذواتُ

نَسِبَ فِي الْحُسْنِ وَدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، فَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَجَةٍ دُنْيَا فِي الْحُسْنِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَجَةٍ عُلْيَا فِي الْحُسْنِ، وَبَيْنَهُمَا دَرَجَاتٌ فِي الْحَسَنِ لَا تَكَادُ تُحْصَى، وَكُلَّ ذِي حُسْنٍ يَحْتَلُّ دَرَجَةً مِنْ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ، كَنَسَبِ الْأَنْوَارِ شِدَّةً وَضَعْفًا.

وَلَا تَسْتَوِي أَيْضًا مَفْرَدَاتُ جِنْسِ السَّيِّئَةِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَفْرَدَاتُ ذَوَاتُ نَسَبٍ فِي الْقَبِيحِ، وَدَرَكَاتُ مُتَفَاوِتَاتٍ مُتَنَازِلَاتٍ، فَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَكَةٍ أَوْلَى فِي الْقَبِيحِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَكَةٍ سَحِيقَةٍ سُنْفَلَى فِي الْقَبِيحِ، وَبَيْنَهُمَا دَرَكَاتٌ فِي الْقَبِيحِ لَا تَكَادُ تُحْصَى، وَكُلَّ ذِي قُبْحٍ يَحْتَلُّ دَرَكَةً مِنْهَا، كَنَسَبِ الظُّلْمَاتِ شِدَّةً وَضَعْفًا.

وَيُلَاحِظُ أَنَّ الْاِقْتِرَانَ فِي الْبَيَانِ بَيْنَ الْآيَةِ الْأُولَى وَالْآيَةِ الثَّانِيَةِ فِي هَذَا النَّصِّ التَّعْلِيمِيِّ يُشْعِرُ بِأَنَّ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ سَيَقَابِلُونَ الدَّاعِي بِالرَّفْضِ، ثُمَّ بِمَا يَكْرَهُ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ، وَتَخْتَلِفُ مَوَاجِهَاتُ الْمَدْعُوِّينَ الرَّافِضِينَ لِلِاسْتِجَابَةِ، فَيُوجَدُ مِنْهَا مَا يَسُوءُ الدَّاعِي وَيُؤْذِيهِ، وَهَذِهِ تَتَفَاوَتُ فِي دَرَكَاتِ قَبِيحِهَا.

وَالْمَطْلُوبُ مِنَ الدَّاعِي فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ مَهْمَا كَانَ مَا قُوبِلَ قَبِيحًا أَوْ مُؤْذِيًا، أَنْ يَدْفَعَ ذَلِكَ الَّذِي كَرِهَهُ مِنَ الْمَدْعُوِّ، بِالْمُقَابَلَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

٢ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

أَيُّ: فَإِذَا جَادَلَ الْمَدْعُوِّ الرَّافِضُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، دَفَعَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِالْمُجَادَلَةِ بِالْحَقِّ وَالرَّفْقِ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

وَإِذَا قَابَلَ الْمَدْعُوُّ بِالسَّبَابِ وَالشَّتَائِمِ وَالْاِتِّهَامَاتِ الْبَاطِلَاتِ، دَفَعَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَقَدْ تَعَلَّمْنَا أَنفَاءً مِنْ رَدِّ نُوْحٍ وَهُوَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّ الدَّفْعَ لَا يَزِيدُ عَلَى مَجْرَدِ النَّفْيِ لِلشَّتِيمَةِ أَوْ الْاِتِّهَامِ بِالْبَاطِلِ، مِثْلُ: لَيْسَ بِي مَا تَقُولُونَ، فَيَكُونُ هَذَا الرَّدُّ دَاخِلًا فِي عَمُومِ الدَّفْعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

مَنْ تَدَرَّبَ عَلَيْهِ حَتَّى صَارَتْ لَدَيْهِ قَدْرَةٌ عَلَى الصَّبْرِ، وَصَارَ الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ خُلُقًا مَكْتَسِبًا لَهُ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْلِ فِطْرَتِهِ وَجِبِلَّتِهِ .

والذين صبروا يتحملون صدمة الأذى، ويمتصونها من الذين يحرصون بدعوتهم لهم على نجاتهم من عذاب الله، ويحرصون على أن يفوزوا معهم بجنات النعيم فوزاً عظيماً، ويزيدون على فضيلة الصبر فيدفعون بالتي هي أحسن السيئة التي تلقوها .

وما يُلقَى هذه الخصلة الحميدة الجليلة إلا ذو حظٍ عظيم من فضائل الأخلاق، ومحاسن الشيم، والبصيرة الربانية الوضيئة، وذو حظٍ عظيم من الأجر عند ربه .

يقال لغة: لَقِيَ فلانٌ فلاناً الشيءَ، إذا جعله يلقاه ويأخذه منه، فالآخذُ للشيءِ يُلقاهُ ممّن لقاَهُ إياه .

ولما كانت هذه الخصلة العظيمة إنما يمنحها الله لمن آمن وصبر ودرب نفسه على فضائل الأخلاق، كانت فضيلةً يلقاها من عطاءات الله له، فهو يتلقاها، ويتخلق بها، ويتصرف في دعوته إلى سبيل ربه بمقتضاها .

وهذا سرُّ التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله، أي: وما يعطاها عطاءً ربانياً فهو يتلقاها من عطاءات ربه إلا الذي صبر، وما يعطاها إلا ذو حظٍ عظيم من الفضائل الخلقية، ومن الأجر العظيم عند ربه .

● وأخيراً أعطى الله عز وجل الداعي الدواء الذي يعالج به نزع الشيطان الذي يدفعه إلى مقابلة السيئة بمثلها أو بأشد منها، فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

هذا الدواء هو الدواء نفسه الذي جاء في النص الذي سبق تحليله وتدبره من سورة (الأعراف) إلا أن النص هنا الذي هو من سورة (فصلت) قد

زاد التأكيد وإفادَةَ الحصر بتعريف طرفي الإسناد وبضمير الفصل على أَنَّ الله عزَّ وجلَّ هو وَخَدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ صوت والعليم بكلِّ شيء، وقد سبق بيان الفرق بين صيغتي: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ و ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في تدبر نصِّ (الأعراف).

* * *

التعليم الثالث عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم وصيتين:

١ - أن يَدْرَ الداعي إلى الله المعاندين المكابرين في خوضهم ولعِبهم، حتَّى يُلاقوا عقابهم الَّذي أُنذروا به، في اليوم الَّذي قضى اللهُ أن يُنهي فيه إمهالهم، ويُنزَل فيه نقمته عليهم.

٢ - أن يَصْفح الداعي إلى الله عن إيذاءاتهم له، مُعْرِضاً عن معاقبتهم عليها، ومقابلتهم بمثلها، وأن يقول لهم: سلام. أي: أعطيكُم مني السلام، ولا أقيم بيني وبينكم الآن صراعاً مادياً، لأنَّ الله لم يأذن لي بذلك.

وهذا الصَّفْحُ سياسةٌ مَرَحَلِيَّةٌ يلتزم بها الداعي إلى الله، ما دام التحرُّكُ الإسلامي يسير في طريق جهاد الدعوة فقط.

التحليل أخذاً ممَّا جاء في السورة:

لم يزل الأئمة المعاندون من مشركي مكة إبان نزول سورة (الزخرف) يزعمون في دعاياتهم الإعلامية أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ من ربه سحرٌ، ويُعلِنون أنهم يكفرونَ بأنه حقٌّ من عندِ ربِّهم.

ورأوا أنَّ محمداً ليس من رجالهم العظماء حتَّى يكون مؤهلاً لأن يُنزَلَ عليه من عندِ الله كتابٌ يُبلِّغه للناس، وليسَ مؤهلاً ليكون نبياً رسولاً، بحسب مفهوماتهم الطبقيَّة.

وقالوا: لو كان ما يتلوه مُحَمَّدٌ كتاباً مُنَزَّلاً من عند الله، لكان ينبغي أن يُنزل على رَجُلٍ عظيم من عظماء مكة أو من عظماء الطائف.

والعظيم في تصوراتهم الطبقيّة هو ذو المال الوفير، والجاه العريض، والمكانة الرّفيعه بين قومه.

دلّ على هذا الطّور من أطوار مواقفهم من الرسول ﷺ ودعوته قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

ولعلّ بعض المؤمنين من أتباع الرسول ﷺ قد حدّثتهم أنفسهم بأن من الخير أن يُوسّع الله على رسوله، فيغدق عليه المال الوفير، حتّى يكون عظيماً في قومه، وبذلك تسكّط أسنة المعترضين على الرسول بأنه غير عظيم في مفهوماتهم الجاهليّة للعظماء.

فاقتضى هذا الحال أن يُبيّن الله عزّ وجلّ حكمته في قسمة الأرزاق، فجاء في السورة قوله تعالى:

﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِن كُنتُمْ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

ولعلّ بعض المؤمنين استبطأ تحقيق وعد الله لرسوله بالنصر، فكان من الحكمة الإجابة على هذا بقول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿فَأَمَّا نَدَّبَنَ بِكَ فإِنَّا مِنهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿١١﴾ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فإِنَّا عَلِيمٌ

مُقْتَدِرُونَ ﴿٤١﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٢﴾

ووصل حال المعاندين من أئمة المشركين إلى أن يُعلنوا سُخْرِيَتَهُمْ
وضحكهم من عجز الرسول والذين آمنوا معه عن الدِّفاع عن أنفسهم، تجاه ما
يَلْقَوْنَ من اضطهاد المشركين لهم.

نفهم هذا من عرضِ قِصَّةِ فرعون وملئه، وكيف كانوا يضحكون
ساخرين من الآيات التي كان موسى عليه السلام يأتيهم بها، متفاخرين بما
يملكون من سلطانٍ في مصر، وثناء سلطانيٍّ وأُسُورَةٍ من ذهب، وجُنْدٍ قادرين
على اضطهاد خصومهم.

فاقتضى هذا الحال أن يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله ولكل داع إلى الله من
أمة وصيتين:

الوصية الأولى: أن يذَرَّ معاندي أئمة المشركين يخوضون في شرورهم
ومعاصيهم ووثنياتهم، ويَلْعَبُونَ كما يَهْوُونَ فيما يشتهون من متاع الحياة
الدنيا، حتّى يَنْتَهِيَ وقتُ إِمهالهم، ويلاقوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ أن يحلّ بهم
فيه عقاب الله جلّ وعلا.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله فكلّ داع إلى الله
من أمة في أواخر السورة:

﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حتّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾

يَخُوضُوا: أصلُ الخَوْضِ المشي في الماء وتحريكه، وبهذا يختلط
بالماء ما هو في قاعه من ترابٍ وطينٍ وغير ذلك من رُسوبات تعكّر الماء
وتُفسدُهُ.

ثمّ استعمل في التلبّس بالأمر والتصرف فيه على غير هُدى، وبما فيه
إفساد وتعكيرُ صفاء.

وَالْخَوْضُ: الكلام المشتمل على الكذب والباطل.

أي: دغهم فيما هم فيه من أعمال فاسدات، وشركيات قبيحات، واستمساك بمعتقدات باطلات، ولا تحمِل همَّ ما هم فيه من خوضٍ بالباطل وجدلياتٍ زخرفياتٍ مُضَلَّلَاتٍ، ولا تحمِل همَّ ما هم فيه من لعبٍ يُحَقِّقون به مطالب أهوائهم وشهواتهم، ممَّا يحثُّون أن يقضوا حياتهم فيه مستمتعين بمتاعٍ سريع الزوال.

فإمهالهم فيما هم فيه له أمدٌ معلومٌ عند ربك، ومتى انتهى أمدُ إمهالهم فإنهم سيلاقون حتماً يومهم الذي يُوعَدونه في البيانات المتتابعات من القرآن. الوصية الثانية: أن يصفح عما يلاقي من أذى يأتيه من قبلهم، وأن يقول لهم: سلامٌ.

ودل هذا التوجيه المرحلي الذي لم تحدّد له في النصّ غاية، مع ما نزل في المرحلة المدنية من إذن بمقاتلة المشركين، ثم تحريض على مقاتلتهم، على أن هذا التوجيه له صفة التعليمات المرحلية.

دل على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في آخر السورة:

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩).

أي: فأعرض عنهم مؤقتاً، وقل لهم: بيني وبينكم اليوم سلام فأنا لا أقاوم ولا أقاتل.

لكنّ الله أنذرهم بأسلوب تطمين رسوله في قوله: ﴿فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩).

* * *

التعليم الرابع عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).

وقد تضمن هذا التعليم وصيتين موجهتين للداعي إلى الله، وهما:

١ - أن يتولى الداعي إلى الله عن تذكير مُعاندي أئمة المشركين الذين وصلوا إلى دركة ميثوس منها، فيدير إليهم ظهره، ليوجه اهتمامه ونشاطاته لآخرين لم ييأس بعد من استجابتهم.

٢ - أن يتابع تذكير الذين ما زال الطمع باستجابتهم لدعوة الحق وإيمانهم وإسلامهم موجوداً، لم ترشح منه قطرأته الأخيرات.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

استمر موقف معاندي أئمة المشركين إبان نزول سورة (الذاريات) في الثلث الأخير من العهد المكي على توجيه الاتهام للرسول ﷺ بأنه ساحر أو مجنون.

دل على هذا الموقف العنادي لفريق من أئمة المشركين، الذي كشف بجلاء أنهم وصلوا إلى حالة ميثوس منها تماماً، قول الله عز وجل في أواخر السورة:

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥١﴾ أَنْوَاصُوا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٢﴾﴾

﴿أَتَوَاصُوا بِهٖ﴾ أي: أتواصوا بهذا القول الذي قاله كُفَّارُ الْقُرُونِ الْأُولَى الَّذِينَ أَهْلَكُوا، وَقَالَهُ الْمَعَانِدُونَ الْمَصْرُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ مِنْ أُمَّةٍ مُشْرِكِي مَكَّةَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِالْقُرْآنِ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: بل هم جميعاً الأقدمون والمعاصرون لنزول القرآن طاغون، وبسبب ما في نفوسهم من طغيان كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَفَقَّهُوا عَلَى مَقَالَةٍ مَتَمَاثِلَةٍ، فَهِيَ إِحْدَى الْمَظَاهِرِ التَّلَقَّائِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلطَّغْيَانِ.

وذلك لأنَّ الطغيان في النفوس، مع عدم وجود دليلٍ تقبلُهُ العقول، لرفض دعوة الحق الذي يدعو إليه الرَّسُولُ، يدفع صاحبه إلى اللَّجْوِ إِلَى ذَرِيعَةِ اتِّهَامِ الرَّسُولِ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، لِصَدِّ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِدَعْوَتِهِ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ.

الطغيان: تجاوز الحدَّ الطبيعي المقبول، إلى مواقع الضَّرر والإفساد، والظلم والجور والبغي والعدوان.

واقترضت الحكمة التربويَّة الرِّبَائِيَّةَ تَجَاهَ هَذَا الْمَوْقِفِ الْعِنَادِيِّ الَّذِي أَصْرَّ عَلَيْهِ فَرِيقٌ مِنْ أُمَّةٍ مُشْرِكِي مَكَّةَ أَنْ يُوَجِّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وَصِيَّتَيْنِ:

الوصية الأولى: أَنْ يَتَوَلَّى عَنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَّةِ الْمَعَانِدِينَ، فَيُدِيرَ إِلَيْهِمْ ظَهْرَهُ، فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ، لِيُوَجِّهَ اهْتِمَامَهُ لِآخِرِينَ لَمْ يَبْلُغُوا إِلَى الْحَضِيضِ الْمِثْوَسِ مِنْهُ، وَآخِرِينَ مَا زَالُوا فِي أَوَّلِ مَرَاكِلِ تَلَقِّيِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ أَوْ أَوْسَطِهَا.

فإذا تولى عن دعوة هؤلاء الأئمة المعاندين مع مراقبة أعمالهم الكيديَّة فإنه غير ملوم عند ربه.

دلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ عَقِبَ الْبَيَانِ السَّابِقِ:

﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ .

فعل «نوّلى»: يأتي بمعنى أذبر، ويأتي بمعنى نأى.

والمعنى: فانصرفت عن دعوتهم، ودعهم لكفرهم، فإذا توّلت عنهم فما أنت بملوم، لأنك قد استفذت كل قطرات الرجاء والطمع باستجابتهم، وقدّمت لهم كل وجوه الدعوة الرشيدة التي يتأثر بها من لديه ذرّة من خير.

الوصية الثانية: أن يتابع الداعي إلى الله تذكير آخرين لم تصل حالتهم إلى حضيض اليأس من استجابتهم.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ عقب الوصية السابقة:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أي: وذكر آخرين لم تؤكد التجربة الطويلة أنهم قد بلغوا إلى حالة ميثوس منها.

﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذكرى: اسمٌ للتذكير، أي: فإن التذكير ينفع من لديهم الاستعداد للإيمان مستقبلاً.

لفظ «المؤمنين» جمعٌ للمؤمن، وهو اسمٌ فاعل يقع هنا على الاستقبال، أي: من سيكون من المؤمنين بسبب ما لديه من استعداد لأن يؤمن بالحق، ويقع على الحال، أي: من هو من الذين لديهم إيمانٌ ما بالله ويخشى عقابه.

* * *

التعليم الخامس عشر

جاء هذا التعليم في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

وقد تضمن هذا التعليم وصيتين موجهتين للرسول ﷺ فلكل حملة رسالته من أمته:

١ - أن يدفع السيئة التي يُواجهُ بها في مجال دعوته بالتي هي أحسن .

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً للوصية التي جاءت في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مع إضافة قيد «السيئة» بالنسبة إلى المدفوع .

٢ - أن يستعيد برّته من همزات الشياطين، وأن يستعيد به من أن يحضروا عنده، فيقول:

﴿ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٧٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٧٨﴾ .

وقد جاءت هذه الوصية تأكيداً أيضاً للوصية التي جاءت في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) وللوصية التي جاءت في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

مع فروق في دلالات النصوص الثلاثة، وإضافة عبارة مختارة للاستعاذة في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

التحليل أخذاً مما جاء في السورة :

جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) تعليم من الله عز وجل لرسوله فلكل داع إلى سبيل ربه من أمته مناظرة جدلية، يتوسل بها إلى إقناع المشركين الذين ينكرون البعث للحساب والجزاء يوم الدين .

وبعد هذا التعليم أشعر الله رسوله باقتراب تحقيق الوعد الذي وعده المشركين، المتضمن نصره لرسوله والذين آمنوا معه وهزيمة عدوهم، وهو الذي سبق أن أنزله الله تبارك وتعالى في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله : ﴿ جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ (١١) .

وهذا الإشعار باقتراب تحقيق الوعد الرباني قد جاء بأسلوب تعليم الله رسوله دعاء يدعو به ربه، فقال الله عز وجل في سورة (المؤمنون) :

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ (٣٧) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ .

أي : رب إن تكرمني فتجعلني أرى ما أكذت لي أن تُريني إياه من إنزال نعمتك بمن عاداني واضطهد الذين آمنوا بي، وهم مشركو مكة، فأخرجني قبل ذلك من بين مجتمعهم، فلا تنزل عقابك عليهم وأنا موجودٌ فيهم .

ونلاحظ في هذا الدعاء الذي علم الله رسوله أن يقوله إلماحاً إلى أن الله عز وجل سيأذن له بالهجرة من مكة، حتى يكون منفصلاً عنهم، غير موجودٍ فيهم .

وبعد هذا بشره الله إلماحاً بأن وعده لهم سيراه صلوات الله عليه، فقال تعالى له : ﴿ وَإِنَّا عَلِيمٌ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴾ (٤٥) .

أي : اطمئن، فسترى هزيمتهم وخزيهم، بنصرك ونصر الذين آمنوا معك عليهم .

وبعد هذا قال تعالى له :

﴿ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ .

إن المناظرة الجدلية المفجمة ذات الحجج البرهانية التي تضمنها التعليم في هذه السورة، من شأنها أن تجعل المعاندين المصيرين على باطلهم في الشرك وإنكار البعث بعد الموت للحساب والجزاء، يُلجؤون إلى وسائل لا تمتُّ إلى منطق العقل والحجج التي تُقْبَل في مقياسه بصيلة، وهذه لا تكون إلا من حَضِيض قاذورات السباب والشتائم المماثلة لعواء الكلاب ونباحها، والدالة على السفاهة التي لها ظواهر تكشف نقصان العقل وانعدام الرأي السديد، والفكر الصحيح. أو من حَضِيض الهزء والغمز واللَّمز والضحك الساخر، مع استكبارٍ وتعالٍ متصنَّع لتغطية الهزيمة في مجال العلم والفكر السليم، ومع تَسْلِيطٍ للغوغائيين من أتباعهم. أو تسلُّط بالقوة المادية المتفوقة، والاضطهاد بها.

فجاء في التعليم الرباني للرسول ﷺ، التوجيه لدفع السيئة بالتي هي أحسن، وهو تعليمٌ عامٌ وتوجيه لكلِّ داعٍ إلى سبيل ربه، في كلِّ الأحداث المماثلة، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ .

فأضاف في هذا النصِّ على العبارة التي جاءت في التعليم السابق الذي أنزله الله في سورة (فُصِّلَتْ) كلمة: ﴿ السَّيِّئَةُ ﴾ .

إن العبارة التي جاءت في سورة (فُصِّلَتْ) هي: ﴿ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

أما العبارة التي أنزلت بعدها بمدَّة في سورة (المؤمنون) فهي: ﴿ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ .

فاشتملت هذه على التصريح بالمراد المطلوب دفعه بالتي هي أحسن، لِيُعَلِّمَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مَا يُعَلِّمُ بِاللُّزْمِ الذَّهْنِيَّ يَصِيحُ أَنْ يُسْتَعْنَى عَنِ التَّصْرِيحِ بِهِ

في العبارة، ولا سيما في الكلام الرّفيف الوجيز، فالدّفْع الذي دلّت عليه جملة: ﴿أَدْفَع﴾ إنّما يكوّن دفعاً للسيئة باللزوم الفكري، والسبب في هذا أنّ الحسنة لا تدفع، بل تُستقبل بمسرة وتؤخذ، فالدّفْع تنحية وإزالة بقوة.

● قول الله عزّ وجل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

أي: نحن أعلم بما يصفونك به في شتائمهم واتّهاماتهم الباطلات، وفي هذا يُطمئن الله عزّ وجلّ رسوله وكلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من بعده، إلى أنّه تعالى أعلم منهم بما يصفهم به المدعوّون المعاندون المصرون على باطلهم، من اتّهاماتٍ يتهمونهم بها، وشتائم يشتمونهم بها، ويلزم ذهنًا من علمه تعالى بذلك أن يُدبّر بحكمته ما يلزمُ لنصرة أوليائه على أعدائه، وإنّ أمهل الكافرين المعاندين وأملى لهم، فإنّ كيدَهُ سبحانه متين، كما دلّت على هذا نصوصٌ أخرى، فالبيانات الرّبّانية في كتابه متكاملة الدلالات.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾﴾.

في هذا تعليم ربّانيّ للصيغة المناسبة التي ينبغي أن يدعو بها المستعيز بربه.

إنّ ما جاء في التعليم الذي أنزله الله في سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) قد وجه للاستعاذة بالله، فقال تعالى:

﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

ثمّ جاء في التعليم الذي أنزله الله في سورة (فصلت/ ٦١ نزول) تأكيد لهذا التوجيه، مع بيان أنّ الله عزّ وجلّ هو وحده السميع العليم، فقال تعالى:

﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

ثمّ جاء في التعليم الذي أنزله الله في سورة (المؤمنون/ ٧٤ نزول) عدم

التصريح بنزع الشيطان لسابق العلم به، والاقْتصار على بيان الصيغة المناسبة التي ينبغي أن يدعو بها المستعيز بربه، فقال عز وجل: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٥٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

سبق بيان معنى الاستعاذة في التعليم الأول.

هذهات الشياطين: الهمزُ في اللغة مثل الغمز والضغظ والعصر والنخس باليد أو بأداة ما. ويقال: همز الشيطان الإنسان همزاً. إذا همس في قلبه وسواساً. وهمزات الشيطان خطراته التي يُخطرها بقلب الإنسان.

فالهمزُ في هذا النص كالنزغ الذي جاء ذكره في التصنيح الآخرين. فعلى الداعي متى شعر في باطنه بأيّ ضغطٍ من نزغ أو غمزٍ أو همزٍ يدعو إلى مخالفة التعليم الرباني الذي وجه للدفع بالتي هي أحسن، فعليه أن يستعيز بالله قائلاً: رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ، وأن يكون هذا الدعاء بحضور قلبٍ وهمّة نفسية صادقة.

أن يحضروني: أي: أن يحضروني، وأن يكونوا معي. لأن وجودهم يصاحبه الهمز والنزغ والوسواس، والله عز وجل يعيده، فيصرف عنه همزاتهم، ويصرفهم عنه كلياً بابعادهم عن نفسه ومشاعره الداخلية.

* * *

التعليم السادس عشر

جاء هذا التعليم في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) وقد تضمّن هذا التعليم وصييتين:

١ - أن يعرض حامل الرسالة في دعوته عن مواجهة من بلغ إلى أقصى درجات الإعراض عن بيانات الدعوة التي وُجّهت له، لكنّه لم يتولّى، ولم يصل إلى حالة ميثوس منها.

الإعراض: هو إعطاء العارض، وهو وسطٌ بين المواجهة والإدبار، وللإعراض درجاتٌ دنيا وقُصوى وما بينهما.

ولا يفهم من الإعراض عدمُ إسماع المدعو ما يراؤ تذكره به، إذ يُمكن إسماعه دون مواجهته ومقابلته.

٢ - أن يكون الداعي إلى الله في حالة إعراضه عن المدعو منتظراً مُترقّباً، فإذا شعر بحسّه المرهفِ أنّه قد بدأ يلين ويخفّف من شدة إعراضه، انعطف نحوه بشيء من التوجّه، ليساعده على نفسه رجاء أن يلين ويستجيب بدعوة الحقّ.

وهذه سياسة حكيمة في مجال الدعوة إلى الله.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

مع وجود أئمة كفر معاندين يحسُّ بالداعي إلى الله أن يتولّى عنهم،

مُؤَلِّياً ظهره إليهم، وهو غير ملوم على تولّيه كما جاء في سورة (الذاريات) يوجدُ فريق آخر ممّن لم يستجيبوا بَعْدُ إلى دعوة الحق على الرُّغم ممّا وُجّه لهم خِلال عِدّة سنين، إلّا أنّهم لم يَتَوَلَّوْا تَوَلِّياً كاملاً، ولم يَصِلُوا بَعْدُ إلى حالة مَيْتُوسٍ منها.

دلّ على وجود هذا الفريق قول الله عزّ وجلّ في السورة:
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا... ﴾ (٢٢)

أي: بُلِّغَ آياتِ رَبِّهِ أَوَّلًا، وَبَيَّنَّتْ لَهُ، وَذُكِّرَ بِهَا مَرَّاتٍ مُتَكَرِّرَاتٍ، فِي أَرْزَامٍ مُتَفَاصِلَاتٍ، وَأَمْهَلَ رَجَاءً أَنْ يَتَأَمَّلَ وَيُدْرِكَ الْحَقَّ وَيَسْتَجِيبَ لَهُ، لَكِنِّه بَعْدَ الْفَاصِلِ الزَّمَنِيِّ الطَّوِيلِ ظَلَّ مَعْرُضًا وَمُبَالِغًا فِي إِعْرَاضِهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى التَّرَاخِيِّ الزَّمَنِيِّ مَعَ لَزُومِهِ حَالَةَ الْإِعْرَاضِ اسْتِعْمَالِ حَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» فَاسْتِعْمَالَ هَذَا الْحَرْفِ يُشْعِرُ بِأَنَّ الرَّسُولَ قَدْ ذَكَرَهُ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ فِي أَرْزَامٍ مُتَرَاخِيَاتٍ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ لَازِمَ حَالَةَ الْإِعْرَاضِ عَنْ آيَاتِ رَبِّهِ.

واقترضت الحكمة الربّانية بالنسبة إلى هذا الفريق التوصية بالاكْتِفَاءِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ، مَعَ إِسْمَاعِهِ مَا يُرَادُ تَذَكِيرُهُ بِهِ دُونَ مُوَاجَهَةِ.

وقد دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في الآية الأخيرة من السورة: ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ... ﴾ (٢٢)

أي: فَأَعْرَضَ عَنْ مُوَاجَهَتِهِمْ مَعَ إِسْمَاعِهِمْ تَذَكِيرًا بِمَا سَبَقَ أَنْ بَلَّغْتَهُمْ، وَأَعْلَمْتَهُمْ بِهِ شَرْحًا وَتَفْصِيلًا وَمُجَادَلَةً بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ.

واقترضت الحكمة الربّانية التّوصية بانتظار الفرصة الملائمة لتذكيرهم بإقبال ومواجهة، وهذا الانتظار يستدعي مراقبةً متتابعةً لأحوالهم، عسى أن تَدُلَّ الْأَمَارَاتُ عَلَى أَنْ إِعْرَاضَهُمْ قَدْ بَدَأَ يَخْفُ، وَأَنَّ نَفْسَهُمْ قَدْ بَدَأَتْ تَلِينُ.

دلّ على هذه التوصية تنمة الآية الأخيرة من السورة وهي قوله تعالى

فيها: ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ ٢٤.

أي: وانتظر انتظار مُتَرَقِّبٍ تَبَدَّلَ أحوالهم إلى تخفُّفٍ ممَّا هم فيه من إعراض، ولينٍ لمؤثراتِ الدَّعْوَةِ.

﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي: إنهم في موقف المعرض المنتظر الذي يراقبُ مُقَدِّمَاتِ الفتح (أي: النصر) الذي وَعَدَكَ اللهُ به، فإذا شَعَرُوا بوقوع هذه المقدمات، أو بقرُبِ وَقُوعِهَا فإنهم قد يتأثرون، فيعدُّون موقفهم، وقد يؤمن منهم مؤمنون، وهذه فرصةٌ يَنْبَغِي للداعي إلى الله أن يَهْتَبِلَهَا.

وقد دَلَّ على أَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ مُقَدِّمَاتِ الفتح أو أماراته، ما جاء في الآيتين اللتين قبل الأخيرة من السورة، وهُمَا قَوْلُ الله عزَّ وجل:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٢٥ ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ٢٦.

أي: يَوْمَ تحقُّقِ النَّصْرِ في المعركة وسقوط الكافر قتيلاً لا ينفعه إيمانه عند ربِّه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أما إذ وقع في الأسر فإنه لا ينفعه إيمانه عندئذ في إعفائه من الفدية أو الاسترقاق، إذا قرّرت قيادة المسلمين ذلك ولم تَمُنَّ على الأسرى.

* * *

التعليم السابع عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

وقد تَضَمَّنَ هذا التعليم خمس وصايا للرسول ﷺ اشتملت عليها السورة، وهذه الوصايا يستفيد منها الدعاة إلى الله من أمته:

١ - لزوم متابعة تذكير من لم يصلوا إلى حالة ميثوسٍ معها من استجابتهم لدعوة الحق، مهما واجه من بعض قومه من اتهام له بالكهانة أو بالجنون أو بأنه شاعر.

٢ - أن يواجه الرسول القائلين بشأنه ننتظره حتى يُدركه الموت، وعندئذٍ نلتخص منه، فيقول لهم وهو مطمئن القلب هادئ النفس تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمَتْرَبِصِينَ .
التَرَبُّصُ: الانتظار.

٣ - أن يتُركَ من يُلاحظُ أنَّهم يُريدون كَيْدَهُ، فلا يَكْشِفَ لهم أَنَّهُ قد أدرك ما يريدون تَدْبِيرَهُ من كيد ضده، واثقاً من أن الله ناصرُهُ ومُنزِلُ بهم عقابه، إذا التزم بتعليمات الله له في أخذ حِذْرِهِ، وفي الاستعداد الكافي لإحباط كَيْدِهِمْ.

٤ - أن يَصْبِرَ لِحُكْمِ رَبِّهِ، مُخْضِرّاً في تصوُّره دواماً أَنَّهُ مَحْفُوظٌ بحفظ الله، محاطٌ بأَعْيُنِهِ جَلَّ جلاله، فلنَ يَبْلُغُوا منه مرادهم بمكايدهم التي يكيدونها.

٥ - أن يُسَبِّحَ بحمد ربّه في ثلاثة أوقاتٍ من كلّ يومٍ من أيّام حياته :

● حين يقوم من نومه، أو من مجلسه .

● أثناء اللّيل .

● عند غروب النجوم من آخر اللّيل .

التحليل أخذاً مما جاء في السورة :

استمرّ حال معاندي أئمة المشركين، الذين هم في خوضٍ من الجرائم وكبائر الإثم وإطلاق الاتهامات الإعلامية ضدّ الرسول وضدّ القرآن يَلْعَبُونَ، غير مباليين عقوبةً من الله تنزل عليهم، وأخذوا يَبْتُونَ بئاً إعلامياً بين الناس ضدّ الرسول الأقوال التالية :

١ - كاهنٌ يتلقّى عن قُرَنائه من الجنّ كما يتلقّى الكُهَّان .

٢ - مجنون يخالف ما عليه قومه وأباؤهم غير حاذرٍ من انتقام قومه

منه .

٣ - شاعر يقول كلاماً شبيهاً بأقوال الشعراء، فنحن نتربّصُ أن ينزل به

الموت فتتخلص منه، ومما جاءنا به مخالفاً ملّة قومه .

فاقتصدت الحكمة الربانية التربويّة أن يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله

وصيتين :

الوصية الأولى : تتضمّنُ تربيته على تذكير الذين لم يصلوا بعدُ إلى حالة

ميثوسٍ منها .

الوصية الثانية : أن يُواجه القائلين بشأنه : شاعرٌ ننتظر موته، فيقول

لهم : « تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » أي : وأنا أنتظر أن ينزل الله بكم عقابه عذاباً من لدنّه، أو هزيمة وخذلاناً .

دلّ على هذا الموقف الذي كان عليه معاندو أئمة المشركين، وعلى الوصيتين السابقتين الموجهتين للرسول ﷺ، وينتفع بهما كلُّ داعٍ إلى الله من أمته، قول الله عزّ وجلّ في السورة لرسوله:

﴿ فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّصٌ بِهِ رَبِّبَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

﴿ نَبَرَّصٌ بِهِ رَبِّبَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: ننتظر أن تنزل به حوادث الدهر المميّنة. يُطْلَقُ «الريبُ» في اللُّغَةِ على صروف الدهر وحوادثه. وَيُطْلَقُ لفظ «المؤمنون» على الدهر، وعلى الموت. فريب المؤمنون حوادث الدهر التي تأتي بالموت.

* * *

وكان لمعاندي أئمة المشركين في هذا الطور من أطوار تحركاتهم العدائية إرادةٌ كَيْدٌ يُدَبِّرُونَهُ ضِدَّ الرّسول والذين آمنوا معه، نفهم هذا من قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

أي: إن الله يرُدُّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ فيجعلهم هُمُ المكيدين.

وفي مقابل إرادة الكيد هذه التي كانت من معاندي أئمة المشركين، اقتضت الحكمة التربويّة الرّبانيّة أن يوجّه الله عزّ وجلّ لرسوله ثلاث وصايا:

الوصيّة الأولى: أن يَذَرَهُمْ فلا يكشف لهم معرفته بأنهم يريدون تدبير كيد ضده وضدّ الإسلام والمسلمين، وأن ينتظر حتى يلاقوا يَوْمَهُم الذي فيه يُصَعَّقُونَ .

دلّ على هذه الوصيّة قول الله عزّ وجلّ في أواخر السورة:

﴿ فَذَرَّهُمْ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصَعَّقُونَ ﴿٣٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ ﴾

يُصْرُونَ ﴿٤١﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ .

يُصْعِقُونَ: يَمُوتُونَ، يقال لغةً: صَعِقَ يَصْعَقُ صَعَقًا وَصَعَقًا إِذَا مَاتَ،
فهو صَعِقٌ.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: إنَّ لهم عذاباً في الحياة الدنيا قبل
عذاب الآخرة الذي يكون بعد موتهم، وقد نزل بالظالمين عَذَابُ القتل في
غزوة بدرٍ وغيرها، ونزل ببعضهم عذابٌ بالأوجاع والأمراض وغير ذلك قبل
موتهم.

الوصية الثانية: أن يَصْبِرَ عَلَى ما لا يَسْرُهُ من أحداثٍ استسلاماً لِحُكْمِ
رَبِّه، مُحْضِراً في تصوُّره دوماً أَنَّهُ محفوظٌ بحفظ الله، مُحَاطٌ بأَعْيُنِهِ جَلِّ
جَلَّالَه، فَلَنْ يبلغ مدبرو الكيد ضده مُرادهم بمكايدهم التي يكيدونها.

دلَّ على هذه الوصية قولُ الله عزَّ وجلَّ في أواخر السورة:

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾ .

الوصية الثالثة: أن يُسَبِّحَ بحمد ربِّه في ثلاثة أوقاتٍ من كلِّ يومٍ من أيام

حياته:

- ١ - حين يقوم من نومه، أو من مجلسٍ من مجالسه.
- ٢ - أثناء الليل (ومن الخير أن يكون التسييح بحمد الله في صلاة).
- ٣ - عند إذبار النجوم آخر الليل (ومن الخير أن يكون التسييح بحمد الله في صلاة).

دلَّ على هذه الوصية قولُ الله عزَّ وجلَّ في آخر السورة:

﴿... وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٣﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٤﴾ .

إِدْبَارُ النُّجُومِ: مغيبها، يُقال: أدبَرَ إذا دار وجهه وأعطى دُبْرَه،

وانصَرَفَ مبتعداً، وهذا بالنسبة إلى النجوم يكون بغيابها، وهو يكون عند آخر الليل، أو بَعْدَ طلوع الفجر .

وجعل سيدنا عليُّ رضي الله عنه ركعتي سُنَّةِ الفجر من التسبيح المطلوب عند إذبار النجوم^(١) .

* * *

(١) ذكره أبو بكر السجستاني في تفسيره لغريب القرآن تعليقا على الآية (٤٠) من سورة (ق) .

التعليم الثامن عشر

جاء هذا التعليم في سورة (المعارج / ٧٠ مصحف / ٧٩ نزول).

وقد تضمّن هذا التعليم وصيتين موجّهتين من الله لرسوله ولكل داع إلى الله من أمته، وهاتان الوصيتان تؤكدان بعض الوصايا التي سبق أن أوصى الله بها، مع إضافات بيانية:

١ - أن يتحلّى الداعي إلى الله بالصَّبْرِ الجميل على تكذيب المكذّبين بيوم الدين.

والصَّبْرُ الجميل هو الذي تُصاحبه بشاشةٌ في الوجه، وتلقائيةٌ في الأقوال والأعمال، دون قلقٍ ولا اضطرابٍ ولا امتعاضٍ ولا تدمرٍ، ولا ضيقٍ في الصدر.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ لرسوله في أوائل السورة ضمن الحديث عن عذاب الكافرين يوم الدين:

﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾.

٢ - أن يدّر الكافرين المصّرّين على عنادهم يخوضوا في جرائمهم وفسقهم وفجورهم وشركياتهم، ويلعبوا كما يهوّون في الحياة الدنيا، حتّى يلاقوا مصيرهم الوخيم، في يومهم الذي يُوعَدون، وهو يوم الدين، يوم الحساب وفصل القضاء والجزاء «وهذه سياسة مرحلية».

مع قيامه بواجب جهاد الدعوة والنصح والإرشاد بين من يطمع في استجابتهم أخذاً من نصوص أخرى .

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر السورة :

﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٦﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٧﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ أي : يخرجون من القبور سراعاً إلى المحشر . الجدث : القبرُ، وجمعه أجداث .

﴿ كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أي : كأنهم يُسرِّعون إلى نُصْبٍ . .

النُّصْبُ، والنُّصْبُ: شيءٌ يُرْفَع علامةً، والنُّصْبُ ما نُصِبَ وَعُبِدَ من دون الله .

أي : يُشبه حالهم يوم المحشر حالهم في الدنيا إذ كانوا يُسرِّعون إلى تَعْظِيمِ أوثانِهِمْ وعبادَتِهَا من دون الله .

﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ ﴾ أي : منكسرةً أبصارهم يَنْظُرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ إلى الأرض، وهذا من مشاعر ذلِّتهم .

﴿ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ﴾ أي : تَغْشَاهُمْ وتُجَلِّلُهُمْ ذَلَّةً، لعلمهم بمصيرهم الذي هم إليه صائرون .

* * *

التعليم التاسع عشر

جاء هذا التعليم في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول).
وقد تضمن هذا التعليم وصيَّتين موجَّهتين للرسول ويستفيد منهما كلُّ
داعٍ إلى الله من أمته :

- ١ - أن يَصْبِرَ فلا يستعجل تحقيق وعد الله له بالنصر .
 - ٢ - أن لا يستخفَّهُ الكافرون للقيام بأعمال تُوقِعُهُ أو توقع جماعة
المسلمين في ورطاتٍ لا تُحْمَدُ عواقِبُها .
- التحليل أخذاً مما جاء في السورة :
- وعد الله عزَّ وجلَّ رسوله والذين آمنوا معه بأن يَنْصُرَهُم ويتنقم لهم من
المجرمين الذين اضطهدوهم .
- دلَّ على هذا الوعد ما تضمنته قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم) خطاباً
لرسوله :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَتْ
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧)

وقد قضت حكمة الله بأن يُمهِّل معاندي كُفَّار مكة، حتَّى آخِر درجات
الإمهال، لقطع كلِّ عُدْرٍ يُمكن أن يعتذروا به .

غير أن هذا الإمهال الرباني قد يستغله بعض المجرمين لإطلاق أقوال،

والقيام بأعمال يَسْتَخِفُّونَ بها المؤمنين للقيام بما لا يعطي نتيجة حسنة، بل قد يَجْلِبُ لهم ما يكرهون، كالتورط بأعمال اندفاعية غير رشيده، تكون سبباً في أن يُصابوا بمصائب، أو هزائم وخسائر جمة.

فاقتضى هذا الأمر أن يوجه الله عز وجل لرسوله التوصية بالصبر، وبأن لا يستخفنه الكافرون المجرمون الذين لا يُوقنون بوعد الله، وهذه التوصية موجّهة لعموم المؤمنين، وخوِطَبَ بها الرسول باعتباره قائدهم الممثل لهم، فقال الله عز وجل له في آخِرِ السورة:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

﴿ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي: ولا يَحْمِلُكَ الكافرون على القيام بأعمالٍ طائشة تتورط بها فيما لا تُحْمَدُ عقباه.

يقال لغة: استخفّه، إذا حمّله على أمرٍ لا يحسن أن يقوم به. واستخفّه: إذا استجهله فاستفزه فحمّله على اتباعه في غيه. واستخفّه: إذا وجدّه خفيفاً يستجيب بسزعة لما يُطلب منه، أو يُوجه للقيام به، أو يُستثار حتى يتورط فيما لا تُحْمَدُ عقباه.

ومن الاستخفاف الإثارات الخادعات التي تجعل الإنسان الذي ليس لديه رزانة ولا رصانة يندفع متورطاً للقيام بعمل يتصوّر أنّه من الجهاد المحمود، بينما ينتظره في طريق اندفاعه فتح يكون به هلاكه.

وقد اتقن أعداء الإسلام حيلة الإثارة والكمين، فبالإثارة يستخفون الأغرار والجهلة وأهل الطيش الذين ليس لديهم رزانة ولا رصانة ولا خبرة بحيل أهل المكر، وبالكمين يُوقعون من استخفوه في المصائد المهلكة، والورطات الشنيعات.

* * *

التعليم العشرون

جاء هذا التعليم في سورة (الأحزاب/ ٣٣/ مصحف/ ٩٠ نزول) وهذا التعليم من التنزيل المدني.

وقد تضمن هذا التعليم ثلاث وصايا موجهة للرسول ﷺ، ويستفيد منها كل حامل رسالته من أمته، وهي:

١ - على حامل الرسالة أن لا يطيع الكافرين والمنافقين.

٢ - ينبغي لحامل الرسالة أن يدع أذى خصوم رسالته وأعدائها فلا يشتغل بدفعه.

٣ - على حامل الرسالة أن يتوكل على الله مع قيامه بالأسباب التي أمر الله بالقيام بها.

التحليل أخذاً مما جاء في السورة:

قال الله عز وجل لرسوله فلكلٍ داعٍ إلى الله من أمته في سورة (الأحزاب/ ٣٣/ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ وَدَعِ اٰذَنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلٰى اللّٰهِ وَكَفٰى بِاللّٰهِ وَكِيلًا ﴾

ولا تطع الكافرين والمنافقين: أي: ولا تطع أي فريق أو فرد من الكافرين والمنافقين، في أي مقترح أو أمر من الأمور التي تتنافى مع

رسالتك، أو واجباتك تجاه دعوتك، أو تجاه ربك، أو تجاه أي حكم من أحكام الدين، أو شريعة من شرائع الإسلام، أو تجاه أية قضية تُضِرُّ بمصلحة من مصالح المسلمين.

وَدَعَّ أَذَاهُمْ: أي: ولا تَشْتَغِلْ بمدافعة أذاهم، أو الانتقام مِنْهُمْ إذا آذوك بآتهامات أو مطاعن، أو شتائم، أو طرح تشكيكات في غايتك من دعوتك، وشبهات حول تصرفاتك التي أذن الله لك بها.

وذلك لأن الاشتغال بدفع الأذى أو بالانتقام يصرف جَهْدَ حامل الرسالة عن تأديته رسالته، وهذا يُحَقِّق للكافرين والمنافقين بعض ما يريدونه، من إيقاف الدعوة عن مسيرتها، وشغل حامل الرسالة بصراعات شخصية، وعندئذٍ تتحوّل الرسالة عن أهدافها وواجباتها، إلى نزاعات حول الأشخاص، ويضيع الجُهدُ المبذولُ سُدىً، وتظهرُ العصبِيَّاتُ والأنايَّاتُ.

لكنَّ رُسُولَ الدَّعوة، وأمةَ الدَّعوة، وحملة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس هُمُهمُ أشخاصهم، إنّما هُمُهمُ الأكبر مبادئهم، وتبليغ رسالة ربّهم، والرغبة في هداية عباد الله إلى دين الله، ودعوة الناس إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوجيه المنحرفين إلى التزام صراط الله المستقيم، فجاء في البيان التعليمي قول الله تعالى: ﴿وَدَعَّ أَذْنُهُمْ﴾ أي: ودع التفكير في أذاهم الموجه لك وللمسلمين، ودع الاشتغال بدفعه، ودع تدبير الأمور الرامية إلى الانتقام منهم على أذاهم، وتَجَمَّلْ بالصَّبْرِ والصَّفْحِ.

ومن الملاحظ أنّ التعبير بعبارة ﴿وَدَعَّ أَذْنُهُمْ﴾ عن هذه المعاني التي فهمناها منه، فيها من الإيجاز والتعميم لكلّ الصور ما لا يُوجَدُ بأسلوب بيانيٍّ آخر.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: أي: وتوكل على الله في التزامك هذه

التَّعْلِيمَاتِ، وَلَا تَخْشَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ إِعْرَاضِكَ عَنْ مِقَابِلَةِ أَذَىِّ مِثْلِهِ أَنْ يُصَعَّدُوا مِنْ الْعِدْوَانِ عَلَيْكَ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ، تَصَوُّراً مِنْهُمْ أَنَّكَ إِنَّمَا أَعْرَضْتَ عَنْ مِقَابِلَةِ أَذَاهُمْ بِأَذَىِّ مِثْلِهِ لِأَنَّكَ ضَعِيفٌ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَتَوَلَّى رَدَّ كَيْدِهِمُ وَالذَّفَاعَ عَنْكَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَيَحَقُّ لَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَعَكَ النَّتَاجُ الَّتِي تَحِبُّونَهَا، وَهُوَ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِمَّا تَتَصَوَّرُونَ أَنْ تَحَقِّقُوهُ لَوْ اشْتَغَلْتُمْ بِمُدَافَعَةِ الْأَذَىِّ، أَوْ الْإِنْتِقَامِ مِنَ الَّذِينَ يُوجِّهُونَهُ ضِدَّكُمْ، وَانصَرَفْتُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِوِظَائِفِ رِسَالَتِكُمْ.

وهذا التعليم موجه لكل حملة رسالة الرسول في الدعوة، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

* * *

التعليم الحادي والعشرون

جاء هذا التعليم في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول).

وهذا التعليم من التنزيل المدني .

وقد تضمن هذا التعليم ثلاث وصايا موجهة للرسول ﷺ، ويستفيد منها كلُّ داعٍ إلى الله من أُمَّته، وجميع المؤمنين:

١ - استخدام أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن، حول أسس العقيدة الإيمانية، مع الاستفادة من صورة تعليمية لطريقة من طرائق مجادلة المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، كافرين بصفة الله الرحمن .

٢ - الكفّ عن التطلع لطلب المعجزات المادية، والخوارق في تعجيل عقاب أئمة الكفر المعاندين المعلنين عداؤهم ومقاومتهم للرسول والذين آمنوا، فلله حِكْمٌ جليلة في إمهاله وفي آجاله التي يُحدِّدها لتصاريفه، وما على الداعي إلى الله إلّا البلاغ، والله هو الذي عليه الحساب، فلا ينبغي للعباد أن يتدخلوا فيما هو من خصائص الله عزّ وجلّ .

ومضمون هذه الوصية ينبغي أن يلتزم به كلّ المسلمين إلى أن تقوم الساعة .

٣ - التحذير من اتِّباع أهواء أهل الكتاب في مطالبهم واستدراجاتهم

إلى ترك شيء من دين الله وأحكام شريعته لعباده .

ومضمون هذه الوصية ينبغي أن يلتزم به كلّ المسلمين إلى أن تقوم الساعة .

التحليل أخذاً ممّا جاء في السورة :

جاء في سورة (الرعد) النازلة في أواسط المرحلة المدنية من تاريخ

دعوة الرسول ﷺ مُعَالَجَتَان :

المعالجة الأولى : تتعلّق بالمشركين الذين ما زالوا يجادلون في قضايا

شركياتهم .

المعالجة الثانية : تتعلّق بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، إلاّ أنّ اليهود

كان لهم النصيب الأكبر من المعالجة ، لأنهم مثيرو الشبهات والجدليات في

المدينة إبان نزول السورة .

● أمّا المشركون فمن أجل إقناعهم بقضية التوحيد وضع الله عزّ وجلّ

لرسوله ﷺ ولكلّ داعٍ إلى الله من أمته صورة ذات خطوات لمناظرة جدليّة يبدأ

بها الداعي إلى الله ، ويجادلُ على وفقها المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً

آخر .

وأتبع الله عزّ وجلّ هذه الصورة التعليميّة بمثلٍ يدُلُّ على أنّ الصراع بين

الحقّ والباطل لا بُدَّ أن ينتهي بانتصار الحقّ ، واضمحلال الباطل انظر الآيتين

(١٥ - ١٦) من السورة .

وجاء في السورة ما يُشعرُ بأن معاندي المشركين في مكة ما زالوا

يطالبون بآيات مادّيّة من الخوارق ، في دوائر دعاياتهم في مكة ، مع

استخدامهم أسلوب الاستهزاء بالرسول ﷺ ، ليصدّوا جماهيرهم عن الإيمان

به واتباعه ، والهجرة إليه في المدينة ، حيث استقرّت عاصمةً للدولة الإسلاميّة

بقيادته صلوات الله عليه وسلاماته .

وربما فعل نظير ذلك يهود المدينة، فطالبوا الرسول بآية كَفَلَقَ البحر لموسى عليه السلام، وجعلوا يستهزئون بالرسول إذ لم يستجب لطلبهم.

ويظهر أنّ بعض المسلمين كانوا يرغبون في أن يُجْرِيَ الله عزّ وجلّ لرسوله من المعجزات المادّية الكبرى ما يكون سبباً في إقناع الذين يطالبون بها، أو أن يُعَجِّلَ الله إنزال عقابه عليهم ليكونوا عبرةً لسائر العرب، وسائر الناس.

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ حكمته تقضي بأن لا يستجيب لطلب المشركين المعجزات المادّية الموافقة لشهواتهم، وبأنّ لا يُعَجِّلَ إنزال عقابه بهم قبل استفاد أجل الإمهال الذي قضت به حكمته.

تأمل في قول الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة:

﴿... وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

وفي قول الله عزّ وجلّ له أيضاً:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

● وأما أهل الكتاب وفي مقدّماتهم يهود المدينة فقد ساء بعضهم أن يُوجَدَ في القرآن ما يخالف معتقداتهم المحرّفة، وأهواءهم، وأرادوا استدراج الرسول إلى ترك التعرّض لهم بأنهم كافرون ومحرّفون في الدين، ومخالفون لشريعة الله التي أنزلها على موسى وأنبياء بني إسرائيل من بعده.

فقال الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة يعلمه ماذا يرُدُّ به عليهم:

﴿... قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

أي: ما أُمِرْتُ من قِبَلِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ إِلَّا بِأَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، ومن عبادتي له أَنْ أَقُومَ بِالذَّعْوَةِ إِلَى دِينِهِ كَمَا أَمَرَنِي، وَأَنْ أُبَلِّغَ عَنْهُ كُلَّ مَا أَمَرَنِي بِأَنْ أُبَلِّغَهُ، دون أن أكتُم منه شيئاً، أو أُحَرِّفَ فِيهِ أو أُبَدِّلَ.

فالذَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ وفق مطلوب الله الذي أمر به من أجلّ العبادات، وأنا لا أَعْبُدُ غيرَ اللَّهِ حَتَّى أَتَلَقَّى تَوْجِيهَاتِي مِنْ غَيْرِهِ، ولن تستطيعوا باستدراجاتكم أن تخرجوني عن صراطِ رَبِّي.

فإن رضيتم واستجبتم لدعوتي سِرْتُمْ معي على صراطِ اللَّهِ المستقيم.

وإن أبيتم وأصررتم على أن تتَّبِعُوا أهواءكم فَلَنْ أُسَخِّطَ رَبِّي رَغْبَةً فِي اسْتَرْضَائِكُمْ، ولئن اتَّبَعْتَ أهواءكم عاقبني الله ولم يحمني من عقابه استرضاؤكم، وإن حلَّ بي عقاب رَبِّي فَلَنْ يَكُونَ لِي وَلِيٌّ يَنْصُرَنِي وَيَمْنَعُ عَنِّي عِقَابَ اللَّهِ، ولن يكون لي واقٍ يقيني من عذابه.

* * *

التعليم الثاني والعشرون

جاء هذا التعليم في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) وهي من أواسط التنزيل المدني، فقال الله عزّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٦﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٧﴾
وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٩﴾ ۞ .

وقد تضمّن هذا التعليم خمس وصايا موجهة للرسول ﷺ، وينتفع بها كلُّ داعٍ إلى الله من أمته، وهي:

الوصية الأولى: التحلي بالصبر مع الاستسلام التام لحكم الله، وانتظار ما يقضي به.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله في السورة: ﴿ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ... ﴾ ﴿٢٦﴾ .

أي: فاصبر مستسلماً لحكم ربك، ومنتظراً ما يقضي به.

الوصية الثانية: النهي عن طاعة أيّ آثمٍ وأيّ كفورٍ في مشورة، أو مقترحٍ أو غير ذلك، لما في طاعتهما من تورطٍ فيما لا تُحمدُ عقباه.

دلّ على هذه الوصية قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ ﴿٢٧﴾ .

الآثم: مرتكب الإثم، وهو الذنب.

الكفور: صيغة مبالغة لكافر، فهو الكافر شديد الكفر.

الوصية الثالثة: الاشتغال بذكر اسم الله بُكْرَةً وَأَصِيلًا.

دلّ على هذه الوصية قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

البُكْرَةُ: أوّل النهار إلى طلوع الشمس، وهو وقت صلاة الصبح.

الأصِيل: هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

الوصية الرابعة: عبادة الله بالسجود له في الصلاة أثناء اللّيل. فلقيام اللّيل تأثير في علاج ذوي الهموم العظيمة، والأعباء الجسيمة.

الوصية الخامسة: تسييح الله مدّة طويلة من اللّيل، في صلاة قيام اللّيل، أو خارجها، فلهذا التسييح تأثيره العظيم الفعّال في النفوس المضطربة القلقة المهمومة أو المغمومة.

دلّ على هاتين الوصيتين «الرابعة والخامسة» قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

* * *

الفصل السابع

المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً

وفيه ثماني فقرات :

- ١ - مسؤولية الأمة الإسلامية تجاه المنكرات فيها .
- ٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- ٣ - تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر .
- ٤ - الراعي داخل الأسرة ومسؤولياته .
- ٥ - المنكرات من الأحاديث الكفرية في مجالس الكافرين .
- ٦ - المنكرات ذات الخطر العام .
- ٧ - المنكرات الفردية التي لا تشكل خطراً عاماً على المسلمين .
- ٨ - إنكار المنكر بالقلب واللسان وضوابط تغييره باليد .

مسؤولية الأمة الإسلامية تجاه المنكرات فيها

الأمة الإسلامية في أيّ موقع من الأرض صغيرٍ أو كبير، مكلفةٌ أن تتخذ الوسائل المختلفة حمايةً ورَدْعاً، وتقويماً وإصلاحاً، حتّى تكون سَلِيمَةً صحيحةً بوجهٍ عامٍّ من الوقوع في المنكرات شرعاً.

وهذا يشمل أفرادها، وأسرّها، وجماعاتها، ومؤسساتها، في بيوتها، وأحيائها، وقراها، ومُدُنّها.

والمنكرات في الشريعة الإسلامية قسمان:

القسم الأول: تركُّ الفرائض والواجبات الإسلامية التي لها ممارسات عملية ظاهرة، كترك الصلاة، وعدم أداء الزكاة، وإهمال فريضة الحجّ مع الاستطاعة، وترك فريضة الصيام في شهر رمضان، وترك الحكم بما أنزل الله، وتعطيل الحدود الشرعية.

القسم الثاني: فعل المحرّمات التي لها ممارسات عملية ظاهرة، كشرب الخمر علناً، وتعاطي المخدّرات السامة المهلّكة، واستيرادها وبيعها في محلات تجارية، وكإقامة بيوتٍ خاصّةٍ للزنى، ومحلّات رقصٍ وفحشٍ وخلاعة ترقص فيه الفاجرات، وكخروج النساء المسلمات عارياتٍ سافراتٍ مبدياتٍ من أجسادهنّ ما أمر الله بستره، مما هو مُجمَعٌ على ستره عند فقهاء المسلمين وعلمائهم، على اختلاف مذاهبهم، وكممارسة المعاملات الربوية

وأصنام بصورة علنية ظاهرة في الطرقات، والسُّبُل، والأسواق، والمواطن العامة التي يرتادها الجميع.

فإذا وقع شيءٌ من ذلك داخل المجتمع الإسلامي من المسلمين كان على جماعة المسلمين بدءاً برئيسهم الأعلى فمن دونه أن يتخذوا مختلف الوسائل تدرجاً من الأخف إلى الخفيف فالشديد فالأشد لإزالة المنكر وتغييره، وإعادة المجتمع الإسلامي إلى سلامته وصحته الدينية فيما يظهر من سلوك المسلمين بوجه عام.

وعلى المسلمين دوماً اتّخاذ الوسائل التعليمية والتربوية والتذكيرية، لحماية المجتمع الإسلامي من الوقوع في المنكرات.

ولحماية المجتمع الإسلامي من الوقوع في المنكرات، ولتغيير الواقع وإصلاح الفساد بعد وقوعها أو وقوع شيء منها، وسائل كثيرة، منها الوسائل التالية:

١ - دوام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سبيل التذكير المستمر، ولو لم يُوجد مُنكراً ظاهر الوقوع.

٢ - إقامة أجهزة المراقبة المستمرة، والحراسة الدائمة، التي تملك القدرة على المنع والرّدع والقّمع، وهو ما يُسمّى بنظام «الحسبة» والموظف في جهاز الحسبة يُسمّى «المُحتسب».

٣ - الضّغط الاجتماعي الذي يكون فيه المسلمون بعضهم على بعض رقباء، إذ يكون كلُّ مُسلم في موقعه خفياً مراقباً ناقداً داعياً إلى الخير، أمراً بالمعروف إذا وجدته متروكاً، ناهياً عن المنكر إذا وجدته مفعولاً.

٤ - إصدار ذوي السلطة الإدارية القوانين والمراسيم والقرارات الكفيلة

بحماية المجتمع المسلم من المنكرات .

٥ - إقامة الحدود والعقوبات والتعزيرات الشرعية بالحق والعدل،
ضمن أحكام قضائية إسلامية عادلة .

٦ - تأديب العُصاة بالعزل الاجتماعي إذا لم تكن لمعاصيهم حدود أو
عقوبات تعزيرية مُقرّة .

٧ - المبادرة إلى إزالة المنكر مع أوائل ظهوره قبل أن يستقرّ أو يتفشى
ويستفحل خطره .

ويكون هذا عن طريق أولياء الأسر في البيوت، وعن طريق أهل الحلّ
والعقد المأذونين في المواطن الصغرى، وعن طريق أجهزة الدولة المسلمة
وقواتها المسلّحة، إذا كان الأمر أكبر من قدرات أهل الحلّ والعقد المحليين .

٨ - العمل على إزالة المنكر المستفحل بسلطان الدولة المسلمة،
وقواتها المسلّحة، مع مناصرة جماهير المسلمين، ولا سيما أهل الحلّ
والعقد منهم .

وفي الفقرات التالية نظراتٌ تفصيليّةٌ لبعض هذه الوسائل، ممّا له
ارتباط بمهمات رسالة النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
وتغيير المنكر الذي يُطلَبُ من أفراد المسلمين .

* * *

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من سمات الأمة الإسلامية دواماً وبصورة عامة أفراداً وجماعات، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لحماية المجتمع الإسلامي من الانهيار والفساد العام، ولمتابعته بالتقويم والإصلاح.

فإذا تهاونت الأمة الإسلامية بهذا الواجب، ضَعُفَتْ، وأنهارَ بناؤها، وتفرقت كلمتها، وطمعَ بها أعداؤها، وذهبت دولتها، وتشتت جماعاتها، وصارت أكثرياتها أقلّيات في مواطنها وبلدانها.

وقد أولى الله عزّ وجلّ هذا الوصف من أوصاف الأمة الإسلامية عنايةً عظيمة في كتابه المجيد، باعتباره عماداً عظيماً من أعمدة بُنيان الأمة الإسلامية، وبقاء دولتهم عظيمةً مَجيدةً قويّةً متماسكةً متينةً.

● إنه منذ أن صار للمسلمين في المدينة مجتمعٌ متماسكٌ ذو قُوّةٍ ودَوَلَةٍ، وقامتَ بينهم وبين عدوّهم الأوّلِ وهم كُفّار قريش في مكة حروبٌ وصراعاتٌ أهمّها غزوة بدر الكبرى وغزوة أُحد. فأكدت هذه الحروب قيام دولتهم المتماسكة، أنزل الله عزّ وجل في سورة (أل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) - ثالث سورة مدنية - الأمر الموجه لهم، بأن يكونوا أُمَّةً يدعون إلى الخير، ويأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال تعالى فيها:

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ: أي: يدعون غير المسلمين إلى عموم الخير الذي تُدْرِكُهُ العقول والنفوس، والبعيدين عن فعل الخير من المسلمين إلحاقاً بغير المسلمين.

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ: هذه الوظيفة يقومون بها بين المسلمين، لأنهم الذين تعلموا من الإسلام ما هو المعروف وما هو المنكر شرعاً، فكلُّ أمرٍ بفعل واجب شرعاً أمرٌ بمعروف، وكلُّ نهي عن فعلٍ مُحَرَّمٍ شرعاً، نهي عن منكر.

وأولئك هم المفلحون: وأولئك ذوو المنزلة الرفيعة عند الله الذين يقومون بوظيفتي الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هم المفلحون، أي: الظافرون بما يريدون، والفايزون عند الله بالنعيم المقيم والسعادة الخالدة.

● وأتبع الله عز وجل هذا الأمر التكليفي بالثناء على أصحاب محمد ﷺ، بأنهم خير أمة أخرجت للناس تحملاً رسالة الدعوة إلى دين الله الإسلام، والجهاد في سبيله، وبأنهم يأمرُونَ بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، وينسحبُ هذا الثناء على كلِّ من يحمل هذه الرسالة بصدقٍ مبتغياً رضوان الله والدار الآخرة، من أمة مُحَمَّدٍ إلى أن تقوم الساعة، فقال الله بعد خمس آياتٍ من سورة (آل عمران) نفسها:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴾ (١١٣)

أي: تواظبون على تأدية وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المجتمع الإسلامي، وتجددُونَ إيمانكم بالله مع كلِّ عبادة من عباداتكم، ومع كل حركة من حركات حياتكم، ومع كل تغييرٍ من تصاريف

مقادير الله فيكم مما تُحبُّونَ أو تكرهون .

● ثم وصف الله عزَّ وجلَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ التي يُؤيِّدها بنصره على أعدائها في معارك قتالية، لِيُمْكِنَ لها دَوْلَتها في الأرض، بأنَّها أُمَّةٌ تقيم الصلاة، وتؤتي الزَّكاةَ، وتؤدِّي باستمرار وظيفة الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحج/ ٢٢/ مصحف/ ١٠٣) وهي السورة (١٧) من التنزيل المدني:

﴿وَلْيَنْصُرِكُ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ إِن مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١٣﴾﴾ .

فدلَّ هذا النص على أن شرط بقاء التمكين لدولتهم في الأرض، أن يُحافظوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والقيام بوظيفة الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا أخلُّوا بهذه الشروط تركهم الله لأنفسهم ووسائلهم، ولم يؤيدهم بمعونات غيبية تكفل لهم إعادة دولتهم إذا ذهبت، أو التمكين لها إذا كانت قائمة .

● وأخيراً أنزل الله عزَّ وجلَّ في أواخر العهد المدني آيةً وصَفَ بها المؤمنين والمؤمنات بأنَّ بعضهم أولياء بعض، أي: ينصُر بعضهم بعضاً على أنفسهم، فهم بمقتضى هذه المناصرة يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف، وينهى بعضهم بعضاً عن المنكر مع مواظبتهم على إقامة الصلاة المفروضة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله في أمور حياتهم، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩/ مصحف/ ١١٣/ نزول) آخر سورة نزلت قبل سورة النصر التي كانت ختام تنزيل السُّور:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

دلّ هذا النصُّ على الرقابة والمتابعة من المؤمنين بعضهم لبعض، وهي
تولد ضغطاً اجتماعياً على كلِّ فردٍ في المجتمع الإسلامي يحميه من أن ينزلق
إلى ارتكاب المنكرات.

والمؤمنون المحافظون على هذه الأوصاف المذكورة في هذا النصِّ هم
الذين يظفرون يوم الدين بمساكن طيبةٍ في جناتِ عَدْنٍ، ويظفرون برضوان
من الله أكبرَ من كلِّ ما في جناتِ عَدْنٍ، بسبب السعادة التي يُفَرِّغُهَا اللهُ عليهم
إذ يقول لهم: اليوم أُفْرِغُ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

إنَّ هذه النصوص دلّت على أنّ وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر، وظيفةٌ دائمة العمل والعطاء، تذكيراً بالمعروف وأنَّ الله قد أمرَ به،
وتذكيراً بالمنكر وأنَّ الله قد نهى عنه، ولا يرتبط عملها بترك المعروف حتّى
يُوجَّه الأمرُ لفعله، أو بفعل المنكر حتّى يوجَّه النهيُ لتركه.

* * *

تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر

من الوسائل لتغيير المنكر تأديب العصاة بهجرهم ومقاطعتهم اجتماعياً، وعزْلهم عن المؤاكلة والمشاركة والمجالسة والمؤانسة بالأحاديث، حينما تكون الكثرة هي الكثرة الصالحة، التي يُؤثّر هجرها وعزْلها للعاصي على نفسه، فتجعلهُ يتوب، ويرجع إلى الرشد والاستقامة حرصاً على رضا الكثرة الاجتماعية له، وهرباً من أن يجد نفسه مهجوراً معزولاً منبوذاً.

أما إذا كانت الكثرة في المجتمع هي الكثرة الفاسدة المرتكبة للمعاصي، فإن المسلم المستقيم فيهم هو الذي يعيش بالعزلة عنهم، إذا هَجَرَهُمْ وقاطَعَهُمْ، ومن الخير له أن يُخالطهم ويضبرَ على نُصِحِهِمْ وإرشادهم وأمرِهِمْ بالمعروف ونهيهم عن المنكر، دون أن يتَرَكَ هذه الوظيفة، فإذا لم يستطع الصَّبْرَ على هذا، ولم يَسْتَجِبْ له العُصاة أو فريقٌ منهم، فمن الخير له أن يَهْجُرَهُمْ ويعتزلهم، لئلا يتأثر بهم هو أو أهله السائرون على نَهْجِهِ المستقيم.

دلّ على هذه الوسيلة ما رواه الترمذي وأبو داود بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ

وَهُوَ عَلَىٰ حَالِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ (١) :

﴿ لِعِبَادِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْرَمِ فَعْلُوهُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ . (المائدة/ ٥ / مصحف/ ١١٢ / نزول).

ثم قال: «كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذْنَ عَلَىٰ يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ لِيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» (٢).

لتأطرنه: أي: لتعطينه كما يُننى الشيء حتى يصير إطاراً مَدَوْرًا.

ولتقصرنه على الحق: أي: ولتلمننه طريقة الحق والعمل به.

فدلَّ هذا الحديث على أن من السياسة الحكيمة للمجتمع الإسلامي، أن يَضْعَطَّ على العصاة فيه بالهجر والمقاطعة والعزل الاجتماعي.

ودلَّ قول الرسول ﷺ فيه: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ...» على أن هذه الوسيلة تنفع حينما يكون المجتمع بأكثرية أكثرية صالحة مستقيمة، والمهجور المعزول فيه يجد نفسه مَبْذُورًا من مجتمعه. فَيَحَاوِلُ إصلاح نفسه، وتزكَّ معصيته.

(١) دلَّ استشهاد الرسول ﷺ بهذه الآيات من سورة (المائدة) على أنه قاله في أواخر العهد المدني، لأن هذه السورة من أواخر التنزيل القرآني.

(٢) انظر شرح هذا الحديث في كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف: الحديث التاسع.

وهذا لا ينطبق على مجتمع تكون الاكثريّة فيه هي الاكثريّة العاصية الفاسدة .

ودلّ على هذه الوسيلة أمرُ الرسول ﷺ بمقاطعة الثلاثة الذين خُلِفوا عن الخروج مع المسلمين لغزوة تبوك، دون أن يكون لهم عُذْر، واعتَرَفُوا بأنَّهُمْ لم يَكُنْ لهم عُذْرٌ في التخلّف إلاّ التباطؤُ والكسلُ، وأيثار الراحة والظلّ والماء والتمر .

واستمرّت مقاطعتُهُمْ حتّى أنزل الله عزّ وجلّ تَوْبَتَهُمْ في آيَاتٍ من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

وَلَهُمْ قِصَّةٌ مِّثْرَةٌ هِيَ مِنْ رَوَائِعِ الْقِصَصِ (١) .

وهذا الهجر والمقاطعة والعزل الاجتماعي قد يكون من أولياء الأسرة لبعض أفرادها المذنبين، بشرط أن لا يدفع بالمذنب إلى اتخاذ رفاقٍ من الأشرار . وقد يكون داخل جماعة لهم إمامٌ عالمٌ مُلتَفُونٌ حَوْلَهُ، ولا سيما إذا كان التقاؤهم داخل مدرسةٍ داخليةٍ، وكان المذنب حريصاً على رضی إخوانه وشيخه . وقد يكون في منظمة يُهْمُ كُلُّ فَرْدٍ فيها أن تكونَ علاقتهُ حسنةً معَ رئيسها وسائر أعضائها .

وقد يكون داخلَ قريةٍ صَغِيرَةٍ يُشارُ إلى كُلِّ فَرْدٍ فيها بالبَنانِ، ويصعُبُ على الفرد العاصي فيها أن يكون مهجوراً مَنبُوداً .

أما في المُدُنِ الكُبْرَى فَمِنَ العسيرِ اتّخاذ هذه الوسيلة، وربما يَدْفَعُ اتّخاذها المذنب للانضمام إلى فئات العصاة والمجرمين، ويكون السَّجْنُ الإصلاحيُّ أفضلَ منها .

* * *

(١) انظر تفصيلها وشرح نصوصها في كتاب «ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ» ج ٢ من ص ٤٤٦ - ٤٥٥ للمؤلف .

الراعي داخل الأسرة ومسؤولياته

لكل راعٍ داخل أسرته الخاصّة ولايةٌ تجعله مسؤولاً فيها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دوماً، ومسؤولاً عن إنكار المنكر الذي يفعله أحد الداخلين في رعيته، ومسؤولاً عن تغيير المنكر ولو بيده، إذا لم يترتب على تغييره منكر أشدّ وأعظم.

روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وخاطبَ الله عز وجلّ المؤمنين المسلمين بأن يَقُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ عَذَابَ النَّارِ، وَلَا تَكُونُوا قَائِلِيَهُمْ لِأَهْلِيهِمْ ذَاتَ آثَرٍ، مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهِمْ وَلايَةٌ تَسْمَحُ لَهُمْ بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ، فَوْقَ الْوِظِيْفَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤَدُّوْهَا

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعليماً وتنبهاً وتذكيراً، فقال الله عز وجل
في سورة (التحریم/ ٦٦/ مصحف/ ١٠٧ نزول):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ
غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٦﴾ .

* * *

المنكرات من الأحاديث الكفرية في مجالس الكافرين

أمر الله عز وجل كلُّ مؤمنٍ أمراً إفرادياً بأن يُعرض عن الذين يخوضون في آيات الله بأحاديث كُفْرٍ أو تشكيكٍ أو طعنٍ أو تشويهٍ أو نحو ذلك، إذا لم يستطع أن يُعارض ويُقاومَ ويُسكِّتَ الخائضين، ويمنعَ مُنكراتِ أقوالِهِم، والمراد من الإعراض مفارقة المجلس وعدم القعود مع الخائضين.

وألزمه بأن يظلَّ مستمراً في الإعراض الاستنكاري عنهم، المشعر بموقفه الراضٍ لما يقولون، ولما يتحدّثون به، حتّى يخوضوا في حديثٍ غيره لا يتعلّق بمسائل الدين وآيات الله التي يكفرون بها تكديباً للرسول ويستهزئون بما جاء فيها للصدّ عن الإسلام.

فإذا أنساه الشيطان أن يتخذ هذا الأسلوب الإعراضى الاستنكاري وهو عاجزٌ عن المعارضة والمقاومة، فاستمع دُون إنكارٍ ولا إعراض بمفارقة مجلس الخائضين، فعليه متى صَحَا وتذكَّر ما يجب عليه أن لا يجلس مرّةً أُخرى في مجلسٍ يجري فيه خوضٌ كُفْرِيٌّ أو استهزائيٌّ بآيات الله ابتداءً.

قال الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهي من التنزيل المكيّ حينما كان المؤمنون المسلمون مستضعفين في مكة وكان المشركون يخوضون في آيات الله كُفْراً واستهزاءً بها في مجالسهم؛ خطاباً لكل مؤمن مسلم على سبيل الخطاب الإفراديّ:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ .

أي: لإثبات الموقف الإيماني الصُّلب، لعل الخائضين في آيات الله يتذكروا منهم متذكرون فيتقون الله فيؤمنون، متأثرين بموقف المؤمن الثابت على إيمانه المناصر لفضيسته التي يؤمن بها.

ولما وجد في العهد المدنيّ مُتَسَبِّبُونَ إِلَى الإسلام مُتَأَفِّقُونَ، يجالسون الكافرين، وَيَسْتَمِعُونَ مِنْهُمْ كُفْرِيَّاتٍ واستهزاءاتِ بآياتِ الله، وشتائم يوجهونها للرسول وللكتاب المنزل عليه، أنزل الله عز وجل قوله في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوكَ عِنْدَهُمُ الْعُرَّةَ فَإِنَّ الْعُرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٢٨﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

فجاءت الإحالة في هذا النص من سورة (النساء) المدنية على النص السابق من سورة (الأنعام) المكية.

وأبان ما جاء في النص المدنيّ، أن المراد بالإعراض من النصّ المكي مفارقة المجلس، وعدم القعود مع الذين يخوضون في آيات الله كفرًا واستهزاءً بها.

* * *

المنكرات ذات الخطر العام

حينما تكون المنكرات مما له حَظَرٌ على المجتمع الإسلامي كُله في بلدٍ من البلدان، أو مجتمع من المجتمعات العامة، كخطر خرقِ السفينة من قِبَلِ بَعْضِ رُكَّابِهَا على سائرِ رُكَّابِهَا، إِذْ يُعَرِّضُهُمْ لِلْفِرَاقِ وَالهِلاكِ، فَإِنَّ على أَهْلِ العَقْلِ والرُّشْدِ والاستقامة أَنْ يَتَكْتَلُوا جَمِيعاً، وَيُنْكِرُوا على مَرْتَكِبِي المنكرِ إنكاراً جَماعياً بِالبيانِ اللِّسَانِيِّ أَوَّلاً، فَإِذَا أَصْرُوا أَنْكَرُوا عَلَيْهِم بما هو أَشَدُّ، فَإِنَّ تَهَاوَنَ أُولُوا الأَمْرِ الإِدَارِيِّ وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ أَخَذُوا على أَيِّدِي فاعلي المنكرِ بالقُوَّةِ، إِذا كانت لديهم القُوَّةُ القادرة على ذلك .

وإِلَّا جَافَوْهُم، وقاطعوهم، وهجروهم، واعتزلوهم معلنين سخطهم، وتَبَرَّؤوا من منكراتهم تُجَاهَ رَبِّهِمْ، وتُجَاهَ الناسِ أَجمَعين .

هذا ما نفهمه من الحديث الذي رواه البخاري عَنِ النعمانِ بْنِ بَشِيرٍ

رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال :

«مَثَلُ القَائِمِ على حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسفَلَهَا، فَكانَ الَّذِينَ فِي أَسفَلِهَا إِذا اسْتَقْفُوا مِنَ المَاءِ مَرُّوا على مَنْ فَوْقَهُمْ، فقالوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً

وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَيِ
أَيْدِيهِمْ، نَجَّوْا وَنَجَّوْا جَمِيعاً» .

القائم على حدود الله : الواقف عندها لا يتعداها بمخالفة ومعصية .

والواقع فيها : العاصي المتجاوز حدود الله .

استهّموا : اقترعوا على الأمكنة في السفينة .

* * *

المنكرات الفردية التي لا تُشكّل خطراً عاماً على المسلمين

حينما تكون المنكرات مما ليس له خَطَرٌ عامٌّ على جماعة المسلمين، بسبب كونها من الحالات الفردية الخاصة، والفلتات التي لا تشكّل ظاهرة ذات انتشارٍ وعُدْوَى، فمعالجتها تكون بما يلي:

١ - يُتَّخَذُ في معالجتها أولاً لإزالتها، وإصلاح حال مرتكبها، الإنكارُ اللساني، بالنُّصْحِ والإرشاد في السِّرِّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الرِّفْقِ والتَّلَطُّفِ.

٢ - مُتَّابِعَةُ تَكَرُّرِ النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ وَالْإِنْكَارِ مع رَفْعِ دَرَجَةِ التَّوَجِيهِ بِشِدَّةٍ، والتخويف من عذاب الله، ومن السُّقُوطِ من أَعْيُنِ النَّاسِ في المجتمع الإسلامي.

٣ - ثم يُعَالَجُ بالمقاطعة والهَجْر، كما سبق بيانه في فقرة «تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر».

٤ - ومن كان له سلطةُ التغيير باليد، كوليِّ أُسْرَةٍ، ومدير مدرسة، وشيخِ حَلْقَةٍ له سُلْطَتُهُ واحترامه بين طلابه، وذو وجاهة له احترامُه في قَرْيَةٍ صغيرة، أو حيٍّ، أو قبيلة، أو مَعْمَلٍ، وذو رياسة في مؤسسة؛ فإن له بعد اتِّخَاذِ الخطوات السابقة أن يمارس التغيير بيده، وتقدَّرُ ظروفُ كُلِّ حالة

بقدرها، وبحسب حاجتها إلى العَجَلَة، أو احتمالها التريث والأناة وسعة الصَّدْر.

٥- وما لا يتحمل الأناة ولا التريث كجريمة القتل أو الاغتصاب للزنى، فيجب فيه التدارك السريع واستخدام التغيير باليد قبل وقوع الجريمة، بقدر الاستطاعة ممن يستطيع ذلك.

* * *

إنكار المنكر بالقلب واللسان وضوابط التغيير باليد

١ - أهُمُّ ما ورد من النصوص:

● روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

أي: فإن لم يستطع فليُنكِرْ بلسانه، فإن لم يستطع فليُنكِرْ بقلبه.

هذا الحديث يدلُّ على الحالة القصوى التي قد يصلُ إليها المترقي في إنكار المنكر.

فمن الطبيعي أن يبدأ الإنكار بالقلب في نفس المنكر له.

وبعد الإنكار القلبي يتوجَّه المنكرُ للإنكار باللسان نُضحاً وإرشاداً وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وهذا ما كان يفعله الرسول ﷺ في حياته.

فقد مدَّ يدهُ إلى صُبرةِ طَعَامٍ في السُّوقِ، فأصابت يدهُ بِلَلَا، فقال: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟».

قال: أصابته السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فقال له: «أفلا جعلتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ؟! مَنْ عَشْنَا فَلَيْسَ مِنَّا» رواه مُسْلِمٌ عن أبي هريرة.

فلم يبدأ ﷺ بتغيير المنكر بيده.

وكذلك فعَلَ حينما نزل تحريم الخمر، أمرَ بلسانه أن تُراقِ الخُمور، ثُمَّ بَعَثَ مَنْ يُرِيقُ بِالْيَدِ الخمر التي لم يُبَادِرْ أصحابُها إراقَتَها استجابةً لأمر الرسول ﷺ.

فبعد الإنكار باللسان يمكن أن يرتقي المنكرُ إلى تغيير المنكر باليد، إذا لم تُجدِ وسيلةَ اللسان.

إنه لا يَصِحُّ بالبدية العقلية الارتقاء إلى التغيير باليد، إذا أمكن التغيير للمنكر بوسيلة اللسان، وهذه هي سنَّةُ الله في تربية عباده، وكذلك كانت سنَّةُ الرَسُولِ ﷺ في ممارساته التطبيقية لإنكار المنكر.

أما إذا لم يَحْضُرِ التغييرُ بوسيلة اللسان، وأمكنَ تغيير المنكر باليد، دون أن ينجم عن ذلك مُنْكَرٌ أشدُّ منه، فالتغيير باليد حينئذٍ وسيلةٌ مشروعة.

● وروى مُسْلِمٌ عن أم سلمةَ أم المؤمنين رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال:

«إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمْرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِيَءٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ».

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَقَاتِلُهُمْ؟

قال: «لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ».

أي: من كرهه بقلبه ولم يستطع إنكاراً بيده ولا بلسانه، فقد برىء من الإثم، وأدَّى وظيفته، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سَلِمَ، ودلَّ هذا الحديث

على أَنَّ السلامة أعلى درجة من مجرد البراءة، فالْبُرْءُ خلاصٌ من مرض،
والسَّلَامَةُ حمايةٌ من الوقوع في المرضِ أصلاً.

ولِكنَّ مَنْ رَضِيَ بِفِعْلِهِمْ وَتَابَعَهُمْ فَهُوَ العاصي المشاركُ لَهُمْ في آثامهم
ومنكراتهم.

* * *

٢ - شروط العمل على تغيير المنكر:

من المفهومات الإسلامية العامة الأصول، نستطيع أن نستخلص أربعة
شروط لتغيير المنكر باليد:

الشرط الأول: أن يكون المنكر محلَّ اتفاقٍ بين الأئمة المشهود لهم
بأهلية الاجتهاد، على أنه من المنكرات المحرمة في الشرع، فعلاً أو تركاً.

ويُلحَقُ بالمنكر ما كان سبباً حتمياً لوقوع المنكر، أو إشاعته في
المسلمين.

الشرط الثاني: أن يكون فاعل المنكر عالماً بحرمة، مجاهرأ به، أما
الجاهل، فينبغي تعريفه أولاً حُكْمَ الشرع به، ثم يُطالبُ بأن يُعَيِّرَهُ بنفسه مع
الرَّفْقِ به، فإن لم يستجب وهو من المسلمين، جاز الانتقالُ معه إلى الأشد
إذا كانت حالته تتحمَّل ذلك.

وينبغي الرَّفْقُ الكثيرُ بالَّذين يكونُ إسلامُهُم حديثاً، وعاداتُهُم في
ممارسة المنكرات قبل الإسلام متأصلةً في سلوكهم، ومن الصَّعب عليهم
مفارقتها وتركها حتَّى تمرَّ عليهم مدَّةٌ يستطيعون خلالها التخلُّصَ من عاداتِهِم
السابقات.

وفي كلِّ الأحوال يَجِبُ البَدْءُ بمطالبة فاعل المنكر بأن يُقْلِعَ عنه،
وَيُعَيِّرَهُ بِنَفْسِهِ، قبل محاولة تغييره بيد المُنْكَرِ المصلِح.

الشرط الثالث: أن يكون المنكرُ أمراً واقعاً مشهوداً فعلاً، لا أمراً مظنوناً، أو أمراً لم يصلِ بَعْدُ إلى أن يكون حَدَثاً واقعاً بالفعل، أو أمراً مستوراً بعيداً عن أنظار المراقبين، يَفَعَلُهُ أصحابه داخل منازلهم وبيوتهم، ولا يُجَاهرون به، ولا يُعْلَمُونَ أحداً به.

فقد نهى رسول الله ﷺ عن تتبع عورات المسلمين التي يستترون بها، ونهى عن التجسس وعن التجسس.

فلا يجوز التجسس على الناس وهم داخل بيوتهم، باستثناء الأمور العظمى التي تُضِرُّ بمصالح المسلمين العامة، كتأمير بخيانة مع أعداء الإسلام والمسلمين، وانكشف أمرها بخبر صادق، وكتدبير جريمة قتل لا يُتَدَارَكُ وَقُوعُهَا إِلَّا بِمِدَاهَمَةِ المجرمين وهم داخل بيوتهم، وانكشف أمرها بخبر صادق أو أمارات وعلامات ظاهرات الدلالة.

فيجوز لأولياء الأمور والحالة هذه أن يدهموا البيوت للقبض على المجرمين والخائنين، وتدارك الجرائم قبل وقوعها، إذا كان العلم بالتخطيط لها قد بلغ مبلغ اليقين أو القريب من اليقين.

الشرط الرابع: أن لا يترتب على السعي لتغيير المنكر وقوع منكر مماثل أو أشد من المنكر المطلوب إزالته وتغييره.

* * *

٣- من المسؤول عن تغيير المنكر باليد:

إن تغيير المنكر باليد من وظائف ذوي الولايات من المسلمين.

● أما الإمام العام فله أن يغير بيده، أو بأيدي جنوده كل منكر ظاهر في المجتمع الإسلامي، متى تحققت الشروط العامة لممارسة التغيير باليد.

ومثل الإمام نوابه ووكلاؤه، فكل واحد منهم أن يغير المنكر بنفسه،

أو بأيدي جنوده، ضمن حدود دائرة ولايته .

● وكلُّ من له بإذن الإمام سلطةٌ ولاية، ضمن حدود دائرة خاصة، كمدير دائرة، أو مدير مدرسة، أو مدير مؤسسة عامة أو خاصة، فله حقّ تغيير المنكر بيده، أو بأيدي أعوانه وأنصاره وجنوده، إذا كان تغيير المنكرات من الصلاحيات الممنوحة له بإذن الإمام .

● وكلُّ ذي رعاية عامة أو خاصة في أسرته له حقّ تغيير المنكر بيده، إذا فعله بعض مَنْ له عليهم حقّ الرعاية شرعاً داخل أسرته .

فإذا جَلَبَتِ الزَّوْجَةُ مثلاً وثناً، ووضَعَتْهُ في بيتها، وراه الزوج، فإنه يأمرها أولاً بإزالته، ويبين لها أنّ هذا حرام لا يجوز في الإسلام، وأنّ من حقّه شرعاً أن يزيله بيده، فإن لم تَفْعَلْ وَأَصْرَتْ على إبقائه كان عليه أن يزيله بيده، رَضِيَتْ أم سَخِطَتْ، لأنّ له عليها حقّ الولاية بحكم القوامة التي منحها الله للزوج .

والأمُّ إذا شهدت بعضَ أبنائها قد جلب إلى بيتها منكراً من المنكرات، أبانت له أولاً أنّ هذا مُنْكَرٌ شرعاً، وأنّ عليه أن يزيله، فإذا لم يُزِلْهُ وَأَصْرََّ على إبقائه أزالته هي بيدها، بمقتضى كونها راعيةً على بيتِ زوجها وولده .

على أن التغيير باليد في كلِّ الأحوال إنما يكون بعد الإنكار بالقلب وباللسان .

* * *

٤ - إنكار المنكر باللسان :

دلّ حديث أبي سعيد الخدري على أنّ كلَّ مُسْلِمٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكَرَ المنكرَ بلسانه، فواجب عليه أن يوجّه كلاماً ينصّح به، أو يأمر به وينهى، صغيراً كان أو كبيراً، عظيماً في قومه أو ضعيفاً .

فعبارة: «فإن لم يستطع فبلسانه» هي على تقدير فليُنكِرهُ بلسانه، وليست على تقدير: فليُغيَرهُ بلسانه، إذ ليس من وظيفة اللسان التغيير، وإنما وظيفته الإنكار، وربما أثار الإنكارُ فحصل التغييرُ من قبل فاعل المنكر نفسه. ومثل هذا التقدير معروف في أسلوب البيان العربي، ومنه قول الشاعر:

وَرَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونََا

أي: وزججنا الحواجب وكحلن العيون، لأن العيون لا تزجج، إنما تكحل.

تزجج الحواجب: هو جعلها بأعمال التزيين دقيقة طويلة مقوَّسة.

وضمن واجب إنكار المنكر يستطيع أحاد الناس أن يوجَّه كلاماً فيه رفق وتكريم واحترام بموعظة، أو نضح، أو أمرٍ بمعروف، أو نهى عن منكر، لإمام المسلمين، ورئيسهم الأعلى، وليس هو مسؤولاً عن التغيير الفعلي، وقد يكون كلامه سبباً في تغيير المنكر.

ولا يُعذَّرُ في هذا إلا عاجزٌ عن البيان، أو مستغنٌ ببيان غيره مع تأييده هو له، أو خائف من سلطانٍ جائر أن يسطوَّ عليه، ويُنزَلَ به بلاءً وشرًّا إذا نصَّحهُ، أو أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، مهما تلطَّف في مقاله الذي يوجَّه له.

والإنكار باللسان ينبغي أن يكون مسبوقاً بالإنكار بالقلب، وإلا كان من قبيل التظاهر ومراءات الناس، ليقال: شجاعٌ جرىء في الحق.

* * *

٥ - إنكار المنكر بالقلب:

أما إنكار المنكر بالقلب، مع مفارقة المكان الذي فيه المنكر إذا كانت

المفارقة مُسْتَطَاعَةٌ، فهو واجبٌ كلُّ مؤمنٍ مُسْلِمٍ، مهما كان إيمانهُ ضعيفاً الأثر في السلوك .

وإذا عجز المنكِرُ بقلبه عن مفارقة مجلس المنكر لسبب من الأسباب، فإنَّ عليه أن يشغَلَ قلبه بالاشمئزاز والكراهية، وسؤالِ اللَّهِ أن يُعِينَهُ على مفارقة المجلس، وعلى الإنكار بلسانه .

فحركة الإنكار القَلْبِي المصحوب بالكراهية والامتعاض والاشمئزاز وترقُّبِ الفرصَةِ الملائمة لمفارقة المجلس، يَمْلِكُهَا كُلُّ إنسان .

ولهذا كان الإنكار بالقلب أضعف الإيمان .

وعبارة: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ...» في الحديثِ، هي عَلَى تَقْدِيرِ: فَلْيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِمَا يَمْلِكُ فِي قَلْبِهِ مِنْ كِرَاهِيَةٍ وَاشْمِئزَازٍ، وقولِ في نفسه: اللَّهُمَّ هَذَا مُنْكَرٌ لَا أَرْضَى بِهِ، مع ترقُّبِ الفرصَةِ لمفارقة المجلس، إذا لم يستطع أن يُعَبِّرَ بمفارقته الفعلية عن إنكاره .

البَابُ الحَامِسُ

نَمَازِجُ تَطْبِيقِيَّة

مِنْ هَدْيِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَام

وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرَبِهِمْ

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: صور من سياسة الرُّسُلِ في أدائهم رسالات ربِّهم.

الفصل الثاني: نماذج دُعاةٍ من غير الرُّسُلِ عرض القرآن الكريم دعوتهم

ونصرتهم لدينه.

الفصل الثالث: نماذج من وصايا الآباء للأبناء.

الفصل الرابع: صورٌ ونماذج عامة.

الفصل الأول

صُورٌ من سياسية الرُّسل عليهم السلام
في أدائهم رسالات ربّهم

- الصورة الأولى : لقطات من سياسة نوح عليه السلام .
- الصورة الثانية : لقطات من سياسة هود عليه السلام .
- الصورة الثالثة : لقطات من سياسة صالح عليه السلام .
- الصورة الرابعة : لقطات من سياسة إبراهيم عليه السلام .
- الصورة الخامسة : لقطات من سياسة شعيب عليه السلام .
- الصورة السادسة : لقطات من سياسة موسى عليه السلام .

الصورة الأولى
لقطات من سياسة نوح عليه السلام
في أدائه رسالات ربّه

من تتبّع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة نوح عليه السلام في أدائه رسالات ربّه، ظهرت لي ست فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع الاعتراضات التي وُجّهت له.

الفقرة الثالثة: سياسته في دفع الشتائم التي وُجّهت له.

الفقرة الرابعة: سياسته في مجادلته قومه.

الفقرة الخامسة: خطّته في الدعوة والتذكير على توالي الأيام ليلاً ونهاراً.

الفقرة السادسة: سياسته في مُقابل إيذاء وتهديد قومه له بالإخراج أو بالقتل.

وفيما يلي تفصيلُ هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول نوح عليه السلام وقومه:

* * *

الفقرة الأولى

سياسة نوح عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرّجيّ الحكيم على أنّ سياسة نوح عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وتتلخّص بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، مع التخويف من عذابه الأليم، والإشفاق منه على الذين يُوجّه لهم دعوته.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥١﴾ .

العنصر الثاني: ثم ارتقى نوح عليه السلام إلى أسلوب الإنذار المجزوم به، مع إعلان الإشفاق على قومه منه، رحمةً بهم، وحرصاً عليهم.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ .

العنصر الثالث: ثم ارتقى نوح عليه السلام إلى أسلوب التلويح برفق، مستخدماً التعبير بالاستفهام الذي يحمل معنى التلويح، ﴿أَفَلَا نُنْفِقُونَ؟﴾! أي: أفلاً تنفقون عذاب الله الذي حذرتكم منه وأذرتكم به.

دل على هذا العنصر قول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣) مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنفِقُونَ﴾ (٢٣).

العنصر الرابع: ثم ارتقى نوح عليه السلام إلى تأكيد توجيه التلويح بصيغة الاستفهام الإنكاري، مضافاً إليه تأكيد أنه رسول أمين، ومضافاً إليه أيضاً أمرهم بأن يتقوا عذاب الله، وبأن يطيعوه فيما يدعوهم إليه، مع تكرير هذين الأمرين إلحاحاً في الدعوة، مبيناً لهم أثناء ذلك أنه عليه السلام ما يسألهم من أجرٍ على ما يدعوهم إليه، أي: ليس له عندهم مصالح دنيوية يرجوها من دعوته لهم، ومبيناً لهم أن أجره على رب العالمين الذي أرسله وكلفه.

دل على هذا العنصر قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦) مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفِقُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٢﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٤﴾﴾.

العنصر الخامس: ثم ارتقى نوح عليه السلام إلى أسلوب جمع فيه الإنذار المؤكد المشدد، والأمر بعبادة الله، وبأن يتقوه، والأمر بأن يطيعوه فيما يدعوهم إليه، وأضاف إليها الوعد بأنهم إذا أطاعوه فإن الله يعفّر لهم

بعض ذنوبهم، ويؤخر إهلاكهم إلى آجالهم المقررة لكل واحد منهم، لكنهم إذا لم يطيعوه فإن الله سيُهْلِكُكُمْ إهلاكاً عاماً في أجلٍ يُحدِّدُه، فإذا جاء أجلُ إهلاكهم فإنَّهُ واقع بهم حينئذٍ حتماً، ولا يُمكنُ تأخيرُهُ.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَقِفْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

إنّ التهديد بعذاب أليم وإهلاكٍ شاملٍ للقوم في الحياة الدنيا يأتي في آخر المراحل الدّعوية، فإذا أصرّ القوم على عنادهم وكفّرهم وتحدّوا رسول ربّهم بأن يأتيهم بالعذاب المعجل، ووجّهوا له التّهديد بالإخراج أو بالقتل، لم يكن أمّام الرّسول إلّا أن ينتظر قضاء الله في القوم، وما يكلفه الله من جهادٍ قتالي إن أمكنه ذلك، أو هجرة إلى بلدٍ آخر، وقومٍ آخرين.

* * *

الفقرة الثانية

سياسة نوح عليه السلام في دفع الاعتراضات التي وجهت له

نجد في القرآن المجيد أن نوحاً عليه السلام قد وجه له قومه خمسة اعتراضات، فدفع كل اعتراضٍ منها بما تقتضيه الحكمة.

الاعتراض الأول: اعتراضهم على أنه بشرٌ مثلهم، زاعمين أن رسول الله ينبغي أن يكون ملكاً، ولا يصح أن يكون بشراً يأكل، ويشرب، ويتزوج، ويعمل الأعمال البشرية، ويحتاج الحاجات البشرية، كسائر الناس.

وكانت سياسة نوح عليه السلام في دفع هذا الاعتراض بيان أن البشرية لا تمنع من تلقى الوحي عن الله، فالله بقدرته وبحكمته وبعلمه بعباده يختص من يشاء من عباده، فيوحي إليه، ويكلفه حمل رسالة يُبلغها للناس، وليس هذا على الله بمستحيل ولا بمستنكر.

أما الاختيار الحكيم من وسائل تبليغ الناس دين الله لهم، مع تقديم القدوة الحسنة التي يتأسون بها، فهو يقضي بأن يُرسل الله إلى البشر رسولاً منهم، يتأسون به، ويتبعونه، ويهتدون بهديه.

دلّ على هذا الاعتراض ما يلي:

١ - قول الله عز وجلّ في معرض الحديث عن قصة نوح مع قومه في

سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِنَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا... ﴾

٢ - وقول الله عز وجل أيضاً في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في حكاية خطاب ملا قومهم لجماهيرهم:

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴾

ودلّ على دفع هذا الاعتراض .

قولُ الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لما دفع به نوح عليه السلام اعتراضهم:

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبُوتٍ مِّن رَّبِّيٰ وَأَنلَيْتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ... ﴾

أي: أتحجرون على الله ربي الذي هو ربكم ورب العالمين أن يختصني بأن يؤتيني رحمة من عنده، وهي التفضيل بالوحي إليّ، وتكليفني أن أحمل رسالة منه إليكم؟

والمعنى: ما هو المانع العقلي من هذا؟ وما هو الأمر المنافي للحكمة في هذا؟

أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّيٰ: أي: أفكرتُمْ في احتمال أن أكون على بيتة من ربي تشهد لي بأني صادق فيما أبلغ عنه؟ أفصدقونني؟ وفي هذا دفع لاتهامه بالتوهم أو الكذب، فالمعجزة حجة قاطعة، وآية دامغة، وينطوي في هذا البيان إثبات قدرة الله وحكمته في اصطفاء بشر بالوحي إليه.

وَأَنلَيْتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ: أي: وآتاني رحمة لكم من عنده، هي الدين وما فيه من تعليمات ووصايا تتضمن بيان سبيل سعادتكم ونجاتكم، وفي ذلك رحمة عظيمة لكم.

والمعنى: أفكرتُم في مضمون هذه الرسالة التي جئتكمُ بها، والتي هي
رحمةٌ عظيمةٌ لكم؟

ويظهر أنّ دَفَعَ نوح عليه السلام قد كان على مقدار الإشكالات
والشبهات الذهنية التي كانت لدى قومه، وهذا من السياسة الحكيمة في
الدعوة.

ونستفيد من هذا أنّه لا يَحْسُنُ في السياسة الدَّعَوِيَّةِ دَفْعُ شبهاتٍ
وأشكالاتٍ أُخْرَى لَمْ يَطْرَحْهَا المدْعُوْنَ في اعتراضاتهم أو جدليّاتهم، لأنّ
الغرض الوُصُولُ إلى الإقناع، لا إلى استقصاء الشبهات ودفعها.

* * *

الاعتراض الثاني: اعتراضهم على كون أتباعه قد كانوا أراذلَ قومه، مع
مطالبة ملاّ قومه له بأن يطْرُدَهُمْ عنه.

وكانت سياسة نوح عليه السلام في دفع هذا الاعتراض، تتلخّصُ ببيان
أنّ هؤلاء الذين تصفونهم بأنهم قد كانوا أراذل، هم مكلفون من قبل ربّهم أنّ
يؤمنوا ويعملوا صالحاً، وسيحاسبون عند ربّهم على ما كسبوا في رحلة الحياة
الدنيا، وسيجازون إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، وإني مُطالِبٌ من قِبَلِ رَبِّي
بدعوتهم وتبليغهم كسائر الناس، فما أنا بطاردهم وهم بشرٌ من البشر. وبيّان
إنّ الإيمانَ يَجِبُ ما قبله، فإن كانوا في سابق عهدهم قبل أن يؤمنوا بي
ويتبعوني أراذل في سلوكهم وقبائح أعمالهم، فقد تحوّلوا عن ذلك بالإيمان
والعمل الصالح، وغفر الله لهم ما كان منهم سابقاً، فصاروا الآن طاهرين،
ومن ذوي الاستقامة والعمل الصالح، فما تأثير علمي بما كانوا يعملون بعد
أن تاب الله عليهم؟ فلا أقول بشأنهم: لن يؤتِيهم اللّهُ خيراً، الله أعلم بما في
أنفسهم، إني إذاً لمن الظالمين.

دلّ على هذا الاعتراض ودفعه آيات قرآنيةٌ وردت أثناء عرض لقطاتٍ

من قصة نوح عليه السلام مع قومه في سورتين:

١ - قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَلَذَّةُ لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ تَأْتِيكُم مِّن لَّدُنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَنَّاتِهِمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَأَتَّعِيهِنَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ .

وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ: أي: وما تأثير علمي بما كانوا يعملون، في دعوة أمرني الله بأن أبلغها لقومي جميعاً.

إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي: أي: ما حسابهم إلا على ربي، فلست أنا الذي أتولى حسابهم.

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول)

يحكي مقالة قوم نوح له:

﴿ ... وَمَا نَزَّلَكَ آتِبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الرَّأْيِ ... ﴾ (٧)

بَادِي الرَّأْيِ: أي: عند بادي الرأي، وبادي الرأي هو ظاهر الرأي، أي: دون تعمقٍ وتبصُّرٍ ببواطن الأمور، من بدا يبدو إذا ظهر. وقوله تعالى فيها:

﴿ ... وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴿٢٠﴾ وَيَنْقَرُونَ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ إِن طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

وقوله تعالى فيها أيضاً:

﴿ ... وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿٢١﴾ وَإِنِّي إِذًا لَّيَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

أي: ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرهم أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إذا آمنوا وعملوا الصالحات.

ويا قوم من ينصُرني فيحمني ويقيني من عذاب الله إن طردتهم مخالفاً
ما أوجب الله علي من دعوتهم وإيوائهم والعطفِ عليهم.

* * *

الاعتراض الثالث: توهُم قومِ نوحِ أن طريقة دعوته المقرونة بالإندار
والوعيد فيها معنى الإلزام والإكراه، وهذا التوهُم يحرك في نفوسهم
اعتراضاً.

ويبدو أن هذا الاعتراض لم يُصرّحوا به لأن دعوة كلِّ رسولٍ دعوةٌ
تخيير لا دعوة إكراه وإجبار بالقوة، ونوحٌ عليه السلام لم يُعدَّ لإكراه قومه أيّ
قوة.

لكن نوحاً عليه السلام أدرك أنهم قد يتوهّمون من إنذاره ووعيده لهم
معنى الإلزام والإكراه، فقال لهم: أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟!

أي: فأنا والذين آمنوا بي لن نجبركم على الإيمان والإسلام إن كنتم
كارهين ذلك، إنّما ندعوكم ونبين لكم الحق، ونذكركم، ونُنذركم عذاب
ربكم.

دلّ على هذا الاعتراض الذي يبدو أنهم لم يُصرّحوا به، وعلى دفعه
بنفي الإلزام الجبري، قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١) مصحف/ ٥٢
نزول) يحكي مقالة قالها نوح عليه السلام لقومه:

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَهَآءِنِّي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِيتَ عَلَيْكُمُ
أَنْلِزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

فَعُمِيتَ عَلَيْكُمْ: أي: فَخَفِيتَ عَلَيْكُمْ والتبس أمرها عليكم.

أَنْلِزِمُكُمْوهَا: أي: أَنْكِرُهُكُمْ على الالتزام بها واتباع ما جاء فيها،

الضمير عائد على الرحمة، والمراد بها الرسالة التي يبلغها عن ربه.

* * *

الاعتراض الرابع: اعتراض قوم نوح عليه وعلى الذين آمنوا به وأتبعوه بأنهم ليسوا ذوي فضلٍ بمظاهر الحياة الدنيا على سائر قومهم، حتى يرشحهم هذا الفضل لأن يستجيبوا لدعوتهم، ويتبعوهم. وليسوا ذوي فضل بخوارق.

والفضل الذي يراه أهل الكفر فضلاً ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - أموالٌ وكنوزٌ ومُلْكٌ مؤيَّدٌ بقوى غيبية.

٢ - قُدْرَةٌ على معرفة الأمور الغيبية الماضية والحاضرة والآتية في المستقبل.

٣ - كون مُدَّعِي الرسالة مَلَكًا لا يَأْكُلُ ولا يَشْرَبُ ولا يتزوَّج النساء، ولا يَحْتَاجُ إلى ما يحتاج إليه البشر.

وقد دفع نوح عليه السلام هذا الاعتراض بالإشارة إلى أنه اعتراض ساقط، لا يصحُّ إيرادُه أصلاً، إذ لا يشترطُ فيمن يوحى إليه برسالة من ربه أن يتميَّز عن سائر البشر بهذا الفضل الذي توهموه، فليَّه أن يصطفي من عباده بحكمته من يشاء، فيوحي إليه، ويكلفه حمل رسالة لقومه من ربهم، وليس بين حمل رسالة عن الله وبين الأمور التي توهموها ارتباط عقلي حتى تكون شرطاً للنبوَّة والرسالة.

دلَّ على هذا الاعتراض مع الإشارة الضمنية إلى دفعه، قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لمقالة قالها نوحٌ عليه السلام لقومه:

﴿وَأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ...﴾

أي: إنني لا أدعي شيئاً من ذلك، بل أقول لكم إنَّ رَبِّي أَوْحَى إِلَيَّ
وحيًا، وحمَّلني رسالةً إلكيم، هي أن تعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً،
وأن تُسَلِّمُوا له، فإذا لم تستجيبوا فإنه هو الذي سَيُحَاسِبُكُمْ، وسيعاقبكم لا
أنا.

* * *

الفقرة الثالثة

سياسة نوح عليه السلام في دفع الشتائم التي وُجِّهَتْ له

تتلخص سياسة نوح عليه السلام في دفع الشتائم التي وُجِّهَتْ له بثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنه دفع عن نفسه ما اتَّهمه به قومه من ضلالة بمجرد النفي، مع بيان أنه رسولٌ من ربِّ العالمين، يبلغ عن ربِّه رسالاته، وينصح لقومه، ويبين لهم ما جاءه من العِلْم الذي لا يعلمونه.

ولم يستخدم عليه السلام أسلوب ردِّ الشتيمة بمثلها، فلم يَقُلْ للذين اتَّهموه بالضلالة: بل أنتم الضَّالون، أو نحوها من العبارات.

دل على هذا الأمر قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في مَعْرِض بيان لقطات من قصته مع قومه:

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّرُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

الأمر الثاني: أنه عليه السلام أَعْرَضَ عن دفع اتِّهام قومه له بالجنون، لأنَّ الاتِّهام بالجنون يتعلَّق بشخصه، ولا يتعلَّق بمضمون دعوته، فاكْتَفَى بالإعراض، على أن اتَّهامه بالجنون أمر تسقطه بياناته ومجادلاته لهم، التي

تدُّ على كمال عقله وعظيم فطنته، ولا يعدو أن يكون مجرد شتيمة ليسوا مُصدِّقين لها، ولا يقبلها منهم أحدٌ فلا يحسُنُ منه أن يدفعها عن نفسه ولو بمجرد النفي.

إن الشتائم التي لا تشتمل على اتِّهام يُمكن أن يكون مقبولاً في نفوس السامعين، مثلها كمثل عواء الكلاب، وهل يليقُ بالإنسان العاقل الرزين الدِّراك لحقائق الأمور أن يرُدَّ على العواء بمثله؟!

وقد دلَّ على هذا الأمر قولُ الله عزَّ وجلَّ بشأنه وشأن مقالة ملاً قومه عنه في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَتَّبِعُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

فعلى الدُّعاة أن يقتدوا بهذه السياسة الحكيمة في دفع الشتائم التي تُوجَّه لهم من الذين يُؤدِّون رسالة ربِّهم بينهم، وكذلك حَمَلَةُ رِسَالَةِ النَّصْح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك مُعَلِّمُو دِينِ اللَّهِ للناس.

الأمر الثالث: أنه عليه السلام دفع اتِّهام قومه بأنه يسعى بدعوته لتحقيق مصالح شخصية دُنْيوية في قومه، كَمَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ سُلْطَانٍ أَوْ مُلْكٍ أَوْ اسْتِمْتَاعِ بِشَهَوَاتٍ، بأنه لم يسألهم أجراً، ولا يسألهم أجراً، وَلَنْ يسألهم أجراً، والأجرُ يشمل الأجر المادي والأجر المعنوي، ولم يُبرِّء نفسه من رغبته في الأجر، إنما حَصَرَ ما يرغب فيه من أجرٍ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يتفضَّل الله به عليه يوم الدين، مع ما يَمْنَحُهُ من ثوابٍ دُنْيويٍّ معجَّل.

دل على هذا الأمر عدة نصوص قرآنية:

١ - قول الله عزَّ وجلَّ في مَعْرِضِ بَيَانِ لِقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ

السلام مع قومه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

٢ - وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَيَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ... ﴾ .

فذكر خصوص المال بعد أن ذكر عموم الأجر الشامل للأجر المالي والأجر المعنوي.

٣ - وقول الله عز وجل أيضاً في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١

نزول) في عرض لقطات من قصته مع قومه، وقوله لهم في مرحلة متأخرة من تاريخ دعوته:

﴿ فَإِنْ قِيلَ لِمَ لَمْ يَأْتِكُمْ مَائِدَاتُ الْآلِهَةِ فَمَا لَتُبْكِبُنَّهَا لِيَوْمٍ هُمْ فِيهَا مُخْتَلِفُونَ أَلْأَنْتُمْ أَوْلَىٰ بِالْحَيَاةِ مِنَ الْآلِهَةِ أَمْ أَنْتُمْ خَيْرُ الْمَعْلُومِينَ ﴾ .

* * *

الفقرة الرابعة

سياسة نوح عليه السلام في مجادلته لقومه

اعتمدت سياسة نوح عليه السلام في مجادلته لقومه على أمرين:

الأمر الأول: دفع اعتراضاتهم بالحجج العقلية والأدلة الصحيحة التي ليس لديهم ما يُبطلُها، كما سبق بيانه في الفقرة الثانية.

الأمر الثاني: إقامة الأدلة العقلية والحجج البرهانية المفحمة، على صحة ما يدعوهم إليه من توحيد، وفساد ما هم فيه من شرك.

وقد دلّ على هذا الأمر ما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) حكاية لما قام به من جهاد قومه في دعوته لهم، وهو يدعو ربّه شاكياً إصرار قومه على رفض دعوته وفرارهم من الاستجابة له، فقال أثناء عرضه شكواه:

﴿ قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ .

فدلّ هذا النصُّ على أنّ منهج نوح عليه السلام في إقامة الأدلة على توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية لله عزّ وجلّ، يعتمد على الاستدلال بالظواهر الكونية الدالة باللوازم العقلية البرهانية على أنّ الربّ الخالق واحد لا شريك

له، وهذا يدلُّ باللزوم العقليّ على أن الإله المعبود يجب أن يكون هو الرّب الخالق وحده لا شريك له، فلا إله إلا الله.

وهذا هو منهج جميع المرسلين، وهو المنهج المبسوط في سُورِ القرآن المجيد.

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا: استفهام إنكاريّ تعجّبيّ، والمعنى ما الصّارفُ أو الباعثُ أو المفسدُ لكم، حالة كونكم لا تَخْشُونَ ولا تخافون الله الجليل عظمة، فإذا شاء أهلككم أو عذبكم على كفركم عذاباً شديداً.

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا: أي: والحال أنّه قد خلقكم على أطوار، من تراب، إلى غذاء، إلى نطفة، إلى علقة، إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، إلى جنين، إلى طفل، وهكذا.

وَرَدَّ قَوْمٌ نوح على مجادلته لهم بقولهم له كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وأصرُّوا على باطلهم، واتبعَت جماهيرهم قادتهم ذوي المال والأولاد، ومكروا بنوح عليه السلام وبالذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ مَكْرًا كِبَارًا، وتنادوا لملازمة آلهتهم من الأوثان، كما جاء في سورة (نوح) في الآيات من (٢١) - (٢٤) في عرض شكوى نوح لربه.

* * *

الفقرة الخامسة

خطة نوح عليه السلام في الدعوة والتذكير على توالي الأيام

تتلخص خُطة نوح عليه السلام التي اتّبعها في الدعوة والتذكير على توالي الأيام التي أقامها في قومه بالعناصر التالية:

العنصر الأول: أنه عليه السلام لم يترك فرصة سانحة له من ليلٍ أو نهارٍ يتمكن فيها من توصيلِ دعوته إلى قومه إلاّ انتهزها، وقام فيها بدعوة قومه إلى الدين الذي جاءهم به بلاغاً عن ربّه .

العنصر الثاني: أنه عليه السلام استخدم مختلف الأساليب الدعوية المتاحة له في زمانه:

- فاستخدم أسلوب الخطابة الجماهيرية العامة .
- واستخدم أسلوب الإعلان في الحديث مع الذين يناسبهم الإعلان ولا ينفّرهم، وهو ما يُسمّى في مصطلحاتنا المعاصرة: «درس - محاضرة - حديث...» .
- واستخدم أسلوب الإسرار في الحديث، مع الذين يلائم حالهم الإسرار في الحديث ولا يلائم حالهم المواجهة العلنية .
- واستخدم أسلوب الإنذار والترهيب من عذاب الله المعجل والمؤجل .

● واستخدم أسلوب الترغيب في ثواب الله المعجل والمؤجل إلى يوم الدين .

● واستخدم أسلوب الإقناع بالحوار وإقامة الحجج الإقناعية الصحيحة .

● واستخدم أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن .

العنصر الثالث : أنه عليه السلام استمسك بخطة الصبر الطويل المديد، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، واستمر يدعو قومه إلى دين الله معظم هذه المدّة، ولمّا أيّسه الله عزّ وجلّ منهم، إذ قال له : ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ﴾^(١) دعا على كفار قومه بقوله : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ

مِنَ الْكٰفِرِيْنَ دَيَّارًا﴾^(٢) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فٰجِرًا كَفٰرًا﴾^(٣) .

دلّ على خطته هذه ما جاء في القرآن المجيد من قصته مع قومه مما سبق بيانه، ومنه ما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِيهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آلِيَّ لِكُرْهٍ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنِ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَهُمْ فِي مَاذَا يَدْعُوهُمْ وَاسْتَشْفَعُوا بِنِيَابِهِمْ وَاصْرَبُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨﴾ ﴾

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا: الجِهَارُ هو رفعُ الصَّوْتِ، وهذا يكون عادة في الخطابة الجماهيرية .

(١) كما جاء في الآية (٣٦) من سورة (هود/ ١١) .

(٢) كما جاء في الآيتين (٢٦ - ٢٧) من سورة (نوح/ ٧١) .

ثم إنني أعلنتُ لهم: أي: خاطبتهم بحديث عليّ، ويُحْمَلُ هذا على ما يناسبه الحديث العليّ.

وأسرّزت لهم إسراراً: ويُحْمَلُ هذا على من يناسبه الحديثُ في السرِّ ومنه ما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿ قَالُوا يَنْبُحُ قَدْ جِدَلْنَا فَاكْثَرَتْ جِدَلْنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ (٢٢)

* * *

الفقرة السادسة

سياسة نوح عليه السلام في مقابل إيذاء قومه
وتهديدهم له بالإخراج أو بالقتل

وصل كفار قوم نوح عليه السلام إلى حالة الضجر من تكرار تذكيره لهم
بما جاءهم به عن ربّه، فواجهوه بأنواع من الأذى.
فقابل موقفهم هذا بإعلان توكله على الله، واستعداده لأن يتحمل الأذى
بصبر.

دلّ على موقفه هذا قول الله عزّ وجلّ بشأن عموم الرُّسل في سورة
(إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا
أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ونوح عليه السلام من الرُّسل الذين أودوا من أقوامهم فأعلنوا توكلهم
على الله، وصبرهم على الأذى.

ثم وصل كفار قوم نوح إلى حالة التذمّر الشديد من تكرار تذكيره
ومتابعة دعوته لأجيالهم فهَدَّوْهُ بالإخراج من بلادهم.

دَلَّ عَلَى هَذَا مَا جَاءَ أَيْضاً بِشَأْنِ جَمِيعِ الرُّسُلِ فِي سُورَةِ (إِبْرَاهِيمَ) ١٤ /
مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا
فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ
بَعْدِهِمْ... ﴿١٤﴾ .

ونوح عليه السلام من الرُّسُلِ الذين هُدِّدوا بالإخراج، بمقتضى عُموم
هذا النص، لكنه لم يستجب لقومه، ولم يعبأ بتهديدهم.
فاشتد غضب قومه منه فهددوه بأن يقتلوه رجماً بالحجارة هو والذين
آمنوا معه.

دَلَّ عَلَى هَذَا التَّهْدِيدِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشعراء) ٢٦ /
مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْتَهِ يَنْتَهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ .

أي: لَنَرُجْمَنَّكَ وَلَنَرُجْمَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ فَتَكُونُ وَاحِدًا مِنْهُمْ.

فقابل نوح عليه السلام هذا التهديد بعدم الاكتراث، وبالتحدي، وقال
لهم: أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِشُرَكَائِكُمْ، وَلَا تترددوا وَلَا تتحيروا وَلَا
تتستروا في أمركم، ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ مَا دَبَّرْتُمْ مِنْ أَمْرِ لِقَتْلِي، وَلَا تُمَهِّلُونِي، فَإِنِّي
تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْمَوْقِفِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يونس) ١٠ /
مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي
بِعَابَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ
اقضوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ ﴿٧١﴾ .

إِنْ كَانَ كَبْرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكَيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ : أَي : إِنْ كَانَ كَبْرُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَقُلَّ وَشَقَّ عَلَى نَفْسِكُمْ وَجُودِي وَمُكْنِي ، قَائِمًا فِيكُمْ نَبِيًّا رَسُولًا دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ، وَمُذَكِّرًا أَفْرَادَكُمْ وَجَمَاعَاتِكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي أَكْرَرَهَا عَلَيْكُمْ ، وَأَذْكَرَكُمْ بِهَا ، حَتَّى أَغْضِبَكُمْ .

فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ : أَي : فَاحْكُمُوا كُلَّ أَمْرِكُمْ الَّذِي تَسْتَطِيعُونَ تَدْبِيرَهُ وَإِحْكَامَهُ ، وَادْعُوا كُلَّ شُرَكَائِكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

وَلَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً : أَي : وَلَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ أَمْرًا مَبْهُمًا ، أَوْ كَرْبًا ضَاغِطًا عَلَى صُدُورِكُمْ .

ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ : أَي : ثُمَّ أَنْجِزُوا مَا دَبَّرْتُمْ مِنْ أَمْرِ لِقَتْلِي .

وَلَا تُنظِرُونِ : أَي : وَلَا تُمَهِّلُونِي لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ .

والتجأ نوح عليه السلام إلى ربه داعياً ، فقال كما حكى الله عز وجل عنه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَدِ ابْتِغَيْتُ لِقَابِي فَلْيُنصِرْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٧)

فقضئى الله عز وجل بإغراق قومه ، ونجاته ونجاة الذين آمنوا معه في الفلك .

قال تعالى في سورة (الشعراء) أيضاً :

﴿ فَأَجْنَيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴾ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ .

* * *

الصورة الثانية

لقطات من سياسة هود عليه السلام

في أدائه رسالات ربّه

من تتبّع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة هود عليه السلام في أدائه رسالات ربّه، ظهر لي أنّ سياسته مشابهة لسياسة نوح عليه السلام، وهي تتلخص في خمس فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع الاعتراضات التي وُجّهت له.

الفقرة الثالثة: سياسته في دفع الشتائم التي وُجّهت له.

الفقرة الرابعة: سياسته في مجادلته قومه ونُصْحِهِ لهم.

الفقرة الخامسة: سياسته في مقابل إيذاء قومه وتهديدهم له بالإخراج أو

بالقتل.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد

حول هودٍ عليه السلام وقومه.

الفقرة الأولى

سياسة هود عليه السلام في دعوته

دلت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرُّجيِّ الحكيم على أن سياسة هود عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتبذ ما اتخذته قومه من آلهة غيره، مع تخويفهم من عذاب الله الأليم، الذي جعله الله جزاءً لمن أشرك به، والإشفاق عليهم منه.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿وَأَذَكَّرَ أَخَاعَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۖ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦٦﴾ .

العنصر الثاني: استخدام الإنذارِ بأسلوب العرض المُشوب بالتلويح، مع بيان أنه لقومه رسولٌ أمين، وإتباع هذا بالدعوة إلى أن يُطيعوه ويتَّقوا الله.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ آلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكَرُّ رَسُولٍ أَمِينٍ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ .

آلَا تَتَّقُونَ؟: عَرَضٌ بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ، وَهَذَا الْعَرَضُ مَشُوبٌ بِالتَّلْوِيمِ .

العنصر الثالث: تكرير الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، مَعَ تَوْجِيهِ التَّلْوِيمِ الْمَشْدَدِ، بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ .

دَلٌّ عَلَى هَذَا الْعَنْصَرِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿١٢٤﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٥﴾ .

نَظْمٌ تَشْدِيدِ التَّلْوِيمِ مِّنْ إِضَافَةِ «الفاء» الْعَاطِفَةِ عَلَى عِبَارَةِ ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟! أَي: أَعْرَضْتُمْ عَن دَعْوَتِي السَّابِقَةِ لَكُمْ بِأَنَّ تَتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ فَلَا تَتَّقُونَ!!؟

العنصر الرابع: تكرير الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، مَعَ الْهَجُومِ عَلَى عَقِيدَتِهِمُ الشَّرِكِيَّةِ، بِأَنَّهُمْ يَفْتَرُونَ فِيهَا عَلَى اللَّهِ، بِاتِّخَاذِ شُرَكَاءَ لَهُ، يَخْتَرِعُونَهَا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَجْعَلُونَ لَهَا أَسْمَاءً. دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ أَدَلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ أَوْ تَجْرِيئِيَّةٌ عَلَيْهَا، بَلِ الْأَدَلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْحَسِيَّةُ تَشْهَدُ بِأَنَّهَا لَا تَجْلُبُ نَفْعًا وَلَا تَدْفَعُ ضَرًّا، فَلَيْسَ لَهَا مِشَارَكَةٌ لِّلَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ، فَلَيْسَ لَهَا مِشَارَكَةٌ لِّلَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ أَدَلَّةٌ خَبَرِيَّةٌ عَنِ اللَّهِ تَأْمُرُ بِعِبَادَتِهَا، أَوْ تَأْذَنُ بِهِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ فِيهَا مُفْتَرُونَ .

دَلٌّ عَلَى هَذَا الْعَنْصَرِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿١٢٤﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١٢٥﴾ .

أَي: مَا أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ، الْإِفْتِرَاءُ: اخْتِلَاقُ الْكُذْبِ وَاصْطِنَاعُهُ .

العنصر الخامس: استخدام سياسة الترغيب بثواب الله المعجل في الدنيا، والمؤجل إلى يوم الدين، والترهيب من عقاب الله المعجل والمؤجل. وهذا العنصر هو أحد عناصر سياسة جميع أنبياء الله ورسله، وسياسة سائر الدعاة إلى الله.

وقد دلَّ على ترغيب هودٍ عليه السلام في ثواب الله المعجل قوله لقومه كما حكى الله عنه في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢/ نزول):

﴿وَيَقَوْمٍ أَسْتَفْهِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

ودلَّ على الإنذارِ بالعقابِ المعجلِ قولُ قومِهِ له كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول):

﴿... فَأَيْنَا يَمَاقَدُنَّا إِنَّ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقول الله عز وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦/ مصحف/ ٦٦/ نزول) بشأنهم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وأما الترغيب والترهيب بما عند الله يوم الدين فهما من القواعد الأولى التي تقوم عليها الرسالات الربانية كلها.

وكُلُّ أمرٍ بتقوى الله يشتمل على التحذير من عقابه يوم الدين، ويتضمن لزوماً فكرياً الترغيب في ثوابه بجنات النعيم.

* * *

الفقرة الثانية

سياسة هود عليه السلام في دفع الاعتراضات التي وجهت له

الاعتراض الأول: اعتراضهم على بشريته، وادّعاؤهم أن الله لو شاء أن يُرسل رُسُلًا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً.

دلّ على اعتراضهم هذا ما جاء في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) بشأن عادٍ وثمودَ خطاباً للرسول محمد ﷺ بمعرض الحديث عن مشركي مكة:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١١٦﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

وقد دفع هودٌ عليه السلام هذا الاعتراض بقياس نفسه على نوحٍ عليه السلام، الذي كانوا على علم به وبرسالته وبإهلاك قومه الذين كانوا مشركين، فقد كان نوحٌ بشراً، ولم يكن ملكاً، واستنكر عليهم أن يتعجبوا من كَوْنِ الرسولِ بشراً، فيجحدوا رسالته لهذه العلة، مع أنهم سلاله الذين آمنوا بنوحٍ ونَجَوْا معه في السفينة، وهم من ذريته.

دلّ على هذا الدفع الذي دفع به اعتراضهم، قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكايةً لمقالته لهم:

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ
 جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ
 تَقْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

الاعتراض الثاني: اعتراضهم عليه بأنه يريد مصالح دنيوية لديهم،
 ويتخذ الدعوة الدينية ستارة لتحقيق أغراضه ومصالحه في قومه، كمالٍ أو
 سلطان.

وقد ردّ على هذا الاعتراض بمثل ما ردّ به سائر المرسلين، وهو أنه
 لا يسألهم أجراً، ولا يريد منهم أجراً مادياً ولا معنوياً، كجاءه وسلطان
 ومُلك.

ودلّ على هذا الردّ قوله لهم كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦
 مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

وكما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ يَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

الاعتراض الثالث: اعتراضهم عليه بأنه لم يأتهم ببينة خارقة (آية
 معجزة) مما اقترحوا عليه.

دلّ على اعتراضهم هذا قولهم له كما جاء في سورة (هود/ ١١
 مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
 بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرَةٍ... ﴿٥٣﴾ ﴾ .

أما ادعائهم أنه لم يأتيهم بيينة مطلقاً فهو ادعاءٌ كاذبٌ منهم وجحود .
 فقد قال الله عز وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول)
 حكاية لقول موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا
 كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ ﴾

وقول الله عز وجل في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) في
 معرض الحديث عن المنافقين والكافرين :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ
 وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
 وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

وقد روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ :

« مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا
 كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحياً أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ » .

(الحديث ٤٩٨١ و ٧٢٧٤).

المؤتفكات: قرى قوم لوط، أي: قوم القرى المؤتفكات، أي:

المنقلبات .

وأما ادعائهم أنه لم يأتيهم بما اقترحوا هم عليه من خوارق، فهذا ادعاءٌ
 مقبولٌ، وقد يكون هو المراد، ومن المعلوم من سنة الله في الأمم أنه لا
 يستجيب للمقترحات الخاصة التي تقترحها الأقوام بشأن المعجزات التي يؤيد

بها رُسُلَهُ، وإذا استجاب إليها بناءً على طلبهم كما فعل بشأن ناقة الرسول صالح عليه السلام، فإنهم إذا أصرُّوا على كُفْرهم بَعْدَها معاندين، فإنَّ الله لا يُمهِّلهم، بل يُعَجِّلُ لهم الإهلاك العامَّ الشامل، أو يُعَجِّلُ بإهلاك مَنْ طَلَبَهَا من القوم إذا كانوا أفراداً معدودين، ولم يكن توجيهُ الطلب من كُلِّ القوم، أو معظمهم بصورةٍ عامَّةٍ.

* * *

الفقرة الثالثة

سياسة هود عليه السلام في دفع الشتائم التي وُجّهت له

تتلخّص سياسة هود عليه السلام في دفع الشتائم التي وُجّهت له بما

يلي:

الأمر الأول: الدفع بالنفي المجرد لشتيمتهم له بأنّه منغمس في سفاهة،
أي: في نقص عقل ينتج عنه سوء تصرّف، ومنه ادّعاؤه النبوة والرّسالة،
ودعوته لقومه بأن يدّروا آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، ويعبدوا الله وحده
لا يُشركون بعبادته أحداً، وشتيمتهم له بأنهم يظنونّه كاذباً من الكاذبين.

دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧

مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾
قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ
الْكَٰذِبِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ۝

الأمر الثاني: الأعراض عن شتيمتهم له بأنّه مصابّ في عقله أو نفسه،
من قبل بعض آلهتهم التي تمرّد على عبادتها، مخالفاً ما عليه قومه وآباؤهم
وأجدادهم.

وإذا اكتفى بالإعراض عن دفع هذه الشتيمة رأى أن يعلن لهم أنه يشهد الله ويشهدهم على أنه بريء مما يُشركون، ليثبت لهم بأسلوب غير مباشر كمال عقله، وثبات خصائصه النفسية وتوازنها، وأن آلهتهم لم تمسه بسوء، ولا تستطيع أن تمسه بسوء على الرغم من إعلانه تبرأه منها.

دلّ على هذا الأمر قول الله عز وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢

نزول):

﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ... ﴾ .

* * *

الفقرة الرابعة

سياسة هود عليه السلام في
مجادلته قومه ونُصحه لهم

تتفق سياسته في مجادلته قومه مع سياسة نوح عليه السلام في مجادلته قومه، وهي تتلخص بأمرين:

الأمر الأول: دفع اعتراضات القوم بالحجج العقلية والأدلة الصحيحة التي ليس لديهم ما يُبطلها، كما سبق بيانه في الفقرة الثانية.

الأمر الثاني: إقامة الأدلة العقلية والحجج البرهانية المفحمة على صحة ما يدعوهم إليه من توحيد، وفساد ما هم فيه من شرك.

فاستدلّ على التوحيد بأنّ الله هو وحدهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وهذا أمرٌ ظاهر الأدلّة في الظواهر الكونيّة، فليس فيه شكٌّ لدى العقلاء، ومن كان هو الخالق فلا بُدَّ أن يكون هو وحده الإله المعبود.

دلّ على هذا ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في حكاية ما قاله موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل بشأن ما قاله رُسل قوم نوح وعادٍ وثمود والذين من بعدهم لأقوامهم:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مَن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أُنثَىٰ مِنَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن نَصُدُّوهُنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾

واستدلّ على نفي استحقاق آلهتهم لأن تكون معبودة من دون الله بأنها لا تعدّوا أن تكون أسماء هُمْ سَمَوَهَا، فليس لها من حقيقة الرّبوبيّة أو الإلهيّة شيء، ولم يأت من عند الله أمرٌ ولا إذنٌ بعبادتها.

فحين قالوا له متعجبين من دعوته كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا... ﴾ (٧) !!؟

أجابهم كما جاء فيها أيضاً:

﴿... أَتَجِدُ لُنُوفِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ... ﴾ (٧)

الأمر الثالث: توجيه النصح لهم في عدّة قضايا:

الأولى: أن يتركوا أعمال العِبَث التي يُنفِقُونَ فيها أوقاتاً وأموالاً وطاقاتٍ، لمجرد التفاخر والمباهات بقدراتهم البنائية والفنية، المشعرة بعظمتهم وتفوق بلادهم على غيرها، دون أن تكون لها فائدة في الحياة، وأن يوجهوا جهودهم لما فيه فائدة ونفع، فجماهيرهم أحوج إلى ذلك منهم إلى مظاهر التكبر والتعاضم، فقد كانوا يفعلون نظير ما فعل الفراعنة من بعدهم إذ بنّوا الأهرامات، ونحتوا أعمدة المسلات ونصبوها علامات، وكانت وسيلتهم إلى ذلك سوق الناس بالجبر والإكراه والإذلال، كالجمال والحمير والبغال.

دلّ على نصيحته لهم في هذه القضية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة هود لقومه:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ (٧٨) !!؟.

استفهامٌ فيه معنى النصح والتلويح على العبث.

الرّيع: يُطلق لغةً على السبيل سلك أو لم يُسلك، وعلى الطريق

المنفرج بين الجبل، وعلى الطريق عامة.

آية: أي: علامة، والمرادُ هنا أنها علامة على عظمة قوم عادٍ في قُدراتهم البنائية، ودلّ على أنها لمجرّد التباهي والتفاخر والتكبر على الناس قول هود عليه السلام لهم: تعبثون أي: دون أن تكون لهذه الآيات التي تبونها منفعة تقصد، كأن تكون علاماتٍ يهتدي السالكون بها، أمّا العلامات التفاخرية فهي كالأصنام التي تُصنَع للحكّام وذوي السُلطانِ الجبارين، التي ليس فيها للناس نفع.

وقد نصحهم هودٌ عليه السلام بترك هذه العادة التفاخرية التي تُبدلُ فيها أموالٌ وطاقاتٍ بغير نفع، فهي من مظاهر الإسراف والتبذير وتضييع الثروات بالعبث.

الثانية: أن يَضَعُوا نُصَبَ أعينهم وفي ذكراهم دواماً الدار الآخرة، ويتفكروا بالموت وبما بعد الموت، وبالحساب والجزاء يوم الدين، وأن يُوجِّهوا كلَّ اهتمامهم للدنيا راجين الخلود فيها، فإنّ هذا يَصْرِفُهُمْ عن العمل للآخرة، والسَّعي لسعادتهم الخالدة فيها، ومن توجيه كلَّ اهتمامهم للدنيا دون أن يعطوا من سَعِيهم شيئاً للآخرة، تكثيفُ كلِّ جهودهم لاتخاذ الأبنية والقصور والحصون وتزويدها بخزانات المياه، كأنّ الدنيا دارُ خلود للناس على تتابع الأجيال، وليسَ بعد هذه الدار والحياة فيها دار أُخرى وحياة أُخرى هي دار الحساب وفصل القضاء والجزاء والخلود الأبدي.

دلّ على نصيحته لقومه في هذه القضية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة هود لقومه:

﴿ وَتَتَخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾.

مَصَانِعُ: جمع «مَصْنَعَة» و«مَصْنَع». المصانع تُطلَقُ في اللغة على ما يُصنَعُ من أبنية وقصور وحصون وأحواض مياه.

قال الأصمعيُّ: العرب تُسمِّي القرى مصانع، واحدها مصنعة.

إنَّ هوداً عليه السلام لم ينكر عليهم اتِّخاذ المصانع من أبنية وقصورٍ وحصونٍ وأحواضٍ مياهٍ وقرى، إنَّما أنكر عليهم انصرافهم الكامل لشؤون الدنيا يرجون خلود قومٍ عادٍ في العزَّة والمجد والقوة والسلطان ورفاهية العيش، والمساكن والقصور والحصون الحصينة، وذلك لأن من قطع نظره عن الآخرة وتعلَّق بالدنيا قامَ في تصوُّره أن الدنيا خالدة، وإذا لم يكن هو خالداً بشخصه لأتته على يقين بأن الموت آتية لا محالة، فهو يرجو لذَّيته وسلالات قومه الخلود، وعلى هذا المعنى يُحمَلُ قولُهُ لهم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

الثالثة: أنَّ لا يستكبروا في الأرض على عباد الله، ويتخذوا الوسائل التي يذَلُّون بها الأقوام الأخرى، بما آتاهم الله مِنْ قُوَّة، ومن مظاهر استكبارهم على غيرهم من الأقوام أنَّهم كانوا إذا بَطَّشُوا في حروبهم بَطَّشُوا جَبَّارِينَ ظالمين مُعْتَدِينَ، لمجرّد إظهار تفوقهم وجبروتهم وإذلال غيرهم بغير حق، وكذلك إذا بَطَّشُوا في غير الحرب فيمن يريدون السطو عليه بَطَّشُوا جَبَّارِينَ.

دَلَّ على نصيحة هود عليه السلام لقومه في هذه القضية، قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالته لقومه:

﴿وَإِذَا بَطَّشْتُمْ بَطَّشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

البطش: يُطلَق في اللغة على التناول بشدَّة وعُنف عند الصولة، وعلى الأخذ الشديد بقوة في كلِّ شيء، وعلى السَّطو في سرعة.

أي: وإذا أردتم الاستعلاء والاستكبارَ سَطَّوْتُمْ بقوةٍ وعنف على فريستكم من البشر، جَبَّارِينَ ظُلماً وعدواناً دُونَ شفقةٍ ولا رحمةٍ ولا مراعاةٍ لحقوقِ خَلْقِ الله في الحياة، والكرامة، والممتلكات، فتقتلون بشدَّة وعنف بغير حق.

الجبّارُ من الناس: العاتي الظالم القتالُ بغير حقّ الذي يَفْهَرُ بقوِّته وسلطانه.

ويُطْلَقُ الجبّارُ على المُكْرِهِ المُجْبِرِ بسلطانه، ولو كان جَبْرُهُ بحقّ، وهذا المعنى يصلح لشرح اسم الله «الجبّار».

ودلّ على استكبارهم في الأرض بغير الحقّ، وتفأخرهم بتفوقهم في القوة على أقوام زمانهم، قولُ الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (فصلت/ ٤١) مصحف/ ٦١ (نزل):

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . . ﴿١٥﴾ ﴾!؟ .

وجاء التعليق الربّانيّ على هذا التفاخُر والاستكبار بقوله تعالى عقب حكاية قولهم:

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْحِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأُخْرَى أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

الرابعة: نصيحته بأن يتقوا الله الذي أمدهم بنعمه الكثيرة، واتقاؤهم عذاب الله عزّ وجلّ يكون بأن يطيعوا رسول ربهم فيما يدعوهم إليه من إيمان وإسلام وعمل صالح.

دلّ على هذه القضية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦) مصحف/ ٤٧ (نزل) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٨﴾ وَحَنَنْتِ وَعْيُونَ ﴿١٩﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

فأبان لهم أنه يُشْفِقُ عليهم من عذاب الله يوم الدين.

وكان ردُّ قومه على نصائحه لهم في هذه القضايا الأربع، بإعلان عدم استجابتهم لها، وبأن لا يُتعب نفسه في توجيه نصائحه لهم، فنُصِّحَهُ لَهُمْ وَعَدَمَ نُصِّحَهُ مَسْتَوِيَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، دلَّ على هذا الردِّ قول الله عزَّ وجلَّ عقب النَّصِّ السَّابِقِ:

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ .

إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ: أي: ما هذا الذي تَسْتَنْكِرُهُ عَلَيْنَا وَتَعِظُنَا بِتَرْكِهِ إِلَّا سُلُوكُكَ كَانَ يَفْعَلُهُ آبَاؤُنَا وَأَجْدَادُنَا الْأَوَّلُونَ، وهو أثرٌ من آثار أخلاقهم، ونحن على آثارهم مقتدون.

وَقُرِئَ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بفتح الخاء وإسكان اللام، والمعنى: ما هذا الذي تُنذِرُنَا بِهِ يَوْمَ الدِّينِ إِلَّا افْتِرَاءً وَاخْتِلَاقَ مَدْعَى البعث بعد الموت من الأولين، فتكاملت القراءتان.

* * *

الفقرة الخامسة

سياسة هود عليه السلام في مقابل إيذاء
قومه وتهديدهم له بالإخراج وبالقتل

وصل كفار قوم هود عليه السلام إلى شبه ما وصل إليه كفار قوم نوح عليه السلام، وتعرض لأذى قومه، وقابل أذاهم بالصبر كما جاء في الآيتين (١١ - ١٢) من سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) وفيهما الحديث عن عموم الرُّسُل، وقد سبق الاستشهاد بهما في الفقرة السادسة من سياسة نوح عليه السلام.

وأخيراً أعلنوا إصرارهم على تكذيبه، وأعلنوا تحديهم له بأن يأتيهم بالعذاب المعجل الذي ما زال يعدُّهم به، فأجابهم بأن أمر إهلاكهم هو بيد الله لا بيده، وأن العلم بوقت إهلاكهم هو عند الله.

وهددوه بأن يقتلوه، فتحداهم بأن يفعلوا ما يشاؤون، وأعلن توكُّله على الله.

ولما وصلوا بحكمة الله إلى حالة ميئوسٍ منها أهلكهم الله عز وجل.

دل على هذه الأمور قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في معرض الحديث عن هود عليه السلام وقومه:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُمُ وَنَدْرَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَتَأْتِنَا بِآيَاتِنَا يَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ

أَتَجِدَلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا
إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَجَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ
كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ .

وقول الله عز وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦/ مصحف/ ٦٦ نزول) أيضاً:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّكَ عَنِ إِلَهِتِنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ إِنَّمَا
الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَنْ أُكْفَىٰ أُرْسَلْتُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٧٧﴾ .
لِنَأْفِكَنَّكَ: أي: لتصرفنا.

وقول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦/ مصحف/ ٤٧ نزول) في
معرض الحديث عنه وعن قومه:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾ .

وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية
لجواب هود عليه السلام إذ أحسن بتهديدهم له بالقتل:

﴿ فَكَيْدُو فِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِيَّيَّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ
ءَاتِيكُمْ بِبَيِّنَاتٍ إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ إِنْ قَوْلُوا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ؕ إِلَيْكُمْ
وَسَنَخْلُفُ رِبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ .

وجاء التعقيب الرباني على هذا في السورة بقول الله عز وجل:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هٰذِهِ
الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ ؕ الْآلَإِن ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ؕ أَلَا بُعْدًا لِّءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ .

* * *

الصورة الثالثة
لقطات من سياسة صالح عليه السلام
في أدائه رسالة ربّه

من تتبّع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة صالح عليه السلام في أدائه رسالة ربّه، ظهر لي أنّ سياسته مشابهة لسياسة نوح وهود عليهما السلام، وهي تلخص في ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: سياسة صالح عليه السلام في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في دفع اعتراضات قومه وشتائمهم وتطيّرهم وجدلياتهم.

الفقرة الثالثة: سياسته في تحدّي قومه له باستعجال العقاب.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد حول صالح عليه السلام وقومه.

الفقرة الأولى

سياسة صالح عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرّجي الحكيم على أنّ سياسة صالح عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية :

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسية الأولى، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى نبذ ما اتخذته قومه من آلهة غيره.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ... ﴾ (٧٢)

العنصر الثاني: إنذارهم بعقاب الله المعجل في الدنيا والمؤجل إلى يوم الدين، فكذبوا بهذه التُّدْرِ، وزعموا أنّ صالحاً يكذبُ عليهم بها.

دلّ على هذا العنصر قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ تَمُودُ بِالتُّدْرِ ﴾ (١٣)

التُّدْرُ: مفردة النذير، وهو يطلق على المنذر، وهو أيضاً اسم للإنذار.

العنصر الثالث: استخدام أسلوب العرض المشوب بالتلويح، لأنهم لم يتقوا ما خوفهم منه، وكرّر صالح عليه السلام دعوة قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك، ونصحهم بأن يتقوا الله.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴾ .

العنصر الرابع: تذكيرهم بما أنزل الله عزّ وجلّ على عادٍ إذ أهلكهم بسبب كفرهم وطغيانهم، وتذكيرهم بأن الله قد جعلهم خلفاء لهم، ومكّن لهم في الأرض، فجعلهم يتخذون من سهولها قصوراً وينحتون الجبال بيوتاً، ووعظهم بأن يذكروا نعم الله عليهم ويشكروها، وبأن لا يعثوا في الأرض مفسدين.

دلّ على هذا العنصر قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لبعض ما قاله صالح عليه السلام لقومه ثمود:

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ وبوأكم في الأرض تنعمون من سهولها قصوراً ولنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ .

العنصر الخامس: تنبيههم وتحذيرهم من أن الله لن يتركهم في ديارهم آمنين وهم يشركون به ويكفرون برسوله وبما جاءهم به عن ربّه، بل لا بدّ من أن ينزل بهم عقوبته إذا أصرّوا على ما هم فيه من شرك وإفساد في الأرض، وحذر جماهيرهم من طاعة قادتهم المسرفين الذين يُفسدون في الأرض ولا يصلحون.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦
 مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لبعض ما قاله صالح عليه السلام لقومه ثمود:

﴿ أَتُزَكُّونَ فِي مَا هُمْنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْمُهَا
 هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ
 الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ .

طَلْمُهَا هَضِيمٌ: أي: ثمرها ناعم لطيف مريء لين، سهل الهضم.

العنصر السادس: استجابته بإذنٍ من الله للمعجزة الخارقة التي
 طلبوها، وهي أن يُخْرِجَ لهم من صخرة عيونها، ناقةً حدّثوا أوصافها، فدعا
 ربّه فأخْرَجَ لهم آيةَ الناقةِ التي طلبوها، وحدّثهم من أن يتعرّضوا لها بسوءٍ،
 فإذا فعلوا ذلك أنزَلَ اللهُ بهم عذاباً أليماً، وأهلكهم.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧
 مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لبعض ما قاله صالح لقومه:

﴿ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّكُمْ ءَايَةٌ ذَرُّوْهَا
 تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

بَيِّنَةٌ: أي: آيةٌ خارقةٌ معجزةٌ تُبَيِّنُ لكم صدق رسولكم فيما يخبركم به
 عن ربكم.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية
 لبعض ما قالت ثمود لرسولهم صالح عليه السلام:

﴿ . . . فَأْتِ بِتَالِيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ .

فأجابهم كما جاء فيها عقب هذه الآية وأبان لهم المطلوب منهم في
 امتحانهم في آية الناقة.

﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ .

الشَّرْبُ: الحظُّ من الماء في وقت خاص .

لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ لَهُمْ فِي آيَةِ النَّاقَةِ، ثُمَّ ضَاقُوا دَرَعًا بِوُجُودِهَا بَيْنَهُمْ عَلَى وَفْقِ الشَّرْطِ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَبَلَّغَهُمْ إِيَّاهَا رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَتْ هَذِهِ لِامْتِحَانِهِمْ بِهَا، فَإِذَا أَخْلَوْا بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمُ الْعَذَابَ الْمُهِلِكَ الْمُذِلَّ .

فَاتَّفَقَ كُفَّارُهُمْ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ النَّاقَةِ، وَرَضُوا بِأَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ عَقْرَهَا أَشْقَاهُمْ، فَعَقَرَهَا فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ .

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشمس/ ٩١/ مصحف/ ٢٦

نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿١١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١١٥﴾ ﴾ .

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ: أَي: أَطْبَقَ عَلَيْهِمْ وَسَائِلَ التَّعْذِيبِ، وَأَهْلَكَهُمْ، فَدَفَنَهُمْ، وَسَوَّى الْأَرْضَ فَوْقَهُمْ .

وقول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤/ مصحف/ ٣٧ نزول) بياناً لما

خاطب به صالحاً عليه السلام بشأن الناقة :

﴿ إِنَّا مُرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنِنَّةَ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٨﴾ فَادْرَأْ صَاحِبَهُمْ فَطَاطِنُ فَعَمَّرَ ﴿٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿١١﴾ ﴾ .

فتنة لهم: أي امتحاناً واختباراً لهم . الهشيم: ما يبس من النبات وتكسر

وتحطم . المحنظر : صاحب الحظيرة .

وقول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن ثمود وعقرهم الناقة :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاَصْلِحْ أَتَيْنَا بِمَا نَعُدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفُورٌ لَقَدْ أَتَلَقْتُكُمْ رَسُولًا رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

وفي استجابة الله عز وجل لثمود مقترحهم بشأن الآية الخارقة تقديم برهان تجريبي للناس على أن الاستجابة لمطالبهم التعنتية في الآيات الخارقات لا ينفع في تخفيف عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولا يضيف إلى استيقان قلوبهم إضافة تجعلهم يؤمنون بالحق، ولهذا قال تعالى في سورة (الإسراء/ ٧/ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٨١﴾ ﴾ .

مُبصرة: أي: واضحة، أو تُبصِّرُهُمْ وتُبَيِّنُ لَهُمْ .

* * *

الفقرة الثانية

سياسة صالح عليه السلام في دفع اعتراضات قومه وشئاتهم وتطيُّرهم وجدلياتهم

لم يكن من ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام إلا الاعتراضُ على كونه بشراً واحداً منهم، وبأن الله لو شاء لأنزل ملائكة، واتهامه بأن له مصلحة شخصية دنيوية لدى قومه من دعوته، والتطيُّر به وبمن معه من الذين آمنوا به لما أنزل الله بهم ما يسوؤهم من المصائب، التي امتحنهم الله بها، وجعلها تنبيهاً وتذكيراً بعقوباته الكبرى.

وشتموه بأنه كذابٌ أشْرٌ، أي: مستكبر، وبأنه من المُسَحَّرِينَ.

● وقد اكتفى عليه السلام في دفع اعتراضهم على كونه بشراً واحداً منهم بتذكيرهم بأن الله جعلهم خلفاء من بعد عادٍ، وهم يعلمون قصتهم ويعلمون أن رسولهم كان هوداً عليه السلام، وأنه كان بشراً واحداً من قومهم، وبما أجاب اتهامهم له بأن له مصلحة شخصية دنيوية لديهم، بقوله لهم كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وهذا الدفع هو ما دفع به نوح وهود عليهما السلام من قبل صالح عليه السلام.

● ودَفَعَ تَطْيُرَهُمْ به وبمن معه من المؤمنين بيان أن الله هو الذي أنزل

بهم ما ساءهم من المكاره، ليمتحنهم وليذيقهم بعض العذاب ليذكرهم .

دلّ على هذا ما جاء بشأنهم في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ قَالُوا أَطِيزَنَا بِكَ وَيَمُنُّ مَعَكَ قَالَ طَبَّرَ كُفْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

تُفْتَنُونَ: أي: تُمْتَحَنُونَ وَتُخْتَبَرُونَ وَتُعَذَّبُونَ ببعض العذاب لعلكم تتذكّرون وتتّعظون .

● وأعرض عن شتيمتهم له بأنه كذابٌ أشر، وبأنه من المسحّرين، لكنّ الله عزّ وجلّ أبان له بأنهم سيعلّمون مستقبلاً من الكذاب الأشر .

وقد دلّ على أقوالهم فيه ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٦﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴿١٥٧﴾ ﴾ .

وما جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ فَقَالُوا أَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَبِيِّنَا إِنْآ إِذْ أَلْفَى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَلْأَلْفَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

وسُعْرٌ: أي: وجنون .

أَشِرٌّ: أي: مُسْتَكْبِرٌ، طالبٌ سلطانٍ ومُلك .

الجدليات:

ولم تُواجه ثمودٌ رسولَهُمْ صالحاً بجدليات خاصة، وإنّما واجه كبراًؤهم ضعفاء من آمن به بأسئلة استدارجية، بغية فتنّتهم، فلمّا أجابوهم بأنهم قد آمنوا بما أُرْسِلَ به، قابَلَهُمْ كبراًؤ قومهم بإعلان أنّهم كافرون بما آمن به هؤلاء الضعفاء .

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَعَمُوا أَنْ صَلَّحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ .

فقد كانت المعركة الجدلية بين الذين آمنوا به والذين كفروا به، وكان معظم الذين آمنوا به من المستضعفين من قومهم.

وقد دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٩﴾ .

لكنهم قالوا له: إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ .

فقال لهم كما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) بشأن عموم الرُّسل السابقين:

﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴿١٠﴾ .

انظر الآيات من (٩ - ١٢) من سورة إبراهيم.

* * *

الفقرة الثالثة

سياسة صالح عليه السلام في تحدي قومه له باستعجال العقاب

لم يَلْجأ قوم صالح عليه السلام إلى الأساليب الجدلية، ولا إلى وسائل الضغوط الاضطهادية، فقد كان له في قومه أولياء ذوو قُوَّةٍ فيهم يحمونه بالعصبية.

وإنما لجؤوا إلى إعلان كفرهم بما جاءهم به، وإلى تحديهِ بأن يأتيهم بعذاب الله المعجل في الدنيا، وهو ما كان يُنذِرهم به إذا أصرُّوا على كفرهم وعنادهم وإفسادهم في الأرض، واستحبوا العمى على الهدى.

وقد دلَّ على تحديهم هذا ما جاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

أي: لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بإنزال ما حذرتكم منه من عقاب الله لكم على كفركم، وعنادكم وإفسادكم في الأرض، قَبْلَ استيفاء ما قَسَمَ الله لكم من حَسَنَةٍ في الحياة الدنيا، وهي المعاش الطيب الذي هم فيه.

ووعظهم بقوله: هلا تستغفرون الله ليرحمكم فيغفر لكم من ذنوبكم، والاستغفار إنما يكون بعد الإيمان والتوبة وإعلان الطاعة.

ويظهر أنّ صالحاً عليه السلام لم يدعُ ربّه بأن يعجل عقابه لهم، بل أمهلهم رجاء أن يؤمن منهم فريق آخر غير الذين سبق أن آمنوا به واتبعوه.

ثم لجأت ثمود إلى عقرِ النَّاقَةِ التي حدّرتهم رسولهم من أن يمسوها بسوء، فعقروها ليتخلّصوا من المتاعب التي سببتهم لها، إذ كان لها يومٌ خاصٌ في مائهم تشرب منه ولا يشربون، وكان وضعها مخيفاً ومُنْقِراً لأنعامهم، وكانت ترعى رعيّاً كثيراً، وتُدّر لهم لبناً غزيراً.

دلّ على عقريهم لها ما جاء في الآية (١٤) من سورة (الشمس).

وَدَلَّ عَلَى عَقْرِهِمْ لَهَا وَتَحْدِيثِهِمْ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا كَانَ قَدْ تَوَعَّدَهُمْ بِهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ/ ٧/ مَصْحَفِ/ ٣٩ نَزُولِ):

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَخَوَا عَنْ أَمْرِ رَبِّيهِمْ وَقَالُوا يَاَصْلِحْ أَئْتَيْنَا بِمَا عَٰدَتُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧).

وكان في مدينتهم تسعة رهط يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون فتقاسموا فيما بينهم أن يغتالوه وأهله معه في ليلة من الليالي يبيئونهم بها، دون أن يكتشف أحدٌ ما بيئوا، فإذا سُئلوا عن الحادثة قالوا: ما شهدنا مهلك أهلنا.

دلّ على هذا قول الله عز وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧/ مَصْحَفِ/ ٤٨

نَزُولِ) بشأنهم:

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فِتْلَتًا لِّيُؤْتِيَهُم خَٰوِبَةً يَمَّا ظَلَمُوا وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنفَقُونَ ﴿٥٣﴾

ودلّ على أنّ الله عزّ وجلّ عاقب ثموداً على عقرهم ناقة الله، وعلى تحديهم لرسولهم صالح عليه السلام بأن يأتيهم بما يعدّهم به، وعلى تدبير مُفسديهم أن يقتلوا رسولهم وأهله النَّصُّ السابق من سورة (النمل).

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧٨﴾ ۞ .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴿١١﴾ إِذِ اتَّبَعَتْ أَشْقَانَهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ۞ .

وقول الله تعالى في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَاتَّقُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ۞ .

إلى غيرها من نصوصٍ عامّة .

* * *

الصورة الرابعة
لقطات من سياسة إبراهيم عليه السلام
في أدائه رسالة ربّه

من تتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة إبراهيم عليه السلام في
أدائه رسالات ربّه، ظهرت لي ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: سياسته في دعوته.

الفقرة الثانية: سياسته في حُجَجِهِ ومجادلته لقومه.

الفقرة الثالثة: صفات إبراهيم عليه السلام في ذاته وفي سياسته

الدعوية.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد

حول إبراهيم عليه السلام وقومه.

الفقرة الأولى

سياسة إبراهيم عليه السلام في دعوته

دلت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرُّجيِّ الحكيمِ على أنَّ سياسة إبراهيم عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى تَبَذُّ ما اتَّخَذَهُ قَوْمُهُ من آلهة غيره.

دلَّ على هذا العنصر قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

ونلاحظ في هذا أنَّ إبراهيم قدَّم لقومه دعوته مقرونةً بالحجَّة البرهانية على أنَّ أوثانهم التي يعبدونها من دون الله آلهةٌ يخترعونها من عند أنفسهم افتراءً على الحقيقة، وهي في أدنىِّ المطلوب منها وهو الرزق عاجزةٌ عن تَهْيِئَتِهِ لعباديتها، وأنَّ عليهم أن يبتغوا عند الله الرِّب الخالق الرزق، وأنَّ يَعْبُدُوهُ وحده، وأنَّ يَشْكُرُوا له، وأنَّ يَعْمَلُوا صَالِحًا لِيَتَّالُوا عند الله جزاءهم

لأنهم إليه سِرُّجَعُونَ بعد الموت، إذ يَبْعَثُهُمُ اللهُ إلى الحياة الأخرى للحساب،
وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

العنصر الثاني: البدء بدعوة أقرب الناس إليه، قبل دَعْوَةِ غيرهم،
واهتماماً بالتركيز على هذا العنصر ألحَّ على أبيه في الدَّعوة، ونَوَّعَ له أساليب
الإقناع، وقَدَّمَ له الحجج والبراهين، واستعطفَهُ واستلانه، وتخضَّعَ له، وترَفَّقَ
به، وعاشره بالمعروف، ولم يقابله بما يكرهه، وحين طلب منه أبوه أن يَهْجُرَهُ
إلى حين استجاب لطلبه ووعدته بأن يستغفر له رَبَّهُ، قَبَلَ أن يَعْلَمَ أنه مُصِرٌّ على
أن يكون عدوًّا لله، فلَمَّا عَلِمَ أنه عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥
نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىكَ وَوَمَلَكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٧٦﴾ .

وقول الله عزَّ وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ءَإِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٦١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ
وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٦٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ
صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٦٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٦٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٦٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ
لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٦٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ
بِي حَفِيًّا ﴿٦٧﴾﴾ .

لقد أضجر إبراهيم عليه السلام أباه في دَعْوَتِهِ له وإقامة الحجج البرهانية
المقنعة، رجاء أن يستجيب له فيكون من المؤمنين الناجين من عذاب الله في
نار جهنم، ووصل الضجر بالأب أن يهددَ ابنه الناصح له المُلحَّ عليه بالنصيحة
وإقامة البراهين المقنعة بالرَّجم فقال له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ﴾. ويظهر أن

هذا التَّهْدِيدُ صَدَرَ مِنْهُ وهو في حالة ضيقِ صدرٍ، إذ لم يستطع أن يُجيبَ على حُجَجِ ابْنِهِ البرهانية، وضيقُ الصدرِ يُولدُ غضباً، ومع الغضبِ تَصُدُّرُ عِبَارَاتٍ التهديد التي قَدْ تَصَلُّ إلى التهديد بالقتل.

ويظهِرُ أَنَّهُ لما سَكَتَ غَضَبُهُ تراجعَ عن التهديد بالرجم، وطلبَ من ابْنِهِ أن يَهْجُرَهُ مُدَّةً طويلةً من الزَّمنِ، فقال له: ﴿وَأَهْجُرْني مِلياً﴾.

المِليُّ: المُدَّةُ الطويلةُ من الزَّمنِ.

ويظهر أن إبراهيم عليه السلام استشعر من عبارة ﴿وَأَهْجُرْني مِلياً﴾ وغداً ضمناً بأن يراجع نفسه، ويتخذ تدابير يتخلص بها من ضغط بيئته الاجتماعية، فوعده بأنه سيستغفر له ربه، وقال له: ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَفِيَّاتٍ﴾ أي: إن ربي كان بي لطيفاً مكرماً يستجيب لي إذا دعوته.

العنصر الثالث: أنه كان حين يدعوه قومه، ويُقيم لهم الحجج والبراهين، كان يُوجِّهُ خطابَهُ لأبيه وقومه معاً، على الرغم من أنه سبق أن دعا أباه وحاجَّهُ بصورة مُنفردة.

دل على هذا ما جاء بشأن مجادلته لأبيه وقومه معاً في سورة (الشعراء/٢٦)، (انظر الآية ٧٠) وما جاء أيضاً في سورة (الأنبياء/٢١)، (انظر الآية ٥٢) وما جاء في سورة (الصفات/٣٧)، (انظر الآية ٨٥) ففيها قول الله عز وجل:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾.

* * *

الفقرة الثانية

سياسة إبراهيم عليه السلام في حُججه ومجادلته لقومه

لقد أثنى الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام بأنه آتاه الحجَّة الربَّانية الدامغة المستندة إلى بُرْهَانِ الحق، فقال تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ .

وقد جاء في القرآن المجيد موجزٌ مُختزل من مُجَادلاته لِقَوْمه في سورة (الأنعام/ ٦) وسورة (الشعراء/ ٢٦) وسورة (البقرة/ ٢) وسورة (الصافات/ ٣٧) وسورة (الأنبياء/ ٢١) وسورة (العنكبوت/ ٢٩).

واستعرض هذه النصوص بشيء من التَّدبُّر لاكتشاف مواقفه الفكرية البرهانية، وسياسته الجدلية المفحمة الدامغة المقرونة بالحكمة والموعظة الحسنة.

النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٥٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ ٱكْرَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلٰكِينَ ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّٰلِّينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ

السَّمْسِ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومِ إِلَهِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
 إِلَهِي وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَافِيًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾
 وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَمْحُجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي
 شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا
 تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ
 مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ
 حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ .

مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: مَلَكُوت: صيغة مشتقة من المُلْكِ للدلالة
 على المُلْكِ الفخْمِ العظيم، والمُلْكُ هو السلطان والعزة والقدرة على التصرفِ
 الشامل.

ورؤية إبراهيم ملكوت السماوات والأرض هي رؤيته ظواهر ملك الله
 الفخْم العظيم في الكون، الدالة على صفاته العظيمة الجليلة، وأسمائه
 الحُسنى، نظراً إلى أن هذه الظواهر هي من آثارها.

ورؤيته لها هي رؤية فكرية عقلية، مستندة إلى إدراكات حسية.

وبهذه الرؤية الفكرية يُدرك صفات الرب الخالق، وبها يكون من
 الموقنين به، وبأنه ليس شيئاً من هذه الظواهر الداخلة في ملكوت السماوات
 والأرض، الخاضعة لسلطان رب الخالق لا يمكن أن يكون جزءاً منها، فقال
 تعالى: ﴿وَلْيَكُونِ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أي: من الموقنين بأن لملكوت السماوات
 والأرض رباً خالقاً يتصرف فيه على ما يشاء بإحكام وإبداع وإتقان.

ومن ثمرات رؤية إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض،
 رؤية دقيقة عميقة، تنتقل من الظواهر الكونية المشهودة إلى ما وراءها من
 عالم الغيب، أنه استطاع أن يختار من ظواهر الكون في تقديم حُججه

الإيمانية، مَا لِقَوْمِهِ عَقِيدَةٌ فِيهِ، بِأَنَّهَا أَرْبَابٌ أَوْلَهَا تَأْثِيرَاتٌ رُبُوبِيَّةٌ، وَهِيَ أَجْرَامُ السَّمَاءِ الْمَضِيئَةِ.

ذكر المؤرخون أَنَّ قوم إبراهيم عليه السلام وهم الكلدانيون كانوا يَعْبُدُونَ الكواكب السبعة بأقوالٍ وَأَفْعَالٍ توارثوها، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ لها تَأْثِيرَاتٍ رُبُوبِيَّةً، وَيَتَّخِذُونَ لها هَيَاكِلَ وَتَمَاثِيلَ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الهياكل والتماثيل التي يصنعونها بأيديهم، رُموزاً لِأَرْبَابِهِمْ الَّتِي هي آلِهِمْ، وَيَقْدِمُونَ لها القربان، وَيَقِيمُونَ لها أَعْيَاداً.

فتدرَجَ مع قومه بأسلوبٍ بَاحِثٍ عَن رَبِّهِ، فِي الأجرام المضئية في السَّمَاءِ، وَهِيَ السَّاحَةُ الَّتِي يُؤْمِنُ قَوْمُهُ بِأَنَّ أَرْبَابَهُمْ الَّتِي لديها نَفْعُهُمْ وَضَرُّهُمْ بَعْضٌ مِنْهَا.

فتحِينَ عليه السلام مُنَاسِبَةً مِنَ المناسبات الصالحة لتقديم حُجَجِهِ لِقَوْمِهِ، مسائراً لَهُمْ فِي مفاهيمهم الاعتقادية، فترَقَّبَ حَتَّى جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .
جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ : أَي : سَتَرَهُ بِظُلْمَتِهِ، أَوْ جَعَلَ عَلَيْهِ مِنَ الظلمة غطاءً ساتراً.

فجعل يَبْحَثُ عَن رَبِّهِ عَلَى طَرِيقَةِ قَوْمِهِ فِي نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذْ ظَهَرَتْ لَهُ فِي اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ وَاضِحَةً، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ اخْتَارَ لَيْلاً مِنْ أَوَاخِرِ الشَّهْرِ لَيْسَ فِيهِ قَمَرٌ بَازِغٌ.

وبعد البحث انتقى من الكواكب أكبرها وأوضحها في نَظَرِ الْعَيْنِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ لِإِجْرَاءِ تَجْرِبَتِهِ مَعَهُمْ فِي الْبَحْثِ لِلْوَصُولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ، عَلَى سَبِيلِ الطَّرْحِ الْإِحْتِمَالِيِّ الْإِفْتِرَاضِيِّ بَغِيَةِ الدَّرَاسَةِ التَّأْمُلِيَّةِ : «هَذَا رَبِّي» أَي : هَذَا أَكْبَرُ هَذِهِ الكواكب الظاهرة في السَّمَاءِ، فَلَأَفْتَرِضُ أَنَّهُ هُوَ الْأَحَقُّ مِنْهَا جَمِيعاً بِأَنَّ يَكُونَ رَبِّي الَّذِي يُمِدُّني دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الدَّائِمَةِ فِي الْحَيَاةِ، وَمِنْهَا الرِّزْقُ وَالصَّحَّةُ وَالْمَعُونَةُ وَالْعِزَّةُ وَالنَّصْرُ وَالْأَمْنُ .

وانتظر يراقبُ هذا الكوكب المحتمل افتراضاً أن يكون هو الربِّ، لكنّه وجده في آخر الليل ومع ظهور الفجر قد بدأت أنوار الصباح تغلبه حتى أخفته فأقلَّ «أي: غاب».

فلمّا أقلَّ، قال للذين يتدرّج معهم في البحث مسائراً طريقتهم بشأن تعظيم الأجرام السماوية إلى مستوى الربوبية: لو كان هذا الكوكب هو الربِّ الذي نبحت عنه، لما استطاع ضوءُ النهار أن يغلبه حتى يجعله أفلاً، فربُّ الكون لا يمكن أن يُغلبَ من ذي قوّةٍ أعظمَ من قوّته ولو بوجهٍ من الوجوه.

إذن: فأعظم هذه الكواكب لا يستحقُّ أن يكون هو الربِّ الذي يُعبَد، ويُرجى نفعه، ويُخشى ضرُّه، وأنا لا أحبُّ أن أتخذَ لنفسي ربّاً لا يحِملُ في ذاتِهِ صفاتِ الربوبية المنزهة عن النقص.

وإذا كان أعظم هذه الكواكب هكذا فالكواكب الأخرى التي هي دونه أولى منه بأن لا يكون شيءٌ منها ربّاً بالضرورة العقلي.

ثمَّ ترقَّبَ حتى بلغَ القمرُ ذروته في منتصف الشهر، فجمع الذين سبق أن حاول معهم التدرُّج في البحث عن الكائن العظيم الصالح لأن يكون هو ربِّ هذا الكون، فلمّا رأى القمرَ بازغاً «أي: طالعاً منيراً» يعُمُّ نورُهُ الأرضَ، قال لهم على سبيل الطرح الاحتمالي الافتراضي: لنفترض أن هذا القمر البازغ الذي يملأُ نُورُهُ الأرضَ هو الربِّ. وسَمَرَ مع الذين اختارهم للبحث من قومه في ضوء القمر، يتحدّث معهم عن صفات الربِّ وخصائصه، بغية الوصول إلى الحقيقة، فإذا كان القمر صالحاً لأن يكون ربّاً أتخذَهُ رَبَّهُ دواماً، ووجّه وجهه له في العبادة والدعاء.

لكن حصل في آخر الليل للقمر مثل الذي حصل سابقاً للكوكب الكبير الذي كان قد اختاره من دون سائر الكواكب، فغاب القمر أفلاً، فقال للذين اختارهم من قومه لمشاركته في التأمل والبحث: لو كان هذا القمر هو الربِّ

لما استطاع ضوء النهار أن يغلبه، ولما استطاع شيء من الكون أن يحجبه بغد ظهوره.

إذَنْ: فالقمر لا يستحقُّ أن يكون هو الرَّبِّ، وأن لا أُحِبُّ أن اتَّخِذَ لِنَفْسِي رَبًّا لا يَحْمِلُ في ذاته صفات الربوبية المنزهة عن النقص.

وأعلن إبراهيم عليه السلام رفضه لأن يكون القمر هو رَبِّ الكون وقال: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧٧﴾ وهو بهذا يدعو ربّه ضمناً أن يهديه إلى الحقّ.

بعَدَ ذلك ترك الليل وما يظهر فيه من أجرام سماوية، وقال لمرافقي تأملاته: ليس شيء مما يظهر في السماء ليلاً صالحاً لأن يكون هو الربّ المتصرّف في الكون، فلتتحوّل إلى النهار، بحثاً في السماء أيضاً، ومعلومٌ أنّ السّماء لا يظهر فيها نهاراً إلاّ الشمس، فلمّا رأى الشمس بازغة قال لهم على سبيل الطرح الاحتماليّ الافتراضي: لنفترض أنّ هذه الشمس المشرقة هي الربّ: فهي أكبر من أكبر كوكب سماويّ ظهر لأعْيُنِنَا، وهي أكبر من القمر، وظلّ يُراقب الشَّمْسَ ويتحدّث عن حركتها وعن آثارها وصفاتها، فلمّا غرَبَتْ آفَلَةٌ آخر النهار أبان لهم أنّها لا تَغْرُبُ إلاّ بسبب شيء قد حَجَبَهَا عن أعْيُنِنَا، والحاجب القادر على أن يَسْتُرَ ضياء المحجوب المؤهل بذاته للظهور للأعين، لا بُدَّ أن تكون فيه قُدْرَةٌ تَغْلِبُ ضوءه، ورَبُّ الكون لا يمكن أن تغلبه قدرة هي من خلقه، وأنا لا أُحِبُّ أن اتَّخِذَ لِنَفْسِي رَبًّا لا يحمل في ذاته صفات الربوبية المبرّأة من النقص، أمّا عدم رؤيتنا له فيرجع إلى عجزنا نحن عن رؤيته.

وبهذه الرّحلة البحثية القائمة على طرح الاحتمالات الافتراضية أسقط إبراهيم عليه السلام كلّ أوهام قومه التي ساقتهم إلى جعل طائفة من الكواكب السماوية أرباباً وآلهة لهم من دون الله، وبأسلوبه الإقناعي ذي النّفس الطويل

أبان لهم أنه لا يَصْلُحُ شيءٌ من الظواهر الكونية المشهودة لأن يكون هو الرب الخالق المدبّر للكون، والمتصرّف بكل ما فيه .

ثم أعلن لقومه براءته من كلّ ما يُشْرِكُونَ، وأنه وجّه وجهه للخالق الربّ غير المدرك بالحواس، والذي فطر السّمَاوات بكلّ ما فيها، وفطر الأرض بكلّ ما فيها، وأعلن لهم أنه قد وجّه وجهه لهذا الفاطر الغيبيّ مؤمناً به، يعبدوه ويدعوه ويرجوه ويتوكّل عليه .

دلّ على موقفه النهائي هذا بعد رحلة البحث التأمليّ قول الله عزّ وجلّ في النصّ .

﴿... قَالَ يَتَقَوِّرُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَبِيئًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ .

وبعد أن وصل في رحلته التأملية إلى هذا القرار الجازم، مسيراً قومه في طريقة تفكيرهم في أجرام السماء، بحثاً عن الربّ الخالق الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، بدؤوا بمحاجته ومُجادلته بالباطل، دون أن يقدموا حُجَّةً تُصَحِّح مقولاتهم في أربابهم .

ويظهر أنهم قالوا له : كيف توجه وجهك في عبادتك لربّ لا تراه!؟

والجواب على هذا سهلٌ يسير، إذ يكفي أن يقول لهم : إِنِّي عَلِمْتُ مِنْ ظَاهِرَاتِ خَلْقِهِ، وَظَاهِرَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ أَنَّهُ كَامِلٌ فِي ذَاتِهِ، وَكَامِلٌ فِي صِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ الْمَوْجُودُ الْأَعْظَمُ الْأَكْبَرُ الْمُنَزَّهَ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ فِي ذَاتِهِ وَفِي صِفَاتِهِ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ .

فإذا قالوا له : لكنك لا تراه .

فجوابه : أليس هو يراني، وَيَعْلَمُ أَنِّي أَعْبُدُهُ، وَأُوجِّهُ لَهُ وَجْهِي فِي عِبَادَتِي لَهُ، وَقَدْ هَدَانِي إِلَى مَعْرِفَةِ وَجُودِهِ، وَمَعْرِفَةِ صِفَاتِهِ، مَعْرِفَةً عَقْلِيَّةً

فكرية، من ظاهرات خلقه وتصاريفه، في كونه، وآثار ربوبيته الدائمة لكل شيء.

واكتفى النص القرآني بالإشارة إلى هذه الفقرة من فقرات الإجابة فقال تعالى في هذا:

﴿ وَحَاجَهُ قَوْمُهُ قَالَ آتُجِئُنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِنِ . . . ﴾

وهنا تحوّل قومه إلى تخويفه بأربابهم، فقالوا له: ألا تخاف أن تُصيبك آلهتنا بسوء، وقد عبدها آباؤنا وأجدادنا من قبل؟!!

فأجابهم: بأنه لا يخاف أربابهم التي جعلوها شركاء لله، لأنها لا تستطيع أن تنزل به سوءاً إلا أن يشاء ربُّه فاطر السماوات والأرض شيئاً من ذلك، وأبان لهم بأن ربَّه الخالق لكل شيء، والذي هو ربّ كل شيء، قد وسع كل شيء علماً، لذلك فهو يخافه وحده، ويتوكل عليه وحده.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ حكاية لما أجابهم به:

﴿ . . . وَلَا خَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ

عِلْمًا . . . ﴾

وبعد هذا ذكّرهم بدليله البرهاني الذي سبق أن أبان لهم فيه أن آلهتهم لا تستحق أن تكون أرباباً من دون الله حتى تكون آلهة تُعبد، وأبان لهم فيه أن الربّ الخالق للكون والمتصرّف فهي، هو ربّ لا تُدرّكه الأبصار، وهو غيبٌ عن كلّ الحواس، لكن تُدرّك العقول والأفكار وجودُه وصفاته الجليلة، وإذ ذكّرهم بدليله البرهاني وجه لهم اللوم على عدم تذكّرهم، فقال لهم: أَنْصِرُونِ عَلَى بَاطِلِكُمْ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ، دلّ على هذا قوله لهم كما جاء في النصّ:

﴿ . . . أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾؟!!

وبعد هذا أبان لهم أنهم هم الأحقّ بأن يخافوا عذاب الخالق الربّ، إذ

أَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مِنْ حُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ، حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُمْ بِهَذَا السُّلْطَانِ عُذْرٌ يَعْتَدِرُونَ بِهِ عِنْدَهُ .

أَمَّا تَرْكُهُ هُوَ عِبَادَةَ آلِهَتِهِمْ، فَهُوَ تَرْكٌ مُقْتَرَنٌ بِدَلِيلٍ بُرْهَانِيٍّ، يُوْجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ عِبَادَتَهَا، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ شَرِيكَةً لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَهِيَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تَضُرَّهُ بِشَيْءٍ حَتَّىٰ يَخَافُهَا، وَالْحُجَّةُ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُ بِعِبَادَتِهَا، وَلَمْ يَأْذُنْ لَهُ بِعِبَادَتِهَا، وَإِذَا عَبَدَهَا مِنْ دُونِهِ عَرَضَ نَفْسَهُ لِعَذَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ، فَهُوَ إِذَا بِإِيمَانِهِ بِرَبِّهِ وَبِعِبَادَتِهِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَكُونُ آمِنًا مُطْمَئِنًّا، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ .

وَبَعْدَ هَذِهِ الْأَدْلَةِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، الَّتِي كَشَفَتْ أَنَّ طَرِيقَتَهُ هِيَ الْحَقُّ، وَأَنَّ سُلُوكَهُ هُوَ السُّلُوكُ الْوَاجِبُ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ طَرِيقَةٌ بَاطِلَةٌ، وَأَنَّ عِبَادَتَهُمْ لِآلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ ظُلْمٌ وَعُدْوَانٌ عَلَىٰ حَقِّ الرَّبِّ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجَهَ لَهُمْ سُؤَالَ عَنِ الْأَحَقِّ بِالْأَمْنِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي النَّصِّ :

﴿ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

وبعد أن عرض النصّ عنوانين طريقتي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الاستدلالية والحكيمة، الملائمة لأسلوب تفكير قومه، وعرض حججه في مجادلته لهم، أثنى الله عليه بقوله :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

أي : فبحكمته وعلمه يُمْنُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِفَضْلِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ .

النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ / مصحف/ ٤٧ / نزول):

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِيفٍ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلَىٰ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْمَلَائِكَةِ ﴿٧٧﴾ الَّتِي خَلَقَنِي فَهِيَ تَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُسْتَنِي ثُمَّ يُنْحِنِي ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنَ بِالصَّلَاحِ ﴿٨٣﴾ ۞

أبان هذا النصُ مُناظرةً جداليةً إقناعيةً جادَلَ بها إبراهيم عليه السلام مُشركي قومه بادِّئاً بأبيه أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ مِنْهُمْ .

وقد بدأت مُناظرته لهم بأسلوب طرح الأسئلة عليهم حول الشيء الذي يعبدونه بالدعاء، وبالعكوف عليه وملازمة التوجُّه له، فقال لهم مجتمعين:

﴿... مَا تَعْبُدُونَ؟!﴾

أي شيء تعبدون؟

كلمة «ما» هنا استفهامية، وما الاستفهامية يُستفهم بها عن غير العاقل لبيان جنسه أو نوعه أو شخصه، ويستفهم بها عن حقيقة الشيء، أو عن صفاته وخواصه التي تميزه، أو عن المراد باللفظ إذا كان غير معلوم المراد، وهي هنا مستعملة للاستفهام عن جنس ما يعبدون في معبدهم أو عن نوعه، أو عن شخصه، فدلَّ هذا على أنَّه لم يكن من الذين يدخلون معبدهم ليعلم ما يعبدون وما يفعلون في عبادتهم لها، ورُبَّما كان يعلم ولكنه تجاهل ليُجادلهم في شأن معبوداتهم، وليكشف لهم ما هم عليه من باطل.

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِيفٍ ﴿٧١﴾ ۞

فَنَظَّلُ لَهَا: أي: فَنَدَاوِمُ طَوَالَ النَّهَارِ لِأَجْلِ عِبَادَتِهَا، يُقَالُ لُغَةً: ظَلَّ نَهَارَهُ يَفْعَلُ كَذَا، لَا يُقَالُ مِثْلَ هَذَا إِلَّا لِعَمَلِ النَّهَارِ.

عَاكِفِينَ: أي: مُلَازِمِينَ عِبَادَتِهَا، يُقَالُ لُغَةً: عَكَفَ عَلَى الشَّيْءِ يَعْكَفُ وَيَعْكَفُ عَكَفًا وَعُكُوفًا، إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مَلَازِمًا لَهُ، لَا يَصْرِفُ تَوَجُّهُ نَفْسِهِ عَنْهُ، كَأَنَّهُ حَاسِبٌ نَفْسَهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ عِبَادَةِ الْعَاكِفِ لِلْمَعْكُوفِ عَلَيْهِ.

فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ: أي: فَنَدَاوِمُ طَوَالَ النَّهَارِ لِأَجْلِ عِبَادَتِهَا عَاكِفِينَ عَلَيْهَا، مُلَازِمِينَ لَهَا مَلَازِمَةَ الْمُقِيمِ الَّذِي أُعْطِيَ تَوَجُّهُ نَفْسِهِ وَحَوَاسِسَهُ لِمَا هُوَ عَاكِفٌ عَلَيْهِ.

فَأَغْضَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَوَّغَانِهِمْ وَتَهْرُبِهِمْ فِي الْإِجَابَةِ، وَانْتَقَلَ إِلَى مُحَاصِرَتِهِمْ بِسُؤَالِ صَرِيحٍ وَاضِحٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْمَرَاوِغَةَ فِي الْإِجَابَةِ عَلَيْهِ:

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

كَلِمَةُ «هَلْ» يَسْتَفْهَمُ بِهَا عَنْ وَجُودِ الشَّيْءِ أَوْ عَنْ وَجُودِ وَصْفٍ لَهُ.

فَوَجَّهَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُؤَالَ لَهُمْ بِكَلِمَةِ «هَلْ» مُسْتَفْهَمًا عَنْ وَجُودِ صِفَةِ السَّمْعِ فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ، إِذْ يَدْعُونَهَا فِي عِبَادَتِهِمْ لَهَا، وَعَنْ وَجُودِ نَفْعٍ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ قَبْلِهَا حَتَّى يَدْعُوهَا فَتَسْتَجِيبَ لَهُمْ فَتَنْفَعَهُمْ، أَوْ وَجُودِ ضَرِّ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ قَبْلِهَا حَتَّى يَدْفَعُوهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِدُعَائِهَا وَعِبَادَتِهَا.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا فِي الْإِجَابَةِ عَلَى اسْتَفْهَامِهِ أَنْ يَدْعُوا بِأَنَّهُمْ يَحَقِّقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِعِبَادَتِهَا جَلْبَ نَفْعٍ أَوْ دَفْعَ ضَرِّ.

إِنَّمَا أَجَابُوا بِالنَّفْيِ أَوْ بِعَدَمِ الْعِلْمِ، وَأَبَانُوا أَنَّهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ لَهَا يَقْلُدُونَ آبَاءَهُمْ، فَهَمَّ يَفْعَلُونَ بِالتَّقْلِيدِ مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ يَفْعَلُونَ مِنْ دُعَائِهَا وَالْعُكُوفِ عَلَيْهَا، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ ادِّعَاءَ أَنَّ آبَاءَهُمْ لَوْ لَمْ يَجِدُوا نَفْعًا لَهُمْ مِنْ عِبَادَتِهَا مَا عَبَدُوهَا.

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٦) .

أي: نحن لا نرى أن عبادتها تجلب لنا نفعاً أو تدفع عنا ضرراً، بل وجدنا آباءنا يعبدونها فنحن نقلدهم في دعائها والعكوف عليها، ونحن نقول بأن آباءنا لم يكونوا يفعلون إلا ما فيه جلب نفع لهم، أو دفع ضرر عنهم.

حرف «بل» في عبارة ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعطف على محذوف منفي، وهو نحو ما سبق تقديره.

هنا وجد إبراهيم عليه السلام أنه ملك صيدهم الحجة الدامغة، إذا اعترفوا بأنهم لا يرون أن عبادتها تجلب نفعاً أو تدفع ضرراً، إنما يقلدون في عبادتها آباءهم، فأبان لهم أن التقليد الأعمى لا يُغني عن الحق شيئاً:

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُؤْتِنِي ثَمَرُ بُحَيْرِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ .

والمعنى: أتبعتم آباءكم بالتقليد الأعمى على غير علم ولا بصيرة، أو تعبدون أصناماً لا ترون أنها تجلب لكم نفعاً أو تدفع عنكم ضرراً، لمجرد أنكم وجدتم آباءكم يعبدونها، أفرايتهم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين.

«الفاء» في عبارة ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ فاء فصيحة، تعطف على محذوف ظهر لي بالتأمل أنه يتضمن تلوياً لهم على تقليدهم الأعمى لآبائهم، كما ذكرت آنفاً في البيان التدبري.

وبما أنهم مشركون يعبدون أصنامهم، وربما كانوا كلهم أو بعضهم يعبدون أيضاً الله رب العالمين في بعض أحوالهم، استثنى إبراهيم عليه السلام

من معبوداتهم رَبِّ العالمين، مبيّناً من صفاته الجليلة ما يدُلُّ على أَنَّهُ هُوَ الإله الواحد، الذي تجب عبادته وحده، إذ لا يستحقُّ غيره أن يُعْبَدَ معه، ولا أن يُعْبَدَ من دونه.

إِنَّ رَبَّ العالمين هو الذي بيده النفع والضّر، والحياة، والموت، والبعث، والحساب، وفصل القضاء، والجزاء يوم الدين.

فذكر عليه السّلام من صفات ربِّ العالمين ذات الآثار في عبادته، أَنَّهُ هو الذي خلقه، فهو يهديه إلى سُبُل معاشه ومعاذه، وَأَنَّهُ هو الذي يُطْعِمُهُ ويسقيه، بما هيأ في كونه من أسباب طعام وشراب، وَأَنَّهُ هو الذي يشفيه إذا عَرَضَ له المرض، وتادَّبَ عليه السّلامُ مع رَبِّه، فلم ينسُبْ إليه الإِمرضَ، فلم يَقُلْ: وَإِذَا أَمْرَضَنِي فَهُوَ يَشْفِينِي، بل قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾.

وذكر من صفاته أَنَّهُ هو الذي يميتُه إذا جاء أَجَلُهُ، ثم يُحْيِيهِ لِيَوْمِ الحساب والجزاء، وَأَنَّهُ هو الذي يطمع أن يغفر له كلَّ خطيئاته يوم الدين، فألقى عليه السّلام في آذانهم عقيدة الدينونة والجزاء في اليوم الآخر، وفتح لهم باب الرجاء بالعفو والغفران إذا آمنوا وتابوا إلى بارئهم، من خلال تعبيره عن نفسه وعن عقيدته الإيمانية.

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبراهيمَ فِي رِيبِهِ أَنِ اتَّخَذَ اللهُ الْمَلِكَ إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبراهيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى: أي: أَلَمْ تَرَ رؤيةً تفكيريةً ناظرًا بها نظر متعجب إلى الذي...

حاج إبراهيم: أي: جادله فأدلى كلُّ منهما بحججه.

فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ: أي: استولت عليه حجة إبراهيم وغلبته، فانقطع
وسكت متحيراً مندهشاً، يقال لغة: بهت يبهت، وبهت يبهت، إذا أخذ
بالحجة فشحب لونه، وانقطع وسكت متحيراً مندهشاً.

تحليل النص:

الاستفهام في عبارة: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا يتضمّن دعوة للتفكير الواضح
المشابه للرؤية البصريّة، في نظر فكريّ يستثير العجب من أمر الملك الجبار
الذي جادل إبراهيم عليه السلام في ربه، مجادلةً بالباطل جعلته يبهت أمام
حجة إبراهيم منقطعاً متحيراً مندهشاً.

قالوا: كان الملك الذي حاج إبراهيم عليه السلام «نمرود» ملك بابل
الجبار الذي كان في عهد إبراهيم عليه السلام.

وقد دلّ النصُّ على أنّه جادل إبراهيم في ربه، أي: في وجود ربه، أو
في صفاته، ويظهر أنّه كان يدعي لنفسه أو لآلهة قومه التي يعبدونها صفات
الرّبوبيّة، وقد اتخذوا لآلهتهم التي هي أربابهم أوثاناً يدعونها ويتقربون لها
بالقربان، ويظلمون لها عاكفين.

والتصّ هنا يعرض لقطعة من أواسط المُجادلة حتّى آخرها، التي انتهت
بانقطاع «نمرود» وتحيرِه ودهشته.

ويظهر أن سيدنا إبراهيم قد بدأ حديثه مع «نمرود» بدعوته ودعوة من
حواله إلى نبذ ما يعبدون من دون الله، وترك عبادتها، وإلى عبادة الرّب
الخالق الذي بيده الرزق والمعونة والعافية والحياة والموت، وبيده البعث إلى
الحياة بعد الموت للحساب والجزاء على ما يعمل الناس في الحياة الدنيا حياة
الابتلاء.

فتجاهل «نمرود» بكِبْرِهِ الرَّبَّ الذي دعاه إبراهيم إلى عبادته وخذَهُ لآ شريك له، لقد استكبر بسبب أن آتاه الله عزّ وجلّ نِعْمَةَ الْمُلْكِ، فجعل يُجادل في وجود ربّه أو في صفاته السنيّة، التي تظهر آثارها في تصاريفه في كلّ شيءٍ في الكون، ونستطيع أن نكتشف المحذوف من الحوار الجدلّي بالتأمل، ثمّ نصله بالمذكور في النص:

قال «نمرود» لإبراهيم: من هذا الرّبُّ الذي تدعو إلى عبادته وحده، ونبذ سائر الأرباب والآلهة، هل هو مما تراه العيون؟

قال «إبراهيم»: ليس شيءٌ ممّا تراه العيون يصلح لأنّ يكون ربّاً أو إلهاً، وقد سبق أن أثبت لقومه أنّ الكواكب التي اتّخذها قومه أرباباً لا يصحُّ عقلاً أنّ تكون أرباباً أو تكون لها بعضُ صفاتِ الرّبوبيّة، من خلال تأمّلاته في النجوم كما جاء في النصّ الأول الذي اشتملت عليه سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

ويظهر أنّ إبراهيم عليه السلام قد أبان لنمرود أنّ ربّه ليس شيئاً ممّا يمكن أن يدركه بالأبصار.

بعد هذا نرى أنّ طبيعة المحاجة لا بدّ أن تنتقل إلى السؤال عن صفات الرّبِّ، ذات الآثار في الظواهر الكونيّة.

ويظهر أنّ «نمرود» سأل إبراهيم عليه السلام قائلاً: ما هي إذن صفاتُ ربِّك الذي تتحدثُ عنه، وتدعوننا إلى الإيمان به، وإلى عبادته وحده؟

قال إبراهيم: ﴿رَبِّي الَّذِي يُعْجِبُ وَيُعْمِيتُ﴾.

فلفت إبراهيم عليه السلام نظر «نمرود» ومن حوله إلى ظاهرتي الإحياء والإماتة في الكون، بوصفهما ظاهرتين تكشفان عَجْزَ الأحياء الكونيّة عن أن يكون شيء منها أزليّاً، أو خالداً أبديّاً، فلا شيء منها يصلح لأن يكون ربّاً،

وأما الكائنات غير الحيّة فهي دون الأحياء في الرتبة فلا يصلح شيء منها لأن يكون ربّاً.

إنّ ظاهرتي الحياة والموت ظاهرتان شاملتان لكلّ الأحياء المشهودة في الكون، وإنّ المتأمل في ظاهرة الحياة يرى أنّها من أعجب الظواهر التي تدلُّ على الرّب الخالق، إذ ما من أحد غير الرّب الخالق الذي لا تُدرّكه الحواس يستطيع أن يوجد حياة في مادّة غير حيّة، وما من حيّ يستطيع أن يُحافظ على حياته بوسيلة ما من الوسائل، فيمنع عنها الموت الذي قضاه الرّب على كلّ الكائنات الحيّة دون استثناء فيما نشاهد من أحياء.

وكان لإبراهيم عليه السلام في عرض هاتين الظاهرتين تأملاتُه الفلسفيّة، القائمة على التفكير العميق في سرّ ظهور الحياة في مادّة لم تكن حيّة، وسرّ انتهاء الحياة بالموت حتماً، إذ الموت غاية كلّ حيّ لم يكن حيّاً ثمّ كان في نظام هذا الكون.

ورأى إبراهيم عليه السلام أنّ أفكار المفكرين عاجزة عن إدراك سرّ الحياة، وعاجزة عن التوصل إلى إيجادها في المادّة الجامدة، وأنّ الحياة لا تظهر إلاّ اشتقاقاً من الأحياء بالتناسل، ضمن نظام الخالق الرّب جلّ جلاله، وبالوسائل التي حدّدها لنظام التناسل.

ورأى أنّ الموت لا يمكن دفعه متى جاء الأجل المقدّر المجهول للأحياء مهما اتّخذوا من وسائل لإبقاء الحياة.

وهنا وجد «نمرود» الملك الجبّار أنّ بإمكانه تجاهل النظرة الفلسفيّة العميقة التي نبّه عليها إبراهيم عليه السلام، ورأى أنّ بإمكانه أن يُعَالِط ويتلاعب في موضوع الحياة والموت، وأنّ يُقدّم صورة قد يسمّيها الناس في مجازات العبارات إحياء، وصورة قد يُسمّيها الناس في مجازات العبارات إماتة، كأن يعفو عن محكوم عليه بالموت فيسقط حكم الموت عنه، فيكون

بذلك قد أحياء، وكان يأتي ببريء لا ذنب له فيأمر بقطع رأسه فيميتة، أو أن يتخذ أسباباً تتناسل بها مواليد، وأسباباً تموت بها أحياء.

وغرض «نمرود» أن يثبت لإبراهيم بحجة خُلبيّة وهمية أن الإحياء والإماتة ظاهرتان ليستا من خصائص الرب، بل يشاركه فيهما غيره.

وفطن إبراهيم عليه السلام أن «نمرود» قد يستطيع بهذه الحيلة المُغالطية القائمة على التلاعب بالألفاظ والمراوغة أن يُطيل الأخذ والردّ في محاجته الجدلية، وقد يؤثر بها على عقول من حوله من ملأ قومه وعامتهم، ويخدعهم بالتلاعب في مفاهيم الألفاظ، فأسعفته حكمته وفطنته أن يُعرض عن المحاجة في ظاهرتي الحياة والموت، ويتحوّل إلى عرض ظاهرة أُخرى لا يستطيع «نمرود» أن يُغالط فيها، فذكر ظاهرة شروق الشمس وغروبها.

﴿ قَالَ لِأَبْرَاهِيمَ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ . ﴿١٥٨﴾ .

أي: إن من ظواهر ربوبية الله الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له، أنه يأتي بالشمس من المشرق، فإن كنت ترى لغير الله ربوبية في الكون فاعمل بشخصك وبعجنودك، أو ادع أربابك من دون الله، حتى أتوا بالشمس من المغرب على عكس نظامها اليومي، فالرب الذي يجعل الشمس تأتي من المشرق صباحاً لا بُدّ أن يكون قادراً على أن يأتي بها صباحاً من المغرب.

وبما أن «نمرود» قد اتخذ في الإجابة الأولى حيلة المغالطة القائمة على التلاعب في مفاهيم الألفاظ لإسقاط حجة إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يستطع أن يُقدّم بالنسبة إلى ظاهرة الشمس مغالطة مماثلة، وهو يعلم أن نظام الشمس ثابت، وأن أرباب قومه التي يعبدونها من دون الله لا تستجيب له في جعلها تُشرق من المغرب، ولم يكن أمامه إلا أن يحتار وينقطع ويبهت مدهوشاً.

قال الله عز وجل مُبَيَّنًا حالته هذه:

﴿ فَبُهِتَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَآ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

قد يُقالُ: كان باستطاعة «نمرود» أن يقول لإبراهيم عليه السلام: فليأتِ ربُّكَ بالشمس من المغرب، ويرُدَّ عليه سؤال التحدي.

وأقول: يظهر أن «نمرود» فطن إلى أنه لو عكس على إبراهيم سؤال التحدي، لاستطاع إبراهيم أن يسأل ربه فيأتي بالشمس من المغرب، فإذا فعل ذلك أفسد عليه شعبه، وجعلهم يؤمنون بما يدعوهم إليه إبراهيم، وبهذا يفقد ملكه في قومه، فآثر أن ينقطع في المحاجة، ويتخذ وسائل أخرى تتناسب مع سلطانه وجبروته في بلاده، والله أعلم.

* * *

النصوص الرابع والخامس والسادس

١ - قول الله عز وجل في سورة (الصفات/ ٣٧/ مصحف/ ٥٦ نزول)
عطفاً على الكلام على نوح عليه السلام:

﴿ وَإِذْ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَبْفِكَ ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَأَى إِلَآءَ الْهِنَمِ فَقَالَ ءَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ ءَلَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرُبًا يَالْمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا إِنبؤا لِمَ بَدَّيْنَا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَآ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

وإنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ: أي: كان إبراهيم على ملة نوح عايه السلام

التي بقيت أصولاً اعتقادية منها معروفة عند بعض قومه، فأخذ بها واتبعها، ثم نبأه الله وبعثه رسولاً.

أنفكاً آلهة: الإفك الكذب، أي: آلهة تصنعونها أنتم وتكذبون بجعلها آلهة.

فراغ إلى: أي: فمال سراً إلى. فراغ عليهم: أي: فمال سراً بحركة روغان خفيفة سريعة وأقبل عليهم ضرباً. يزيقون: أي: يسرعون المشي.

٢- وقول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) عطفاً على الكلام على موسى وهارون عليهما السلام:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الصَّائِلُ إِلَيْهِ أَسْتَأْذِنُ لَهَا عَيْدِيكُمْ ﴿٥٧﴾ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَىٰ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ بَلْ زَيْكُمُ رَبِّياً لَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٦١﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَازاً إِلَّا كَثِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٤﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٦﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٧﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٧٠﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ﴿٧٢﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٣﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

جذازاً: الجذاز ما تكسر من الشيء الصلب.

ثم نكسوا على رؤوسهم: أي: انقلبوا إلى الباطل بعد أن أدركوا أنهم الظالمون.

وأرادوا به كيداً: الكيد تدبير أمر فيه مكروه لمن دبر ضده.

٣ - وقول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) عطفاً على عرض لقطة من قصة نوح عليه السلام وقومه:

﴿وَإِذْ هَبْنَا دُورَةَ ابْنَةَ لُوطٍ وَأَخَاهُ حَبِيبَةَ ابْنَةَ لُوطٍ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمَا مَا كَانُوا فِي السُّبُلِ يَفْعَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

وبعد فاصلٍ تضمّن كلاماً يتعلّق بالمشرّكين إبان نزول سورة (العنكبوت) عاد النصّ فتابع كلاماً يتعلّق بإبراهيم عليه السلام وقومه، فقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّبَعْضٍ وَبَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿فَمَنْ لَّمْ يُؤْمَرْ بِاللُّغْوِ فَقَالَ أَنِّي مُهَاجِرٌ وَإِنِّي لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

وتخلقون إفكاً: أي: وتفترون بأصنامكم كذباً على الحقيقة إذ تجعلونها آلهة تُعبد، مع أنّه لا إله يُعبدُ بحقٍ وصدقٍ إلاّ الله لأنّه هو الربُّ وحده.

مودة بينكم: أي: إنّما جعلتم الإيمان بالأوثان وعبادتها وتعظيمها رابطة مودة اجتماعية واصله بين أفرادكم. البين: من الأضداد فيكون بمعنى الفصل والانقطاع، ويكون بمعنى الوصل والاجتماع، والمعنى في النص هنا على الوصل والاجتماع فيما يظهر بالتأمل.

فالوحدة الاعتقادية ولو كانت على عقيدة باطلة تمثل رابطة من روابط
المودة الاجتماعية .

نظرة عامة إجمالية :

هذه النصوص الثلاثة من (الصافات، والأنبياء، والعنكبوت) مع النص
الذي سبق شرحه من سورة (الشعراء) نُصُوصٌ متكاملة فيما بينها، وهي تعبر
عن دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه، ومجادلته لهم، واتخاذ وسيلة عملية
لإقناعهم بأن أوثانهم التي يعبدونها ملاحظين ما ترمزُ إليه من أشياء، لا
تستطيع أن تنصُر نفسها ممن يكسرها ويحطمها ويجعلها جُذاذاً، فقد فعل بها
إبراهيم عليه السلام ذلك عند خروج الناس إلى عيدٍ لهم، إذ أُسْرِعَ بِخَفَّةٍ
وَحُفْيَةٍ إلى معبدهم فجعل يكسرها ويحطمها بأداة أمسكها بيمينه حتى جعلها
جُذاذاً قطعاً مكسرة، إلا صنماً كبيراً بينها، فقد تركه قائماً سالماً، ورُبَّما علق
عليه الأداة الحديدية التي كسر الأصنام بها، ليُلقي عليه في أسلوب إقناعه
الجدلي تُهَمَّةٌ أنه هو الذي حطّم الأصنام انتصاراً لكبريائه، ثم قدّم لقومه عند
محاكمته صورة جدالٍ تَهَكُّمِيٍّ بعقولهم وبمفهوماتهم الباطلات .

وتبيّن هذه النصوص أن القوم قد غضبوا من عمل إبراهيم عليه السلام
بأوثانهم، وأرادوا أن ينصروا أوثانهم المحطّمة بقتله أو حرّقه .

ثم استقرّ رأيهم على تحريقه داخل بناء بينونه لهذه الغاية، يجعلونه
بمثابة فُرْنٍ كبير يملؤونه حطباً، ويوقدونه حتى يكون جِمْراً ولهباً، وقد فعلوا،
وساقوا إبراهيم عليه السلام مقيداً، ووضعوه على آلة أو حَمَلُوهُ بأيديهم
وقدّفوه من مكانٍ مُرتفع في البناء الذي صنعوه وأوقدوه .

وقال الله عزّ وجلّ للنار كوني بزداً وسلاماً على إبراهيم، فكانت كما
أمرها الله العزيز الجبار الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كُنْ فيكون .

وخرج إبراهيم عليه السلام من النار طليقاً لم تمسه النار بأذى، وأما

الذين أرادوا تحريقه فكانوا هم الأخسرين والأسفلين .

وتابع إبراهيم عليه السلام دعوته في قومه، ومجادلته لهم زمناً يسيراً، لعلَّ آيةَ إنقاذه من الناس قد أفنعتهم بأنَّهم مُبْطَلون وأَنَّه رَسُولٌ من عند الله يدعوهم إلى الحقِّ، ويُبَيِّنهم بما هو حقٌّ، ولَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ قَوْمٌ مَيُّوسُونَ من استجابتهم لدعوة الحقِّ وَأَذِنَ اللَّهُ له بالهجرة من أرضهم، أَعْلَنَ أَنَّهُ سَيُهَاجِرُ، وَأَنَّ الله سَيَهْدِيهِ إلى مَهَجَرٍ مُبَارَكٍ، وقد آمن به من أهله ابْنُ أَخِيهِ لوطٌ عليه السلام، فخرج مهاجراً معه، ضَمَنَ من اتَّبَعه من أهله بالهجرة، وانتهت به رِحْلَةُ الهجرة إلى الأرض المقدَّسة في بلاد الشام آخر الأمر .

نظرة تفصيلية من خلال فقرات النصوص :

دلَّت النصوص على أن إبراهيم عليه السلام تَدَرَّج مع قومه في أسئلته لهم عن معبوداتهم، فقد كانوا يعبدون آلهة كثيرة، وينحتون لها تماثيل .

وعند المؤرخين أن نشأته مع أبيه وإخوته كانت فيما بين النهرين، في «أورالكلدانيين» والنهران هما دجلة والفرات، وجاء عند المؤرخين من أسماء آلهتهم: «بيل - نبو - مردوخ» وأنهم صنعوا لها أصناماً عديدة، وأنهم شادوا لها هياكل (أي: بيوتاً كبيرة) كالمعابد الكبيرة المعروفة عند كل الأمم .

فسأل إبراهيم عليه السلام قومه بادئاً بأبيه فقال لهم كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦): ﴿... مَا تَعْبُدُونَ﴾؟ .

أي: أي شيء تعبدون؟ وقد سبق بيان هذا لدى شرح النص .

وقال لهم كما جاء في سورة (الصفات/ ٣٧): ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؟ .

فأعاد الاستفهام بصيغة مؤكدة، دلَّ عليها إضافة «ذا» إلى «ما» الاستفهامية، لتأكيد الاستفهام قاصداً معرفة الأشياء التي تَرْمُزُ إليها الأصنام التي يعبدونها .

ثم لما شاهد بضخبتهم الأصنام التي يعبدونها في الهيكل الذي بنوه لعبادتها، قال لهم كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١): ﴿... مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ٥٦؟ .

فاسم الإشارة «هذه» دلّ على أنه صحبتهم إلى معبدهم، فرأى أصنامهم وعكوفهم عليها، والاستفهام هنا موجه للسؤال عن حقيقتها، أو عن صفاتها التي تؤهلها لأن تكون معبودة.

وسألهم عن أصنامهم الأسئلة التي جاء بيانها في سورة (الشعراء/ ٢٦):

﴿... هَلْ يَسْمَعُونَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٧﴾﴾ ٥٧؟ .

فكان جوابهم التلقائي أخذاً مما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦):

﴿قَالُوا: بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ٥٨ .

أي: لا يسمعون دعاءنا ولا ينفعوننا ولا يضرُّوننا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.

وعاب عليهم إبراهيم عليه السلام دعاءهم لها، وعكوفهم عليها، وأبان لهم أنّ هذا العمل هو عبادة لها من دون الله، وأنّ العبادة لا تكون إلاّ لله عزّ وجلّ، فأجابوه بقولهم كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ ٥٩ .

فاعترفوا بأنّ أفعالهم التي يفعلونها بأوثانهم هي عبادة لها، وأشاروا ضمناً إلى أنّ ولاءهم لآبائهم يُلزمهم بأن يعبدوا ما كان آباؤهم يعبدون.

فقال لهم إبراهيم عليه السلام كما جاء في سورة (الصفات/ ٣٧):

﴿أَيْفَاكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

أي: أتريدون آلهة تدعى لها الإلهية بالكذب، دون الله الحق الذي لا إله إلا هو.

فما ظنكم برب العالمين، الخالق للكون، والممد له بعطاءات ربوبيته دواماً؟. أي: هل يمكن أن يكون شيئاً من هذا الكون الخاضع لسُلطانِ ربوبيته، فابحثوا بأفكاركم، فهل تصلون إلى ظن بأن رب العالمين يمكن أن يكون شيئاً من الكون، أو أن يُمثل بشيء من الكون؟! وقال لهم كما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

ونفهم من المطويات في النص أنهم قالوا له: كيف تعيب علينا عبادتنا لأوثاننا ونحن نُقلد بعبادتنا لها آباءنا؟! أفكان آباؤنا من قبيلنا على ضلالٍ وكلُّ عاداتنا مأخوذة عنهم؟!

فأجابهم بما جاء بيانه في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

وبما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦) مشيراً إلى آباؤهم الأقدمين:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾

ويظهر أن قومه قد كبر عليهم أن يتهمهم ويتهم آباءهم القريبين

والأقدمين بأنهم في ضلالٍ مبين، وأن يُعلنَ عداوته لآلهتهم، فقالوا له كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

فأبان لهم أنه قد جاءهم بالحق، وأنه ليس من اللاعبين، وأبان لهم أنه ليس شيء من آلهتهم ربًّا يستحقُّ أن يُعبَد، بل ربُّهم هو ربُّ السماوات والأرض، وهو الذي فَطَرَهُنَّ، دل على هذا ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

«بل» حرف عطف قد يعطف به على منفي محذوف وهو هنا ما سبق بيانه، أي: بل ربكم الذي يجب أن تدعوه وتعبُدوه وخذَهُ هو الذي يُهَيِّمُن على السماوات والأرض بربوبيته دواماً، وهو الذي خلقهنَّ ابتداءً، فلا يكون بحالٍ من الأحوال شيئاً من السماوات والأرض، بل يجب أن يكون كائناً عظيماً غيرهما حتماً، وهذا ما تدلُّ عليه براهين العقل، وأنا على ذلك كُله من الشاهدين شهوداً فكرياً علمياً، كيف لا يكون من الشاهدين وقد نور الله بصيرته فأراه بها ملكوت السماوات والأرض، فعلم أن كلَّ شيء في السماوات والأرض هو مخلوق لله عزَّ وجلَّ وخاشع لسلطان ربوبيته دواماً.

وهذَّده قومُه بانتقام آلهتهم منه، كما أشعر النصَّ الذي في سورة (الأنعام/ ٦) وقال لهم كما جاء فيه:

﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا . . . ﴿٦﴾ ﴾ .

وقال في نفسه كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِبِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

إنه أقسم هذا القسم بينه وبين نفسه دون أن يُسمِعهم ما عزم عليه،

بدليل أنه لم يشهد عليه بهذا القول أحدٌ عند سؤالهم له عمَّن حطَّم أصنامهم .

ثم إن إبراهيم عليه السلام ترقَّب يومَ عيد لقومه يخرجون فيه إلى خارج المدينة، فدعوه إلى الخروج معهم يوم عيدهم كعادة سائر القوم، وكان قومه نجَّامين، ينظرون في النجوم، ويستخرجون من النظر إلى ظهور بعضها، واختفاء بعضها، واقتران بعضها ببعض، وافتراق بعضها عن بعض، تنبؤات غيبية مستقبلية ستحدث في الأرض أو في بعض سكانها، فأوهمهم أنه على طريقتهم في التنجيم، ليعتذر عن الخروج معهم إلى عيدهم، فنظر أمام جمع منهم ليلاً في النجوم، فأخبرهم عقب هذه النظرة الإيهامية أنه سيكون في يوم عيدهم سقيماً، لذلك هو لا يستطيع أن يخرج معهم إلى عيدهم، دلَّ على هذا ما جاء في سورة (الصفات/ ٣٧) :

﴿ فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٣٧﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٣٨﴾ .

فخرج القوم إلى عيدهم، وفرغت المدينة من أهلها، كما قال تعالى في سورة (الصفات/ ٣٧) :

﴿ فَنُؤَلِّقُ عَنْهٖ مَدْيَنَ ﴿٣٩﴾ .

وفي يوم العيد انطلق إبراهيم عليه السلام بخفية وخفة حركة، إلى معبدهم حيث وضعوا خيرة أصنامهم التي يعبدونها، الصغار منها والكبار . وكان قومه قد وضعوا بين يدي صنামهم في الهيكل طعاماً، زاعمين أن الأصنام تتنفع بشيء ما منها كالرائحة، قال تعالى في سورة (الصفات/ ٣٧) يصف ما فعل إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَرَأَى إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٤١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٤٢﴾ .

فلما رآها لا تأكل ولا تنطق، أخذ بيمنه أداة تحطيم وتكسير تتكسر بها الأصنام، فأقبل عليها بخفية وخفة ونشاط وسرعة حركة، وجعل يضربها

بِيَمِينِهِ حَتَّى جَعَلَهَا جَمِيعاً مَكْسَرَةً مُحْطَمَةً إِلَّا صِنماً كَبِيراً مِنْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى
فِي سُورَةِ (الصافات/ ٣٧):

﴿فَرَأَعِ عَلَيْهِمْ صَرِيحاً بِالْيَمِينِ ﴿٣٧﴾﴾

وكما قال في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

فلما رجعوا من عيدهم، ودخل بعضهم إلى المعبد رأوا أصنامهم
مُكْسَرَةً مُحْطَمَةً، إِلَّا صِنماً كَبِيراً فِيهَا، فَتَسَاءَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ
(الأنبياء / ٢١):

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

فجاء الجواب الظني من الذين كانوا قد سمعوا من إبراهيم عليه السلام
في الأصنام أنها إفك، وأنها لا تنفع ولا تضر، وأنها لا تستحق أن تُعبد، وأن
العبادة لا تكون إلا لرب السماوات والأرض الواحد الأحد، كما قال تعالى
في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٢١﴾﴾

أي: يذكر أصنامهم التي يعبدونها بسوء، ويدعو إلى نبذ عبادتها، وإلى
عبادة الله وحده لا شريك له.

فطلب ملوهم إحضاره، كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٢١﴾﴾

فانطلق فريق منهم لإحضاره مُسْرِعِينَ، كما جاء في سورة
(الصافات/ ٣٧):

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ ﴿٣٧﴾﴾

فقبضوا عليه، وأحضره أمام جَمْعٍ حاشِدٍ في معبد أصنامهم، لمساءلته ومحاكمته، وقالوا له كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا لِهَيْبَتِنَا يَا أَيُّهَا ابْنُ آدَمَ ﴾ (١٢)

فَجَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ هُوَ الْفَاعِلُ جُحُودًا ظَاهِرًا، لِيُلْزِمَهُمْ بِالْحِجَّةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَيُظْهِرَ أَنَّ أَصْنَامَهُمْ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَصِرَ لَأَنْفُسِهَا، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَنْصِرَهُمْ، وَتَنْفَعَهُمْ بِنَافِعَةٍ إِذَا دَعَوْهَا أَوْ عَبَدُوهَا، وَأَجَابَهُمْ بِمَا جَاءَ بَيَانَهُ فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَأْذِنُواهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ (١٣)

أي: لم أفعله أنا بل فعله كبيرهم هذا، وهذا جوابٌ صورته صورة الكذب، وحقائقته تهكُّمٌ بهم، واعترافٌ ضمَّنيُّ بأنه هو الذي حطَّم أصنامهم. فلما أجابهم بهذا الجواب أيقظ فيهم فكرًا ووجدانًا كانا نائمين تحت تأثير التقاليد العمياء، وكان منهم كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ.. ﴾ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٤)

أي: إنكم أنتم الظالمون بعبادة هذه الأوثان، القابلة للتكسير والتحطيم دون أن تستطيع الدفاع عن أنفسها.

لكنهم لم يلبثوا بعد هذه الصَّحوة أن ضربت على رؤوسهم ونفوسهم الحمية الجاهلية القائمة على الولاء للآباء والأجداد، وحرَّكتهم الشياطين بِرَغْبَةِ الانتقام من إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ وَقَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (١٥)

أي: كيف تطلب منا أن نسألهم عن حطمتهم؟!

وهنا استغل إبراهيم عليه السلام الموقف، واستفاد من اعتراف قومه بأن آلهتهم لا ينطقون، فجادلهم بما جاء في سورة (الصفات/ ٣٧):

﴿ قَالَ اتَّعِبُدُونَ مَا تَنَحَّيْتُمْ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

أي: وخلق أصنامكم التي تعملونها.

وبما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

وقام في جماهيرهم يؤكد دعوته لهم إلى الدين الحق بخطبة جاء بيان ملخصها في سورة (العنكبوت/ ٢٩) في قول الله عز وجل:

﴿ وَإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

وانقطع قومه في معركة المناظرة الفكرية، ولم يجدوا أجوبةً يحاجونه بها، فتشاوروا فيما بينهم فرأوا أن يتخلصوا منه بالقتل، فإما أن يقتلوه بوسيلة غير التحريق في النار، أو بوسيلة التحريق فيها، وقال بعضهم لبعض وهو حاضرٌ محاكمتهم له: اقتلوه أو حرقوه، كما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ... ﴾ ﴿٢٩﴾ .

واستقر رأي ذوي السلطان فيهم على أن يُحرِّقوه، كما جاء في سورة
(الأنبياء/ ٢١):

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

وتداولوا الرأي فيما بينهم، لبيان الطريقة التي يُحرِّقونه بها تحريقاً رادعاً، تَظْهَرُ فيها هيبةُ السلطة الحاكمة، أمام الجماهير التي تجتمع لمشاهدة العقاب، فقدم بعضهم اقتراحاً ببناء بِنْيَانٍ في منخفض من الوادي، يوقدون فيه ناراً عظيمة ذات جَمْرٍ ولهب، ثم يَقْدِفُونَه فيها، كما جاء في سورة (الصفات/ ٣٧):

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

الْجَحِيمِ: كُلُّ نَارٍ فِي مَهْوَاةٍ شَدِيدَةِ التَّأْجِجِ .
واتفقوا على هذا الرأْيِ، وَأَتَمُّوا إَعْدَادَ أَسْبَابِ مَكِيدَتِهِمْ، وَأَلْقَوْهُ فِي
النار التي أَجْجُوها في البناء الذي بَنَوْه لهذا الغرض .
عندئذٍ تَدَخَّلَتِ القُدْرَةُ الرَّبَّانِيَّةُ لِحِمَايَتِهِ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١)
قال الله عز وجل فيها:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

فكانت النار برداً وسلاماً عليه، فلم تؤذِه، ورُبَّمَا أَحْرَقَتْ قِيوده فقط
لِتَحْرِرَهُ مِنْهَا، دون أن تمسه بأذى .

لقد أرادوا به كيداً يقطع دابر دعوته، فارتدَّ كيدُهُمْ عليهم، فكان بنصرة
الله له ناجياً، كما قال عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ . . . فَأَجْنَبَهُ اللَّهُ مِنَّ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

وكان الذين أرادوا به كيداً هُمُ الْأَخْسَرِينَ، وهم الْأَسْفَلِينَ، كما قال الله
عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٦).

وكما قال تعالى في سورة (الصافات/ ٣٧).

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (١٨).

وتابع إبراهيم عليه السلام بعد أن أنجاه الله من جحيم قومه وأخرجه سالماً يدعو قومه، بأسلوب فيه شدة على قومه وإنذار لهم بعذاب الله في النار يوم الدين، كما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (٢٥).

ولمّا يبس إبراهيم عليه السلام من استجابة قومه له، وأذن له ربّه بالهجرة، أعلم قومه بأنه سيعتزلهم وما يدعون من دون الله كما جاء في الآية (٤٨) من سورة (مريم/ ١٩) وبأنه سيهاجر من أرضهم، وسيهديه الله إلى أرض مباركة يصل إليها، وقد آمن بما دعاهم إليه ابن أخيه لوط، وأتبعه مسلماً له القيادة، وأخذ معه في الهجرة بعض أهله وانطلق مهاجراً.

قال الله عزّ وجلّ بشأنه في سورة (الصافات/ ٣٧):

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (١١).

وقال تعالى في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿فَمَنْ لَّمْ يَلُوطْ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٦).

وتجأه الله ولوطاً من كيد قومهم وأبلغهم بالهجرة إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وهي أرض الشام، كما قال تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١):

﴿وَجَعَلْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧٦).

الفقرة الثالثة

صفات إبراهيم عليه السلام في ذاته وفي سياسته الدعوية

١ - وصف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بأنه كَانَ صِدِّيقاً أَي: كان كاملاً في صفة الصدق وفي التصديق بالحق، وفي مطابقة قوله لعمله، قال الله عز وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ .

ومن مظاهر كونه صديقاً تصديقه الرؤيا التي أمره الله فيها بذبح ولده إسماعيل .

٢ - ووصفه الله عز وجل بأن قلبه مشغولٌ دواماً بتذكر الدار الآخرة والعمل لها، قال الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَأَذَكَّرَ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَلِتُنَبِّئَهُمْ عِنْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ .

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ: أي: إِنَّا صَفَّيْنَاهُمْ وَنَقَّيْنَاهُمْ مِنَ الشَّوَابِ .

بِخَالِصَةٍ: أي: بسبب صفة خالصة فيهم من المؤثرات الدنيوية التي تخرج عن مرضي الله والعمل للدرجات الرفيعة في جنات النعيم .

ذِكْرَى الدَّارِ: أي: هذه الصفة الخالصة فيهم هي ذِكْرَى الدَّارِ الآخرة

دواماً، وذكرى الدار الآخرة دواماً تجعل الإنسان يسعى لها سعيها، ويكتفي من الدنيا بالنصيب المباح الذي لا يشغله عن العمل للآخرة ودرجاتها الرفيعة.

٣- ووصفه الله عز وجل بأنه حليمٌ أوَّاهٌ مُنيبٌ، قال الله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾

لحليمٌ: أي: لَصَبُورٌ كثير الأناة، ومن مظاهر حِلْمِهِ أَنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُؤَخَّرَ عَذَابَ قَوْمِ لُوطٍ لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ، وَصَبَرَ عَلَى قَوْمِهِ فَلَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يُنَزِّلَ بِهِمْ عِقَابًا بَلْ اكْتَفَى بِاعْتِزَالِهِمْ وَالْهَجْرَةِ عَنْهُمْ.

أَوَّاهٌ: أي: كَثِيرُ الْحُزْنِ، وَقِيلَ: كَثِيرُ الدُّعَاءِ، وَقِيلَ: الرَّحِيمُ الرَّقِيقُ، وَقِيلَ: الْمَسْتَبَحُّ، وَقِيلَ: الْمَتَاوَهُ شَفَقًا أَوْ فِرْقًا، وَقِيلَ: الْمَتَضَرِّعُ الْمَوْقِنُ بِالْإِجَابَةِ الْمَلَاذِمِ لِلطَّاعَةِ.

مُنِيبٌ: الْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ هِيَ الرَّجُوعُ إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَالطَّاعَةِ الْكَامِلَةِ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ مِنْ أَنْابَ هُوَ «مُنِيبٌ».

٤- وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَوَادًا كَثِيرَ الْإِكْرَامِ لَضِيُوفِهِ، وَكَانَ يَخْدُمُهُمْ وَيُقَدِّمُ لَهُمُ الطَّعَامَ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ يُعِدُّهُ هَوْلَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿١١﴾﴾

حنيز: أي: مَشْوِيٌّ.

والآيات (٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧) من سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).

٥ - ومن صفاته أنه كان شجاعاً في الحق لا يخشى في الله أحداً، ولا يخشى في الله لومة لائم قال الله عز وجل في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾

٦ - أن الله عز وجل ابتلاه بكلمات تكليفية فأتمها على وفق ما طلب منه، ووفى بما عاهد الله عليه في إسلامه له.

قال الله عز وجل في سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول):

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٢٧﴾ ﴾

وقال تعالى في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿ وَإِذْ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ رُؤْيُ بَيْكُمِ فَأَتَمَّهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾

٧ - أنه كان قوي الحجة، يجادل بالحق، وبالأسلوب الحكيم، وبالموعظة الحسنة، كما ظهر لنا في جدلياته التي سبق بيانها، وفي قول الله بشأنه في سورة (الأنعام/٦):

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٦﴾ ﴾

* * *

الصورة الخامسة
لقطات من سياسة شعيب عليه السلام
في أدائه رسالات ربّه

من تتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة شعيب عليه السلام في
أدائه رسالات ربّه ظهرت لي ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى : سياسته في دعوته .

الفقرة الثانية : سياسته في دفع اعتراضات قومه عليه وجدلياتهم له
واتهاماتهم وشتائمهم .

الفقرة الثالثة : سياسته في معالجة اضطهاد قومه له وللذين آمنوا به
منهم .

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً ممّا جاء في القرآن المجيد
حول شعيب عليه السلام وقومه .

الفقرة الأولى

سياسة شعيب عليه السلام في دعوته

دلّت النصوص القرآنية مع ملاحظة الترتيب التدرّجِي الحكيم على أنّ سياسة شعيب عليه السلام في دعوته اشتملت على العناصر التالية:

العنصر الأول: بدء الدّعوة من نقطة الخلاف الرئيسة الأولى، وهي الدّعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونَبَذ ما اتّخذه قومه من آلهةٍ غيره.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١) مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ... ﴾

العنصر الثاني: تأكيد الدّعوة إلى عبادة الله وحده مقرونةً بالتخويف مما في اليوم الآخر من عذاب للمشركين، والإطماع بما فيه من نعيم خالدٍ للمؤمنين.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩) مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ... ﴾

وَأَرْجُو الْيَوْمَ الْآخِرَ: أي: وارقبوا ما في اليوم الآخر من ثوابٍ تطمعون فيه، وعقابٍ تخافون منه.

العنصر الثالث: تأكيد الدعوة إلى عبادة الله وحده مقرونة ببيان أنه قد جاءتهم بينة من ربهم تثبت لهم صحة أنه رسولٌ من الله إليهم.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ (٤٥)

العنصر الرابع: استخدام الإنذار بأسلوب العرض المشوب بالتلويح، مع بيان أنه لقومه رسولٌ أمين، وإتباع هذا بدعوتهم إلى أن يتقوا الله، وإلى أن يطيعوه فيما دعاهم إليه.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ آلِ مُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

أَلَا تَتَّقُونَ؟: عرضٌ بأسلوب الاستفهام، وهذا العرضُ مشوبٌ بالتلويح.

العنصر الخامس: اهتمامُ شعيب عليه السلام بعد دعوة قومه إلى عبادة الله وحده، بما هم عليه من قبائح اجتماعية وإفساد في الأرض، فأمرهم بأن يوفوا الكيل والميزان، وبأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وبأن لا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ووعظهم ونصحهم، وأمرهم بأن يتقوا عذاب الله يوم الدين، وحذّره من أن يُنزل الله بهم عقابه المعجل في الحياة الدنيا.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١)
مصحف/ ٥٢ (نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٥١﴾ وَيَقْوُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٥٢﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٥٣﴾ ۝

فرغهم في هذا النصّ بأنّ ما يبقيه الله لهم من بركة الأرزاق خير لهم من الظلم الذي هم فيه .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لبعض مقالات شعيب لقومه :

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٦١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٦٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٦٣﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ الْأُولَىٰ ﴿١٦٤﴾ ۝

وَلَا تَعْتُوا: العتوُّ أشدُّ الفساد.

الْحِجْلَةُ: الأُمَّة من الخلق والجماعة من الناس .

فحذّرهم في هذا النصّ من عقاب الله لهم على ظلمهم للناس بالتطفيف في مكاييلهم وموازينهم، وبالبخس، وهو تنقيص قيم الأشياء، وعلى إفسادهم في الأرض .

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ

أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا... ﴿٨٦﴾ .

فزاد شعيب عليه السلام لقومه في هذه المقولة، نَهَيْهُمْ عن شرِّ يمارِسُونَهُ ضدَّ مجتازي بلادهم، إذ كانوا يقطعون الطريق، ويفرضون على النَّاسِ المظالم، ونَهَيْهُمْ عن صَدِّ الذين يؤمنون عن سبيل الله.

العنصر السادس:

استخدام أسلوب تذكير قومه بنعمة الله عليهم، إذ كانوا قليلين فكثرتهم، واسلوب توجيه أنظارهم إلى عقاب الله للمفسدين قبلهم وتحذيرهم من أن يُنزلَ اللهُ بهم مثل ما أنزلَ بالسابقين، مشيراً إلى ما فعل الله عزَّ وجلَّ بقوم لوط عليه السلام.

دلَّ على هذا العنصر قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لبعض مقالاته لقومه:

﴿... وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ .

* * *

الفقرة الثانية

سياسة شعيب عليه السلام في دفع اعتراضات قومه عليه
وجدلياتهم له واتهاماتهم وشتائمهم

١ - اعترض قومه على كونه بشراً مثلهم، ولم يكن ملكاً، دل على هذا
الاعتراض قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَتُّنُكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴾.

فكانت سياسته أن يُعْرِضَ عن إجابتهم لأنَّهُمْ قَرِيبُو عَهْدِ بِإِبْرَاهِيمَ وَلَوْطٍ
عليهما السلام، وهم يعلمون أنهما رسولان، وأنهما كانا بشرين من البشر،
وأعرض عن شتيمتهم له بأنهم يظنونهم من الكاذبين، مع أنهم لم يعهدوا عليه
في تاريخه مع قومه إلا الصدق.

٢ - اتَّهَمَهُ قَوْمُهُ بِأَنَّهُ مَسْحُورٌ سِحْرًا قَوِيًّا، وبسبب ذلك خالف
طريقتهم، ووجه انتقاداته ونصائحه لهم، دل على هذا الاتهام ما جاء في
سورة (الشعراء/ ٢٦) أيضاً بياناً لبعض أقوالهم له:

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴾.

وكانت سياسته أن يُعْضِيَ عن اتِّهَامِهِمْ لَهُ بِهَذَا، فَحَالُ مُحَاجَّتِهِ لَهُمْ،
وسلوكة في حياته يُكْذِبُهُمْ فِي هَذَا الْإِتِّهَامِ.

٣ - وجادله قومه بأسلوب الاستفهام التَّعْجِيبِيِّ التَّهْكِيمِيِّ قائلين له كما

جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَا كَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

وكانت سياسة شعيب عليه السلام بالنسبة إلى هذا الأمر المتعلق بمضمون دعوته له، أن يجادلهم بالحجج الدامغة.

دلّ على مجادلته لهم بالحجج الدامغة، ما تضمنه من إشارات ولوازم فكرية قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١) أيضاً:

﴿ قَالَ يَتَقَوُّرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي... ﴿٨٨﴾ ؟! ﴾ .

وهنا لا بُدّ من أن يكونوا قد سألوه عن البيّنة التي جاءته من ربّه، ولا بُدّ أن يكون قد أجابهم عنها، وهذه العبارة تشير إلى معركة جدليّة قامت بينهم وبينه، وفي هذه المعركة لا بُدّ أن ينتصر الحقّ الذي دعاهم إليه.

أمّا بالنسبة إلى نصيحته لهم بأن يوفوا الكيل والميزان ولا ينقصوهما، وبأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، فيظهر أنهم قالوا له: كيف اكتسبت الأموال التي جمعتها؟ ألم تجمّعها على طريقتنا التي تعييبها علينا؟ فأجابهم بأن الله رزقه رزقاً حسناً لم يظلم فيه أحداً من الناس، وأنه ليس من شأنه أن ينهأهم عن عمل قبيح، ثم ينصرف عنهم ليعمل بما نهاهم عنه.

ويظهر أنهم سألوه: أتريد أن تكون سلطاناً علينا تفرض علينا بالقوّة ما تأمرنا به وتنهانا عنه؟ فأجابهم بأنه لا يريد إلاّ الإصلاح على قدر استطاعته، واستطاعته قاصرة على الدعوة والنصح والإرشاد، وأبان لهم أنه لا توفيق له في أداء رسالته إلاّ بمعونة الله، لذلك فهو عليه وحده يتوكّل، وإليه وحده يرجع في أمره كلّ.

دلّ على فروع هذه المحاجات والجدليّات لقطاتٌ عنوانيّة جاءت في

سورة (هود/ ١١) أيضاً:

﴿ قَالَ يَقْتُورُ أَرَهُ يَشْتَرُ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُم إِلَىٰ مَا أَنهَنكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

أن أخالفكم إلى ما: يقال لغة: خالفك إلى الأمر، إذا قصده وأنت
منصرف عنه.

فوقف قومه منه موقف المشاققة والعداء ومحاولة القمع، فحذّرهم من
أن ينزل بهم من عقاب الله مثل الذي نزل بقوم نوح أو قوم هود، أو قوم
صالح، أو قوم لوط، وهم يعرفون قصص هؤلاء الأقوام.

دل على هذا قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١) أيضاً حكاية لبعض
مقالات شعيب لقومه:

﴿ وَرَقَّتْ لِي لَأَبْجَرَمَتِكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ
صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ .

ودعاهم بعد ذلك إلى أن يستغفروا ربهم، ثم يتوبوا إليه، وأطعمهم بأنه
رحيم ودود، كما جاء بعد القول السابق:

﴿ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

فكان ردّهم عليه بأنهم لا يفقهون كثيراً ممّا يقوله لهم، في حججه
وبراهينه، ونصائحه ومواعظه، كما جاء عقب الآية السابقة:

﴿ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ . . . ﴾ .

أي: هم قد أوقفوا المنافذ التي تنفذ منها أقواله إلى قلوبهم، لأنهم لا
يريدون الاستجابة لدعوته، ولا قبول نصائحه، وإرشاداته، ومواعظه،
وتحذيراته، وإنذاراته.

* * *

الفقرة الثالثة

سياسة شعيب عليه السلام في معالجة اضطهاد قومه له
وللذين آمنوا به منهم

١ - آمن بشعيب عليه السلام طائفة من قومه، فغضب الملائكة الذين استكبروا منهم، فاتخذوا ضد الذين آمنوا به أعمالاً اضطهادية، فكانت سياسته ضد هذا الاضطهاد مناظرتهم بالحجة المنطقية، ومحاولة معالجتهم بالحكمة، وبالتحاكم إلى العقل، ودعوتهم إلى الصبر حتى يحكم الله بحكمته بينهم وبين الذين آمنوا به.

دلّ على هذه السياسة قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) حكاية لبعض ما قاله شعيب عليه السلام لقومه:

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨٧)

فطلب منهم برفق أن يصبروا إذ لا داعي للغضب والانتقام، فالذين آمنوا به هم طائفة منهم، فلماذا يضطهدونهم لمجرد مخالفتهم لهم في الدين.

٢ - فلم يكن من الملائكة الذين استكبروا من قومه إلا أن يوجهوا تهديدهم لشعيب والذين آمنوا معه، بأنهم سيطرّدونهم من بلداتهم إذا لم يتركوا دينهم الجديد الذي آمنوا به، ويعودوا إلى ملة قومهم الشركية.

فكانت سياسة شعيب عليه السلام تعتمد على طرح سؤال على الملائكة

الذين استبكروا من قومه، وهو: هل قضية الانتماء إلى الدين إلزامٌ وإجبار، أم انتماءٌ إراديٌّ واختياريٌّ؟.

دلّ على التهديد والإجابة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٣٩﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

أُولُو كُنَّا كَارِهِينَ: أي: أتَجبروننا على أن نعود عن ملتنا التي آمنتنا بها، ونَدْخُلُ في مِلَّتِكُمْ، ولَوْ كُنَّا كَارِهِينَ لهذا؟! إنَّ الانتماء إلى الدين انتماءٌ اعتقاديٌّ قلبيٌّ لا يُمكن أن يكون بالإكراه والإجبار، ونحن حينما دعوناكم إلى دين الله الحق دعوناكم لأن تدخلوا فيه باختياركم الحرّ، ولم نجبركم، فكيف تجبروننا أنتم على أن نعود في ملتكم؟!!

على أننا إذا عُدنا مُرتدّين عن ديننا ودخلنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها بالإيمان بالحقّ، فإننا نكونُ قد افترينا على الله كذباً إذ نجعلُ الله شركاء في ربوبيته، أو في إلهيته، وإذ نستبيح ما حرّم من التطفيف، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، وقطع طريق الناس ظلماً وعدواناً، وصدّ الناس عن سبيل الله.

وأعلن شعيبٌ لقومه أنه لن يترك دينه ويعود عنه ويدخل في ملتهم إلاّ أن يشاء الله ذلك، وهو يعلم أن الله لن يشاء ذلك.

وأعلن لهم أيضاً أنّهم إذا أصرّوا على تهديدهم له وللذين آمنوا معه فإنهم سيصبرون على الأذى، ويتوكّلون على الله.

وأخيراً توجهَ لربه داعياً فقال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ».

٣ - وَأَنْذَرَ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُفَّارَ قَوْمِهِ بِأَنَّهُمْ إِذَا أَصْرُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَاضْطِهَادٍ لَهُ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنْ يُنْزَلَ بِهِمْ عِقَابُهُ كَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ صَالِحٍ وَقَوْمِ لُوطَ، كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (٨٩) مِنْ سُورَةِ (هُود/ ١١ / مِصْحَف/ ٥٢ / نَزُول) فَتَحَدَّوْهُ أَنْ يُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، وَهُمْ بِهَذَا التَّحَدِّيِّ يُؤَكِّدُونَ أَنَّهُ كَاذِبٌ وَليْسَ رَسُوْلًا مَبْعُوْثًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالُوا لَهُ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ / مِصْحَف/ ٤٧ / نَزُول):

﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٧﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ .

كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ: أَي: قِطْعًا مُهْلِكَةً لَنَا مِنَ السَّمَاءِ.

فأجابهم بأنه ليس هو الذي يعاقبهم، ولكن الله هو الذي يعاقبهم إذا اقتضت حكمته معاقبتهم، استناداً إلى ما يعلم من أعمالهم المقتضية لعقابهم، إذا وصلوا فيها إلى حالة ميثوس منها.

دلَّ على هذا الجواب قوله لهم كما جاء بعد النص السابق:

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾

هذه الجملة هي آخر المقولة الطويلة التي قالها لهم، والتي سبق بيان معناها.

٤ - وزادوا في تهديدهم له، وقالوا له كما جاء في سورة (هود/ ١١ / مِصْحَف/ ٥٢ / نَزُول):

﴿... وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا

بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾﴾

أي: نحنُ لا نَرُجُمُكَ إكراماً لرهطك الذين هم على ملتنا، أمّا أنتُ فليس لك كرامةٌ عندنا.

فواجههم بنضالٍ بيانيٍّ قويٍّ، وبشجاعةٍ عظيمةٍ، كما جاء في سورة (هود/ ١١) أيضاً:

﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١١﴾ وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَسِيلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٢﴾﴾

أي: اعملوا على المكان الاعتقادي الذي اخترتموه لأنفسكم، إني عامل على المكان الاعتقادي الذي اخترته.

٥ - ويظهر أن قومه خافوا أن يمسّوه بأذى من أجل رهطه، مع احتمال أن يكون رسولاً حقاً، فيُنزل الله بهم مثل ما أنزل بالأُمم الذين أُهْلِكُوا من قبلهم، فتوجّهوا يهدّدون الذين آمنوا معه بأن يُنزلوا بهم ما يكرهون من عذابٍ.

دل على هذا قول الله عزّ وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

٦ - وأخيراً استحقوا بحكمة الله إنزال العقاب المهلك لهم، فأرسل الله عليهم الرجفة، فزلزل بهم ديارهم، وأرسل عليهم سحابةً في يوم شديد الحرّ، فأظلمت، وأرسلت عليهم ناراً، وأرسل عليهم الصيحة، فأهلكهم، ونجّى شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْخَاتِمَةِ التَّعْيِيسَةَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦) مصحف/ ٤٧/ نزول):

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ .

الظُّلَّةُ: سَحَابَةٌ نَارِيَّةٌ حَارَّةٌ ظَلَلَتْ دِيَارَهُمْ يَوْمَ إِهْلَاكِهِمْ .

وقول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول):

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ فَنُؤَلِّقُ عَنْهُمْ وَرَقًا وَقَالَ إِنِّي مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَسُولِهِ عَلَى مَا نُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ غَمِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ .

كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا: أَي: كَانَ لَمْ يُقِيمُوا فِي دِيَارِهِمْ، يُقَالُ لَغَى، غَنِيًا بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ فَهُوَ غَانٍ .

فَكَيْفَ آسَى: أَي: فَكَيْفَ أَحْزَنُ .

وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١/ مصحف/ ٥٢/ نزول):

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿١١﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ نَعْمُودُ ﴿١٢﴾ ﴾ .

ويظهر أنه قد جاءتهم الظُّلَّةُ الحَارَّةُ أَوَّلًا طَوَالَ يَوْمٍ أَصَابَهُمْ فِيهِ عَذَابٌ حَارٌّ مِنْهَا، وَكَانَ يَوْمًا عَظِيمًا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَدَمَّرَتْ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، فَتَبِعَتْهَا الصَّيْحَةُ فَأَهْلَكَتَهُمْ جَمِيعًا فَلَمْ تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا .

* * *

الصورة السادسة

لقطات من سياسة موسى عليه السلام
في أدائه رسالات ربه

من تتبع ما جاء في القرآن الكريم بشأن سياسة موسى عليه السلام في
أدائه رسالات ربه ظهرت لي أربع فقرات:

الفقرة الأولى: كيف تلقى موسى عليه السلام نبوته ورسالته.

الفقرة الثانية: كيف تلقى تكليفه أن يبلغ رسالات ربه إلى فرعون
وقومه.

الفقرة الثالثة: تعليم الله عز وجل موسى وهارون كيف يدعوان فرعون.

الفقرة الرابعة: سياسة موسى عليه السلام في أدائه رسالته وفي مواقفه
الجدلية، وفي معالجته الاضطهاد.

وفيما يلي تفصيل هذه الفقرات استخراجاً مما جاء في القرآن المجيد
حول موسى عليه السلام وقومه في مصر.

الفقرة الأولى

كيف تَلَقَّى موسى عليه السلام نُبوته ورسالته

١ - أعدَّ الله عزَّ وجلَّ موسى عليه السلام إعداداً خاصاً للمهمة العظيمة التي قضاها وقدَّرها له، وهي دعوة فرعون وملئه والمصريين من ورائهما إلى دين الله، وقيادة بني إسرائيل العسيرين غلاظ الرقبة، الناشئين تحت سلطان الجبروت الفرعوني لحمل دين الله وتطبيقه ودعوة الناس إليه مجاهدين في سبيل الله.

فجعل نشأته في قصر فرعون، وألقى عليه محبةً منه، وصنعه على عينه جلَّ جلاله، كما جاء في الآية (٣٩) من سورة (طه/ ٢٠).

٢ - ولما اكتمل عقلاً ورجولةً وظهر منه العطفُ على الإسرائيليين المضطَّهدين في مصر، ودَفَعَ أحد المصريين دفْعاً قوياً عن إسرائيليٍّ استنصر به فسقط قتيلاً دون أن يقصدَ قتلَه، ثم جاء من نصحه بأن يخرج مهاجراً لأنَّ أمره افتضح، ووصل نبأ قتله للمصريِّ إلى القصر، وأن ملأ القصر الفرعوني يأتَمرون به ليقتلوه، فخرج من مصر خائفاً يترقب.

٣ - وساقه الله إلى مدين، وزوجه إحدى ابنتي الرجل الصالح فيها، ولبث في مدين عشر سنين، وصنعه الله فيها لتَلَقِّي النبوة وحمل الرسالة، ويظهر أنَّ قضية قتلِهِ للمصريِّ قد سقطت بمرور المدة حسب القانون الفرعوني، وصار باستطاعة موسى أن يعود إلى مصر، دون أن يخشى مُتَابَعَةً قضائيَّةً على ما كان منه.

٤ - فسار بأهله متجهاً إلى مصر، ولما وصل إلى قريب من جبل الطور أنس من جانب الطور ناراً، وكان أهله معه بحاجة إلى قيس من نار، قال الله عز وجل في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٨﴾ .

جَذْوَةٌ: أي: جَمْرَةٌ ملتهبة. تَصْطَلُونَ: أي تستدفنون.

وكانت هذه النار وسيلة ربانية لجلبه إليها، حتى يكلمه الله، ويصطفيه بالنبوة، ويحمّله أعباء رسالة عظمى.

وقال الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧/ مصحف/ ٤٨/ نزول):

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ يَمْوَسِي إِلَهُهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٩﴾ .

وقال الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول):

﴿ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَمْوَسِي ﴿٢٨﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٢٩﴾ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٣٠﴾ .

وأبان الله له أصول الدين الأولى فقال له كما جاء عقب النص السابق:

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٢٩﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٣٠﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿٣١﴾ .

فتردى: أي: فَتَسْقُطَ في مهاوي الضلال والشرّ والعذاب.

وقال تعالى كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَلْطِي الْأَوْدِيَّتَيْنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَسْمُوعَ
إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

٥ - وَقَبْلَ أَنْ يُكَلِّفَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَمَلَ الرِّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَيْئِهِ
وَقَوْمِهِ، أُجْرِي لَهُ آيَاتُ نُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ، بِتَجْرِبَةٍ عَمَلِيَّةٍ، لِيَكُونَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ
لِإِجْرَائِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا إِذَا وَاجَهَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠) مَصْحَفٍ (٤٥ نَزُولٍ) فِي بَيَانِ
تَدْرِيْبِهِ عَلَى إِجْرَاءِ آيَاتِي الْعَصَا وَالْيَدِ :

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى
عَنِّي وَلِي فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْفِهَا يَمْوَسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْفَنَهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ .

فَلَمَّا أَلْفَاهَا وَرَأَاهَا قَدْ انْقَلَبَتْ حِيَّةً تَسْعَى خَافَ مِنْهَا، وَوَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ
يَرْجِعْ فَنَادَاهُ اللَّهُ وَقَالَ لَهُ : لَا تَخَفْ .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النمل/ ٢٧) مَصْحَفٍ (٤٨ نَزُولٍ) حِكَايَةَ لِمَا
خَاطَبَ بِهِ مُوسَى :

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ
لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (القصص/ ٢٨) مَصْحَفٍ (٤٩ نَزُولٍ) :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَى أَقْبَلَ
وَلَا يَخْفَ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ .

كَأَنَّهَا جَانٌّ : لَفْظُ «جَانٌّ» يُطْلَقُ عَلَى حِيَّةٍ بِيضَاءَ وَزُرْقَاءَ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ
الْحَيَّاتِ سَرِيعِ الْحَرَكَةِ وَالْإِهْتِرَازِ .

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠) مَصْحَفٍ (٤٥

نَزُولٍ) :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ ﴿١١﴾ .

سِيرَتَهَا الْأُولَى: السَّيْرَةُ: «الهيئة - السَّنة - الطريقة» أي: سنعيدها إلى هيئتها الأولى التي كانت عليها حين كانت عصاً. «سِيرَتَهَا» لفظ منصوب بنزع الخافض.

وبعد آية العصا دَرَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى آيَةِ الْيَدِ، وهي أَنْ يُدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، وهو الشَّقُّ الَّذِي فِي ثَوْبِهِ مِنْ مَكَانِ صَدْرِهِ، فَإِذَا أَخْرَجَهَا بَعْدَ أَنْ يُدْخِلَهَا فِيهِ خَرَجَتْ يَدُهُ بِيضَاءَ مُتَلَأُتَةٍ مُضِيئَةٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ، أَي: مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ مُرَضِيَّةٍ كَالْبَرَصِ، وَكَانَتْ تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ.

قال الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةٌ أُخْرَى ﴾ ﴿١٢﴾ لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿١٣﴾ .

واضمم يدك: أي: يدك اليمنى.

إلى جناحك: أي: إلى إبطك الأيسر، بإدخال يدك في جيبك ووضع كفك تحت إبطك.

وقال تعالى في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ﴿١٢﴾ .

وقال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ أَسْلَمَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

اسلُك: أي: أدخل. واضمم إليك جَنَاحَكَ من الرهب: أي: وإذا شعرت أن مشاهدك رهبوا أعدّ ضمّ يدك إليك لترجع إلى طبيعتها.

هذه النصوص الواردة حول قضية واحدة في - ثلاث سور متكاملة الدلالات فيما بينها، وإبراز التكامل فيما بينها يحتاج إلى شرح لا يتسع له هذا الكتاب.

وهكذا تلقى موسى عليه السلام النبوة والرّسالة وآيات ربه الدالات على صدق نبوته ورسالته، يجريها الله له عند الحاجة إلى إجرائها.

* * *

الفقرة الثانية

كيف تَلَقَّى مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ
تكليفه أن يبلغ رسالات ربه إلى فرعون وقومه

١ - بدأ توجيه الله عز وجل موسى لمهمته بقوله له بعد أن أجرى له آيتي العصا واليد، كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):
﴿... فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (٣٢).

فعرف موسى عليه السلام أنَّ مهمته مهمةٌ جليلةٌ عظيمةٌ مخفوفةٌ بالمخاطر، فقد سبق أن قتل من المصريين رجلاً، فلهم عليه ذنبٌ فكيف يواجههم بدعوة تنسف كل عقائدهم وعباداتهم نسفاً.

فوجه الله له الأمر الجازم بأن يذهب إلى فرعون، وأبان له أنه طغى، وجعل هذا الأمر مسبقاً بنداءٍ مع أنه يخاطبه من قرب، دل على هذا قول الله عز وجل في سورة (النازعات/ ٧٩/ مصحف/ ٨١/ نزول):

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

فعرض موسى مشكلته صراحة بعد أن كانت تختلج في نفسه، دل على هذا قول الله عز وجل في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣).

فَاعَادَ لَهُ الْأَمْرَ الْجَازِمَ دُونَ نِدَاءٍ، أَخَذَ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (طه/ ٢٠):

﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ ﴾ .

فأعلن موسى عليه السلام انصياعه للتكليف، ودعا الله ادعيةً رأى أنها تساعده على أداء رسالته:

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَخْلِلْ عَنُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كُنْتُ سَعِيكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرْتُ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

وأضاف موسى تأكيداً حول ترشيحه أخاه هارون ليشاركة في أمره، ما أبانه الله عز وجل في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

فاستجاب الله عز وجل دعاءه كما جاء في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول):

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾ ﴾ .

وذكره بما امتن به عليه وهو طفل صغير، وكيف أنجاه من القتل وجعل أهل القصر الفرعوني يربوناه.

وطمأنته بما جاء بيانه في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْمَا وَمِنْ أَتْبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وبعد هذه الطمأننة قال الله لموسى كما جاء في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول):

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَالْخَوَكُ يَا يُدِي وَيَا يُدِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴾ ﴿٤٦﴾ أَذْهَبًا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٧﴾ .

وَلَا نَبِيًّا: أي: وَلَا تَضْعُفًا وَلَا تَكَلًّا.

وأوحى الله إلى هارون وجعله مع أخيه موسى نبياً ورسولاً.

ودخل موسى عليه السلام وأهله معه إلى مصر، واجتمع بأخيه هارون، وتشاورا في الوسيلة التي يدخلان بها على فرعون وعنده حاشية القصر ووُزُرَاؤُهُ وَمَلُؤُهُ، وهما يعلمان ما لفرعون ورجال دولته من جبروت وسلطان في مصر مخيف، ولا سيما بالنسبة إلى بني إسرائيل المضطهدين، فعرضاً هذه المشكلة على رَبِّهِمَا، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا أَن يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ﴾ ﴿٤٥﴾ .

أَنَّ يَقْرُطَ عَلَيْنَا: أي: أن يسبقنا بالقول فيقطع علينا طريق المخاطبة، ولا يسمح لنا بها مهما تَلَطَّفْنَا بِالْخَطَابِ وَوَجَّهْنَا بِلِينِ الْقَوْلِ. يقال لغة: فَرَطَ فلانٌ على فلانٍ في القول، إذا أَسْرَفَ وَتَقَدَّمَ، ولم يَدْعُ لَهُ مَجَالاً ليقول ما يريد.

أو أن يَطْغَى: أي: أو أن يتجاوز الحدَ فَيَطْرُدَنَا أو يُنْزِلَ بنا العقاب، إذا تَجَرَّأْنَا على مخاطبته بما يكره من دعوة إلى الحق الذي يخالف ما عليه هو وقومه.

فأجابهما الله عزَّ وجلَّ بما جاء في سورة (طه/ ٢٠) أيضاً:

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ﴿٤٦﴾ .

فحملاً الرسالة بقوة وثباتٍ وجُرْأَةٍ.

* * *

الفقرة الثالثة

تعليم الله عزّ وجلّ موسى وهارون كيف يدعوان فرعون

بعد أن عرف موسى وهارون أنهما نبيان ورسولان، وأنهما مأموران بأن يتوجّها إلى فرعون ملك مصر المستبدّ المستكبر، وبأن يدعوا إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما هو وقومه عليه من شرك، والإذن لهما بأن يخرجوا بيني إسرائيل من مصر، أبان الله لهما الأسلوب الحكيم الذي ينبغي أن يخاطبا به فرعون، فقال عزّ وجلّ لهما كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٠﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنَا وَلَهُ يُدْرِكُ الْأُصْحَابُ ﴿٢١﴾ ﴾ .

وأبان الله لموسى أنه هو المسؤول الأول عن توجيه الخطاب لفرعون، باعتبار أنه الرسول الرئيس، وهارون الرسول الوزير، فعلمه العبارة التي تتضمّن القول اللين، فقال له كما جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٧٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ﴿٧٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴿٧٩﴾ فَتَخْشَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

عبارة فيها غاية الرفقه واللين، فمع بيان الله عزّ وجلّ عن فرعون بأنه طغى، لم يأذن في دعوته إلى دين الله بأن يخاطب بجفاء وغلظة وعنف، لما في هذا من التنفير، مع أنّ المطلوب في الدعوة الإيناس والترفق واتخاذ الوسائل المحيية الجذابة للقلوب .

ولدى تحليل عبارة: ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهَ إِلَّا أَنْ تَرْكَأَ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخْسَى (١٩) ﴾ نلاحظ أنها تشتمل على مُقَدِّمَةٍ طَوِيلَةٍ فيها عَرَضٌ غَايَةٌ في الرِّفْقِ، بأسلوب الاستفهام، لا بأسلوب الأمر.

كان من الممكن أن يقول له: تَرَكَأَ، بصيغة أمرٍ دون مُقَدِّمَةٍ. أو هَلْ تَرَكَأَ، على طريقة العرض بالاستفهام. أو هَلْ لَكَ أَنْ تَرَكَأَ، بإضافة عبارة «لك».

لكن العبارة جاءت مشتملة على مُقَدِّمَةٍ هي أطول ما يمكن من مقدمات في أسلوب عِبَارَةٍ عربية، قبل الوصول إلى المطلوب في العرض، فلفظ «هل» كلمة. ولفظ «لَكَ» كلمتان. ولفظ «إِلَى» كلمة. ولفظ «أَنْ» كلمة، والمطلوب جاء بصيغة الفعل المضارع، لا بصيغة فعل الأمر، لأنَّ الكلام مبني على العَرَضِ التخييريِّ بأسلوب الاستفهام.

هذا النموذج التعليمي يُشْعِرُنَا بما يجب أن يُخَاطَبَ به الداعي إلى سبيل رَبِّهِ، ذَوِي السُّلْطَانِ أو المَكَانَاتِ الرِّفِيعَةِ في أَقْوَامِهِمْ.

وَيُخْطِئُ كثير من الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ حِينَ يُوَاجِهُونَ المدْعُوِينَ بما يجعلهم ينفرون من الأمر والنَّهْيِ، ومن الأساليب الجافية والخشنة، التي لا لِينَ فيها ولا رِفْقَ.

ويجب أن يتَّخِذَ الناصحون والوعاظ والمرشدون أسلوب الرفق واللين، ولو كانوا يُخاطبون عصاة المسلمين، لأنَّ هذا الأسلوب هو الأسلوب الأصح لبلوغ المقصود، من العنف والغلظة والمخاشنة في الخطاب.

وأبان الله عزَّ وجلَّ تفصيلاً عناصر مطلوبهما من فرعون، قال تعالى في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ .

فجاء في هذا البيان الدعوة إلى الإيمان بالرَّبِّ وتوحيده، والإيمان بالدينونة والجزاء يوم الدين على سلوك الإنسان في رحلة الحياة الدنيا، رحلة الابتلاء، والإيمان بالنبوة والرسالة، بمقتضى ما معهما من آية ربانية خارقة، فما جاء به قد تلقياه وخياً من عند الله رب العالمين .

* * *

الفقرة الرابعة

سياسة موسى عليه السلام في أدائه رسالته
وفي مواقفه الجدلية وفي معالجته الاضطهاد

ذهب موسى وهارون وتلطفًا في الدخول على فرعون وأدّيا رسالتهما
برفق ولين كما أمرهما الله عزّ وجلّ وَعَلَّمَهُمَا .

لقد يَسَّرَ الله لهما الدخول إلى مجلس فرعون، وبدأ موسى عليه السلام
مخاطبة فرعون بقولٍ لَين كما علّمه الله، وقال له: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .

ويظهر أنه لم يعترف بأنّ له ربًّا فاستنكر ذلك، فقال له موسى عليه
السلام كما جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿... فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وقال له كما جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَنَخْسِئْ﴾ .

وطلب منه مع ذلك أن يُزِيلَ معهما بني إسرائيل ويعودا بهم إلى
فلسطين .

أجابه فرعون بما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧
نزول):

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۖ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَنَا الَّذِي فَعَلْتَ
وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .

أي: من الجاحدين للنعمة التي أنعمنا بها عليك .

فأجابه موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: من الجاهلين الذين لا علم عندهم ﴿ ففَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي ﴾ أي: رب العالمين ﴿ حُكْمًا وَحَمَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

أي: إن الذي أجبني وأنا مولود جديد في صندوق وتزيمي بي في النهر، هو أنك جعلت بني إسرائيل الأحرار عبيداً لك، فجعلت تقتل الأبناء من المواليد، وتستحيي البنات فلا تقتلن لتسخرهن في الخدمة متى صرن نساء قادرات على الخدمة، ولولا رغبة أهلِكَ في أن أنفعهم أو أن يتخذوني ولدًا لهم لذبحتموني مع سائر من ذبحتم من مواليد بني إسرائيل، أفهذه تصلح لأن تكون نعمة تمُنُّها علي؟! .

وأعاد موسى عليه تأكيد أنه رسول من رب العالمين، فقال له كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُنْفِرُونَ لِي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ . . . ﴾ .

حَقِيقٌ: أي: إنني رسول من رب العالمين حَقِيقٌ، بمعنى مُصَدِّقٍ ومُؤَيِّدٍ ومُتَّبِعٍ مِنْ قِبَلِهِ، فأنا رسول حق وصِدق على أن لا أقول على الله إلا الحق .

وهنا لا بُدَّ أن يسأل فرعون موسى عن ربهما فسألهما كما جاء في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ ﴾ .

أجابه عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبِّنا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٥٠) .

أي: ربنا الذي خلق كل شيء في هذا الكون، ومن بديع خلقه أنه أعطى كل شيء صفات خلقه في ذراته الأولى، وغرسها في فطرته، ثم هداه للسير في حركات وجوده على مقتضاها بدقة مُتناهية، مع إمداده دواماً بما يتطلبه بقاء وجوده.

ثم سأله عما حذره منه، وهي الدينونة والجزاء بعد الموت والبعث إلى يوم الحساب والجزاء، فسأله عن أحوال أهل القرون الأولى، الذين ماتوا وتعرضوا للفناء، واختلطت أجسادهم في تراب الأرض:

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ (٥١) .

فأجابهُ موسى عليه السلام بأن الله عليمٌ بها علماً تاماً شاملاً، وأن علمه سبحانه مدوّنٌ في كتاب، وذكر له أن الله لا يضلُّ ولا ينسى، وأبان له من ظواهر علم الله وقدرته في خلقه ما يثبت أن إحياء الأجساد مرّةً أخرى بعدما فنيَتْ أمرٌ هينٌ عليه جلّ جلاله:

﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (٥٢) .

وأبان موسى عليه السلام لفرعون أيضاً مضمون قول الله عز وجل التالي من سورة (طه):

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ تَبَاتٍ شَقَى ﴿٥٣﴾ كَلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَانِ ﴿٥٤﴾ ﴾ منها خَلَقْنَاهُمْ وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا نَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ .

بعدئذٍ سأل فرعون موسى عن رب العالمين، الذي يُحدّثه عنه، فطرح عليه ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣) .

أي: وما معنى رَبِّ العالمين؟ أو: وما حقيقة رَبِّ العالمين؟ هذان احتمالان يمكن أن نُفسرَ بهما أو بأحدهما النص.

● فعلى الاحتمال الأول وهو: ما معنى «رب العالمين»؟ يكون فرعون قد سأل موسى عليه السلام عن شرح هذا اللفظ المركب من كلمتين.

إنَّ فرعون لا يجهل معنى كلمة «رب» ولا معنى كلمة «العالمين» لكنّه سأل عن اللفظ المركب منهما.

فشرح له موسى عليه السلام بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

فإنَّه فرعون بالجنون، لأنّه ذكر أنّ السماوات والأرض وما بينهما خاضعةٌ لسلطان ربِّ واحد، وهو يتصوّر أنّ الكائنات يتحكّم بها أربابٌ مُتعدّدون، وهو ربِّ إقليم مصر.

فتنزّل موسى عليه السلام إلى مستوى إدراك فرعون، فقال له ولِمَلَكِهِ: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ.

أي: هو المتصرف بعمليّات الخلق والتدبير في هذه الأرض من مشرقها إلى مغربها، ومن ذلك حدود سلطانتك في مصر يا فرعون.

عندئذٍ استكبر فرعون حين فهم مراد موسى عليه السلام، فقال له:

﴿لَيْنَ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

أي: لئن اتَّخَذتَ معبوداً غيري.

● وعلى الاحتمال الثاني وهو: ما حقيقة رَبِّ العالمين؟ نلاحظ أنّ موسى عليه السلام قد أجاب فرعون ببيان أظهر فيه ربوبيته في خلقه، ولم يُجبه عن حقيقة ذاته.

﴿ قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (٢٤)

أي: هو خالق السماوات والأرض وما بينهما، ومُمدِّها بعطاءات ربوبيته دواماً، والمتصرّف فيها.

فَالْتَفَتَ فِرْعَوْنَ مَخَاطِباً مِّنْ حَوْلَهُ:

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٢٥)

استفهام تعجّبي، أي: أنا أسأله عن حقيقة ربِّ العالمين الذي يدّعيه، فيجيبني بتفصيلاتٍ لعبارة: «ربِّ العالمين» لا ببيان حقيقة ذاتِ ربِّ العالمين.

فتابع موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٦)

لقد أعرَضَ موسى عليه السلام عن بيان حقيقة ذاتِ ربِّ العالمين، لأنَّ ذاته لا تُدرَك، ولأنَّ حقيقة ذاته تعجز العقول عن معرفتها وتصورها، فيجبُ التوقُّف عند إدراك آثارها، وهذا أمرٌ يكفي العقلاء.

فاستغلَّ فرعونُ عدم إجابة موسى عن حقيقة ذاتِ ربِّ العالمين، مؤثراً الاكتفاء ببيان آثاره في خلقه، فاتهم موسى بالجنون:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٢٧)

تعبيرٌ سخِرَ به من موسى عليه السلام ومن رسالته، وأشعر فرعون بها من حوله بأنَّ هذا الذي يدّعي أنه رسول من ربِّ العالمين إنسانٌ مجنون.

فتابع موسى عليه السلام ذكر تفصيلاتٍ أخرى مشيراً إلى أنَّ العقلاء يكتفون لإثبات الذاتِ بآثارها المشهودة، ولو كانت الذات غير مشهودة، ولا معرفة الحقيقة:

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) .

هنا وجه فرعونُ أمره السلطانيّ الجازم:

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَتِكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢٩) .

عندئذٍ جاء الوقت المناسب ليعرّف موسى عليه السلام فرعون وملاه بما لديه من آياتٍ بزهائيّة تُثبِتُ أنه رسولٌ صادقٌ مبعوثٌ من ربّ العالمين:

﴿ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣٠) .

فلم يكن من فرعون إلا أن يطلب من موسى أن يأتي ببرهان صدق كونه رسول ربّ العالمين:

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ (٣١) .

وكما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً:

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ (٣٢) .

عندئذٍ جاء دور إظهار الآيتين الخارقتين اللتين آتاها الله له:

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِيَوْمِ هٰذَا إِذْ أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبِينًا ﴿١٧٧﴾ وَنَزَعْنَا مِنْهُ آيَاتٍ لِّتُبَيَّنَّ لِلنّٰظِرِينَ ﴿١٧٨﴾ .

فأصيب فرعون وملؤه بالدهشة، وأسرع فرعون ليتدارك الموقف، وتحدّث بما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ

بِسِحْرِهِ... ﴿٢٢٥﴾ .

وردّد الملأ في مجلس فرعون مقالته كما ألقاها، قال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ

مِنْ أَرْضِكُمْ... ﴿٢٣١﴾ .

قال فرعون كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لملكه:

﴿... فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

وكذلك في الآية (٣٥) من سورة (الشعراء/ ٢٦).

أي: اقترحوا عليّ ماذا نفعل.

وبعد أن تداول أهل مجلس فرعون الرأي بينهم قالوا لسيدهم فرعون كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

وكما جاء في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾
وقرئ «سَحَار» كما في الشعراء.

وبين القراءتين والنّصين تكامل، أي: ينبغي حشر كل سحارٍ وساحر.

أرجه: أي: أرجئه بمعنى أخره وأنظره، حتّى نُعدّ له السحرة المنافسين له في سحره.

حاشرين: أي: جنوداً جامعين، يجمعون السحرة من مدائن مصر.

فلما استقرّ الرأي على إجراء مباراةٍ بينه وبين سحرة مصر، توجه فرعون لموسى، فقال له كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴿٥٨﴾﴾

مكاناً سُوءٍ: أي: مكاناً متوسطاً يَسْتَوِي فيه موقفك وموقف سَحَرَتْنَا.

فأجابه موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (٥٩).

يوم الزينة: قد كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون.

وجمع جنود فرعون له السحرة من كلّ مدائن مصر، ولما حَضَرُوا إلى العاصمة الفرعونية، وعرفوا المهمة التي حُشِرُوا مِنْ أجلها كان من أمرهم ما جاء بيانه في سُورَةِ (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَعَوَتَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٨) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٩﴾.

وعلم موسى عليه السلام بحضور السحرة استعداداً ليوم المباراة، ورأى من واجبه أن يَدْعُوهُمْ إلى دين الله ويحذّرهم من عذاب الله قبل أن يَتَّصِدُوا لمباراة آيَةِ الرِّبَانِيَّةِ بسحرهم الذي لم يَكُنْ أكثر من وسائل تُخَيَّلُ للابصار مشاهد لا حقيقة لها في الواقع، فقدم إليهم ودعاهم ونصّحهم، وقال لهم ضمن ما حدثهم به ما جاء بيانه في سُورَةِ (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَى ﴾ (١١).

فَيُسْحِتْكُمْ بعذاب: أي: فيستأصلكم بعذاب متلاحق.

فاختلفت السحرة فيما بينهم بعد أن وَجَّهَ موسى عليه السلام لهم عبارات التُّصْحِ والتَّحذِيرِ من عذاب الله، وبعد التنازع في مجلس سِرِّي جرى بينهم انتصر الرأي القائل: إن موسى وهارون ساحران يريدان أن يُخْرِجَا المِصْرِيِّينَ من أرضهم، ليكون بنو إسرائيل هم أصحاب الحكم والسلطان فيها، واتفقوا

على أن يكون عملهم مجتمعاً غير مفكك، قال تعالى في سورة (طه/ ٢٠) مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿١٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى ﴿١٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿١٤﴾ .

وجرت المباراة بين سحرة فرعون وبين موسى عليه السلام، في الموعد المحدد، كما وصف الله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْتَمِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ الْقَوَائِمَ الْقَوَا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَهُبُوهُمْ وَجَاءَهُ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغلبوا هنالك وأنقلبوا صغيرين ﴿١١٩﴾ .

وكما وصف الله في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالُوا : يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَٰءَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿١٢٥﴾ قَالَ بَلِ الْقَوَا إِذَا جَاهَلْتُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخَيِّلُ الْبَصِيرَ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَىٰ ﴿١٢٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ ﴿١٢٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَالْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَىٰ ﴿١٢٩﴾ .

هذان النصان متكاملان فيما بينهما وفق منهج القرآن في عرض أحداث القصة الواحدة، بتنزيلاتٍ متعدّدةٍ وأزمانٍ متباعداتٍ، الأمر الذي يعجز البشر عن ضبطه ومنع الاختلاف عنه، مع ما في كل تنزّلٍ من فنيّةٍ إبداعيةٍ تعتمد على الحذف ومراعاة المناسبة.

وبعضُ المحذوفات قد يستطيع المتدبّر إدراكها باللّوازم الفكرية.

ولمّا ابتلعت آية موسى ابتلاءً حقيقيّاً كلّ أدوات سحرهم، رجّع

السحرة إلى أنفسهم، وتذكروا كلمات موسى الدعوية، التي دعاهم بها إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وحذّره من أن يُسحّتهم الله بعذاب، جزاء افترائهم على الله، ومناصرتهم باطل فرعون، فكان من أمرهم جميعاً بلا استثناء، ما ذكر الله في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول):

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ۖ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٠﴾﴾ .

ونظيره ما جاء في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول):

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٤٠﴾﴾ .

هذا التحول المفاجيء في موقف السحرة من عدوّ منافس، إلى مؤمنٍ مُسلمٍ مُتابعٍ لموسى وهارون، أغضب فرعون غضباً شديداً، فقد انقلب سلاحه عليه، فبدل أن يكون في يده ضدّ موسى، صار في يد موسى ضده، وأسعفته حيلته أن يتدارك الموقف أمام جماهير قومه بأن يتهم السحرة بأنهم تلاميذ موسى في السحر، وأنه هو كبيرهم، وقد تواطؤوا معه على أن يفتعلوا هذه الهزيمة ليكونوا شركاء معه في حكم مصر، بعد طرد فرعون وآله وجنوده منها، فكان من أمره ما أبانه الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧/ مصحف/ ٣٩/ نزول):

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ لَأَقْطَعَنَّ ءَأَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ ءَأَصْلَبُنَّكُمْ بِأَعْنَاقِكُمْ ۖ وَأَجْعِلَنَّ عَلَيْكُمْ نَارَ سِجِّينَ ﴿٤١﴾﴾ .

وما أبانه الله في سورة (طه/ ٢٠/ مصحف/ ٤٥/ نزول) مع التكامل في المعنى بين النصين:

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَبِيرٌ ۖ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ ءَأَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ۖ وَأَصْلَبُنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنُعَلِّمَنَّ ءَأَيْنَا ءَأَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٤١﴾﴾ .

آمَنْتُمْ لَهُ: أي: آمَنْتُمْ بِهِ وَأَسْلَمْتُمْ لَهُ.

وَأَصْلَبْتُمْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ: أي: وَأَصْلَبْتُمْكُمْ مُثْبِتًا أَجْسَادَكُمْ بِمَسَامِيرٍ تَدْخُلُ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ.

لكن إيمان السحرة قد كان إيماناً قوياً مُتَعَلِّغاً في عمق أفئدتهم، وقد شعشت في أعماقهم أنواره، بعد أن رأوا أن آية موسى آيةٌ حَقِيقَةٌ رَبَّانِيَّةٌ، وليست خداعاً بصرياً، فلم يكثرثوا لما سيُنزل فرعون بهم من عذاب، طمعاً في أن يحميهم الله من عذاب جهنم يوم الدين، ويجعلهم في جنات النعيم خالدين، فكان رُدُّهم جميعاً على فرعون ما أبانه الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٦﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْكَ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾.

وما أبانه الله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مع التكامل في المعنى بين النصين:

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا آتَاءَ مَا يَأْتِي رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا فَأَرْغِ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوْفِقًا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

ونفذ فرعون في السحرة ما تَوَعَّدَهُم بِهِ، لِيَبْقِيَ لِنَفْسِهِ الْمَهَابَةَ فِي مِصْرَ، وَيُظَهِّرُ أَنَّهُ خَافَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنَّ يَمَسَّ مُوسَىٰ بُسُوءًا، فَيَبْطِشُ بِهِ رَبُّهُ فَيُهْلِكُهُ.

قال تعالى في سورة (الأعراف):

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُسُونَ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكُوا إِلَهُكَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾.

وصبر موسى عليه السلام سنين يدعو إلى دين الله في مصر، فما آمن به

إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَجْرَى اللَّهُ لَهُ آيَاتِ الطُّوفَانِ وَالْجِرَادِ وَالْقَمَلِ وَالضَّفَادِعِ وَالذَّمِّ آيَاتٍ مَفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرَ فَرَعُونَ وَقَوْمَهُ وَكَانُوا قَوْمًا مَجْرِمِينَ .

قال الله عز وجل في سورة (القصص/ ٢٨/ مصحف/ ٤٩/ نزول):

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا أَسْحَرُ مُفْتَرِي وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴾ .

وقال الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠/ مصحف/ ٥٩/ نزول) بشأن موسى عليه السلام:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

فأجابهم موسى عليه السلام كما جاء فيها:

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ .

أي: أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر، وأشار إلى ما جاءهم به من آيات خوارق عظمى فقال لهم: أسحر هذا. وبعد ذلك حاول إقناعهم بحقيقة مُجَرَّبَةٍ، وهي أن الساحرين لا يفلحون، فقال لهم: وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ. فاتهموه بأن هدفه من دعوته أن يكون له ولأخيه العظيمة والسلطان في مصر، كما جاء فيها أيضاً:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَشًّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فأعرض عن اتهامه هذا لأنه يطالب بالإذن لبني إسرائيل بأن يخرجوا معه من مصر، ويتركوا لهم أرضهم.

وواجهه فرعون في إحدى المرات بقوله له كما جاء في سورة (الإسراء/ ١٧/ مصحف/ ٥٠/ نزول):

﴿... إني لأظنك يَمْوَسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٦٥﴾﴾ .

فردَّ عليه موسى عليه السلام بجرأة وثقة بالله، مبيناً له أنه عالم في قرارة قلبه أن ما جاءه به إنما هو آيات من ربه، وردَّ عليه اتهامه له بأنه مسحور بتهديد له بأسلوب الظن بأنه مشبور، أي: هالك.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأظنك يَفِرْعَوْنُ مَشْبُورًا ﴿١٦٦﴾﴾ .

وتولَّى فرعون بركنه في قصره وقال عن موسى: ساحر أو مجنون، أي: ساحر في آياته الخارقات، ومجنون في تجرّته على سلطان فرعون، كما جاء في الآية (٣٩) من سورة (الذاريات/ ٥١).

ومع طول الزمن وإمهال الله عزّ وجلّ لفرعون وجنوده، نما شعور العظمة والكبرياء في نفس فرعون فنادى في ملكه أنه هو إله الشعب المصري في الأرض، وسيتخذ الوسائل ليطلع إلى إله موسى في السماء، على أنه يظنه من الكاذبين.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَمُنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَمَكِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾﴾
وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلٰهِنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾﴾ .

ونظيره جاء في الآيتين (٣٦ - ٣٧) من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) وفي هذا تحايل من فرعون على شعبه ليظهر نفسه بصورة الباحث عن الحقيقة.

وزاد إمهال الله له وزاد تنكيله ببني إسرائيل وإذلاله لهم، لكنه كان يخشى أن يمسّ موسى وهارون بسوء، لئلا يبطل به إلههما الذي في

السَّمَاءِ، وازْدَادَ شُعُورُ الْعِظْمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ فِي نَفْسِهِ، فَحَشَرَ جَمَاهِيرَ الْمَصْرِيِّينَ فِي يَوْمِ جَامِعٍ، وَنَادَى فِيهِمْ: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى.

لم يكتب بمقولته الأولى التي زعم فيها أنه الإله المعبود في مصر، بل ضرب في رأسه جُنُونُ الْعِظْمَةِ فزعم أنه رَبُّهُمْ الْأَعْلَى، وقال لملئه: ذروني أقتل موسى وليدعُ رَبَّهُ، كما جاء في الآية (٢٦) من سورة (غافر).

فأهلكه الله هو وجنوده غرقاً في البُخْر الذي عَبَّرَهُ مُوسَى وقومه بمعجزة خارقةٍ فَرَّقَ اللهُ لَهُ فِيهَا الْبَحْرَ، وجعل له في داخله طريقاً يَبْسَأُ.

قال الله عز وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بشأن فرعون:

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ ﴾.

الآخرة: هي قوله: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى».

والأولى: هي قوله: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» كما جاء في الآية (٣٨ من سورة القصص/ ٢٨).

نكال الآخرة والأولى: النكال، العقاب الشديد الرادع، إمّا للمنكّل به، وإمّا لغيره من الذين يَعْتَبِرُونَ بِهِ.

خاتمة:

أما الاضطهاد الذي تعرّض له من آمن به من قومه، من بني إسرائيل، من قبل فرعون وجنوده فقد عالجه موسى عليه السلام بوسيلتين:

الوسيلة الأولى: توصيتهم بالصَّبْرِ وتحمل الأذى، واحتساب الأجر عند الله، مع الاستعانة بالله.

الوسيلة الثانية: وعدهم بأن الله عز وجل سَيَسْتَخْلِفُهُمْ فِي الْأَرْضِ،

فيكونون فيها ذوي قوة وحكم وسلطان .

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩

نزول):

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ
عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

* * *

الفصل الثاني

نماذج دعاة من غير الرُّسل عرض القرآن الكريم دعوتهم ونصرتهم لدينه

وفيه مقدمة وسبعة نماذج:

النموذج الأول: دعوة مؤمن آل فرعون لقومه انتصاراً لموسى عليه السلام ولدعوته.

النموذج الثاني: دعوة مؤمن أصحاب القرية التي جاءها مرسلون ثلاثة، وانتصاره لهم ولدعوتهم.

النموذج الثالث: دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصّتهم سورة (الجنّ).

النموذج الرابع: دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصّتهم سورة (الأحقاف).

النموذج الخامس: صورة من دعوة الوالدين المؤمنين لولدهما الكافر.

النموذج السادس: قصّة قارون والدعاة من بني إسرائيل، وفيها صورتان:

- ١ - صورة دعوة دعاة بني إسرائيل لقارون الذي بغى على قومه .
٢ - صورة دعوة علماء بني إسرائيل للجاهلين منهم الذين فتنهم
مظاهر الحياة الدنيا التي آتاها الله لقارون .

النموذج السابع: قصة الرجلين المتحاورين صاحب الجنتين المستكبر
بهما وبولده المنكر ليوم الدين ، والآخر المؤمن الذي لم يُؤت سعةً من المال
والولد .

* * *

مقدمة

جاء في القرآن المجيد عرضُ نماذجٍ من دَعْوَةِ دُعاةِ مؤمنين، دَعَوْا إلى دين الله، ونَاصَرُوا رُسُلَهُ، وهؤلاء الدُّعاة ليسوا بمرسلين ولا أنبياء.

وقد جاء في بيان قِصَص هؤلاء ذِكْرُ دعوتهم وحوارهم للمدعوين من قِبَلِهِمْ، وبالتأمل الذي يَقُومُ على الاستعانة بالله وفتحها، يُدرك المتدبِّرُ أنَّ الحكمة من ذكر قِصَصِ دَعْوَتِهِمْ في القرآن المجيد المحفوظ بحفظ الله، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تحقيقُ عِدَّةِ أهداف:

الهدف الأول: تسجيلُ الشناء عليهم في آيات تُتلى في القرآن المجيد، وَيُتَعَبَّدُ بتلاوتها.

الهدف الثاني: توجيه أنظار المؤمنين للاقتداء بهم في جهاد الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

الهدف الثالث: إقرار طرائقهم في الدعوة والحوار، إذ جاء عَرَضُها في مَعْرِضِ الشناء، دون إشارة إلى ما هو أَحْسَنُ أو أفضل منها.

وفيما يلي ذِكْرُ اللَّتْصُوصِ التي اشتملت على هذه النماذج، مع نظراتٍ تدبُّرِيَّةٍ تحليلية، واستنباطاتٍ لما يَحْسُنُ اتِّباعُهُ في مناهج وطرائق وأساليب الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

* * *

النموذج الأول

دَعْوَةُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ انْتِصَاراً لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِدَعْوَتِهِ:
 قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (غَافِرٍ/ ٤٠) مِصْحَفٍ (٦٠ نَزُولٍ):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ وَهَمَجْنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَمَا يُصِيبُكُمْ بِعَصْرِ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُنَادُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُم كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ

يَهْتَمُّنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلَّيْ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ اسْتَبَابَ السَّمْعَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَيَّ إِلَهُ مُوسَى
وَرَأَيْ لَأَطْنُهُ كَدِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُورِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُورِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ
عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثَابَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ * وَيَنْقُورِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى
النَّجْوَةِ وَيَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا
أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي
الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ
لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا
مَكَرُوا وَحَاقَ بِحَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ .

- ١ -

نظرة إجمالية عامة

جاء في هذا النصّ عرضٌ لدعوةٍ إلى الله قام بها مؤمن من آل فرعون،
أمّن بموسى وهارون عليهما السلام، وكنتم إيمانه مدّةً من الزمن، إذ كان
مُعاصِرًا لهما، مع ما كان لديه من علمٍ مؤرُوثٍ عن رسول الله يوسف عليه
السلام.

ويظهر أنّه قد كان واحداً من أعضاء المجلس الاستشاري في القصر
الفرعوني يومئذ، فقد وصفه الله بأنّه من آل فرعون، والآل من الأسرة هم
أشرافها وأعيانها وكبرائها.

وظلّ هذا الرجل المؤمن يكتُم إيمانه حتّى تأزّم الأمرُ ضدّ موسى

عليه السلام إلى الحدِّ الأقصى، إذ قال فرعون زَمَانِهِ لَمَلَيْتُهُ، وهم وزراؤه وأعضاءُ مجلسه الاستشاري مِنْ عَلِيَّةِ أَسْرَتِهِ: ﴿... ذُرُوفِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (٢٧).

أي: أن يُحَرِّكَ الإسرائيليين في مصر بثورةٍ ضدَّ الأسرة الحاكمة، ومعهم من يستجيب لدعوة موسى من القبط المصريين.

عندئذٍ قدّم هذا الرَّجُلُ المؤمن الذي كان يكتُم إيمانه مشورته ناصحاً، ضمن مجلس المستشارين بأنّه ليس من الحكمة ولا من العدل ولا من حُسْنِ السِّيَاسَةِ قَتْلُ رَجُلٍ يقول: رَبِّي اللهُ، وقد جاء بالبيّنات من رَبِّكُمْ، وهي بيّناتٌ فكريّةٌ لا اعتراض عليها قدّمتها بمقاله في دعوته، مقرونة بآياتٍ إعجازيّةٍ شهدتموها.

وكان نُصْحُ هذا الرَّجُلِ المؤمن في مشورته يعتمد على الاستدلال الفكريّ الراجح، والمنطقيّ العقليّ الشديد، فقال لهم: لا يخلو أن يكون موسى كاذباً أو صادقاً، فهذان احتمالان لا ثالث لهما.

● أما على الاحتمال الأوّل: وهو أن يكون موسى كاذباً، فإنّ إبقاءه حيّاً وعدمَ التعرّض لقتله لا يضرُّكُمْ بشيءٍ، إذ أنتم أصحاب القوة والسلطان في مصر، وهو وقومه عاجزون عن التصديّ لكم، ثم إنّه لا يستطيع أن ينشُرَ دينه في مصر، لأنّ الله لا يَهْدِي من هو مسرفٌ في ادّعائه أنه رسول الله، كاذبٌ فيما يخبر به عن ربّه، فإن كان كاذباً في ادّعائه فلا بُدَّ أن يخيّب في مسعاه، ولا ينجح في مقاصده.

● وأما على الاحتمال الثاني: وهو أن يكون صادقاً، وأن يكون رسولاً مَبْعُوثاً من ربكم حقّاً، فأقلُّ ما يتوقَّع مستقبلاً أن يُصيِّبكم بعضُ الذي يتوعَّدكم به، إذا تعرّضتم لقتله.

وهنا أراد فرعون أن يَحْسِمَ الأمرَ ولا يدع مجالاً للرجل من آله أن يزيد

من بياناته في مجلسه، فقال لأعضاء المجلس: ما أريكم من الرأي إلا ما أراه
لنفسى صالحاً، وما أهديكم في عرضي عليكم أن أقتل موسى إلا سبيل
الرشاد، لحمايتكم وحماية مُلكِكُمْ مما يحدثه هذا الرجل من فتنه .

لكنَّ الرجل المؤمن من آل فرعون قد شعر بأن الفرصة متاحة له بعد
تقديم مشورته التي نصح بها فرعونَ ومَجْلِسَ وزرائه ومستشاريه، إذ أصغوا
لاستماعها، وتوقَّفَ أعضاء المجلس عن إصدار القرار بقتل موسى، وشعر
بأنهم أحسَّوا بإيمانه، فتحوَّل داعياً إلى الله، مُنْذِراً من عقوبة الله، ومحذراً
قومه من أن ينزل بهم عقابٌ من الله مثل العقاب الذي نزل بقوم نوح وعادٍ
وتمود والَّذين من بعدهم بسبب كُفْرهم برسُل ربهم، وكانت قصص هؤلاء
مُتداولةً بين المصريين .

بعد هذا انتقل إلى تحذيرهم من عذاب الله يَوْمَ الدين، ويظهر من هذا
أن عقيدة البعث بعد الموت للحساب والجزاء كانت من العقائد الموروثة
لَدَيْهِمْ، وأن الله هو الذي له الحكم بين العباد يومئذٍ، فَمَنْ يحكم الله عليه
بالضلالة فلن يجد من يحكم له بالهداية .

وهنا ذكّرهم برسالة يوسف عليه السلام - الذي توفي منذ أقل من قرن
على ما يذكر المؤرخون - وأن الأسرة الفرعونية في عهده - وهم قوم هذا
الرجل الداعية - ما زالوا يشكّون في أنه رسولٌ من ربه، حتّى إذا مات تحقّقوا
من أنه رسول من الله، ولكن قالوا: لَنْ يَبْعَثَ اللهُ من بعده رسولاً يمنعهم ممّا
يشتهون ويهوؤن من أنواع آثامٍ وتسلّطٍ وطغيانٍ في الأرض، إذ كان يوسف
عليه السلام هو الوزير الأول بعد فرعون في عهده .

ولما كشف عن هويته الإيمانية بدأ فرعون وملؤه يجادلونه بالباطل، إذ
منعهم عن الاستجابة له ما في نفوسهم من كِبَرٍ، وما لهم من سلطانٍ قويٍّ في
مِصر، وهذا ما جعلهم طغاةً جبّارين .

وخشيَ فرعون أن يتأثر بعضُ مَلَكِهِ بمجادلته، فعَلَّقَ بدهائه الأمر على اتِّخاذ وسيلة من وسائل البحث، للتأكد من صحة كون موسى رسولاً من ربِّه، وأعرض عن فكرة قتلِه، وتنازل عن القطع بأنَّه كاذب، مكتفياً ببيان أنَّه يظنُّه كاذباً.

وقد طَرَحَ وسيلة يطول أمد تحقيقها، فقال لوزيرِه الأول: يا هامان ابن لي صرحاً (أي: قصرأً عالياً) لعلِّي أبلُغُ إلى أسبابِ عُلُوِّيَّة، أصِلُّ بوساطتها إلى السماوات، فأطلِّعُ هُنَاكَ إلى إلهِ موسى، فأعرِفُ منه هل موسى رسوله حقاً أم لا؟! وقذف القضية بهذه الحيلة الشيطانيَّة، وعلَّقها على أمر خرافي متعذِّر التحقيق، وهو يَشْعُرُ بأنَّ قومه: إمَّا سُدَّحٌ يَرَوْنَ أَنَّ لفرعون قُدْرَاتٍ تمكِّنُهُ إذا بنى الصرح العالِي من اتِّخاذ أسباب توصله إلى السماء، وهنالك يطلِّعُ إلى إلهِ موسى. وإمَّا شياطينٌ مثله يُواطئونه على ضلاله، ويعرفون حَيْلَهُ وأكاذيبه، فهم شركاؤه في الملك والسلطان والمنافع.

وبهذا قطع بحث قضية موسى داخل البلاط الفرعوني، بانتظار بناء الصرح واتِّخاذ الأسباب إلى السماء.

عندئذ رأى الرجل المؤمن من آل فرعون وقد انكشف أمرُه، أن ينطلق داعياً إلى سبيل ربِّه، ودينه الذي جاء به موسى وهارون، بين الشعب المصري، بعد أن وجدَ أنَّ دَعْوَتَه داخل القصر قد أبعدها فرعون إلى أَجَلٍ لَنْ يَأْتِي.

فنادى في قومه قائلاً كلاماً خلاصته:

- يا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ.
- يا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ.
- مِنْ عَمَلٍ سَيِّئَةٍ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ.

فجادله قومه بالباطل، وجعلوا يدعونه إلى ترك الدين الذي فارق به دين آباؤه وقومه، وإلى العودة إلى دين الشرك الذي هم عليه، فقال لهم:

● يا قوم، مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؟!
● يا قوم، إنكم تدعونني لأكفر بالله الحق، وأشرك به ما ليس لي به علم، فليس له حقيقة في الوجود، وأنا أدعوكم إلى العزيز ذي القوة الغالبة القادرة على كل شيء، الغفار الذي يغفر ذنوبكم إذا آمتتم به واستغفرتموه، فلا يُعذّبكم عليها.

● يا قوم، ممّا لا ريب فيه أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة حقيقية ذات أثر في الدنيا ولا في الآخرة، إنّما هي أسماء لأشياء وهمية لا حقيقة لها، ولا قُدرة لها على شيء.

● يا قوم، إنّ مرَدنا جميعاً إلى الله، إذ يَبْعَثنا من الموت إلى حياة الحساب وفصل القضاء وتطبيق الجزاء.

● يَا قَوْمِ إِنَّ الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ وَالْعَصِيانِ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، الدَّارِ الَّتِي يُجَاوِزُونَ فِيهَا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَصِيَانِهِمْ.

● يا قوم، ستذكرون يومَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِكُمْ مَا أَقُولُهُ الْيَوْمَ لَكُمْ، وَسَتَحْسَرُونَ وَتَنْدَمُونَ عَلَى أَنْكُمْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِي، وَلَمْ تَقْبَلُوا دَعْوَتِي.

ولمّا وَجَدَ قَوْمُهُ مَتَحَجِّرِينَ مُعَانِدِينَ، وَرَأَى أَنَّ الْقَصْرَ الْفِرْعَوْنِيَّ يُدَبَّرُ لِلتَّخْلِصِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ قَالَ لِقَوْمِهِ:

● لَقَدْ قَدَّمْتُ لَكُمْ غَايَةَ مَا عِنْدِي مِنْ نَصْحٍ، فَأَبَيْتُمْ، وَأَنْتُمْ تَدَبَّرُونَ التَّدَابِيرَ لِلتَّخْلِصِ مِنِّي، فَلَا مَسْئُولِيَّةَ عَلَيَّ عِنْدَ رَبِّي تُجَاهَكُمْ فَقَدْ قُمْتُ بِوَأْجِبِي نَحْوِكُمْ، وَأَفْوِضُ أَمْرِي بِشَأْنِ مَا تُدَبَّرُونَ ضِدِّي إِلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، فَهُوَ الَّذِي يَقِينِي وَيَحْمِينِي.

لقد كان هذا الرَّجُلُ مجاهداً حقاً، جهادَ دعوةٍ ببيانٍ قويٍّ، وحُجَجٍ دامغة، وصَبْرٍ ومُصَابِرَةٍ ومُتَابَعَةٍ، دون خوفٍ من قتلٍ أو تعذيبٍ، وكان مع كلِّ ذلك متوكِّلاً على الله، ومُفَوَّضاً أمره إليه بصدقٍ نِيَّةٍ وهِمَّةٍ وعزيمةٍ وعمَلٍ، فاستَحَقَّ أَنْ يُنَزَلَ اللهُ فِي خاتمةِ كُتُبِهِ عَرَضاً لقصته يَنْصَحُ بتمجيده والثناء عليه .

وقد مكر به اللهُ، وعزموا على أن يُوقِعُوا بِهِ سَيِّئَاتٍ متعدّاتٍ من سِجْنٍ، أو تعذيبٍ، أو مصادرةٍ ممتلكاتٍ، أو طردٍ من الأسرة، أو قتلٍ، أو كلِّ ذلك، إذ أعلن خروجه عن مِلَّتِهِمْ، ومتابعته لدين الله الحقِّ، والتزامه بالحقِّ الَّذِي آمَنَ بِهِ، ونُصْرَتَهُ، والدَّعْوَةَ لَهُ بين شَعْبٍ قومه نصحاً وجِدالاً بالَّتِي هي أَحْسَنُ، إِلَّا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَقَاهُ سَيِّئَاتٍ ما مَكْرُوا، وَأَنْزَلَ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ سُوءَ العذابِ، فَأَعْرَفَهُمْ فِي اليَمِّ، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ الحادثةَ قد كانت قُرْبَ مُلاحقةِ فِرْعَوْنَ لِموسَى وبنِي إِسرائيلَ لَمَّا خَرَجُوا من مصرٍ في اتِّجاهِ سِيناءِ، إذ انتهت هذه الملاحقة بغرقِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وجنوده، وأنجى اللهُ مؤمنَ آلِ فِرْعَوْنَ من مَكْرِهِمْ .

وهذه سُنَّةُ اللهِ فِي مُعْظَمِ الدَّعَاةِ الصّادِقِينَ الحُكَمَاءِ إلى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، كما قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سورةِ (غافر) نفسها بعد عَرَضِ قصةِ مؤمنِ آلِ فِرْعَوْنَ ولو اِحْتِقِهَا:

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمِ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾

- ٢ -

منهج مؤمن آل فرعون في الدعوة إلى الله

مما سبق بيانه في النظرة الإجمالية العامة، يتبين لنا أن منهج مؤمن آل فرعون في دعوته لكفار قومه إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، كما عرضها القرآن مُقَرِّراً لها، ومشعراً بالثناء عليها وعلى القائم بها، يتلخّص بما يلي:

أولاً:

البَدْءُ بِنُضْحِ قَوْمِهِ نُضْحًا عَامًّا، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَضْرُهُ مَا يَضْرُهُمْ، وَيَنْفَعُهُ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَذَلِكَ بِتَقْدِيمِ مَشُورَةِ مَنْطَقِيَّةِ فِكْرِيَّةِ، قَائِمَةٍ عَلَى التَّحْلِيلِ وَالْحَضْرِ الْعَقْلِيِّ، بِطَرَحِ الْإِحْتِمَالَاتِ الْمُمْكِنَةِ، وَبَيَانِ آثَارِ كُلِّ مِنْهَا، وَتَحْدِيدِ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ فِي الْإِدَارَةِ وَالسِّيَاسَةِ، مُسْتَغْلًا حَدَثًا مُنَاسِبًا، وَمَشْعَرًا بِمِيلِهِ إِلَى الْحَقِّ.

ثانياً:

الانتقال التدريجي إلى تَبَيُّ قَضِيَّةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالرُّسُلِ، عَنْ طَرِيقِ تَحْذِيرِ قَوْمِهِ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِثْلُ عَقُوبَاتِ الْأَوَّلِينَ (قَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودٍ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) الَّتِي يَعْرِفُونَ أَخْبَارَهَا، وَلَا يَجْهَلُونَهَا، وَلِذَلِكَ عَرَضَهَا عَلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا مُسَلِّمَاتٌ لَدَيْهِمْ.

ثالثاً:

الانتقال من التحذير من الجزاء المعجل في الدنيا، إلى التحذير من الجزاء المؤجل إلى يوم الدنيا، إذ هما مترابطان وَفَرَعَانِ لِقَضِيَّةِ إِيْمَانِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ قَضِيَّةُ الدَّيْنُونَةِ وَالْجَزَاءِ، فَحَذَرَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَهَذِهِ أَيْضاً مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي لَدَيْهِمْ حَوْلَهَا اعْتِقَادٌ مَوْزُوثٌ عَمَّا تَلَقَّوهُ مِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ، الَّذِي كَانَ ذَا سُلْطَانٍ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ مِنْذُ أَقْلٍ مِنْ قَرْنٍ، عَلَى مَا يَذْكَرُ الْمُؤَرِّخُونَ.

رابعاً:

الانتقال إلى تذكيرهم برسالة يوسف عليه السلام، التي كان المصريون في شكٍّ منها وهو بينهم، فَلَمَّا مَاتَ عَرَفُوا أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبَّهُمْ، وَالْهَدْفُ مِنْ هَذَا التَّكْيِيدِ عَلَى قَضِيَّةِ النُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ الَّتِي هِيَ إِحْدَى قَضَايَا الْإِيمَانِ الْكَبِيرِ.

وحين قوبل بالمجادلة بالباطل جادلهم بالتّي هي أحسن، فواجههم بالحجج الدامغة، وهنا اختالَ فرعون بدهائه، فقطع المناظرة مدّعياً أنّه يريد أن يتحقّق من صحّة ادّعاء موسى أنّه رسولٌ من الله، فأمر باتّخاذ وسيلة خرافية يواطئه عليها الشياطين المشاركون له في الحكم والسلطان والطغيان والجبروت، وينخدع بها السذج من عامّة قومه الذين يرون فيه قدراتٍ فائقات قد يستطيع بها معرفة الحقائق السماوية، وهي من الوسائل التي لا تتحقّق مقدماتها إلّا بأمد طويل، تغرق في بحره القضية التي قامت من أجلها المناظرة.

خامساً:

عندئذٍ انتقل المؤمن الداعية إلى داعٍ عامٍّ بين عليّة القوم وبين جمهور الشعب المصري، فنادى بين الشعب المصري يبشّر بأسس الإيمان، ويؤكد على قضية الدينونة والجزاء، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حسابٍ وجزاء.

سادساً:

جادلَهُ كبراء قومه بالباطل، ليثنوه عن نشاطه في دعوته، وليعيدوه إلى ملّتهم. فجادلهم بالحقّ وسلطانٍ مبين، وأبان لهم أنّه يدعوهم إلى الخير والنجاة، وأنّهم يدعونهم إلى الشّرّ وعذاب النار.

وأبان لهم أنّ الشرك الذي يدعونهم إليه شركٌ لا تُثبتُه أدلّة علمية، فالشركاء التي يدعونهم إلى الإيمان بها ليس لها علمٌ قائمٌ على أدلّةٍ صحيحة، تثبت أنّها شريكةٌ للرّب الخالق في ربوبيّته ولا في إلهيّته، فكيف يؤمن بها، وكيف يعبُدُها من دون الله؟! . وكيف يتركُ الحقيقة العلميّة ذات الأدلّة البرهانيّة التي تُفرضُ عليه أن يؤمن بالله الواحد الأحد الذي لا شريك

له، وهو عزيزٌ، أي: قويٌّ غالبٌ لا يُغلبُ، وهو غفَّارٌ، أي: يغفر لمن تابَ
وآمن به واتَّبَعَ هُداه.

هذه خلاصة منهجه الدَّعَوِيّ، ولدى التأمل في هذا المنهج نلاحظ أنّه
منهج رُسلِ الله في دعوتهم إلى دين الله الحقّ، حين كانوا يدعون أهل الكفر
والشرك بالله.

وهو منهجٌ يعتمد على البدء الرفيق بالإقناع الهادئ، لاكتساب الثقة،
ثم الاعتماد على المسلّمات المشتركة، التي هي من الأسس الفكرية العامة،
والاهتمام الأعظم بقضايا الإيمان الأولى، والانتقال شيئاً فشيئاً إلى مواطن
الخلاف، وتقديم الحجج الصحيحة التي تفيد إقناع ذوي الفكر.

- ٣ -

التدبر التحليلي للنص

١ - قول الله عزّ وجلّ مبيناً تأزّم الموقف ضدّ موسى والذين آمنوا به
واتبعوه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١١٠﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ
وَقَرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿١١١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ
الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١١٢﴾﴾

ولقد أرسلنا موسىٰ بآياتنا: أي: بآياتنا البينّة التي فيها تعليمات الدين
وأحكام الشريعة، وآياتنا الإعجازية، وهي الآيات التسع التي أجزاها الله على
يد موسىٰ، لإثبات أنّه مُرسلٌ من ربه، أوّلها آية العصا التي كانت تنقلب له
بإذن الله شعباناً مبيناً، وآية اليد، إذ كان يُدخِلُ يده في جيبه فتخرج بيضاء
متلألئة من غير سوء.

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: يُطَلَقُ السُّلْطَانُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ، وَعَلَى
الْحُجَّةِ الْغَالِبَةِ وَالْبِرْهَانِ الدَّامِغِ، وَعَلَى الْمَلِكِ وَالْوِلَايَةِ عَلَى النَّاسِ .

والمعنى الملائم هنا الحجّة الغالبة والبرهان الدامغ، فقد كان موسى
عليه السلام ذا حجّة برهانيّة دامغة، على أنّ الآيات الإعجازيّة التي جاء بها
هي من البراهين الدامغة، فهي علامات برهانيّة .

إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ: أَي: وَإِلَى أَقْوَامِهِمْ، ففِرْعَوْنُ وَوَزِيرُهُ
الْأَوَّلُ هَامَانُ هُمَا الرَّأْسَانِ الْكَبِيرَانِ لِلْقَبْطِ فِي مِصْرَ، وَالْإِرْسَالُ إِلَيْهِمَا يَفِيدُ
بِاللَّوْازِمِ الْفِكْرِيَّةِ الْإِرْسَالِ إِلَى كُلِّ الْقَبْطِ قَوْمَهُمَا، إِذْ خِطَابُ الْقَوْمِ يَبْدَأُ بِخِطَابِ
مُلُوكِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ وَقَادَتِهِمْ، فَيُكْتَنَى عَنِ الْقَوْمِ بِهِمْ .

أَمَّا قَارُونَ فَكَانَ رَئِيسًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ ابْنُ عَمِّ مُوسَى، وَكَانَ ذَا
وِلَايَةٍ كَامِلَةٍ لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَثْرَى بِذَلِكَ ثَرَاءً فَاحِشًا، وَلَمَّا
جَمَعَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى دِينِ آبَائِهِمْ وَقَادَهُمْ قِيَادَةً دِينِيَّةً، كَانَ قَارُونَ مِنْ
حِزْبِ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ قَائِلًا مَعَهُمَا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَاحِرٌ كَذَّابٌ،
وَأَخَذَ يَتَعَالَى وَيَسْتَكْبِرُ بِتَأْيِيدٍ مِنَ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَيَتَفَاخِرُ عَلَى قَوْمِهِ بِأَمْوَالِهِ
وَعَبِيدِهِ، وَمِظَاهِرِ الزَّيْنَةِ وَالْعِظْمَةِ الَّتِي جَعَلَهَا لِنَفْسِهِ، حِينَمَا يَسِيرُ فِي مَوَاقِبِهِ فِي
أَحْيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَشَارَكَ آلَ فِرْعَوْنَ فِي الْبَغْيِ عَلَى قَوْمِهِ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ
وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ فَاِبْتَلَعَتْهُ، وَكَانَ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا: أَي: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْآيَاتِ الْحَقِّ
مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، إِذْ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ آيَاتِ التَّذْكِيرِ وَالْإِنْدَارِ فِي أَزْمَانٍ مُتَرَاخِيَاتٍ،
وَهِيَ آيَاتُ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالْدَّمَ .

قَالُوا: اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ: أَي: قَالَ فِرْعَوْنُ
وَهَامَانَ الرَّأْسَانِ الْأَمْرَانَ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَقَالَ مَعَهُمَا أَيْضًا قَارُونَ بَاغِيًا
عَلَى قَوْمِهِ وَمَنَاصِرًا لِفِرْعَوْنَ، لِحُجُودِ التَّنْفِيزِ: اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .

موسى، واستبقوا المواليد من البنات اللواتي سيكنن نساءً صالحات للخدمة والتسخير أحياء.

وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ: الكيد: هو التدبير لأمر مكرهة للمكيدين، والكافرون لا يكيدون كيداً إلا مغموساً في أوحال ضلالٍ عن الحق والرُّشد والهُدَى.

ودلَّ هذا على أن قارون قد كان كافراً مثل كُفْر فرعون وهامان، لأن الظاهر من الضمير في: ﴿قَالُوا﴾ يعود على الثلاثة فرعون وهامان وقارون، وهذا ينفي أن يكون قارون قد آمن بموسى ثم ارتدَّ عليه، أو كان متابعاً لموسى نفاقاً، فالنصُّ يُشعرُ بأنه أحدُ المشاركين في صنْع قرار قتلِ المواليد الذكور الذين يُولدون لمن آمن مع موسى عليه السلام، ولعلَّ قارون كان مستشاراً في القصر الفرعوني للشؤون المتعلقة ببني إسرائيل في مصر، وصدَّر القرار عامّاً يشمل كلَّ أبناء الذين آمنوا مع موسى ولو لم يكونوا من بني إسرائيل لإرهاب القبط أيضاً حتى لا يؤمنوا به ويتبعوه.

* * *

٢ - قول الله عزَّ وجلَّ مبيناً اقتراح فرعون على أعضاء مجلس مستشاريه بأن يقتل موسى وكان هذا في جلسة ابتدائية:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

وفي قراءة المدنيين والبصري: ﴿وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

مثل هذا العرض الذي جاء في هذه الآية يكون غالباً خلال إحدى المجالس التي تُعقد لتبادل الرأي في إدارة شؤون الدولة، بين الملك أو رئيس الدولة ووزارة ومجلس المستشارين.

وقد عرض فرعون على مجلسه فكرة إصدار قرار بقتل موسى بعد أن

تفانم أمرُ موسى وأمرُ بني إسرائيل في مصر، وخشي فرعون أن يهتَزَّ عرشه، وتذهب ذرائع هيمنته على البلاد، واستعباده للشعب، باعتباره وارث الملك والسلطة الدينية عن آبائه وأجداده، وفق عقائدهم الوثنية.

وأبان لأعضاء مجلسه أنه إذا قتلَه قَطَعَ بِقَتْلِهِ قُدْرَتَهُ على أن يدعُو رَبَّهُ، كما كان يفعلُ في أحداث آيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ويظهرُ أنه أراد قتلَه بصورة سرّية دون إعلانٍ بمنشور عام، حتّى لا يعلم موسى فيدعُو رَبَّهُ.

فقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: بعد التخلُّص منه بقتله وفصل ما بينه وبين ربه من صلة، سببها ما له من قوّة نفسية وروحية ما دام على قيد الحياة، فإذا مات انقطعت هذه الصلة، وهذه فكرة تراودُ كلَّ الذين يرون أن لبعض الناس طاقات وقدرات غيبية، وهذه تنتهي بموتهم.

وعلّل فرعون ما اقترح على مجلس مُستشاريه من قتل موسى بإحدى عِلتين أو كليهما، أخذاً من القراءتين:

﴿أَوَ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ و ﴿وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

العلة الأولى: الخوف من أن يُبدّل بدعوتيه دين القوم الذي تَعتمدُ عليه الأسرة الفرعونية المالكة في مصر، والمهيمنة على الشعب به.

العلة الثانية: الخوف من أن يُثيرَ الذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ ضدَّ السُلطة الحاكمة، فيُظهِرَ في الأرضِ الفساد.

ويظهر أن فرعون تركهم يفكرون في الأمر، ولم يطلب في هذه الجلسة أن يُعطوا رأيهم الجازم، وانفضّ المجلس، ولم يكن فرعون يعلم أن أحداً من حاضري مجلسه يمكن أن يُوصِلَ هذا العزم منه لموسى عليه السلام، فكلُّهم من آله، ولا يُظنُّ بواحدٍ منهم أن يكون قد آمن بموسى واتَّبَعَهُ سرّاً.

لكن قد كان فيهم رجلٌ مؤمنٌ يكتُمُ إيمانه، ويظهر أنه أوصلَ الخبر سرًّا لموسى عليه السلام.

* * *

٣- قول الله عز وجل مبيناً علمَ موسى عليه السلام بما اقترحه فرعون واستعاذته بربه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

علمَ موسى عليه السلام نبأ استشارة فرعون مجلس وزرائه ومستشاريه في أن يقتله، ويظهر أنه جمع رؤساء قومه من بني إسرائيل وأبلغهم النبأ، فقالوا له: ماذا أنت صانع؟.

قال: إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ: أي: التَّجَأْتُ إِلَيْهِ وَاعْتَصَمْتُ بِهِ، فَهُوَ سَيَحْمِينِي مِنْ مَكْرِ فِرْعَوْنَ، وَمَكْرِ كُلِّ كَافِرٍ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

هذا دعاءٌ مقرونٌ بالتوكلِ التامِ على الله، إذ ليس لديه وسيلة متاحة غير الدعاء والتوكل، وقد أعادَهُ اللهُ وَعَصَمَهُ بِالطَّافَةِ الْخَفِيَّةِ.

* * *

٤ - قول الله عز وجل مبيناً قصّة مؤمن آل فرعون وما كان منه في جلسة ملكية لاحقة:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨) يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟! .!!

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٧﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٢٨﴾ وَيَتَقَوَّمُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدْرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَرِيبٍ هَادٍ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلِ بَالْبَيْتِ فَجَاءَ زَلْزَلَةٌ فِي شُكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنتَهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمْنُنُ ابْنِ لِي صَرِحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ ﴿٣٣﴾ الْأَسْبَابَ ﴿٣٤﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

نلاحظ من هذا العرض القرآني أن فرعون عقد جلسة لاحقة للجلسة الابتدائية، جمع فيها وزراءه ومستشاريه من آله ليأخذ قراراً مستنداً إلى مشورتهم بالتفويض له بأن يقتل موسى .

وقد دلَّ على هذه الجلسة اللاحقة وجُود الفاصل الذي أبان الله فيه أن موسى عليه السلام قد بلغه نبأ اقتراح فرعون بقتله، وأن موسى دعا ربه أن يُعيده من كل مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ .

وفي هذه الجلسة اللاحقة يظهر أن فرعون قال لأعضاء مجلس وزرائه ومستشاريه: ما رأيكم فيما عرَضْتُ عَلَيْكُمْ من قَتْلِ مُوسَى؟ وترك الأمر لمشورتهم، مع إشعارهم برغبته في أن يتخذوا قراراً بذلك .

وَكَشَّانٍ كُلَّ الْمَجَالِسِ الشُّورِيَّةِ الَّتِي تُعْرَضُ فِيهَا اسْتِشَارَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ
 خَطِيرَةٌ، كَقَتْلِ رَئِيسِ قَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِهِ نَبِيًّا رَسُولًا مِنْ رَبِّهِمْ، لَا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ فِيهَا
 وَجْهَاتٌ نَظَرٍ مُخْتَلَفَةٌ مُؤَيَّدَةٌ، وَمَعَارِضُهُ، وَمَتْرِيئَةٌ، كَأَنْ يَقُولَ بَعْضُهُمْ: الرَّأْيُ
 رَأْيُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَأَنْ يَقُولَ بَعْضُهُمْ: يَحْسُنُ أَنْ نَتْرِيثَ حَتَّى نَتَدَبَّرَ الْأَمْرَ،
 فَقَدْ ظَهَرَ مِنَ الرَّجُلِ عَجَائِبٌ عَظِيمَةٌ فِي أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا، وَقَدْ يَفَاجِئُنَا بِمَا لَا
 قَبِيلَ لَنَا بِهِ.

عندئذٍ وَجَدَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ - وَهُوَ أَحَدُ أَعْضَاءِ الْمَجْلِسِ
 الِاسْتِشَارِيِّ - فِرْصَةً مُنَاسِبَةً لِأَنَّ يُقَدِّمَ مَشُورَتَهُ نَاصِحًا، وَيَنْصُرَ مُوسَى وَدِينَهُ وَمَا
 يُؤْمِنُ بِهِ، مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، فَقَدَّمَ خُطْبَةً رَائِعَةً اشْتَمَلَتْ عَلَى رِصَانَةٍ
 وَحِكْمَةٍ وَرَشْدٍ وَحُجَجٍ دَامِغَاتٍ، وَقَدْ جَاءَ فِي النِّصْنِ بَيَانُ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْحَكِيمَةِ
 مَعْطُوفًا عَلَى الْمَقَالَاتِ الْمَطْوِيَّاتِ اللَّائِيَّاتِ قَالَهَا بَعْضُ أَعْضَاءِ الْمَجْلِسِ خِلَالَ
 تَبَادُلِ الْأَرْءَاءِ، فَهِيَ هُنَا «وَاو» فَصِيحَةٌ^(١) نَظِيرُ الْفَاءِ الْفَصِيحَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّحَاةُ
 وَالْمَفْسُرُونَ، فِي نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا... ﴾

أي: فضرب فانفجرت.

ولولا إرادة عطف قول الرجل المؤمن على مطويٍّ محذوفٍ لكان
 المناسب حذف الواو على وفق أسلوب الحوار من ترك العطف.

(١) من خلال تدبري للقرآن رأيت أن العطف على مطويٍّ في النص يمكن إدراكه ذهناً، لا يقتصر على الفاء التي سماها النحويون فاءً فصيحة، بل يمكن أن يكون في حروف عطف أخرى، منها: الواو، وبل، وثم، وتحليل النصوص وإبراز المطويات فيها هو الذي يكشف ذلك.

لقد قال هذا الرجل المؤمن من آل فرعون، الذي ما زال يكتنم إيمانه منذ مُدَّة، عدَّة مقالاتٍ في خطبته، بدأها بالتلطف في النصيحة ثم ترقى فكان داعيةً إلى دين الله .

المقالة الأولى: ﴿ أَنْقَلْتُمْ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ !!؟ .

أي: أنقلونه لأجلِ مقالته التي يقولها بتكرار وهي: رَبِّيَ اللهُ، في حال أنه قد جاءكم بما يُثبتُ صحَّةَ مقالته من حُجج وبراهين بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ، وبما يُثبتُ صحَّةَ بلاغِهِ عن ربه، وَأَنَّهُ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا، من آياتٍ ومُعجزاتٍ بَيِّنَاتٍ شَهِدْتُمُوهَا طَوَالَ سِنِينَ أَقَامَ فِيهَا يُبَسِّرُ بِدِينِ رَبِّهِ .

المقالة الثانية: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ .

أي: لا يخلو أمرُ موسى من أَحَدِ اِحْتِمَالَيْنِ: إمَّا أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ صَادِقًا .

● فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَضُرَّكُمْ بِشَيْءٍ، فَالْكَاذِبُ لَا بُدَّ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيْهِ كَذِبُهُ، فَيُوقَعُ فِي الخيبة وسوء المصير، لأنَّه يكذبُ على ربه في ادِّعاء أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، والله لا يدعُ إنسانًا يكذبُ عليه دون أن يُنزلَ به عقابه، وَيُخَيِّبَ مَسَاعِيَهُ .

وهذا يدلُّ على أَنَّ القومَ مُشْرِكُونَ، فهم يؤمنون بالله الرَّبِّ الخالق، ولكنهم يجعلون له شركاءَ آلهةً من البشر، تستمدُّ من الرَّبِّ الأعلى خصائص ربيَّة وإلهيَّة، وآلهتهم من الأوثان ثلاثة، وهذا الرجل المؤمن يخاطبُهُم من قاعدة مشتركة هي الإيمان بالله الرَّبِّ الخالق .

● وَإِنْ كَانَ صَادِقًا أَنَّهُ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّكُمْ، فَلَا بُدَّ عَلَى

أقلّ التقديرات أن يُصيبكم بغضُ الذي يُنذركم به، من عقاب الله العاجل في الدنيا، والآجل يوم الدين، ومن المعروف أن من عقائدهم عقيدة البعث إلى الحياة للدينونة والجزاء، لكنّها كانت مشوّهة، ولذلك كان الفراعنة يبنون مدافنهم العظيمة السريّة، ويجعلون مع مُحَنَطات أجسادهم فيها كنوزهم، ويخفون هذه المدافن حتّى لا تصل إليها أيدي اللصوص، زعماً منهم أنهم إذا بُعِثوا إلى الحياة الأخرى وجدوا الكنوز التي دفنوها معهم، فاستفادوا منها بعد البعث.

المقالة الثالثة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

بدأ الرّجل المؤمن من آل فرعون بهذه المقالة التي قدّمها في معرض الحديث عن موسى يُشعِرُ أعضاء المجلس الفرعوني برُفقٍ أن موسى صادق في أنّه رسولُ الله، لأنّ الله أيّدهُ بالآيات الخوارق التي شهدتموها، وهذا التأييد حكم من الله له بأنّه على هُدى، وليس على ضلالة، أي: ليس مُسْرِفاً في ادّعائه أنّه رسولُ الله، وليس كذّاباً فيما يُبلّغ عنه، ولو كان مُسْرِفاً في ادّعائه وكذّاباً في بلاغاته لما هداه الله فأَيّده، لأنّ الله لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ.

لقد كان مشيراً ناصحاً، وبدأ يتحوّل ليكون مدافعاً عن موسى ومناصراً له، ومبيناً أنّه صادق في ادّعائه، وفي بلاغاته عن ربّه، بالحجّة البرهانية.

المقالة الرابعة: ﴿يَقْوِمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾.

هُنَا كَشَفَ عَنْ هُوِيَّةِ إِيْمَانِهِ بِمُوسَى، وبدأ يدعُو فرعونَ وأعضاءَ مجلسِ وُزرائِهِ ومُستشاريه إلى دينِ الله.

فاستعطفهم أولاً بقوله: ﴿يَقْوِمُ﴾ أي: أنتم قومي، فأنا أحرصُ على بقاء مُلككم ونجاتكم من بَأْسِ الله، فمُوسَى بالدليل البرهاني رسولٌ صادقٌ بعثه الله لهدايتكم، فأمنوا به، ولا تتعرّضوا له بسوء، وازعوا نعمة الله عليكم،

فقد آتاكمُ الملكُ في مصر، وجعلكم ظاهرين في الأرض بما آتاكم من سلطان وأموالٍ وجنود، فإذا أصررنا على معاداةِ رسولِ الله ومقاومةِ دعوته، ورفضِ ما دعانا إليه من إيمان، فلا بُدَّ أخيراً من أن ينصره الله، فيُنزِلَ بنا بأسه، فإن تماديننا فيما نحن فيه فأنزل بنا بأسه، فَمَنْ يَنْصُرُنَا فَيُنْجِنَا من بأسِ الله إن جاءنا؟! أنملكُ دَفَعَ بأسِ الله عنا؟!!!

ورأى فرعون أن هذا الرجل من آله قد أثر بمقالاته على بعض أعضاء مجلسه، فأراد أن ينهي الجلسة ويقطع الحوار بكلمة حازمة، يقولها بوصفه ملكاً آمراً، لا بوصفه مستشيراً محاوراً، فوجه لهم ما أبانه الله بقوله:

● ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٢٦)

أي: إني رأيتُ أنَّ السياسةَ الحكيمة تقتضي أن أقتل موسى، لأنِّي أخافُ من أن يُبدلَ دينكم أو أن يُظهرَ في الأرض الفساد، وهذا الذي رأيتُه مقتنعاً به، هو الذي أردتُ أن تروه، وأن توافقوني عليه، حتى يكون قرارُ قتله مُعتمداً على مشورتكم، فأنتم آلي، وأركان دولتي.

ويظهر أن بعض أعضاء المجلس نصر رأي فرعون، لكن توقف وتردد آخرون، ومُراد فرعون أن يأخذَ منهم قراراً إجماعياً أو أغلياً، بيد أن هذا لم يبدُ على وجوه الأعضاء ولم يظهر في أقوالهم.

وهنا تابع الرجلُ المؤمن مقالاته ونصائحه بجرأة، ولعله وجد في الأعضاء من تأثر ببياناته، فالحق بها المقالات التاليات، وقد عرضها القرآن بصيغة تُشعرُ بهذا الإلحاق، إذ قال الله عز وجل بأسلوب عطف أقوال على أقوال:

● ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ عَنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ (٣٦) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣٧﴾ وَيَتَقَوَّمُ عَنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٨﴾ يَوْمَ تُنَادُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٩﴾

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَاكَ
 قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٢١﴾
 الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٢﴾ .

فالمقالة الخامسة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ
 الْأَحْزَابِ ﴾ ﴿٢١﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
 لِلْعِبَادِ ﴿٢٢﴾ .

بَعْدَ أَنْ حَذَّرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ فِي الْمَقَالَةِ الرَّابِعَةِ، عَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ
 الْمَقَالَةِ الْخَامِسَةِ أَمْثَلَةَ تَارِيخِيَّةَ مَعْرُوفَةً لَدَيْهِمْ، وَهِيَ قِصَصُ إِهْلَاكِ اللَّهِ لِقَوْمِ
 نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَلِقَبِيلَةِ عَادٍ، وَلِقَبِيلَةِ ثَمُودَ، وَلِلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ كَقَوْمِ لُوطَ
 عَلَيْهِ السَّلَامِ، وَأَهْلِ مَدِينِ قَوْمِ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ .

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ سَبَبَ إِهْلَاكِهِمْ هُوَ كُفْرُهُمْ بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَمَحَاوَلَاتِهِمْ
 التَّخَلُّصَ مِنْهُمْ بِالْقَتْلِ وَنَشْرُهُمُ الظُّلْمَ وَالطَّغْيَانَ وَالْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ . وَقَالَ
 لَهُمْ: لَا تَتَّصِرُوا أَنْ إِهْلَاكَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْأَقْوَامِ قَدْ كَانَ لِأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يُهْلِكَهُمْ
 وَيَأْتِي بغيرهم مَشِيئَةً غَيْرَ قَائِمَةٍ عَلَى الْعَدْلِ، بَلْ أَهْلَكَهُمْ بِذُنُوبِهِمُ الَّتِي اقْتَضَتْ
 إِهْلَاكَهُمْ، فَمَا يُعَاقِبُ اللَّهُ إِلَّا بِالْعَدْلِ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ .

وَأَطْلَقَ عَلَى هَؤُلَاءِ كَلِمَةَ (الْأَحْزَابِ) لِأَنَّهُمْ تَحَزَّبُوا مَجْتَمِعِينَ مُشَاقِّينَ رُسُلِ
 رَبِّهِمْ، مُعْتَرِّزِينَ بِقَوَاهِمِ الْمَادِيَةِ، يُرِيدُونَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِمْ .

أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ: فَعَلَّ «خَافَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَيَحْرَفُ
 «مِنْ» فَيَقَالُ: خَافَهُ، وَخَافَ مِنْهُ، عَلَى نَفْسِهِ، أَوْ عَلَى غَيْرِهِ .

وَيَوْمَ الْأَحْزَابِ: أَي: أَيَّامِ الْأَحْزَابِ، إِذِ الْمَفْرَدُ الْمُضَافُ إِلَى الْجَمْعِ
 الَّذِي يَتَطَلَّبُهُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْجَمْعِ هُوَ بِمِثَابَةِ الْجَمْعِ، مِثْلُ: «كُلُّوا فِي بَعْضِ
 بَطْنِكُمْ تَعَفُّوا» .

وأَيَّامُ الْأَحْزَابِ هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي أَهْلَكُوا فِيهَا.

مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ... : أَي: مِثْلَ عَادَةِ اللَّهِ وَسُنَّتِهِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ فِي هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ، وَهِيَ سُنَّتُهُ إِهْلَاكُ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ الَّذِينَ يُدَبِّرُونَ التَّدَابِيرَ لِلتَّخْلِصِ مِنْهُمْ.

المقالة السادسة: ﴿وَنَقَوْمٍ آتَيْنَاهُمْ آخِافًا عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْوَعْدِ (٢٢) يَوْمَ تُولُون مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآلَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾.

في المقالة الخامسة حذرهم من عقاب الله المعجل بالإهلاك الشامل، وفي هذه المقالة السادسة حذرهم من عقاب الله المؤجل إلى يوم الدين، يَوْمَ التَّنَادِي، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ عِبَارَةٌ «يَوْمَ التَّنَادِي» إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ يَوْمَئِذٍ إِلَّا أَنْ يُنَادِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ، وَالشُّكُوبِ وَالتَّوَدُّعِ وَالتَّحَسُّرِ مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عِظَائِمِ الْأُمُورِ.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ يَحَاوِلُونَ الْفِرَارَ مُؤَلِّينَ الْأَدْبَارَ، مِنْ أَسْبَابِ التَّعْذِيبِ الْهَاجِمَةِ عَلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ مَلْجَأً يَعْصِمُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، لَكِنَّمَا لَا يَجِدُونَ، وَقَالَ لَهُمْ مُؤَكِّدًا: مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، أَي: مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ حَافِظٍ وَلَا وَاقٍ وَلَا مَانِعٍ يَوْمَئِذٍ، فَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ وَفَصْلُ الْقَضَاءِ وَالْجَزَاءِ.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ الْحُكْمَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ يَحْكُمِ اللَّهُ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ بِالضَّلَالَةِ بِنَاءً عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ لَهُ بِالْهُدَايَةِ، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآلَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

المقالة السابعة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٢٤)﴾.

لَمَّا كَانَ الْمَخَاطَبُونَ مِنْ أُسْرَتِهِ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ عَاصَرُوا
يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْذُ أَقَلِّ مِنْ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَكَانُوا عَالَمِينَ بِالْبَيِّنَاتِ
الِدِينِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا، وَدَعَا قَوْمَهُ لِلْإِيمَانِ وَلِلْعَمَلِ بِهَا، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ
بَقُوا مُحَافِظِينَ عَلَى شُرَكَهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، رَأَى أَنَّ يُخَاطَبَهُمْ
مَعْتَبِرًا بِإِيَاهُمْ أَنَّهُمْ امْتِدَادٌ لِأَسْلَافِهِمْ، فَخَطَبَ أَسْلَافَهُمْ وَخَطَبَهُمْ وَاحِدًا.

فَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ جَاءَ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ الدِّينِيَّةِ الْمُوَيَّدَةِ بِالْحُجُجِ
الْبِرْهَانِيَّةِ، وَبِالْآيَاتِ الدَّلَالَاتِ عَلَى صِدْقِ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِ، فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِمَا
جَاءَكُمْ بِهِ، وَمَا زَلْتُمْ مِنْهَا فِي شَكِّ.

كَانَ ضَمْنًا يُلُومُهُمْ أَوْ يُؤْتِبُهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ يَرْفُضُونَ الْبَيِّنَاتِ مِنَ الْمَبَادِيءِ
وَالْمَفَاهِيمِ لِمَجْرَدِ إِيْرَادِ سُكُوكِ حَوْلَهَا، فَالْشَّكُّ قَدْ يَخْدُثُ حَوْلَ آيَةٍ حَقِيقَةٍ،
بَطْرَحِ احْتِمَالِ ضَعِيفِ حَوْلَهَا، وَلَوْ كَانَ احْتِمَالًا وَهْمِيًّا، فِي حِينِ أَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَ
بِالْبَاطِلِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي لَهُمْ بِهِ هَوًى، وَلَوْ كَانَ وَاضِحَ الْبَطْلَانِ، لِمَجْرَدِ وُجُودِ
احْتِمَالِ وَهْمِيٍّ خُرَافِيِّ قَدْ يُوَلَّدُ شَكًّا ضَعِيفًا بِأَنَّهُ صَحِيحٌ.

وَهَذَا دَأْبُ الْمَبْطِلِينَ الضَّالِّينَ فِي كُلِّ عَصْرٍ، يَرْفُضُونَ الْحَقَّ الْبَيِّنَ
الْمَكْرُوهَ لِلنَّفُوسِ اسْتِنَادًا إِلَى طَرَحِ احْتِمَالِ ضَعِيفٍ حَوْلَهُ قَدْ يُوَلَّدُ فِي النَّفْسِ
شَكًّا لَا قِيَمَةَ لَهُ فِي مَوَازِينِ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا، وَيَسْتَمْسِكُونَ
بِالْبَاطِلِ الْبَيِّنِ الْبَطْلَانِ، إِذَا كَانَ بَاطِلًا تَقْلِيدِيًّا، أَوْ مُوَافِقًا لِلْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ
وَالرَّغْبَاتِ، اسْتِنَادًا إِلَى طَرَحِ احْتِمَالِ ضَعِيفٍ حَوْلَهُ قَدْ يُوَلَّدُ فِي النَّفْسِ شَكًّا لَا
قِيَمَةَ لَهُ فِي مَوَازِينِ الْمَعْرِفَةِ، بِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَقًّا.

وَالْمَعْنَى: فَمَا زَلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ، مَا نَعِيَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ
وَتَرَكَ طَرِيقَتَكُمْ الْبَاطِلَةَ.

حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا: أَي: مَا زَلْتُمْ غَيْرَ
مُؤْمِنِينَ بِهِ اسْتِنَادًا إِلَى الشَّكِّ، وَهُوَ يُلِحُّ عَلَيْكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا، وَبِأَنْ تَتَّبِعُوا مِنْهَا جَ

الله، وتعليمات الدين الذي اصطفاه لعباده، وتُدارونه مداراةً ظاهرة لما له من سلطانٍ قويٍّ في مصر، حتَّى جاء زمنُ موته، عندئذٍ تَخَلَّصْتُمْ من إلحاحه عليكم بدعوته، واسترَحْتُمْ من مداراته لسلطانه، وقُلْتُمْ ذَهَبَ يوسُفُ الَّذِي كَانَ يُتَعَبَّنَا بدعوته وعدله وإنصافه وأتباعه الحقَّ في سلطانه، وعدم تمكينه لنا من أن نرتع في الدولة على أهوائنا، وَلَنْ يبعثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسولاً يَكُفُّنَا عَمَّا نُريدُ.

وهذا دَيْدَنُ كُلِّ مُسْرِفٍ في تحقيقِ أهوائه وشهواته ورغباته في الحياة، لا يُحِبُّ الالتزامَ بالحقِّ، ويُورِدُ عليه التشكيكات الضعيفات للإيهام بأنَّه باطلٌ، ولثلاً يَشْعُرُ بأنَّه مُلزَمٌ بعقل نفسه عمَّا يهوى ويشتهي عملاً بما يُؤْمِنُ به، لذلك فهو يَقع في الضلالَ، ويلتزم به، ويُتَابِعُ سُبُلَهُ ومتهاته في حياته.

هذه الظاهرة إحدى ظواهر فطرة الله التي فَطَرَ عليها النفوس الإنسانية، فمن اختار لنفسه الإسراف في اتباع الأهواء والشهوات والتمتع بزينة الحياة الدنيا دون ضابط، واختار لنفسه الاعتماد على الشُّكوكِ الضعيفة التي ليس لها قِيَمٌ في موازين المعرفة، أمَدَّهُ اللهُ بالوسائل التي يُتَابِعُ بها ضلاله في المسالك والمتهات، ضمن قوانين التسخير العام الذي سَخَّرَ اللهُ بِهِ الأشياءَ في الكون لِمَا يَشَاءُ النَّاسُ من أعمالٍ خَيْرٍ أو شَرٍّ، ضمن ظروف امتحانهم في هذه الحياة الدنيا، نفهم هذا من قول الله تعالى في الآية:

﴿... كَذَلِكَ يَضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

أي: كذلك الَّذِي حصل لآل فرعون في عدم استجابتهم لدعوة يوسف فمكَّنَهُمُ اللهُ مِنْ أَنْ يَضِلُّوا، يُمَكِّنُ بقانون التسخير القدريِّ العامَّ كُلَّ مُسْرِفٍ في اتباع أهوائه وشهواته ومُخْتَلِفِ زينات الحياة الدنيا، من أن يَضِلَّ في مسالك الحياة ومتهاتها.

ويظهر لي أنَّ هذه العبارة تعليقٌ رَبَّانِي بياني على المقالة السابعة التي

قالها مؤمن آل فرعون ضمن خطبته في الجلسة الاستشارية التي عقدها فرعون، للحصول على قرار سُوري بقتل موسى عليه السلام، ويتبع هذا التعليق قولُ الله عزّ وجلّ في الآية التالية من النصّ:

● ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴾

فيه بيان للمسرفين المرتابين، الذين يعتمدون على الشكوك والريب فيما ينفون ويرفضون، وفيما يُثبتون ويقبلون.

إن اسم الموصول «مَنْ» في عبارة: ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ من صيغ العموم، فالعبارة بقوة: يُضلُّ الله كُلَّ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ، فجاء وصف هؤلاء المسرفين المرتابين بأنهم ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴾.

السلطان: الحجّة والبرهان.

آيَاتُ اللَّهِ: تَشْمَلُ الآياتِ البيانيّة، والآياتِ الكونيّة، والآياتِ الإعجازيّة، والآياتِ الجزائيّة.

وجدلُ المسرفين المرتابين يتناولُ كُلَّ صِنْفٍ من هذه الآيات بتشكيكات خاصّة، لا تعتمد على حجج صحيحة مقبولة في موازين المعارف العلميّة، التي فطر الله العقول عليها فيما آتاها من موازين.

- فالآيات البيانيّة المنزلة على الرسول، يطرحون حولها شكًا في صحة كونها من عند الله، وشكًا في صحة كون ما فيها من بيانات وتعليماتٍ موافقاً للحق، أو موافقاً للحكمة ومصالح الناس. إلى غير ذلك من تشكيكات كثيرات.

- والآيات الكونية يطرحون حولها شكًا باحتمال كونها أزلية، وكون

تغييراتها تَبْتُمُ بالتَّطَوُّرِ الذاتي، إلى غير ذلك من احتمالات باطلاتٍ تعتمد على الشكوك والتخيّلات التوهميّة التي لا تؤيِّدها أدلّةٌ فكريّةٌ صحيحة.

- والآياتُ الإعجازيّةُ يطرحون حولها شكًا باحتمال كونها من قبيل السّحر والحركات التخييليّة التي لا حقيقة لها، ونحو ذلك.

- والآياتُ الجزائيّةُ يطرحون حولها شكًا باحتمال كونها ظواهر طبيعيّة لا بُدَّ أن تَقَعَ، وقد صادف أنّها وَقَعَتْ على أقوامٍ جاءهم من ادّعوا أنّهم رُسُلُ الله، فاستغلَّها الرُّسُلُ لدعوتهم.

بينما يعبدون أصنامهم توهّموا أنّهم أتّوا قد تنفعهم، أو تشفع لهم عند الله، ويصدّقون كهنتهم وهم كاذبون دجالون مُخَرَّفُونَ فاسقون، إلى غير ذلك من توهّمات باطلات في موازين العقول.

قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

المقْتُ: أشدُّ البُغْضِ.

أي: جدالُ المسرفين المرتابين في آياتِ الله بالشكوك التوهميّة دون الاستناد إلى حُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ فَطَرَ اللَّهُ العقولَ على قبولها، جدالٌ يَمَقُّتُهُ اللَّهُ والذين آمَنُوا مَقْتًا كبيراً، إذ الغرضُ منه جعلُ الحقِّ باطلاً في تصوُّرِ النَّاسِ له، وجعل الباطلِ حقّاً في تصوُّرِ النَّاسِ له، والإيهامُ بأنَّ المُحِقِّينَ مبطلون، وأنَّ المبطلينَ مُحِقُّونَ.

قول الله عزّ وجلّ: ﴿... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ

جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنّ الذين يُجَادِلُونَ في آياتِ الله بغيرِ سُلْطَانٍ آتاهم، قد أَقْفَلَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عن قبول الحقِّ، وطَبَعَ على أقفالها بالأختام، وهذا كناية عن انحجابها انحجاباً كاملاً عن أنوار الهداية، وهذا الطَّبْعُ قد كان نتيجةً لما

اختاروه لأنفسهم من كفر وفُجور وعصيان، واستعلاء في الأرض وطغيان، بسبب ما شحنوا في صدورهم من كِبَرٍ، وشَحْنُوا في نفوسهم من رغبات تجبُّرٍ على خَلْقِ الله .

فالطَّبَعُ على القَلْبِ ظاهرةٌ من ظواهر القوانين القدريّة العامّة، الّتي تَحْدُثُ بأسبابٍ مَا يَخْتَارُ النَّاسُ لَأَنْفُسِهِمْ بإراداتهم الحرّة، فَهُمُ الْمَسْئُولُونَ عَنْهُ، كمن يصنع يدهُ في النار فيَحْرِقُهَا اللَّهُ له بقانونه القدريّ العامّ، ضمن أنظمتها وسننها الدائمة في كونه .

ودلّت العبارة على أنّ الطبع على قلب المتكبر الجبار يكون على كلّ منافذ قلبه الّتي يمكن أن تَنفُذَ منها أنوار هداية إلى حقٍّ أو خَيْرٍ، إذ جاء فيها بيانُ أن الطَّبَعُ يَكُونُ على كُلِّ قَلْبٍ، لا على بَعْضِ قَلْبِهِ، والسببُ في ذلك كونه متكبراً جباراً، وهذا لا يُرَجَى منه خير، بخلاف من يُطَبِّعُ على بعض قلبه بسبب الأهواء والشهوات والرغبات التي ليست من حضيض الكبر والتجبر، فإنّه قد يُرَجَى منه خَيْرٌ .

وبعد هذا الفاصل التعليقيّ الّذي هو بيانٌ من الله وليس حكاية لمقالٍ قاله مؤمنٌ آل فرعون، والّذي هو بمثابة معترضة بيانيّة، عند مفصلٍ ينبغي الاستفادة منه لهذا البيان، عادَ النصّ القرآنيّ لمتابعة حكاية ما جرى في المجلس الفرعونيّ الاستشاري فقال الله عزّ وجلّ :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرِحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ ﴿٢٧﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا . . . ﴿٢٨﴾ ﴾

هامان: هو وزير فرعون الأول، ويدهُ اليمينى .
صرحاً: أي: قَضراً عالياً شامخاً .

فَأَطَّلِعَ إِلَى: أي: فأضعدهُ إلى أعلاه وأنظرَ إلى إلهِ موسى الّذي يُمِدُّهُ بالقوى العجيبة والخوارق، أي: لأسأله هل موسى رسوله حقاً .

يُفهم من هذا أن فرعون رأى تأثير بيان الرجل من آله في نفوس مجلس مستشاريه، فأسرع إلى تعليق الأمر على بحث سيقوم به هو شخصيًا بطريقة ينفرد بها، وبوسيلة يطول أمد تحقيقها جدًّا، وحينما تتحقَّق يستطيع أن يدعي ما يشاء من دعاوى يُحيلها على مشاهداته الشخصية، ومحادثاته الخاصة مع إله موسى.

فأمَرَ وزيره الأول هامان، والعالم بخبايا مكايده أن يبني له صرحاً عالياً شامخاً، حتَّى يصعد إلى أعلاه، وينظر إلى إله موسى ويحدِّثه، ويعلم منه الحقيقة، أليس هو من سلالة الآلهة، وفيه موارد من قواها القادرة على الاتصال بالربِّ الأعلى، والاتصال بالهة السماء؟!!

لَعَلِّي أَبْلُغُ الأسباب أسباب السَّمَاوَاتِ: أي: أرجو أن أبلغ الأسباب العلوية، أسباب السَّمَاوَاتِ الَّتِي أَخْذُهَا بِمَا لَدَيْ مِنْ قُوَى خَاصَّة، فأصل بها إلى السَّمَاوَاتِ العَالِيَاتِ، وهناك اتصل بإله موسى وأحادثه وأعرف منه الحقيقة.

وكانَ هذا التعليقُ مكرراً منه أوحى إليه به دهاؤه، إذ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ يَخَاطِبُهُمْ عَلَى أَقْسَامٍ:

● قسم مشارك له في السلطان، عَلِيمٌ بخبائثه وأكاذيبه ومكايده، فهو يؤيده ويواطئه على دعاواه، ويحاول الإقناع بصحتها.

● وقسم مخدوع ساذج، يُوضَعُ عادةً في المجالس الاستشارية العُلَيَا، لاستغلاله في ترجيح الرأى الَّذِي يريده كبيرهم، إذ يُعْلِنُ أفرادُه موافقتهم على اقتراحه الَّذِي قَدَّمَهُ.

● وقسم ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء، ولكن أعداد أفراده لا يكفون لترجيح الرأى المخالف.

وهكذا استبعد فرعون إعادة بحث الموضوع، وكفَّ عن الإلزام بإصدار قرار شوريّ بقتل موسى، وتنازل عن الجزم بأنه ساحرٌ كذاب، واكتفى بقوله: **وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا، مُؤَكَّدًا ظَنَّهُ لَاجَازِمًا بِكَذِبِهِ، فَقَد رَأَى مِنْ آلِهِ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِهِ.** وجاء التعليقُ القرآنيّ على هذا الموقف الأخير لفرعون، بقول الله عز وجل:

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ، وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

وَصَدَّ: بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، أي: وصُرِفَ ومُنِعَ.

عن السَّبِيلِ: أي عن السبيل الحقّ، وهو سبيل الله المستقيم.

وباستطاعتنا أن نُذَرِكَ أَنَّ الَّذِي صَدَّهُ عَنْ اتِّبَاعِ السَّبِيلِ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ تَكَبُّرٍ وَتَجَبُّرٍ فِي الْأَرْضِ، أَخَذًا مِمَّا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي سَبَقَ تَدْبِيرَهُ أَنْفَاءً: ﴿... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٧﴾﴾ مع مساعدة وساوس شياطين الإنس والجنّ وتسويلاتهم.

كَيْدُ فِرْعَوْنَ: أي: تدبيره أمورَه لقمع الحقّ ودُعائه.

فِي تَبَابٍ: أي: في خسران وخيبة وهلاك.

والمعنى: وكذلك التزيين الذي زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ مِنْ قِبَلِ عَوَامِلِ نَفْسِهِ الْمُسْتَكْبِرَةِ الطَّاعِيَةِ الْفَاجِرَةِ، وَوَسَاوِسِ شَيَاطِينِهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، إِذْ أَحَالَ قَضِيَّةَ التَّثْبِتِ مِنْ صِحَّةِ رِسَالَةِ مُوسَى وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ، عَلَى بِنَاءِ صَرْحِ شَامِخِ أَمْرٍ وَزِيرِهِ هَامَانَ بِهِ، كَيْ يَضَعَهُ إِلَى أَعْلَاهُ بِرَجَاءِ أَنْ يَبْلُغَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ، فَيَتَّخِذَهَا وَسِيلَةً مُوَصَلَةً إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَهَنَالِكَ يَتَّصِلُ بِإِلَهِ مُوسَى وَيَعْلَمُ مِنْهُ الْحَقِيقَةَ، زُيِّنَ لَهُ أَيْضًا سُوءُ عَمَلِهِ فِي أُمُورٍ أُخْرَى كَثِيرَةً، وَتَابِعَ قِيَامَهُ بِسُوءِ عَمَلِهِ الَّذِي زُيِّنَ لَهُ.

لقد كاد الرجل المؤمن من آله ليتخلص منه ومن دعوته، وليسكت لسانه، لكن ما كان كيده الذي كاده ضده وضد موسى وبني إسرائيل إلا في خسران وخيبة مسعى، ثم انتهى به إلى هلاكه وهلاك آله الذين أتبعوه، وهلاك جنده.

فظهر أن كيده الذي كاده قد كان غارقاً في تباب، أي: في سعي غايبته خسراناً وهلاكاً.

* * *

٥ - قول الله عز وجل مبيناً دعوة مؤمن آل فرعون في جماهير قومه من القبط:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَنْقُورُ أَنَّمَا يَدْعُوكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾ يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَرَارِ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَنْقُورُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ، مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَرِيزِ الْقَهْقَرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسْتَذَكَّرُونَا مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ .

يبدو أن مؤمن آل فرعون لما انكشف أمره في مجلس شورى القصر الفرعوني، وأنه من الذين آمنوا بموسى واتبعوا دينه الذي جاء به، رأى فرعون وزراءه وفريقاً من أعضاء المجلس الاستشاري إصدار قرار بطرده من مجلس المستشارين لخروجه عن دينهم الوثني، ودعوته إلى دين موسى الذي آمن به معظم بني إسرائيل، وإبعاده عن القصر الفرعوني، فأصدر فرعون قراراً بذلك، ولا يتعد أنه أصدر أيضاً قراراً بطرده من عليّة آل فرعون، لأنه صار بينهم داعية إلى دينه المخالف لدينهم.

عندئذٍ انطلق الرَّجُلُ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ،
بين جماهير القبط من قومه، وتعرّض في دعوته لجدليّاتٍ من قومه، فناظرهم
وجادلَهُمْ بِأَلْتِي هِي أَحْسَنُ.

وقد لخصَّ النَّصُّ الَّذِي نَتَدَبَّرُهُ مِنْ سُورَةِ (غَافِرٍ) أَهَمَّ مَقَالَاتِهِ فِي دَعْوَتِهِ
الرَّشِيدَةِ، وَجَدْلِيَّاتِهِ الْحَكِيمَةِ، وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إِلَى ثَمَانِي مَقَالَاتٍ:

المقالة الأولى: ﴿يَقْوَمُ أَتَّبِعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ نداءؤه لهم
بعبارة: ﴿يَقْوَمُ﴾ فيه استعطافٌ لهم، وإشعارٌ بحرصه على خيرهم وسعادتهم
واهتدائهم إلى سبيل الرَّشَادِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ فَوْزُهُمُ الْعَظِيمُ، وَخَيْرُهُمُ الْجَسِيمُ،
فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَا سِيْمَا أَنَّهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ مِنْ
أَعْمَاءِ مَجْلِسِ مُسْتَشَارِيهِ فِي الْقَصْرِ.
أَهْدِيكُمْ: أَي أَبِينْ لَكُمْ.

سبيل الرَّشَادِ: هُوَ سَبِيلُ اللَّهِ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، وَالرَّشَادُ هُوَ السُّلُوكُ
الْمُوَافِقُ لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ، أَوْ لِمَا هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَكْثَرُ نَفْعًا، وَالْأَبْعَدُ
عَنِ الضَّرْرِ، فِكْرِيًّا وَاعْتِقَادِيًّا وَنَفْسِيًّا وَخَلْقِيًّا وَعَمَلِيًّا.

وطبيعي أن يكون مثل هذا النداء المتضمن الدعوة إلى الاتباع بعد
الاستماع إلى مضمون الدعوة، الخطوة الأولى في دعوة الداعي إلى سبيل
ربه، بعد أن عرفوا أنه يدعو إلى دين الله الحق الذي آمن هو به واتبعه.

المقالة الثانية: ﴿يَقْوَمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ
الْقَرَارِ﴾.

مَتَاعٌ: أَي: شَيْءٌ يُنْتَفَعُ بِهِ انْتِفَاعًا مُوقْتًا قَصِيرًا الْأَجَلِ، وَالْفَنَاءُ يَأْتِي
عَلَيْهِ.

دار القرار: أَي: دَارُ الْاسْتِقْرَارِ الْأَبَدِيِّ الَّذِي لَا نَهَايَةَ لَهُ.

إنَّ أعظم خطوات الداعي إلى سبيل ربّه بعد تأسيس الإيمان بالله، بناء قاعدة الإيمان بالحياة الآخرة والدار الآخرة التي هي دار البقاء الخالد، والتي يكون فيها الحساب على ما قدّم الممتحنون في الحياة الدنيا لآخرتهم من خير أو شرّ، ويكون فيها فضلُ القضاء، ثمّ الجزاء بالثواب على ما قدّموا من خير، أو بالعقاب على ما قدّموا من شرّ.

وإذ كان القوم من المؤمنين بالله الرّبّ العليّ الأعلى، كان من الحكمة أن يدعوهم إلى الإيمان بأنّ الحياة الدنيا متاعٌ زائل، وأنّ الآخرة هي دار البقاء الدائم، وأن يبيّن لهم هذا الركن من أركان الإيمان.

ثم إن إثبات أنّ هذه الحياة هي حياةٌ دُنيا، وأنّ حياة أخرى خالدة لا بُدّ أن تأتي بعدها، يستدعي سؤالاً عن الغاية من إيجاد حياتين يفصلُ بينهما موتٌ وفناء؟.

والجوابُ البدهيُّ هو أنّ الحياة الأولى هي حياةٌ امتحان واختبار بالإيمان والعمل الصالح، أو ضدّهما، وأنّ الحياة الأخرى هي حياة الجزاء، وأنّ الجزاء إنّما يكون بعد الحساب وفصل القضاء.

فجاءت المقالة الثالثة كاشفة لهذه الحقيقة بشيء من التفصيل.

المقالة الثالثة: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: إنّ الحياة الأخرى قد أُعدت في خطّة الوجود الرّبانيّة للجزاء، وقاعدة الجزاء الرّبانيّ قائمة على العدل والفضل:

● فمن عمِل سيئةً فجزاؤه بالعدلِ سيئةٌ مثلها، ولا يظلمُ الله أحداً مثقال ذرّة، سواءً أكان ذكراً أو أنثى.

● وَمَنْ عَمِلَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا صَالِحاً وَهُوَ مُؤْمِنٌ صَحِيحُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ
وبما جاء من عند الله ممَّا بَلَغَهُ رَسُولُ اللَّهِ، فجزاؤه بالفضل الربّاني، وهو أن
يدخل الجنة دار النعيم الخالد، وهو في الجنة يرزقُ أبداً بغير حسابٍ ولا
تقدير، بل يجد رزق الله فيها فيضاً.

وهنا تعرّضَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ من آلِ فرعون لجدالِ المجادلين، وقد
يكون بعضهم مدفوعاً من حاشية القصر الفرعوني.

والجدال في هذه المرحلة من مراحل دعوته لا بُدَّ أن يكون حول
شركائهم من دون الله، وما لهؤلاء الشركاء من سلطان في مُلْكِ الله، وحول
عقائدهم التقليدية الموروثة، والأعمال والعبادات المستندة إلى هذه العقائد،
ولا بُدَّ أن يواجه دُعاةً مدفوعين من السلطة الحاكمة لإعادة الرّجل إلى دين
آبائه وأجداده القائم على الشرك والوثنية.

فجاءت المقالة الرابعة دالةً على ما تعرّض له من جدالٍ بالباطل، ودعوة
إلى أن يزجج إلى دين الشرك والوثنية.

والواجب يقضي بأن يجادلهم بالتي هي أحسنُ، إذا جادلوه بالباطل، أو
بما يؤذي وبما يسوء ويقبح.

المقالة الرابعة: ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ أُدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى
النَّارِ﴾.

أي: وَيَا قَوْمِ، عَجِبْتُ عَظِيمٌ لِي يَمَلُّ نَفْسِي، من هذا التناقض بيني
وبينكم، فأنا أدعوكم إلى النجاة من عذاب الله في الآخرة، بالنار دار عذاب
المجرمين الكفار، وأنتم تدعونني لأكون من المعذبين في النار.

وهنا يظهر أنهم قالوا له: كيف ندعوك إلى النار، ونحن بدعوتك إلى
العودة إلى دين آبائك وأجدادك نفتح لك أبواب المجد، حتّى تعودَ إلى

مكانتك الرفيعة في القصر الفرعوني؟! .

فأجابهم بما جاء في المقالة الخامسة:

المقالة الخامسة: ﴿ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴾ (٤١٧) .

أي: إنكم تدعونني لأكفر بما جاء عن الله على لسان رسوله الذي أيده بالمعجزات الباهرات، وتدعونني لأشرك به ما تعبدون من شركائكم التي صنعتم لها أوثاناً ثلاثة، وهؤلاء الشركاء التي تزعمونها شركاء لله لا أملك بشأنها علماً قائماً على حجة يقبلها العقل، تثبت أن لها شيئاً من ربوبية أو إلهية، حتى أومن بها وأتقرب إليها بعبادة، وكل من الكفر بما جاء عن الله من حق، والأخذ بمذهب الشرك الذي تدعونني إليه، عاقبته العذاب في النار.

إذن فأنتم تدعونني إلى النار.

أما أنا فإنني أدعوكم إلى الإيمان بربكم، وإلى الإيمان بما جاء به رسول ربكم، أدعوكم إلى ربكم العزيز الذي له القوة الغالبة في الوجود كله، في الدنيا، وفي الآخرة، فهو القدير على معاقبة المذنبين الكفار في النار، فلا يحميكم من عذابه شركاؤكم ولا غيرهم. وأدعوكم إلى ربكم الغفار الذي إذا تُبِّمُ إليه وهجرتم كفركم وشرككم، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.

وهنا يظهر أنهم قالوا له: كيف تُنكر أن يكون لشركائنا تأثير ونحن وأبائنا ندعوها ونتقرب إليها فتتحقق لنا بدعائها المصالح والمنافع التي نرجوها؟! وكيف تزعم أن الآخرة تكون للجزء؟! .

فأجابهم بما جاء في المقالة السادسة:

المقالة السادسة: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (٤١٨) .

لا جَرَمَ: صيغة يستعملها العرب لتأكيد الكلام وتوثيقه، وقد تحمل معنى القسم فتأتي بعدها اللام التي تقع في جواب القسم. فهي بمنزلة: «حَقًّا» أو - لا بُدَّ - لا محالة - لا شك - ونحو هذه العبارات. وأصل معنى «الجَرم» القَطْعُ، ويأتي بمعنى اكتساب الذنب، أقول: فكأنَّ أصل المعنى عند بدء التداوُل: لا جَرَمَ جارمٌ ما أقول، برأي مخالف له مُذنب به، ثم حصل الاكتفاء بعبارة «لا جَرَمَ» على عادة العرب في الاختصار والاكتفاء ببعض الكلام.

ليس له دَعْوَةٌ في الدنيا ولا في الآخرة: أي: لا توجدُ له في الواقع والحقيقة دعوةٌ ما، لا هادية ولا مضلَّة، فأمرها ساقطٌ دون بحث ولا جدال.

وذلك لأنَّ الدُّعَاةَ قِسْمَان: قَسْمٌ يَدْعُو إلى سلوك السبيل الموصل إلى الجنة، فدَعْوَتُهُ دعوةٌ هادية. وقَسْمٌ يدعو إلى سلوك السُّبُلِ الموصلة إلى النار، فدَعْوَتُهُ دعوة ضلالة.

لكن أوثان المشركين ليست لها دعوةٌ ما، لا هاديةٌ ولا مُضِلَّة، وعبادُها المؤمنون بها يتبعون أسماءَ هم سمَّوها، وأوهاماً صنعتها لهم تخيلاًتُهم التي لا تطابقُ واقعاً ذا حقيقة.

فمؤمن آل فرعون قال لهم: ممَّا لا شكَّ فيه لدى كلِّ ذي فكرٍ سليم وعِلْمٍ مستندٍ إلى أدلِّةٍ صحيحةٍ، أنَّ ما تدعونني إليه وهي أوثانُكم ليس لها دَعْوَةٌ، لا هاديةٌ ولا مُضِلَّة، لأنها أحجارٌ جوامد، فإنَّ كان لديكم ما يثبتُ أنَّ لها دعوةٌ ما، فهاتوا برهانكم، أو حُجَجَكم الضعيفةَ لفحصها، والمحاورة حولها.

وبعد هذا أكد لهم أنَّ الرجعة إلى الحياة بعد الموت ليست رجعةً إلى الحياة الدنيا كما هم يعتقدون، إنّما المرَدُّ إلى الله، للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، بمقتضى نظام حياةٍ أخرى مؤهلة للخلود غير معرَّضة للموت والفناء.

وَأَكَّدَ لَهُمْ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ بسبب كفرهم وإصرارهم على الباطل، أو إشراكهم بالله ما ليس لهم به عِلْمٌ، هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، الملازمون لها دواماً في خلود أبدِي.

وَأَنَّ مَرَدَّنَا: أي: وَأَنَّ مَرَجَعَنَا، بمعنى رُجوعنا، فالمردُّ مصدرٌ ميمي لفعل «رَدَّه» بمعنى أَرْجعه.

ويظهر أَنَّ حِجَّةَ قومه قد انقطعت، ولم يَبْقَ لديهم ما يراوغون به، إلا أَنَّهُمْ واجهُوهُ بالمعاندة والإصرار على عقائدهم التقليدية، وعاداتهم الموروثة، كدَابِ كُلِّ الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ تقليداً أَعْمَى يقولون: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، أي: فلا تُتَعَبُ نفسك بإقناعنا لتحويلنا عما نحن ملتزمون به، ومعتادون له.

عندئذٍ وَجَدَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ إِلَّا أَنْ يَقُولَ لَهُمُ الْمَقَالَةَ السَّابِعَةَ:

المقالة السابعة: ﴿ فَسَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾.

أي: قَالُوا لَهُ مَقَالَاتِ الرَّفْضِ الْقَاطِعِ لدعوته، فقال لهم: سَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، أي: ما أقوله لكم بترار بغية إقناعكم وأنتم تَرْفُضُونَ ولا تستجيبون.

إِنَّهُمْ سَيَذَكُرُونَ حَتْمًا أقواله التي دعاهم فيها إلى سبيل ربّه، حينما يَتَعَرَّضُونَ للمهلكات، كحالة التخبُّط في اليمِّ المتلاطم يَوْمَ أَغْرَقَهُمُ اللهُ، وحينما ينزل بهم عقابُ الله في نار جهنم يوم الدين، وقبل ذلك يوم الحساب.

ولمَّا يَسَرَ فِرْعَوْنُ وَآلُهُ مِنْ عَوْدَةِ رِجْلِهِمْ إِلَى دِينِهِمُ الشَّرِكِيِّ الوثنِي، دَبَّرُوا لَهُ مَكِيدَةً يَتَخَلَّصُونَ بِهَا مِنْهُ، كَي يُسَكِّنُوا لِسَانَهُ عَمَّا يَقُومُ بِهِ مِنْ دَعْوَةِ إِلَى دِينِ مُوسَى بَيْنَ جَمَاهِيرِ الْقِبْطِ.

وَبَلَغَ الرَّجُلَ أَنَّهُمْ دَبَّرُوا لَهُ مَكِيدَةً قَتْلَ أَوْ غَيْرِهِ، فَقَالَ مَقَالَتُهُ الثَّامِنَةَ:

المقالة الثامنة: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١١﴾﴾.

أي: إني أعودُ باللَّهِ من مكرهم، وأتوكَّلُ عليه، وأفوضُ أمرِي إليه، فهو البصير بي وبهم.

وبهذا انتهت قصة دعوة مؤمن آل فرعون.

* * *

٦ - قول الله عزَّ وجلَّ مبيِّناً عاقبة مؤمن آل فرعون، وعاقبة آل فرعون بعد مكرهم به:

﴿فَوَقَدْنَا اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾﴾.

فَوَقَدْنَا اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا: أي: فجعلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّيِّئَاتِ الَّتِي مَكَرُوا ضِدَّهُ وَقَايَةَ حَمَتَهُ وَحَفِظْتَهُ فَلَمْ يُصِبْ مِنْهَا شَيْءٌ.

ويظهر أنَّ هذا الْحَدِيثَ قَدْ كَانَ قُرْبَ خُرُوجِ مُوسَى بِنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ، فِي اتِّجَاهِ سَيْنَاءَ، وَمَلَا حَقَّةَ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَجُنُودِهِ لَهُمْ، وَانْتَهَى الْأَمْرَ بِغَرْقِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَجُنُودِهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾﴾.

حَاقَ: أي: أحاط ونزل.

سُوءُ الْعَذَابِ: أي: العذابُ السَّوِّءُ، فسوءُ العذابِ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أو هي إضافة على تقدير «من» أي: سُوءٌ من العذاب.

وسُوءُ العذابِ الذي أحاط بهم وأصابهم قد كان في الدُّنْيَا عَذَابَ

الإغراق، أما زمن البرزخ فدلَّ على عذابهم فيه، قوله تعالى:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وأما الآخرة فدلَّ على سوء عذابهم فيها قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٤١).

أي: يقول الله لملائكة التعذيب يوم الدين: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

أما فرعون فيكون في مقدمتهم إماماً إلى جهنم. كما كان يقدّمهم إلى الشرِّ والفساد والعصيان، والكفر والبغي والطغيان، في الدنيا دار الامتحان، كما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤١﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا آمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٤٢﴾ نَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٤٣﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٤٤﴾﴾.

* * *

النموذج الثاني

دعوة مؤمن أصحاب القرية
التي جاءها المرسلون وانتصاره لهم ولدعوتهم

قال الله عز وجل في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَالِكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ سَمَاءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٤٠﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤١﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوِرَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٣﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾ أَأَخَذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يَرْدُنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنْهُ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِدُونَ ﴿٤٦﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ إِنِّي ءَأَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٤٨﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٥٠﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٥١﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٥٢﴾ يَحْسَرُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَاْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٣﴾﴾ .

نظرة إجمالية عامة

اشتمل هذا النصّ على تعليمٍ من الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ، أن يوجّه علاجاً لقومه، بأن يُقدّم لهم صورة من صور الإقناع الذي يحمل عصا الإنذار بالعقاب المعجل للذين لم يؤمنوا به رسولاً، ولم يؤمنوا بما جاء به عن ربّه، من كفّارٍ مكّة إبان نزول سورة (يس) في مراحل الدعوة.

وهذه الصورة هي ضربٌ مثلٍ لما هُمّ فيه من عنادٍ وإصرارٍ على الكفر، بما كان عليه أصحابُ قريةٍ وثنيةٍ جاءها مُرسَلونٌ من غير أهلها، فدعَوْهُمُ إِلَى الإيمانِ الحقِّ، وإلى تَرْكِ ما هُمّ فيه من وثنيّةٍ باطلةٍ، فكذبوهم في كونهم رُسُلَ رَبِّهِمْ، فأكدوا لَهُمُ أَنَّهُمْ صادقون مُرسَلونَ حَقًّا، وأنهم لَيْسُوا مطالبين من رَبِّهِمْ إِلَّا بالبلاغِ المبين المُوضِّحِ لقضايا الإيمانِ الحقِّ، ولشرائعِ الله وأحكامه لعباده بالحكمة والموعظة الحسنة، وأنهم لَيْسُوا مكلفينَ أَنْ يُلزموا القوم بأن يؤمنوا بهم ويتبعوهُمُ إلزاماً جبريًّا، وهم كارهون غير راغبين، فالاستجابة لدعوة الرُّسُلِ ينبغي أن تكون استجابةً اختياريةً إراديةً طوعيةً، لا استجابةً جبريةً، أو إكراهيةً على خلاف رغبةٍ المستجيب واختياره الحرّ.

فأصرَّ أصحابُ القريةِ على تكذيبِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، وهددوهم بالقتل رجماً بالحجارة، ويُنزَلُ عذابُ أليمٍ فيهم.

ونصرَ المرسلينَ الثلاثةَ رجلٌ من أصحابِ القريةِ جاء من أقصى المدينة يسْعَى، وكان هذا في آخر موقفٍ من مواقف دعوة المرسلين الثلاثة لهم.

فدعاهم هذا الرَّجُلُ منهم إلى الإيمانِ برُسُلِ رَبِّهِمْ إليهم، وإلى اتّباعهم، وحاوَرهم وناظرهم، وأخيراً رفعَ عَقيرتهُ معلناً إيمانه برَبِّهِمُ الحقِّ، وهذا يتضمّن إعلانَ كُفْرِهِ بوثنيتهم، وكُفْرِهِ بِالْهَيْهَاتِي يعبُدونها من دون الله.

عندئذٍ التَّهَبَّتْ نيرانُ غِيظِهِمْ منه، وثاروا عَلَيْهِ ثورَةً انتقامِ بغضِ هاجِحٍ، فقتلوه، فوجدَ عندَ رَبِّهِ مغفرةً وإكراماً عظيماً، فتمنَّى أَنْ يَعْلَمَ قومُهُ بما نالَ من كرامةٍ عندَ رَبِّهِ، فَيُؤْمِنُوا بِرُسلِ رَبِّهِمْ وَيَتَّبِعُوهُمْ.

ولم يُنظرِ اللهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ القريةِ بعدَ أن قتلُوا رُجلَهُمْ الَّذي نصحَهُمْ وتمنَّى لَهُمُ الخَيْرَ حتَّى بعدَ موتِهِ لما نالَ عندَ رَبِّهِ من كرامةٍ، بل عاجلَهُم اللهُ بالإهلاكِ الشاملِ بصيحةٍ واحدةٍ جعلتَهُم خامدين، كنايةً نائرةً هائجةً انطفأت وخمدت فجأةً بلحظةٍ واحدةٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فدلَّ التعبيرُ بالخمودِ على اقترانِ إهلاكِهِم بلهيبِ ثورتِهِم على رُجلِهِم الَّذي قتلُوهُ، وهذا إنمَّا يكونُ عقبَ قتلِهِم له، ويظهرُ أنَّ الرُّسلَ الثلاثةَ انسحبوا لما وجدُوا الرُّجلَ ينصحُ قومه ويُنَاطِرُهُم.

وجاء التعقيبُ على قصَّةِ أصحابِ هذه القريةِ بعبارةٍ تتضمَّنُ التحسُّرَ على العبادِ الَّذين يُهلكون أنفسهم في العاجلةِ، ويُعرِّضونها للخلودِ في عذابِ النارِ يومَ الدينِ، بكفرِهِم وعنادِهِم، وتكذيبِهِم رُسلَ رَبِّهِم، واستهزائِهِم بِهِم. والتحسُّرُ هو أثرٌ من آثارِ الرحمةِ التي تكونُ بعدَ حُلُولِ المصيبةِ ووقوعِ المحذورِ منه، ولا تعارضُ بين إنزالِ العقابِ والتحسُّرِ على المعاقبِ الَّذي جنى على نفسه، فالحاكمُ العادلُ يوقعُ العقابَ الشديدَ بمن يستحقُّهُ بالعدلِ، ويتحسَّرُ عليه إذ جنى على نفسه باختيارِهِ الحرِّ.

- ٢ -

منهج مؤمن أصحاب القرية في الدعوة إلى الله

يبدو للمتأمل فيما جاء في قصة دعوة مؤمن أصحاب القرية، إذ نصر

الرُّسُلَ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا، كَمَا عَرَضَهَا الْقُرْآنُ، مَقْرَأً لَهَا، وَمَشْعَرًا بِالثَّنَاءِ عَلَى جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ رَبِّهِ، وَعَلَى مَنْهَجِهِ فِي دَعْوَتِهِ، لِيَتَّخِذَهُ الدَّعَاةَ الرَّاشِدُونَ أُسْوَةً حَسَنَةً لَهُمْ فِي دَعْوَاتِهِمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ، أَنْ مَنْهَجَهُ يَتَلَخَّصُ بِمَا يَلِي:

أولاً:

بدأ باستعطاف من يدعوهم إليه، فناداهم بقوله: ﴿يَقَوْمِ﴾ باعتباره واحداً منهم، والمتممي إلى قومٍ تكون عاطفته القومية ذات حرصٍ على خَيْرِهِمْ، وشفقةٍ عليهم، ورغبةٍ صادقةٍ في نجاتهم وسعادتهم، وجلبٍ كلِّ نفعٍ لهم، ودفعٍ كلِّ ضُرٍّ عنهم.

ثانياً:

وجّه نصيحته لهم بأن يتبعوا المرسلين، الذين لم يأتوا ليأخذوا منهم أجراً، ولا ليحصلوا عندهم منافع دنيوية، بل جاءوا ليلغوهم رسالة ربهم، وليهدوهم إلى صراطه المستقيم، رغبةً في نجاتهم من عذاب الله، وفوزهم بجنّات النعيم يوم الدين.

فقرن النصيحة بالدليل على صحتها، من خلال بيان سلامة الرُّسُلِ الدُّعَاةِ مِنَ الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِدَى الْمَدْعُوِّينَ.

ثالثاً:

أكّد لقومه صدق دعوة رُسل ربهم الثلاثة، مستدلاً على صدقهم بأنهم في أنفسهم رجالٌ مهتدون، في أقوالهم، وفي أعمالهم، فهم مطبّقون لما يدعون إليه من إيمانٍ وعَمَلٍ صالح، إذ لا تُؤخَذُ عليهم مآخذُ تعييبهم، وتُشكِّك في نواياهم، وتتهمهم بسلوكٍ شائن، حتّى يكون ذلك سبباً لرفض دعوتهم الرشيدة، وعدم الاستجابة لها، أو عدم الإصغاء إلى بياناتهم الهاديات التي تدعو إلى الحقّ والرّشاد والصراط المستقيم.

رابعاً:

تعرض لمحاكاة قومه له، فسأله: هل أنت مؤمنٌ بصدقِ دعوتهم، وتعبُد الله وحده كما يقولون، وتنبُدُ عبادةَ آلهتنا التقليدية؟؟.

فأجابهم إجابةً صريحةً بأنه قد آمنَ فعلاً بما يدعونَ إليه، وأخذ يقيم لهم الحجج البرهانية على الذي آمن به.

فأبان لهم أنه يجب عقلاً عليه أن يؤمن بالله ربّاً واحداً لا شريك له في ربوبيته، وإلهاً واحداً لا شريك له في إلهيته، وأنه لا يصح عقلاً أن يتخذ من دون الله آلهةً أخرى.

والدليل على ذلك أن كلَّ ما يُعبُد من دون الله الرّب الخالق، معبودات باطلة، لا تدفع ضرراً، ولا تجلبُ نفعاً، ولا تُقبَل لها شفاعَةٌ عند الله، فمن استحقَّ عذابَ الله بسبب كفره وشركه وعصيانه لم تستطع أن تنقذه منه.

وأبان لهم أنه إن اتخذَ آلهةً من دون الله فإنه يكون منغمساً في ضلالٍ مبين، بعد وضوح الأدلة البرهانية على أنه لا إله إلا الله وحده.

خامساً:

لما غضب قومه منه، بسبب خروجه عن ملتهم واتباعه المرسلين، هدّده بالقتل إذا لم يعد إلى ملتهم.

هنا أصرَّ الرجل بشجاعة على موقفه، ورأى أن يبقى معلناً إسلامه مجاهداً في سبيل ربه، ونادى في القوم بأعلى صوته أمام جمهور قومه:

﴿إِنِّي آمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

عندئذٍ ثارت ثورة غضبهم منه، فقتلوه، فغفر الله له وجعله من المكرمين، فلما شهد ما حباه الله من كرامة، وما تفضل به عليه من غفران، وروحه عند ربه قال:

﴿... يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

وأرسل الله الصيحة على أصحاب القرية فأهلكتهم وأخمدت نيران ثورتهم الغضبية، فإذا هم ميتون .

- ٣ -

التدبر التحليلي للنص المبين قصة الرسل الثلاثة

قول الله عز وجل مبيئاً قصة الرُّسل الثلاثة مع أصحاب القرية خطاباً

لرسوله :

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِكِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلِنَمَسَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْبَأُونَ أَلَيْسَ لَكُمْ آيَاتٌ أَنْ تُذَكَّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

● قول الله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ الخطاب موجّه للرسول محمد ﷺ، ويوجّهه بعد الرُّسول لكلّ داع إلى الله من بعده .

والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ يُفصّد به مُشركو مكة إبان تنزيل سورة (يس) فقد نزلت في أواسط العهد المكيّ من دعوة الرسول، والسورة تتضمّن معالجتهم وبيان أحوالهم التي وصلوا إليها في هذه المرحلة من مراحل دعوته في مكة، إذ أكثرُ كُبرائها قد وصلوا إلى حضيض :

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

كما جاء في أوائل السورة .

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾ أَصْلُ الضَّرْبِ تَوْجِيهٌ شَيْءٍ لَشَيْءٍ آخَرَ بِقُوَّةٍ حَتَّى يَصْطَلِمَ بِهِ وَيؤْتِرُ فِيهِ أَثْرًا مَا .

ولمَّا كانت صناعة الدِّراهم والدِّنانير تَتِمُّ عن طريق ضرب صفائح الفضة والذهب بقوالب حديدية صُلْبَةٍ حُفِرَتْ فِيهَا أَمْثَلَتُهَا، أو ضمن قوالب يَدْخُلُ بعضها في بعض، قَالُوا: ضَرَبَ فُلَانٌ الدِّراهم أو الدنانير، إِذَا طَبَعَ عَلَيَّ مَعْدِنُهُمَا المِثَالِ المَحْفُورِ فِي القَالِبِ .

ثُمَّ حَصَلَ تَوْشُّعٌ فِي مَعْنَى الضَّرْبِ فَقَالُوا: ضَرَبَ مِثْلًا، أَي ذَكَرَ أَوْ صَنَعَ مِثْلًا .

والأصلُ في المثل أَنه تشبيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ لوجودِ عُنْصُرٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنَ التَّشَابُهِ أَوْ التَّمَاثُلِ بَيْنَهُمَا .

وأَصْحَابُ القُرْيَةِ الَّذِينَ عَرَضَ النَّصَّ قَصَّتْهُمُ وَعَاقِبَةُ إِهْلَاكِهِمْ، مِثْلُ تَارِيخِيٍّ وَاقِعِيٍّ يُشَبِّهُهُ وَاقِعُ حَالِ مُشْرِكِي مَكَّةَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى مَا قَبَلَ إِهْلَاكَ اللَّهِ لِأَهْلِ القُرْيَةِ .

وعَرَضُ المِثْلِ يَتَضَمَّنُ طَرِيقَةَ مِنْ طَرِيقِ الإِقْتِنَاعِ بِإِحْدَى سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَيَتَضَمَّنُ إِنْذَارًا بِأَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَمَعَادَاةِ الرَّسُولِ، وَتَطَاوَلُوا إِلَى مَحَاوَلَاتِ القِتْلِ، فَمِنْ المُرْتَقِبِ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللَّهُ كَمَا أَهْلَكَ أَصْحَابَ القُرْيَةِ إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ .

وجاء في المراد من هذه القرية روايات ضعيفة الأسانيد عن ابن عباس وغيره أنها مدينة أنطاكية، وهذا الاسم يُطلق على مدينتين أسسهما أحد قواد جيش الإسكندر الأكبر .

ومن الخير التوقف عن تحديد المراد من هذه القرية .

﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي: اضرب لهم مثلاً قصة أصحاب القرية في وقت مجيء المرسلين إليها.

● ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ .

فعززنا: أي: فقويينا.

لقد أرسل الله عز وجل إلى أهل هذه القرية في المرحلة الأولى رسولين، فكذبوهما في رسالتهما وفيما قدما من تبليغ لدين الله الحق، فقواهما الله برسول ثالث، فقالوا لهم مؤكدين: إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ.

فاعترض عليهم أهل القرية باعتراضين، وبنوا عليهما تكذيبهم.

● ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ .

الاعتراض الأول: ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي: وليس من شأن البشر أن يكونوا صالحين للتلقي عن الله خالق السماوات والأرض، ولأن يكونوا رسلاً له.

وهذا الاعتراض قد اعترضت به كل الأمم التي كذبت رسل ربها، وهو قائم على توهم أن رسل الله إلى عامة البشر لا بد أن يكونوا من الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ولا يمشون في الأسواق لكسب أرزاقهم كما يفعل الناس.

مع أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسل إلى البشر من البشر أنفسهم ليكونوا حجة عليهم في إيمانهم، وفي استقامتهم على العمل الصالح.

الاعتراض الثاني: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو اعتراض ادعائي افتراه

من عند أنفسهم، وجحدوا به بلاغات الرسل من عهد نوح إلى إبراهيم، إلى موسى والرسل من بعدهم عليهم السلام. فليس له قيمة فكرية.

الاستنتاج: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾: لا قيمة لهذا الاستنتاج بعد سقوط الاعتراضين اللذين استندوا إليهما، فهو محض اتهام بالباطل، وشتيمة من شتائم السفهاء.

فَأَجَابَهُمُ الرُّسُلُ الثَّلَاثَةُ بِتَأْكِيدِ أَنَّهُمْ مُرْسَلُونَ إِلَيْهِمْ مُقْسِمِينَ بِعِلْمِ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَبِأَنَّهُمْ لَمْ يُكَلِّفُوا إِلَّا أَنْ يُبَلِّغُوهُمْ بِلَاغًا مُبِينًا، ثُمَّ لَهُمُ الْحَرِيَّةُ فِي أَنْ يَسْتَجِيبُوا وَأَنْ يَرْفُضُوا.

● ﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

ردوا على الشتيمة القائمة على محض الاتهام بالباطل بتأكيد أنهم رسل ربهم الذي يعلم ذلك، ويؤيدهم بمؤيدات من عنده.

وَأَبَانُوا لَهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ جَاءُواهُمْ مَبْلَغِينَ، لَا مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبِرِينَ، فَإِنْ شَاؤُوا اتَّبَعُوا، وَإِنْ شَاؤُوا رَفَضُوا، وَالتَّبْلِيغُ الْبَيِّنَاتِي تَعْرِيفٌ عِلْمِيٌّ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْعُقْلَاءِ أَنْ يَرْفُضُوهُ، فَهُوَ مَجْرَدُ كَلَامٍ يَطْرُقُ الْأَذَانَ.

وخلال مدة بقاء الرسل الثلاثة بين أصحاب القرية يُبَلِّغُونَ، تَعَرَّضُوا لبعض النوازل الربانية، كانقطاع نزول المطر، أو آفات نزلت بزروعهم وثمارهم، أو أمراض أصيبوا بها، فأحالوا سبب ذلك على وجود الرسل بينهم، تطييراً وتشاؤماً، فواجهوا الرسل بتطييرهم منهم، وأمرؤهم بالكف عن متابعة دعوتهم، وإلا قتلوهم رجماً بالحجارة وأنزلوا بهم عذاباً أليماً.

● ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

التطير: التشاؤم بالأشياء، أو بالأشخاص، أو بالأحداث.

وجه أصحاب القرية بمقتضى دلالة هذه الآية مقولتين:

المقولة الأولى: دل عليها ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: إن ما نزل بنا مما

نكره من نقص في الأموال والأنفس والثمرات، قد كان بسبب وجودكم بيننا،
وبسبب دعوتكم التي جئتمونا بها.

والمعنى: فكفوا عن دعوتكم، حتى يذهب عنا ما نزل بنا من مكروه.

المقولة الثانية: مقولة تهديد وإنذار، دلّ عليها: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَرَجِمَنَّكُمْ
وَلِمَسَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨).

فأجابهم الرُّسُلُ جواباً يتضمَّن ثلاث مقولات:

● ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩).

المقولة الأولى: دلّت عليها عبارة ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾.

يُطْلَقُ الطَّائِرُ فِي اللُّغَةِ عَلَى مَا يَحْضُرُ بِهِ التَّشَاوُمُ.

والمعنى: إنكم توهمتم أن دعوتنا هي السبب فيما حلّ بكم من مصائب
ربّانية، فطيرتم بنا تطيّر تشاؤم، مع أن السبب في الحقيقة هو شرككم
وكفركم وتكذيبكم لرُّسُل ربّكم، وهذا السبب هو الذي جلب بعض المصائب
لكم، وأنزل بكم بعض العقوبات الرّبّانية.

وهذا السبب موجودٌ معكم لا معنا، فما هو فكيم ومعكم ممّا لا
تريدون التخلّص منه هو طائركم، وهو الذي يجب أن تتشاءموا منه، لا أن
تتشاءموا من رُّسُل ربّكم، وهو الذي يجب أن تُبعِدوه وترجموه رجم طرد
أبدى، ومّا كان يصحّ أن تُهدّدونا بالعذاب الأليم، وبالرجم حتى الموت.

المقولة الثانية: دلّت عليها عبارة: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ !!؟.

والمعنى: إن ذُكِّرْتُمْ من قِبَلِ رَبِّكُمْ بالمصائب التي تنزل بكم لعلكم
تتذكّرون، فتسبّبون إلى بارئكم، قبل أن يُنزل بكم هلاكاً شاملاً، جعلتم هذا
التذكير الرّبّاني لكم سبباً للتطيّر بنا وبدعوتنا، فوجهتم تهديدكم لنا بالعذاب
الأليم وبالرجم حتى الموت.

الاستفهام هنا استفهام إنكاريّ تعجبيّ .

المقولة الثالثة: دلت عليها عبارة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ .

هذه المقولة تشعر بأن أصحاب القرية أو أصحاب الجاه والسُلطان فيهم قالوا: لسنا الوحيدين بين أهل المدن الأخرى في انتشار ما تلوموننا عليه من ظلم وعدوانٍ وفِسْقٍ وبغْيٍ في الأرض .

فقال لهم رُسُلُهُم الثلاثة: بل أنتم قوم مُسْرِفون في ارتكاب هذه القبائح، فليست النسبة فيكم مماثلة للنسبة في غيركم من أهل المُدُنِ والقُرَى، لقد زادت فيكم زيادةً فاحشة إلى مستوى الإسراف الذي يستدعي أن يُنزل الله بكم هلاكاً عاماً شاملاً، كما أنزل بالاقوام الَّذِينَ أَسْرَفُوا من قبلكم .

عندئذٍ جاء رجلٌ مؤمنٌ من أهل المدينة ينصُرُ الرُّسُلَ بيانه، وكان ساكناً في أقصاها، وضَحَّى بنفسه دِفاعاً عن الرُّسُلِ الثلاثة، وعن دين الله الحق الذي دَعُوا القومَ إلى الإيمان به، ونَبَذَ ما هم فيه من شركٍ ووثنية .

- ٤ -

التدبر التحليلي للنص المبين قصة مؤمن أهل القرية

قال الله عزّ وجلّ مبيناً قصة مؤمن أهل القرية في نصرته للرُّسُلِ وفي دعوته إلى سبيل ربّه:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٦﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ ﴿٢٩﴾ إِنِّي إِذًا لَأَنْبِيءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٠﴾ إِنْ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُوا ﴿٣١﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ

جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿٢٩﴾ يَنْحَسِرُونَ
عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ .

● قول الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ .

أَقْصَى الْمَدِينَةِ: أَبْعَدُ الْمَوَاضِعِ عَنْ وَسْطِهَا وَعَنْ مَرْكَزِ الْحُكْمِ فِيهَا
وَسُلْطَةِ التَّنْفِذِ .

لقد دلَّ هذا القول على مبلغ إيمان هذا الرجل، وتضحيته بنفسه فهو
من سُكَّانِ أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وقد أقبل يسعى بهمة وعزيمة صادقة من محلّ
إقامته البعيد عن وسط المدينة محلّ تجمع القوم على الرُّسُل لمحاكمتهم .

فسعيه وإقباله من أَقْصَى الْمَدِينَةِ دَلًّا عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ مُجَاهِدٌ، أَقْبَلَ فِي
حَالَةِ رَوِيَّةٍ وَتَصْمِيمٍ، لِيَنْصُرَ الْمُرْسَلِينَ الْوَاقِدِينَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ قَوْمِ آخَرِينَ،
وعلى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا فِي مَجْتَمَعِ الْقَوْمِ فَتَحَمَّسَ بِانْفِعَالٍ طَارِئٍ فَانصُرَ
الرُّسُلُ، بل جاء من أَقْصَى الْمَدِينَةِ لَمَّا بَلَغَهُ أَمْرُ اجْتِمَاعِ قَوْمِهِ عَلَى الرُّسُلِ
لمحاكمتهم ومعاقتهم على ما يقومون به من دعوة إلى دين الله .

وَلَمَّا وَصَلَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ اخْتَرَقَ الْجُمُوعَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَنَصَّةِ الْحَاكِمِ
وَالْمَلَأَ مِنْ حَوْلِهِ، عِنْدئذٍ بَدَأَ قَوْمَهُ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ:

● ﴿ قَالَ يَنْقُورِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٣١﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ
مُهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

تَضَمَّنَتْ حِكَايَةَ قَوْلِهِ فِي هَذَا النَّصِّ ثَلَاثَةَ عَنَاوِينَ لِثَلَاثَةِ مَوْضُوعَاتٍ:

الموضوع الأول:

دعوة قومه إلى الإيمان بهؤلاء الرُّسُلِ الثلاثة، مثبتاً لهم أَنَّهُمْ رُسُلٌ
صَادِقُونَ لَيْسُوا بِكَاذِبِينَ، ودعوتهم إلى اتباعهم فيما جاؤوا به من شرائع الدين
وأحكامه .

دلّ على هذا الموضوع قوله: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ .

الاتباع في اللغة: سَيَّرَ التابع على أثر المتبوع، وتقليدُ المقتدي إمامه في أقواله وأعماله، وطاعته في أوامره ونواهيه، والاستجابة له في دعوته، والاجتهادُ في تطبيق وصاياها .

ومعلومٌ أنّ إثبات صدق دعوة الرُّسل لا بُدَّ أن يكون قد تضمَّنَ التَّنبية على معجزاتهم، ويتضمَّن أيضاً إثباتَ أنّ مضمون رسالتهم التي جاؤوا بها حقٌّ وصدقٌ .

الموضوع الثاني:

تأكيد الاستدلال على صدق هؤلاء الرُّسل الثلاثة، بأنهم ليسوا أصحاب مصالح شخصية دنيوية لدى قومه من دعوتهم إياهم إلى الإيمان، ونفْيِ الوثنية، ونبذِ الشرك بالله، ونبذِ سائر خرافاته .

فهم لا يسألون القوم أجراً على دعوتهم لهم إلى الإيمان الحقّ، والإسلام الحقّ لله عزّ وجلّ وخدّه لا شريك له، إنهم لا يسألون أجراً مالياً، ولا أجراً من سلطانٍ يطلبونه، ومثلِك يسعون للوصول إليه، أو غير ذلك .

فهم غير متهمين في دعوتهم إلى الحق، وقد جاء هذا البيان لدفع أنّهم يتخذون الدعوة إلى الحق وسيلةً للوصول إلى مصالح شخصية دنيوية من دعوتهم عند القوم .

بينما يُلاحظ أنّ كثيراً من الناس يدعون إلى الحقّ بحجج بُرْهانية، لكنهم يتخذون ذلك غطاءً لمصالح دنيوية يريدون الوصول إليها، حتّى إذا وصلوا إلى مرادهم من الدنيا تخلّوا عن الحقّ، وعن الدعوة إليه ونصرته، وتكشفت عيوبهم، وظهر عدم التزامهم بما كانوا يدعون إليه .

دلّ على هذا الموضوع قولُ الرجل المؤمن الداعية المجاهد لقومه:

﴿ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلِكُوا أَجْرًا ﴾ وهذا هو خلق سائر المرسلين، ومنهجهم في دعواتهم إلى سبيل ربهم.

الموضوع الثالث:

تأكيد صدق هؤلاء الرُّسُلِ في دعوتهم، بأنهم في ذواتهم مهتدون على صراطٍ مستقيم، في أخلاقهم، ومعاملاتهم، وعباداتهم، والتزامهم بالحق والصدق والعدل والعفة والزهد فيما في أيدي الناس، والأمانة والشجاعة والجدود إلى غير ذلك من كل ما يدعو الدين والعقل السليم إلى التحلي به، والتزام فضائله، فلا شيء يَجْرَحُ سلوكهم، حتى يكونوا متَّهَمِينَ في دعوتهم، بل هم أسوةٌ حسنة لكل من أراد أن يتأسى بذوي الفضائل المثلى.

دلّ على هذا الموضوع قوله لقومه: ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾.

فأقام هذا الرجلُ المؤمن الداعيةَ لقومه الحجَّةَ البيِّنةَ على صدق الرُّسُلِ الثلاثة، وأنه يجب عليهم أن يؤمنوا بهم ويتبعوهم.

ويظهر أن القوم قد فوجئوا بمداهمة رجلٍ منهم جَمَعَهُمُ الحافلُ بُغْيَةً أن يَنْصُرَ الرُّسُلَ الثلاثة الذين لم ينتهوا عن دعوتهم، إلى محاوررة الرجلِ الداعية منهم الَّذِي آمَنَ بالرُّسُلِ، وإلى محاكمته، إذ أُقْبِلَ من أقصى المدينة لنصرة الرُّسُلِ ببياناته وحججه، ولإقناع قومه بصدق الدَّعوة التي جاؤوا بها.

ويظهر للمتدبر من إحياءات النص والمطويات فيه، أن ملأ أصحاب القرية قالوا لرجلهم:

إذن: فقد أمنتَ بهؤلاء الرُّسُلِ، وتركتَ دينَ قومِكَ؟

قال: نعم، وأتبعَ هذا الاعتراف بإقامة الحجَّة العقلية البرهانية على صحة ما آمن به، فقال لهم:

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ^(١١) أَخَذْتُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِيدُ

الرَّحْمَنُ بَصِيرٌ لَا تَغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣٧﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣٨﴾ .

هذا البيان القرآني الذي حكى إجابة الرّجل لقومه قد اشتمل على عدّة قضايا ناظر بها الرّجلُ المؤمن الداعيةُ ملأ قومه أصحاب القرية . ويظهر للمتدبر من إحياءات النّص والمطويات فيه أن القوم قالوا له : كيف تعبّد الرّحمنَ وحدَه ، ولا تعبّد آلهة قومك ، آلهة آبائك وأجدادك !؟

● فقال لهم : ﴿ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣٩﴾ .

ومالي؟ استفهامٌ فيه معنى التعجب والإنكار على اعتراض قومه عليه . أي : وما هو الشيء الذي لي يحميني من عذاب ربّي الذي فطرني ، كحجّة مقبولة أحتجّ بها عنده ، أو نصير ينصّرني حالة كوني لا أعبد الذي فطرني وحده ، إذا أنا لم أعبده ، وعبدت آلهتكم من دونه ، أو جعلتكم شركاء له ، دون أن يكون لي في ذلك بُزّهانٌ من الله !؟

وهنا يظهر للمتدبر للنصّ من المطويات فيه ، أن القوم قالوا له : لقد عبّد آباؤنا وأجدادنا من قبلنا آلهتنا ، ولم ينزل بهم عذابُ الله كما تزعمُ .

والجواب المناسبُ الذي أجابهم به قد اعتمد على الإيمان باليوم الآخر ، وأنّ مزجّع الناس جميعاً إلى يوم الدين ، فبعد أن يبعثهم الله إلى الحياة الأخرى يحاسبهم ، ويقضي فيما بينهم ، ويعذب المشركين في النار دار عذاب الكفّار ، ويُدخل المتقين المؤمنين جنات النعيم .

وهذا يستتبع أنّهم قالوا له : أتخشى أن تزجّع إلى حياة أخرى بعد الموت للحساب وفصل القضاء والجزاء من قبيل ربك ؟

والجواب : نعم ، أنا إليه أرجع ، وأنتم إليه تُرجعون .

وقد طويت في العبارة القرآنية هذه القطعة من الحوار ، اكتفاءً بعبارة :

﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ التي تَقَعُ في آخرها، إذ هي كافية في ذهن المتدبر المتعمق للدلالة على المطوي في النص.

وهنا يظهر للمتدبر أنهم دافعوا عن عقيدتهم الباطلة في آلهتهم، ودافعهم عنها يتلخص بأن عبادة هذه الآلهة تنفع عند الرحمن، فإذا عبدتها كانت شفيعة لك عنده.

والجواب الذي اختاره الرجل هو ما دلَّ عليه من النص قول الله تعالى يحكي قول الرجل المؤمن:

● ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ (٢٣) إِذْ أَلْفَى ضَلَالِ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ .

دلَّ هذا القول على أن الرجل المؤمن قد وضع قومه أصحاب القرية أمام بزهان مسبوق بتجارب، وهذا البرهان يدعم إيمانه ويسقط مفاهيمهم الشركية.

فهذا القول يوحي بأنه قال لهم:

لقد جرّبت آلهتكم فيما نزل بي من ضرٍّ فيما مضى فدعوتهم، وعبدتهم، واستشفعت بهم، فلم تُغن عبادتي ودُعائي لهم عني شيئاً، لأن ما نزل بي قد كان من الله لا منهم، فإن كان لهم شفاعَةٌ عند الله كما تزعمون، وكانوا يمنحون شفاعتهم لمن يدعوهم ويعبُدُهم، فقد جرّبتهم في هذا، فلم تنفعني شفاعتُهم بشيء.

إذن: فلماذا استمرُّ على عبادتهم، وحالي معهم بين يدي الرحمن هو: إن يُرِدْنَ الرَّحْمَنُ مُسْتَقْبَلًا بِضُرٍّ وَدَعَوْتُهُمْ وَعَبَدَتُهُمْ، مستشفعاً بهم، لا تُغن عني شفاعتُهم شيئاً عند الرحمن، ولا هم ينقذونني بوسائلٍ أخرى غير الشفاعة من عذابه، أو من الضر الذي يُريدُ أن يُنزلهُ بي إن شاء ذلك.

ومعلوم أن الدليل التجريبي من أقوى الأدلة لقياس المستقبل عليه .

وقد آثر الرجلُ أن يُعَبَّرَ بكلمة «الرَّحْمَنُ» من أسماء اللّهِ الحسنى في هذا المقام لِشُعْرِ القوم بإيمانه بأن ما يُنزلُهُ اللهُ به من ضُرِّ فَإِنَّهُ مظهرٌ من مظاهر رحمته، لا من مظاهر غضبه ونقمته، وقَوْمُهُ يؤمنون بأن من صفات الرَّبِّ الخالق أَنَّهُ الرَّحْمَنُ بعباده، ويعتقدون أَنَّهُ أَلهتهم التي يعبدونها يشْفَعُونَ لعبادها عنده .

وبعد أن وضع الرجلُ المؤمن قومه أمام هذا البرهان التجريبي الذي جرّبه بنفسه، أعلمهم بأنه إذا استمرَّ على الباطل الذي كان عليه، فإنه يكون إذا لفي ضلال مبین واضح، فقال لهم :

﴿ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢١)

أي : في ضياع واضح، ومُجَافاة ظاهرة لطريق الحق والهدى .
وهنا ظهرت حجة الرجلِ قويّة واضحة برهانيّة، وانقَطَعَتْ حُجَج القوم وأفحمُوا، فلم يجدوا أمامهم إلا أن ينتصروا لأنفسهم بقتله، فقدّموه للقتل .
وقبل تنفيذ قتله توجه الرجل المؤمن للجماهير فنادى بأعلى صوته متحدياً داعياً لهم إلى سبيل الله :

● ﴿ إِنِّي آتٍ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ (٢٢)

فقتلوه ولفظ روحه شهيداً .

هنا أبان الله عز وجل أَنَّهُ بعد استشهاد الرجل المؤمن وانطلاق روحه إلى بارئها، قيل له : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ .

● قال اللّهُ عز وجل : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٣) بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ : أي: أمر الله ملائكة الرحمة بأن تقول له: ادخل الجنة، فنقذت الملائكة الأمر الرباني، وقد أعطاه الله هذه الكرامة عنده لأنه لفظ روحه شهيداً في سبيل الله، مجاهداً بأفضل أنواع الجهاد.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أن أرواح الشهداء تدخل في أجواف طيور خضر، ولها قناديل معلقة تحت العرش، تَسْرُحُ من الجنة حيث شاءت، وتأكل من ثمارها.

روى مسلمٌ والترمذيُّ عن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مَعْلَقَةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوَنَ شَيْئاً؟. قَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَسْتَهِي، وَنَحْنُ نَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟. فَيُفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَمْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبُّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ إِلَيْنَا أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا، حَتَّى نَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَنُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا».

وعلى هذا المعنى يُفَسَّرُ ما جاء في القرآن من كَوْنِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ.

وبعد أن قيل لمؤمن أصحاب القرية ادخل الجنة، وشهد ما شهد من كرامة، ونعيم عظيم عند ربه، نادى وهو في عالم الحياة البرزخية التي لا يسمَعُها البشرُ، مُتَمَنِّياً أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ الَّذِينَ قَتَلُوهُ وَفَرَحُوا بِقَتْلِهِ انتقاماً منه، بأمرِ ثوابين عظيمين ظفَرَ بهما عند ربه:

— غُفْرَانِ ذَنْبِهِ.

— وَجَعْلِهِ مِنَ الْمُكْرَمِينَ:

● ﴿ قَالَ: يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

رُوي عن ابن عباسٍ أنه قال بشأنه: نَصَحَ قَوْمَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَبَعَدَ مَمَاتِهِ.

* * *

ولم يُمهِّلِ اللَّهُ قَوْمَهُ بَعْدَ قَتْلِهِمْ لَهُ، بَلْ أَهْلَكَهُمْ بِصِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

● ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٨﴾ .

الصيحة: صوتٌ عظيمٌ يقتل بالصَّذْمَةِ الصوتية الشديدة.

ودلت عبارة: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (٢٨) عَلَىٰ أَنْ إِهْلَاكَهُمْ بِالصيحة كان عقب قتلهم رجلهم المؤمن، دون فاصل زمني كبير، وذلك لأن الخمود يُستعمل لانطفاء النار وتحولها فحماً أو رماداً، ودل استعمال لفظ الخمود على أن لهيب غضبهم لم ينطفئ بقتلهم له. وإنما خمد باهلاكهم.

* * *

وختم الله عز وجل قصة إهلاك القوم بقوله:

﴿ يَنْحَسِرُونَ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ مِمَّا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣٠) .

أي: مما يستثير الحسرة - أي: الحزن - على العباد أنهم ما يأتيهم من رسولٍ من رسل الله، إلا كذبوه، وجحدوا ما جاءهم به من عند ربهم، وقابلوه بالاستهزاء، لأنهم لا يملكون حججاً عقلية برهانية، ولا حججاً مقبولة في موازين العقول تجعلهم معذورين في تكذيبهم.

* * *

النموذج الثالث

دعوة النفر من الجن الذين عرضت قصتهم سورة (الجن)

قال الله عز وجل في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿ قُلْ أُوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِْلَمَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعَدِ الشَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لَهَا شَهِابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِفَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

- ١ -

نظرة إجمالية عامة

أَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الجن) رِسْوَلَهُ بِقِصَّةِ نَفَرٍ مِّنَ الْجِنِّ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنْهُ، دُونَ أَن يَكُونَ قَدْ عِلِمَ بِحَضُورِهِمْ وَاسْتِمَاعِهِمْ لِتِلَاوَتِهِ آيَاتٍ مِّنَ

القرآن المجيد، مما نزل منه قبل سورة (الجن).

وبعد أن استمعوا ما استمعوه من القرآن آمنوا وأسلموا. وبعد إيمانهم وإسلامهم عادوا إلى أقوامهم وقبائلهم من الجنّ داعين إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

فوجّهوا في دعوتهم للإيمان بالقرآن واتباع ما جاء فيه، ووجهوا للإسلام إلى الله ورسوله، وبشّروا مَنْ يؤمن ويُسلم بالسعادة الخالدة في جنّات النعيم يوم الدين، وأنذروا من يكفر وحذّروه من عذاب الله الخالد في نار جهنم.

وأمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يُحدّث بقصّة هؤلاء النفر من الجنّ، فقال الله له: ﴿قُلْ: أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا...﴾.

ونفهم من هذا الأمر قضيتين.

القضية الأولى: إيجاد الحافز لدى بعض المشركين من الناس لكي يؤمنوا ويسلموا، إذ قد آمن وأسلم نفر من الجنّ بمجرد استماع القرآن.

القضية الثانية: تحريض المؤمنين على اتّخاذ هؤلاء النفر من الجنّ أسوة حسنة لهم، في الدّعوة إلى الله بين النّاس، وأن يستفيدوا من منهجهم الحكيم في الدّعوة، حينما يقومون هداة دُعاة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

- ٢ -

المنهج الدعوي الذي اتّخذه النفر من الجنّ الذين

أخبر الله عنهم في سورة الجنّ

تدلّ النظرة التدبّيرية إلى ما جاء في سورة (الجنّ) بشأن النفر من الجنّ الذين استمعوا القرآن من الرّسول محمد ﷺ، فأمنوا وأسلموا، وتوجّهوا

لأقوامهم وقبائلهم دعاءً إلى سبيل ربهم، عَلَيَّ أَنْ منهجهم قد كان قائماً على حكاية قصّة إيمانهم وإسلامهم، وما كانوا عليه قَبْلَ استماع القرآن هم وأقوامهم من الجن وما صاروا إليه بعد استماع القرآن، وكيف هداهم التفكير السليم إلى صحة ما جاء في القرآن الذي استمعوا إليه من الرسول ﷺ، وانتقلوا إلى الترغيب بالإيمان كما آمنوا والإسلام كما أسلموا، مُبَيِّنِينَ أَنْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَكُتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلَ صَالِحاً أطمأنَّ يوم الجزاء عند ربه وأمن، فهو لا يخاف الحرمان الكلّيَّ أو الجزئيَّ من ثواب إيمانه وصالح عمله، ولا يخاف عقاباً على كُفْرٍ أَوْ عَصْيَانٍ يَتَحَمَّلُ به شقاءً ومتاعبَ وعذاباً أليماً.

ومن هذا نُدرِكُ أَنَّ مِنْ مناهج الدعوة إلى الله وأساليبها الناجحة، أَنْ يحكي الداعي إلى سبيل ربه قصة إيمانه وإسلامه وهدايته إلى الحق، بعد أن كان في الضلال، مبيّناً البواعث الفكرية والنفسيّة، والوجدانيّة، التي جعلته يُؤْمِنُ وَيُسَلِّمُ ويتبع صراط الله المستقيم.

ويقاس على هذه الوسيلة عَرَضُ الداعي قِصَصَ إيمان وإسلام الذين دخلوا في الإسلام، متضمّنةً بيانَ البواعث الفكرية، والنفسيّة والوجدانيّة التي جعلتهم يؤمنون ويُسلمون، ويهجرون ما كانوا عليه قبل ذلك.

والسبب في تأثير هذه الوسيلة أَنَّ النفوس البشرية تنقسم إلى أصنافٍ ذواتٍ نماذجٍ طبيعيّةٍ متشابهةٍ، فما يكون من الأسباب مؤثراً في بعض النماذج، يكون مؤثراً على نظائرها وأشباهاها بصفّةٍ تلقائيّةٍ.

يضاف إلى هذا أَنَّ الناس من طبيعتهم أن يتأثروا تلقائياً بما يتأثر به آخرون منهم، تأثراً تقليديّاً، أو تأثراً قائماً على اقتناع فكري، ففناعة فريق من الناس بفكرة من الأفكار تجعلُ من يحترّمهم ويحترّم آراءهم يفتح منافذ فكره ونفسه للاقتناع بالحق، فيسهلُ إقناعه، وتكون استجابته لدعوة الداعي خاليةً

من كثير من العقبات التي تمنع عادة من الاستجابة .

وبذلك يختصر الداعي على نفسه جهداً كبيراً لَدَى معالجة من يوجه دعوته لهم، واستغلالُ هذا أمرٌ مهمٌ في مناهج الدَّعْوَةِ وأساليبها .

- ٣ -

التدبّر التحليلي للنصّ

قول الله تعالى: ﴿قُلْ: أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ...﴾ ﴿١٦﴾ .

اسْتَمَعَ: أي: قصد السَّماع مع إصغاء وإنصات .

نَفَرٌ: النفر: الرّجال من ثلاثة إلى عشرة .

الجنّ: خلقٌ من خلقِ الله لا نَرَى أجسامهم بأعيُننا لأنّها غير ذات كثافة، وهم قابلون للتشكّل بالأشكال الجسمانية التي يمكن أن نراها، ومخلوقون من نار، ولهم صفات فكريةٌ ونفسيةٌ تؤهلهم لأن يوضعوا موضع الامتحان في الحياة الدنيا كالإنس، إذّ لهم إرادات حرّة يمكن أن يُطيعوا بها وأن يعصوا، ولهم أهواء وشهوات تنزع فيهم للمعصية كالإنس، ولهم إدراكات فكرية يعرفون بها الحقّ والباطل، والخير والشرّ من الأعمال، ويفهمون بها التكليف .

وقد أمر الله رسوله بأن يقول: أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ... إلى آخر قصّة هؤلاء النفر من الجنّ، لِيُحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْ يَنْتَشِرُوا دُعَاةَ إِلَى دِينِ اللَّهِ أَسْوَأَ بِهِمْ، وَلِيُبَيِّنَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنَّ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ امْتَدَّتْ إِلَى الْجِنِّ، فَأَمَّنَ مِنْهُمْ نَفَرٌ بِمَجْرَدِ اسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ، وَأَسْلَمُوا وَحَمَلُوا رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ وَقِبَائِلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَجِدَ دُعَاةَ مِنَ الْإِنْسِ يَنْشُرُونَهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي طُولِ الْأَرْضِ وَعَرْضِهَا، وَيَبُوءَ الْمُشْرِكُونَ الْمَصْرُوفُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ بِالْخِيْبَةِ وَالْخُسْرَانِ وَالْهَزَائِمِ .

وعَقِبَ هذه المقدمة بدأ النَّصِّ القرآنيِّ في السورة يعرض بإيجازٍ منهاجَ دَعْوَةِ الجَنِّ إلى الإسلام بين أقوامهم وقبائلهم، وسياستهم فيها، ليستفيد منها الدعاة إلى سبيل الله من الإنس في دعوتهم بين أقوامهم وقبائلهم وجماعاتهم، إذ كانت دعوة حكيمة وسياسة رشيدة.

وهي سياسة قائمة على عرض قصة إسلامهم، وعرض البواعث الفكرية والنفسية والوجدانية التي جعلتهم يؤمنون ويسلمون، وينتسرون دعاءً إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد اشتمل عرض قصتهم بين أقوامهم وقبائلهم من الجنِّ على عدَّة قضايا، جاء تلخيصها في سورة (الجن) بما يشبه عناوين موضوعات ذوات شُرُوحاتٍ مستفيضات.

القضية الأولى: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانَ عَجَبًا﴾.

أي: إِنَّا سَمِعْنَا كلاماً يُقْرَأُ قُرْءَاناً مُؤَثَّرًا يُشْعِرُ بَأَنَّهُ من عند الله، فهو جديرٌ بالاستماع إليه، وتدبُّرٍ دَلالاته، إذ هو عَجَبٌ في مبانيه وفي معانيه.

ودلَّ وصفُ القرآن بأنه عَجَبٌ على أنه مُعْجَزٌ متفَرِّدٌ متميِّزٌ، عن كلِّ كلامٍ آخر، وهذا يَدُلُّ على أَنَّهُ كلامٌ مُنَزَّلٌ من ربِّ العالمين. أدرك هؤلاء النفر من الجنِّ بعض ما في القرآن من عناصر إعجازٍ فوصفوه بأنه عَجَبٌ، وهذا وصفٌ بالمصدر مُشْعِرٌ بَأَنَّهُ عَيْنُ العجب لكثرة ما فيه من عجائب.

القضية الثانية: دَلَّ عليها: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ وصفاً لما سَمِعُوا من القرآن، من تلاوة الرُّسُولِ ﷺ.

يَهْدِي: أي: يَدُلُّ وَيُبَيِّنُ ويعلم، يقال لغة: هداهُ الطريق، وهداه له، وهداه إليه، إذا عَرَفَه به وَيَبَّئَنه له.

الرُّشْد: يُطْلَق على كلِّ سُلُوكٍ فكريٍّ أو نفسيٍّ أو عمليٍّ موافقٍ للحقِّ

والصواب، أو لما هو الأفضل والأحسن، والأكثر نفعاً، والأبعد عن الضرر.

فوصفُ القرآنِ بأنه يهدي إلى الرُّشدِ وصفٌ يجمع كلَّ ما اشتمل عليه القرآنُ من دعوةٍ إلى الحقِّ والخير، وإلى ما هو الأحسن والأفضل والأمنع والأبعد عن الضرر من الوجوه المحتملة، حالاً ومستقبلاً قريباً، ومستقبلاً بعيداً، حتى يوم الدين، يوم الحساب وفصل القضاء، وتنفيذِ الجزاء، في دار النعيم، أو في دار العذاب الأليم.

القضية الثالثة: إعلانهم أنهم آمنوا بالقرآن، إذ قالوا: ﴿فَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ﴾ ومن لوازم إيمانهم بالقرآن إيمانهم بسائر أركان الإيمان، ومنها إيمانهم بالرَّسول الذي استمعوا إلى القرآن من تلاوته له، وإيمانهم بالله العزيز الحكيم منزل القرآن، وإيمانهم بسائر القضايا الدينيَّة التي اشتملت عليها آياتُ القرآن.

والإيمان: هو التصديقُ الإراديُّ القلبي المقترن بالاعتراف والتسليم الذي تظهر له آثار في السلوك.

القضية الرابعة: بيانُ عزمِهِمُ الإراديِّ الجازم على أن لا يُشركُوا في مستقبلِ حياتهم بربِّهم أحداً، دلَّ عليها قولهم: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾.

وهذا منهم وعدٌ بعهدٍ جازمٍ قطعوه على أنفسهم، ودلَّ إلزامُ أنفسهم بهذا العهد على أن ما استمعوه من القرآن قد تضمَّن فيما تضمَّن التحذيرَ من الشرك في رُبوبيَّةِ الله، وفي إلهيَّته، مَهْمَا كان نوعُ الشَّرِكِ جُزئياً وهيناً، كشرك الذين يَعْبُدُونَ غيرَ الله لِيُقَرَّبُوهُمْ إلى الله زُلْفَى. ودلَّ أيضاً على أنهم قد كانت لهم شركيات تخلَّوا عنها، ولنَّ يَعُودُوا إِلَيْهَا ولا إلى مِثْلِهَا.

وإذ تخلَّوا عن الشَّرِكِ، فإنهم عن أنواع الكفر التي هي أشدَّ من الشَّرِكِ أكثر تَبَرُّياً وابتعاداً، وأشدَّ التزاماً بأن لا يقربوا شيئاً منها.

القضية الخامسة: توجيه الإقناع لأقوامهم من الجنِّ بتعالى الله عزَّ وجلَّ في صفاته السَّنيَّة عن أن يتخذ صاحبةً أو ولداً، فاتَّخَذَ الرِّوَجَاتِ من صفات

النقص في المخلوقاتِ الحادثة، وإنجابُ الله الأولادِ يقتضي أن يكون مَنْ أنجبَهُ الله مُشاركاً لله في خصائصِ ذاته الأزلية الأبدية، والرَّبُّ الخالقُ مُنزَهُ عن كلِّ ذلك، واتخاذُهُ الأولادِ بالتَّبَنِّيِ افتراءٌ على الحقيقة، فالعبدُ المخلوق لا يكون ابناً لخالقه الرَّبِّ الأزليِّ، سبحانه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيراً، فالله لا يُمكنُ أن يكون له ولدٌ، ولا يُمكنُ أن يتخذَ ولداً بالتَّبَنِّيِ.

دلٌّ على هذه القضية قولُهُم كما حكى النَّصُّ: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدُّ رَبَّنَا مَا أَتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ٢٠٠.

تعالى: تنهى في العلو مرتفعاً عن كل الصفات التي لا تليق بجلاله وأزليته وأبديته ووحدانيته، وتنزهه عن الحاجة لذاته أو لصفاته.

جدُّ ربِّنا: الجدُّ في اللغة الحظُّ والغنى، وجدُّ الرَّبِّ حظُّه من كمال الصفات الذاتية التي يتصف بها، وغناه سبحانه بذاته وصفاته عن كل شيءٍ سواه، لذلك فهو لا يتخذُ صاحبة ولا يُنجبُ ولداً، ولا يتخذُهُ بالتَّبَنِّيِ.

ويظهر أنَّهم قد خاطبوا بهذا من يعتقدون من الجنِّ أن الله صاحبةٌ ولداً.

وعبارة ﴿تَعْلَمُونَ جَدُّ رَبَّنَا﴾ هي بمثابة الدليل العقلي الذي يدلُّ على أنه سبحانه: ﴿مَا أَتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فتقديمُها أسلوبٌ بارع لإعلان تبريه تعالى عن اتخاذِ صاحبة والولد، وهو من أساليب تقديم الدليل قبل تقرير الدعوى.

وتقديم الدليل قبل تقرير الدعوى من أساليب مناهج الدعوة الحكيمة، التي تدخل تحت عموم قول الله عز وجل: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾.

القضية السادسة: بيأنهم في أقوامهم أن سفاهتهم إبليس وكُلُّ من استجاب له واتبع كُفْرَه بربه كان يقول على الله قولاً شططاً، أي: بعيداً عن الحق جائراً.

الشططُ في اللغة: البُعْدُ وتجاوز الحدِّ والجورُ، وكُلُّ ما بُعدَ عن الحقِّ وجارَ فهو كَذِبٌ وباطلٌ.

وكلُّ قولٍ باطلٍ أو كذبٍ يُنسَبُ إلى الله هو كُفْرٌ بذاته، أو بصفاته، أو بحَقِّ رُبوبيَّته أو إلهيَّته .

دَلٌّ على هذه القضية قولُهُم كما حكى النَّصُّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ .

السفيه في اللغة: ناقصُ العقل الذي لا يُحكِمُ أمره بِرُشد، فيجانب الحقَّ والصواب وسبيلَ الهدى .

وإبليس إمامُ سفهاء الجنِّ، فقد عرَّضَ نفسه للطرد من رحمة الله، وللعذاب الأبدي والشقاء الدائم، إذ رَفَضَ أن يُطيع أمرَ رَبِّه له بأنَّ يَسْجُدَ لآدم، وجَحَدَ حقَّ الله على عباده في طاعته بما يشاء، وهذا من فرط سفاهته وقلة عقله الإرادي، إذ لَمْ تَقوَ إرادته على ضَبْطِ جِماحِ هواه في الكبر والحسد، مع وفرة ذكائه العلميِّ وواسع حيلته .

ويَتَّبِعُ إبليس في السفاهة كُلَّ كَفَرَةِ الجنِّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا سَبِيلَهُ، وعبارةُ: ﴿سَفِيهُنَا﴾ تعمُّهُم .

القضية السابعة: بيانهم في أقوامهم أنهم كانوا مَخدوعين بِأَقْوَالِ كانوا يَسْمَعُونَهَا من الإنس والجنِّ، وفيها كِذْبٌ على الله، فيقبلونها، ظانِّينَ ظنًّا تَوْهُمِيًّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإنسُ والجنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فلَمَّا اسْتَمَعُوا القرآنَ من الرسول محمد ﷺ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ ما كانوا يَسْمَعُونَهُ من أقوال على الله، ومنها أقوال اليهود والنصارى، وأقوال الوثنيين هي أقوال كاذبة باطلة، فمن اعتقدها وآمَنَ بها كَفَرَ بِرَبِّه .

دَلٌّ على هذه القضية قولُهُم كما حكى النَّصُّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ .

فَدَلَّتْ هَذِهِ العبارةُ عَلَى أَنَّهُمْ كانوا قَبْلَ استماع القرآن والإيمان به

مَخْدُوعِينَ بِأَقْوَالٍ كُفْرِيَّةٍ كَاذِبَةٍ كَانُوا يَسْمَعُونَهَا مِنَ الْإِنْسِ وَمِنَ الْجِنِّ، أَمَّا الْآنَ
فَقَدْ كَفَرُوا بِهَا، وَآمَنُوا بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ.

القضية الثامنة: بيأنهم في دعوتهم إلى الإسلام بين أقوامهم، أنّ رجالاً
من الإنس الذين هم أحسنُ تقويماً من الجنّ، وأكثرُ علماً وتخليلاً واستنباطاً،
كانوا يلجؤون إلى رجال من الجنّ يستعيذون بهم ليعينوهم ويُعيذوهم ممّا
يخافون، وذلك من فساد مفاهيمهم وتصوّراتهم عن عالم الجنّ، وكان
الرجال من الجنّ يزيدون المستعيذين بهم من الإنس سَفَهًا وحماقةً وجهلاً
وإنمّا وَعَنَاءً بتكاليف ثقيلة، ويزيدونهم من ركوب الشرّ، وغشيان المآثم
والمعاصي والشركيات.

دلّ على هذه القضية قولهم كما حكى النصّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ
يَعُودُونَ رِجَالًا مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

يَعُودُونَ: أي: يلتجئون ويعتصمون ويلازمون الالتصاق بهم.

زَادُوهُمْ رَهَقًا: الرَّهَقُ في اللّغة السّفهُ، والحماقة، والجهل، والإثم،
وَرُكُوبُ الشّرِّ والظلم، وغشيان المحارم وكبائر الآثام، ويَدْخُلُ في هذا
ممارسة الشركيات وسائر الكفريات.

ويأتي الرَّهَقُ اسماً من الإرهاق، وهو تحميلُ المأمورِ بالطاعة ما لا
يُطِيق.

القضية التاسعة: بيأنهم في دعوتهم إلى الإسلام بين أقوامهم من الجنّ
أنّ الإنس الذين يقولون على الله كذباً، قد ظنّوا كما ظنّتم أنّ لن يبعث الله
يوم القيامة أحداً، فلا حساب يوم الدين، ولا فصل قضاء ولا جزاء.

ومعلومٌ أنّ من شأن هذا الظنّ الباطل الذي لا دليل يدعمه، ولا شبهة
تُرجّحه، أنّ يجعل صاحبه عاصياً لله مجرماً، منطلقاً في ارتكاب الآثام فاجراً،

وَأَنْ يُزَيَّنَ لَهُ الشَّرَكِيَّاتِ الَّتِي قَدْ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ بَعْضَ خِدْمَاتٍ تَقَدَّمُهَا
لِهَا الشَّيَاطِينُ .

فَالْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ يَوْمَ الدِّينِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ هُوَ الرَادِعُ الْأَكْبَرُ
لِلْمَخْلُوقِ الْمَدْرَكِ الْمَوْضُوعِ مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وَنَلَاظِظْ هُنَا أَنَّ دُعَاةَ الْجَنِّ إِلَى الْإِسْلَامِ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ قَدْ اِهْتَمَوْا بِبَيَانِ
رُكْنِ الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ، لِإِيمَانِهِمْ بِأَنَّ الْجَنِّ
مَبْعُوثُونَ وَمُحَاسَبُونَ وَمَجَازُونَ كَحَالِ الْإِنْسِ ، وَلِإِدْرَاكِهِمْ أَنَّ الْإِيمَانَ بِهَذَا
الرُّكْنِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ هُوَ الرَادِعُ الْأَكْبَرُ عَنِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعَصْيَانِ ،
وَالْفُجُورِ وَالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ .

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ عَنِ الْإِنْسِ كَمَا حَكَى النَّصُّ : ﴿ وَأَتَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا
ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ .

الظَّنُّ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي الظَّنِّ الضَّعِيفِ الَّذِي لَا يَقْوَى عَلَى إِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ ،
وَهُوَ الظَّنُّ التَّوَهُمِيُّ .

الْقَضِيَّةُ الْعَاشِرَةُ : بَيَانُهُمْ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ مِنَ الْجَنِّ ، أَنَّهُمْ لَمَسُوا السَّمَاءَ
فَوَجَدُوهَا مُلْتَثَّ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا .

إِنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنَ الْجَنِّ كَانُوا مِنْ صِنْفِ الْجَنِّ الطَّيَّارِينَ الَّذِينَ
يَسْتَطِيعُونَ الصُّعُودَ فِي اتِّجَاهِ السَّمَاءِ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَصْعَدُونَ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَنَقَلَ بَعْضُ الْأَخْبَارِ إِلَى قُرْنَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ .

وَبَعْدَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَلَأَ اللَّهُ السَّمَاءَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا تَلَاحِقَ
مُسْتَرَقِي السَّمْعِ وَتُحْرِقُهُمْ .

وَقَدْ لَاحِظْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ الْجَدِيدَةَ وَبَحَثُوا عَنْ سَبَبِهَا ، حَتَّى
تَوَصَّلُوا إِلَى أَنَّ سَبَبَهَا بَعْثَةُ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ .

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا
مُلْتَمَتًا حَرَّ سَاشِدِيدًا وَشُهَبًا﴾.

لَمَسْنَا السَّمَاءَ: أَي: وَصَلْنَا إِلَى سَطْحِ حَدُودِهَا، فَلَمَّا ابْتَغَيْنَا الدَّخُولَ
وَالجُلُوسَ فِي مَقَاعِدَ مِنْهَا لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ وَجَدْنَاهَا مَحْرُوسَةً الْمَنَافِذَ كُلَّهَا دُونَ
اسْتِثْنَاءٍ.

وَشُهَبًا: الشُّهُبُ جَمْعُ شَهَابٍ وَهُوَ شَعْلَةٌ نَارِيَّةٌ تَنْطَلِقُ فِي الْجَوِّ بِسُرْعَةٍ
عَظِيمَةٍ، وَمِنْ وَظَائِفِ هَذِهِ الشَّهْبِ إِحْرَاقُ الْجَنِّ الَّذِينَ يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ.

الْقَضِيَّةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةٌ: بَيَّأْتُهُمْ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ مِنَ الْجَنِّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ
كَانُوا مِنْ قَبْلِ يَضْعَدُونَ طَيَّارِينَ فِي اتِّجَاهِ السَّمَاءِ، فَيَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْدَاثِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ بِأَمْرِ اللَّهِ، فَيَلْتَقِطُونَ
مِنْهُمْ مَا يَسْتَطِيعُونَ التَّقَاطُحَ، وَيَفْرُقُونَ بِهِ مِنْ مَوَاطِنَ يَحَاوِلُونَ الْإِسْتِفَادَةَ مِنْ
تُغْرَاتِهَا حَتَّى لَا تَصِيبَهُمُ الرُّجْمُ مِنَ الشُّهُبِ.

وهذه الأخبار التي يسترقونها قد يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، مع
أكاذيب كثيرة من عند أنفسهم يضيفونها إليها، أما الآن فقد مُنِعُوا من استراق
السمع بالحرس والشهب.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا
لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾.

الآن: أَي: بَدَأَ مِنْ زَمَنِ بَعَثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَا يَأْتِي مِنْ أَرْزَاقٍ
لَا حَقَاتٍ.

شُهَابًا رَصَدًا: أَي: شُهَابًا رَاصِدًا مَنْ يَسْتَمِعُ مِنْ جِهَتِهِ، وَصِفَ الشَّهَابُ
بِالْمَصْدَرِ، وَهُوَ كَلِمَةٌ «رَصَدَ» لِإِرَادَةِ الْمَبَالِغَةِ بِالرَّصْدِ الشَّدِيدِ. يُقَالُ لَعَا:
رَصَدَ يَرْصُدُ رَصْدًا وَرَصْدًا، إِذَا أَقَامَ مَتَرَقِّبًا.

القضية الثانية عشرة: بيأنهم أَنَّهُمْ تَحَيَّرُوا فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ الْجَدِيدِ فِي السَّمَاءِ، أَهْوَى لِيَشْرُؤُا أُرِيدَ بَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يُبَاغِتُوا بِهِ وَهَمُّ غَافِلُونَ، كَاهْلَاكِ شَامِلٌ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبَّهُمْ أَمْراً رَشِداً يَمْنَعُ عَنْهُمْ بِهِ كِهَانَةَ الْكُهَّانِ، وَمَا تُوحِي إِلَيْهِمْ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ بَعْضِ أَخْبَارِ السَّمَاءِ.

لَقَدْ أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ قَدْ تَحَيَّرُوا هَذَا التَّحْيِيرُ قَبْلَ أَنْ يَطُوفُوا الْأَرْضَ بِأَحْسِنَ عَنِ السَّبَبِ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَمِعُوا الْقُرْآنَ الْعَجَبَ مِنْ تِلَاوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

لَكِنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ عَرَفُوا السَّبَبَ، وَذَهَبَ عَنْهُمْ التَّحْيِيرُ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرَادَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَمْراً رَشِداً.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرُؤُا أُرِيدَ يَمْنَعُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبَّهُمْ رَشِداً﴾.

أَي: لَكِنْ دَرِينَا بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعْنَا الْقُرْآنَ فَأَمَّا بِهِ، وَعَاهَدْنَا عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكُ بِرَبِّنَا أَحَداً.

القضية الثالثة عشرة: بيأنهم عن حال عُموْمِ الْجَنِّ فِي وَاقِعِهِمُ السَّابِقِ وَالْحَالِيَّ عِنْدَ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ يَنْقَسِمُونَ إِلَى قَسْمَيْنِ:

القسم الأول: الصالحون، وهم على مراتب ودرجات، وفق المفهوم الذي أُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظُ «الصالحين» فِي الْقُرْآنِ.

القسم الثاني: الَّذِينَ هُمْ دُونَ الصَّالِحِينَ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْفَاسِدُونَ بِالْمَعَاصِي وَالْمَخَالَفَاتِ الْكَثِيرَاتِ، مِنْ غَيْرِ التَّوَابِينِ إِلَى رَبِّهِمْ. وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ عَلَى دَرَكَاتِهِمُ الْمُتَنَازِلَاتِ، وَاخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَى النَّصُّ: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قِدَا﴾.

أَي: كُنَّا عَلَى مَذَاهِبَ وَعَقَائِدَ وَأُذْيَانٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَقَطِّعَةٍ، لَا جَامِعَةَ تَجْمَعُ بَيْنَهَا.

طرائق: جمع طريقة، وهي تُطلقُ في اللُّغة على السيرة والمذهب،
والحال، والفِرقة:

قَدَدًا: أي: قطعاً متفرقة، وفرقاً مُتباينةً الأهواء والمذاهب، واحدها
قِدَّة، القِدَّة: القطعةُ من الشيء، والفِرقةُ المتميزة بهوى أو مذهب من الناس
ونحوهم.

القضية الرابعة عشرة: بيانهم عن حالهم قبل استماع القرآن، وقبل
معرفة سبب امتلاء السماء بالحرس الشديد والشهب، أنهم حين طرحوا
احتمال أن يكون قد أراد الله بأهل الأرض إهلاكاً شاملاً، لإنسهم وجنهم،
قالوا في أنفسهم، هل نستطيع أن نفرِّق في اتجاه السماء أو أن نغوص في
الأرض لنحمي أنفسنا من نوازل الهلاك؟ لكن قُلْنَا في أنفسنا على سبيل الظن
إذا أراد الله إهلاكنا فلن نُعجزه في الأرض، ولن نعجزه فراراً في اتجاه
السماء، وكان هذا ظناً منا لأننا لم نكن قد آمنّا بعدُ، وهذا ما دفعنا إلى
البحث في أرجاء الأرض عن سبب منعنا من استراق السمع.

دلّ على هذه القضية قولهم كما حكى النصُّ: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ
فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾.

القضية الخامسة عشرة: بيانهم في دعوتهم لأقوامهم وجماعاتهم من
الجنّ أنهم لما سمعوا القرآن العجَب، بعدَ كلِّ ما سبقَ لهم من دراسة الظاهرة
الجديدة في السماء، والتأملِ الفكري العميق، والبحث تطوفاً في الأرض
لبحث سببها، وأدركوا الحقيقة الربّانية، آمنوا بالهدى الذي اشتمل عليه.

دلّ على هذه القضية قولهم كما حكى النصُّ: ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا
بِهِ...﴾.

وهنا أدركوا أنه أن لهم أن يتلطفوا بالبدء بدعوة أقوامهم وجماعاتهم

إلى الإيمان بالرَّبّ وخذهُ لآ شريك له، فعرضوا دعوتهم كما جاء في القضية التالية:

القضية السادسة عشرة: بيانهم في دعوتهم أن مَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ إيماناً صحيحاً على ما أنزل في القرآن على رسوله محمدٍ فإنه يكون آمناً، لا يخافُ نقصاً من ثوابه عنده، ولا ظُلماً، ولا يخافُ أن يُحَمِّلَهُ اللهُ ما لا يُطِيقُ.

دلّ على هذه القضية قولهم كما حكى النصّ: ﴿... فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

البخسُ في اللّغة: النقصانُ والظلم، يقال: بَخَسَ فلانٌ فلاناً، إذا ظلمه بنقصانٍ من حقِّ هو له.

فلا يخافُ بَخْسًا: أي: فإنَّ الله يُوقِيهِ أجره على إيمانه، دون نقصانٍ، فهو لا يخافُ نقصاناً، لأنَّ اللهَ كريمٌ لا يُخَلِّفُ الميعاد.

والرَهَقُ: يأتي لمعانٍ مختلفة سبق بيانها، وأنسبها هنا، تحميل المكلف ما لا يُطِيق، قال الأزهري في هذه الآية: الرَّهَقُ اسمٌ من الإرهاق، وهو أنَّ يُحَمَّلَ عليه ما لا يطيق.

أي: إنَّ الإيمان بالله الرَّبِّ جَلَّ جلاله على ما أنزل في كتابه يستلزم أن يتحمَّل المؤمن تكاليف، لكنَّ هذه التكاليف في الإسلام تقع ضمن حدود الطاقة والاستطاعة، إذ لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلاَّ وُسْعَها، فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فهو لا يَخَافُ رَهَقاً من تكاليف لا يطيقها، كما أنَّه لا يخافُ بَخْساً: نقصاً ولا ظُلماً.

وكان هذا الدخول إلى الدّعوة إلى الإسلام بعد المقدمات التي جاء بيانها في خمس عشرة قضية، وصفوا فيها البواعث الفكرية والنفسيّة والوجدانية التي جعلتهم يؤمنون بالهُدَى لَمَّا سمعوه، من أروع المقدمات التّمهيدية الحكيمة لدعوة رشيده.

ومنهاج دعوتهم هذا يُقدّم نموذجاً حسناً يُقتدى به في الدعوة إلى الله، وهو يَدْخُل تحت عموم قول الله عزّ وجلّ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.

وانطلق هؤلاء النفر من الجنّ دعاةً بين أقوامهم وجماعاتهم إلى الإسلام وفق المنهج الدّعويّ الذي جاء بيان عناوينه في القضايا السابقة.

فدخل في الإسلام من الجنّ بدعوتهم من استجاب لهم، وبقي آخرون جائرین عن صراط الهدى.

عندئذٍ أضافوا إلى قضاياهم السابقة في بياناتهم الدعوية قضيةً جديدة، وهي القضية التالية:

القضية السابعة عشرة: بيأنهم أنّه قد صار فريقٌ من الجنّ مُسلمين، وبقي آخرون جائرین، أمّا المسلمون فقصدوا الأمر الرشد وتوجّهوا له، واجتهدوا في طلبه، ليظفروا بالنجاة من عذاب الله، وبالسعادة في جنّات النعيم، وأمّا الجائرُونَ فاتَّبَعُوا الغيَّ، استجابةً لأهوائهم وشهواتهم، ولم يُسلمُوا فهم سيُعذبُونَ في نار جهنّم يوم الدين، ويكونون بمثابة حطبٍ من حطبها.

دلّ على هذه القضية الأخيرة من بياناتهم الدعوية قولهم كما حكى النّص:

﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١١﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٢﴾﴾.

القاسطُ في اللّغة: الجائر الذي يَعدِلُ عن الحَقِّ وعن الصراط المستقيم^(١).

(١) القاسط في اللغة ضدّ المقسط، فالمقسط العادل، والقاسط الجائر.

تَعَرَّوْا: أي: قَصِدُوا وتَوَخَّوْا، واجتهدوا في الطلب مع التدقيق
والعناية.

الرَّشْدُ والرُّشْدُ والرِّشَادُ: الاهتداء إلى الحقِّ والصواب والأفضل.

والمعنى: فمن أسلمَ واتَّبَعَ صِرَاطَ اللَّهِ المستقيم، فأولئك أصحابُ
منازل رفيعة فضلاء، قصدوا مجتهدين مدققين بعناية أن يهتدوا إلى الحقِّ
والصواب، وإلى أفضل ما يُختارُ من سلوك، فلهم السعادة في جناتِ النعيم.

وأما القاسطون الجائرون عن صراط الله المستقيم، إيماناً وعملاً،
فأولئك المنحطون في الدرجات السافلات، إذ اتَّبَعُوا مَسَالِكَ الْغَيِّ استجابةً
لأهوائهم وشهواتهم، فكأنوا بما اختاروه لأنفسهم لجهنم يوم الدين كالخطب
الذي يُعَدُّ لتوقد به النَّارُ، أو ليزيدَ به وَقودُها، إذ هم سَيَطْرُحُونَ وَيُكَبُّونَ فِي
جَهَنَّمَ كَمَا يُطْرَحُ وَيُكَبُّ الْحَطَبُ فِي النَّارِ^(١).

وهكذا كان منهج هؤلاء النفر الدعاة إلى سبيل ربهم من الجن، إنه
منهجٌ يُختدَى، بوصفه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله.

* * *

(١) في النصِّ هنا حذف من الأوائل لدلالة الأواخر، وحذف من الأواخر لدلالة الأوائل،
وهذا ما يُسمَّى عند البلاغيين الاحتباك. إذ حُذِفَ من جملة: «فَمَنْ أسلم». ثوابهم
في الجنة، وحُذِفَ من جملة: «وأما القاسطون». بيان أنهم اختاروا مسالك الغيِّ،
وفيه محاذيف أخرى أشرت إليها لدى تحليل معنى النصِّ، إذ يدلُّ عليها التقابل.

النموذج الرابع

دعوة النفر من الجنّ الذين عرضت قصّتهم سورة (الأحقاف)

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) خطاباً

لرسوله :

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٧﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّدْكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْآلِئِ ﴿٤٨﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٩﴾﴾

- ١ -

نظرة إجمالية عامة

● النفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم سورة (الجنّ) قد كانت حادثتهم في أواسط المرحلة المكيّة، لأنّ هذه السورة قد نزلت في هذه الأواسط، إذ ترتيب نزولها أربعون.

● أمّا النفر من الجنّ الذين عرضت قصّتهم سورة (الأحقاف) فقد كانت حادثتهم في الثلث الأخير من المرحلة المكيّة، إذ ترتيب نزولها ستة وستون.

● فهما إذن وفدان مختلفان، وبعضٌ مُتَّبَعِي الروايات الواردة بشأن وفادات الجنِّ إلى الرسول ﷺ، وأوصلها إلى ستِّ وفادات، منها هاتان الوفادتان، ومنها الوفد الذي خرج الرسول ﷺ إليهم، بناءً على موعد سابق، ولقاؤه إياهم في مكة عند الحَجُون، وفيه الآن مسجدٌ يسمَّى مَسْجِدَ الجنِّ، وقد استصحبَ الرسولُ ﷺ معه حين أراد الخروج إليهم عبد الله بن مسعود، وأجلسه في مكانٍ، وخطَّ عليه خطأً في الأرض، وقال له: «لَا تُجَاوِزُهُ» ثُمَّ مَضَى للقاء الجنِّ، وابنُ مسعودٍ يَنْظُرُ، ويظهر أنَّ هذا اللقاء كان بعد اللقاءَيْنِ السابقين.

● ووفد الجنِّ الذين عرضت سورة (الأحقاف) قصَّة وفادتهم، لم يأتِ في النَّصِّ ما يَدُلُّ على أنَّ الرسول لم يعلم بحضورهم، ولا ما يدلُّ على علمه به، بخلاف الوفد الذين عرضت سورة (الجنِّ) قصَّة وفادتهم، فقد دلَّ على أنَّ الرسول لم يكن يعلم بحضورهم، حتَّى أوحى الله إليه بذلك، لكن جاء في بعض الروايات أنَّ الرسول ﷺ عَلِمَ بمقدمهم، وجاء في بعضها أنَّ الرسول جعلهم رسلاً إلى قومهم، والله أعلم.

● والنَّصُّ الذي جاء في سورة (الأحقاف) يُشعرُ بأنَّ وفد الجنِّ الذين عرضت السورة قصتهم هم من المؤمنين بموسى عليه السلام، والكتاب الذي أنزل عليه، وليس فيه إشارة إلى أنَّهم يؤمنون بعيسى عليه السلام.

أما النَّصُّ الذي جاء في سورة (الجنِّ) ففيه ما يُشعرُ بأنَّ مذهبهم كان قبل إيمانهم بالقرآن كان على مذهب مثلثي النصراني، في أنَّ الله صاحبةٌ وولداً، هم شركاء الله في ربوبيته وإلهيته.

● ويلاحظ أنَّ البيان في سورة (الأحقاف) اقتصر على أن وفد الجنِّ استمعوا القرآن من الرسول منصتين، فأمنوا، فلما قضى الرسول ﷺ تلاوته ولَّوْا إلى قومهم منذرين، وأنَّ دعوتهم بين قومهم اقتصرت على كبريات

القضايا دون مقدمات كثيرة، ولا تمهيدات طويلة، ويظهر أنّ مقتضى حال قومهم كان لا يحتاج أكثر من هذا، فذكرها القرآن باعتبارها نموذجاً مقبولاً إذا كان ملائماً لمقتضى حال المدعوين.

- ٢ -

المنهج الدعويّ الذي اتّخذه النفر من الجنّ الذين أخبر الله عنهم في سورة (الأحقاف)

يتلخّص منهج هذا النفر في دعوتهم إلى الإسلام بين قومهم من الجنّ على العناصر التالية:

العنصر الأول: بيان أنّ الله عزّ وجلّ أنزل كتاباً من بعد كتاب التوراة الذي أنزله على موسى، وأنّهم استمعوا إليه مُعجبين به.

العنصر الثاني: أنّ هذا الكتاب مصدّق لما سبقه من كتب ربّانية أنزلت على الرسل السابقين.

العنصر الثالث: أنّ هذا الكتاب يهدي إلى أمرين عظيمين:

١ - أنّه يهدي إلى الحقّ، والهداية إلى الحقّ تكون في العمليّات التي يُطلبُ الإيمانُ بها.

٢ - أنه يهدي إلى صراط مستقيم، والهداية إلى الصّراط المستقيم تكون بالنسبة إلى أنواع السلوك في الحياة، ذات المسالك المتشعبة، أمّا الصراط المستقيم فهو واحد منها، فمن تنكّبهُ ضلّ أو جانب الرُّشد في حياته.

العنصر الرابع: تلتفهم مع قومهم ببدء الاستعطاف، إذ دعَوْهُمُ إلى إجابة داعي الله والإيمان به، وداعي الله هو رسوله الخاتم، وكتابه المنزّل عليه.

العنصر الخامس: ترغيبهم قومهم بأنهم إذا استجابوا وآمنوا وسلكوا الصراط المستقيم غفر الله لهم ذنوبهم وأجارهم من عذاب أليم، وإذا غفر الله ذنوبهم جعلهم من السعداء في جنات النعيم.

العنصر السادس: ترهيبهم من لم يجب داعي الله بأن يترقب عذاب الله الذي سينزل به حتماً، إذ لا يستطيع أن يعصم نفسه، ولا أن يفر من عذابه، مهما اتخذ من وسائل، ومهما كانت قدراته وحيلته عظيمة، ولن يجد من ينصره فيحميه من عذاب الله، إذ لا يوجد من دون الله أولياء يحمون من عذاب الله من شاء الله أن يعذبه.

العنصر السابع: بيان أن من لا يجيب داعي الله فسَيَظَلُّ منغمساً في ضلالٍ مُبينٍ واضح لكل ذي فكرٍ سليم.

ويلاحظ في هذا المنهج الدعوي أنه يشمل على بيان الحق بالحكمة، إذ هو قائم على الإقناع بأن القرآن مُصَدِّقٌ لما جاء قبله من كتب ربّانيّة، فالمؤمن بكتاب ربّانيّ سابق لا يجد في القرآن ما يُعارضُ أسُسَ إيمانه.

وقائم على الإقناع بأن القرآن يهدي إلى الحق، ومعلوم أن الحق لا بُدَّ أن تؤيِّده البراهين والحجج الصحيحة.

وقائم على الإقناع بأن القرآن يهدي إلى طريق مستقيم في مختلف أنواع السلوك التي يدعو إليها، من العبادات والمعاملات والأخلاق والفضائل، والطريق المستقيم الواضح فيه أدلّة استقامته لمن أراد أن يبحث عنها ويكتشفها.

ويلاحظ أيضاً أن هذا المنهج الدعوي يشمل على الموعظة الحسنة، إذ هو قائم على الترغيب والترهيب، وهما المحوران اللذان تدور عليهما حركات النفوس الإرادية الموجهة للأعمال الباطنة والظاهرة.

إذن: فمنهج هذا النفر في دعوتهم إلى سبيل ربهم منهج صالح لأن يُخْتَدَى
 به في دعوة بعض أهل الكفر، إذ هو يدخل تحت عموم قول الله عز وجل:
 ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.

- ٣ -

التدبر التحليلي للنص

● قول الله عز وجل لرسوله:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ...﴾ (١٩)

وإذ صرّفنا: أي: ورّدّد هذا الحدّث في ذاكرك عند المناسبات
 الداعيات، وادّكره بلسانك في بياناتك التي تدعو بها إلى سبيل ربك، لإعلام
 الإنس بحال بعض الذين آمنوا بالله ورسوله من الجنّ، وولّوا بعد ذلك إلى
 قومهم داعين إلى دين الله مبشرين ومنذرين.

ومعنى: ﴿صَرَفْنَا﴾ بنون المتكلم العظيم: حوّلناهم عن اتجاهاتهم التي
 كانوا عليها، ووجّهناهم إليك ليستمعوا منك القرآن.

واستعمال حرف: «إلى» يُشعر بأنهم حضروا من مكان بعيد، إذ لو كان
 مكاناً قريباً لكان المناسب استعمال اللام الجارة.

نفرًا: النفر هم الرجال من ثلاثة إلى عشرة، وفي كونهم نفرًا دليل على
 أنهم لا يقلّون عن ثلاثة، ولا يزيدون على عشرة.

جاء في بعض الروايات أنّ هؤلاء النفر كانوا تسعة، وجاء في روايات
 أخرى أنهم كانوا سبعة، وأنهم كانوا من أشرف جنّ «نصيبين» كما روي عن
 ابن مسعود رضي الله عنه.

وجاء في رواية أنّ رسول الله ﷺ جعلهم رُسُلًا إلى قومهم.

● قول الله عز وجل:

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

فَلَمَّا حَضَرُوهُ: أي: فلَمَّا حَضَرُوا الْقُرْآنَ الَّذِي كُنْتَ تَتْلُوهُ والحضور هو الشهود بإحدى الحواس .

قَالُوا أَنْصِتُوا: أي: صار بعضهم يقول لبعض: اسكتوا حَتَّى نُحْسِنَ الاستماع .

يقال لغة: أَنْصَتَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَسْكُتَ، لِيَصْفُوَ الاستماع من اللَّعْطِ والمشوشات .

فَلَمَّا قُضِيَ: أي: فَلَمَّا أَتَيْهِ الْقُرْآنَ الَّذِي كَانَ يَتْلُوهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَالْمَرَادُ مَا قَرَأَ الرَّسُولُ حِينَئِذٍ مِنَ الْقُرْآنِ .

وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ: أي: أَدَارُوا ظُهُورَهُمْ وَأَنْطَلَقُوا إِلَى الْجِهَةِ أَوْ الْجِهَاتِ الَّتِي قَدِمُوا مِنْهَا، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَأَخَذُوا مُبَاشَرَةً يَدْعُونَ بَيْنَ قَوْمِهِمْ مِنَ الْجَنِّ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاتَّبَعَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ .

وجاء في النَّصِّ الْاِكْتِفَاءُ بِعِبَارَةِ ﴿ مُنْذِرِينَ ﴾ لِأَنَّ مَنْ قِيلَ الْإِسْلَامُ فَقَدْ أَخَذَ بِشَارْتِهِ وَانْتَهَى، وَبَقِيَ إِذْذَارٌ مِنْ أَبِي وَلَمْ يَسْتَجِبْ لِلدَّعْوَةِ .

أَمَّا دَعْوَةُ هَؤُلَاءِ النَّفَرِيِّينَ قَوْمِهِمْ مِنَ الْجَنِّ، فَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى ثَلَاثِ مَقَالَاتٍ:

المقالة الأولى: جاء التعبير عنها بقول الله عز وجل:

﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

الكتاب الذي استمعوا آيات منه هو القرآن، بدليل ما جاء في الآية الأولى من النَّصِّ .

أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى: هذه العبارة تدلُّ على أنَّهم هم وقومهم من يهود الجن.

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ: عبارة تدلُّ على أنَّهم عرفوا ممَّا سمعوا من آيات القرآن أَنَّهُ يُصَدِّقُ بِكُلِّ الْكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي أُنزِلَتْ مِنْ قَبْلِهِ، ومنها ما أُنزِلَ على موسى عليه السلام.

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ: أي: يشتمل على بيانات تُعرِّفُ بالحقِّ في العقائد، والأخبار الصحيحة الثابتة، والعلوم المطابقة للواقع.

وإلى صراط مُسْتَقِيمٍ: أي: ويشتمل على التعليمات الربانية التي ترسم الطريق المستقيم الذي يضمن الوصول إلى الغايات السعيدة. في السلوك الظاهر، وفي السلوك الباطن، دون انحراف ولا اعوجاج ولا متاهاتٍ ولا ضياع.

المقالة الثانية: جاء التعبير عنها بقول الله عزَّ وجل:

﴿يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِّكُمْ مِنْ عَذَابِ

الْأَلِيمِ ﴿٦١﴾

أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ: أي: اقبلوا دَعْوَةَ دَاعِيَ اللَّهِ، فآمِنُوا بما يدعوكم إلى الإيمان به، واتَّبِعُوا تعاليمه.

داعي الله وصفٌ ينطبق على القرآن، وعلى الرسول محمد ﷺ، وإجابة أحدهما تستلزم حتماً إجابة الآخر.

وآمِنُوا به: تأكيدٌ لما دَلَّتْ عليه عبارة: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ وتصريح بالمطلوب الأعظم في الإجابة.

يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ: أي: يَغْفِرْ لَكُمْ بَعْضَ ذُنُوبِكُمْ، وهي حقوقُ اللَّهِ عليكم، ويبقى عليكم حقوقُ العباد، فهذه إما أن تُؤدَّوها، أو تؤدِّوا تعويضاً عنها، أو يُسَامِحَكُمْ بِهَا أَصْحَابُهَا.

وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ : أي : وَيَحْمِكُمْ بِالْإِجَابَةِ وَالْإِيمَانِ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، أَمَّا الْمَعَاصِي مِنْ دُونِ الْكُفْرِ فَقَدْ سَكْتُوا عَنْهَا ، لِأَنَّ أَمْرَهَا إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ غَفَرَهَا ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَ عَلَيْهَا عَلَى مَقَادِيرِهَا .

المقالة الثالثة : جاء التعبير عَنْهَا بقول الله عز وجل :

﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ : أي : وَمَنْ كَذَّبَ الرَّسُولَ وَكَذَّبَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي جَاءَ بِهِ كَافِرًا بِهِمَا ، غَيْرَ مُسْتَجِيبٍ لِدَعْوَتِهِمَا . هذا شرط وجوابه ما جاء بعد فاء الجواب .

فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ : أي : فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ رَبَّهُ فِي الْأَرْضِ مَهْمَا كَانَتْ لَهُ فِيهَا قُوَّةٌ وَجُنُودٌ كِبَالَيْسَ ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْزَالَ نَقْمَتَهُ فِيهِ .

وإذا كان غير معجز في الأرض حيث مراكز قوته وجنوده ، فلن يكون معجزاً في السماء ، وليس له فيها قوة ولا جنود .

وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ : أي : وليس له من دون الله أولياء يستطيعون حمايته من عذاب الله ، أو يستطيعون نصره إذا استنصر بهم . الأولياء : هم الثَّـمَرَاءُ وَالْأَعْوَانُ الْمُؤَيَّدُونَ الْمُتَابِعُونَ .

أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ : أي : أُولَئِكَ الْبَعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّذِينَ لَا يَجِيبُونَ دَاعِيَ اللَّهِ مُنْغَمِسُونَ فِي ضَلَالٍ وَاضِحٍ ظَاهِرٍ يُذَكِّرُهُ كُلُّ ذِي فِكْرٍ سَلِيمٍ ، وَفَهُمْ مُسْتَقِيمٌ .

هذه خلاصة المقالات الدَّعَوِيَّة التي شرحها وفصلها هؤلاء النَّفَرُ الدَّعَاةُ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ مُؤْمِنِي الْجَنَّةِ ، الَّذِينَ تَحَدَّثَتْ عَنْهُمْ سُورَةُ الْأَحْقَافِ .

* * *

النموذج الخامس

صورة من دعوة الوالدين المؤمنين لولدهما الكافر

قال الله عز وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهَمَا
يَسْتَعِينَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ ۞

- ١ -

فكرة هذا النص

يكشف هذا النص صورة من صور الدعوة إلى الله التي يقوم بها والدان عاقلان مؤمنان رحيمان مُشفقان، لولدهما الكافر المعاند العاق المنكر للبعث والجزاء.

ويكشف الأسلوب التلقائي الذي يتخذانه في دعوتهما ولدهما إلى الإيمان والعمل الصالح، بغية نجاته من عذاب الله، وظفره بجنات النعيم.

ونفهم من هذا النموذج أن دعوة الأصول إلى الفروع ينبغي أن تكون مغموسة بفيض من العاطفة الجياشة، والرحمة المشفقة، والحنان الجَمِّ، وإن أساء الفرع وكان منه عقوق.

شرح بعض الألفاظ

أَفٌّ لَكَمَا: كلمة «أَفٌّ» اسم فعل مضارع بمعنى أتضجّر، وهو مبنِيٌّ.

وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي: خَلَّتْ: أي: سلفت ومضت.

الْقُرُونُ: جمع «قَرْنٍ» وهم أهل زمانٍ واحد، ويُطلق أساساً على مئة سنة.

يستغيثان الله: أي: يطلبان من الله العون والنصرة لإصلاح ولدهما حتّى يكون من أهل الإيمان والعمل الصالح، أو لإعانتهم على التأثير عليه حتّى يؤمن، وهذا تصرّف تلقائي يكون عادةً من الوالدين الذين تتدفّق بهما الرحمة القويّة لِنجاة ولدهما.

وَيْلَكَ: أي: عذاباً لك، بمعنى أنّ كُفْرَكَ وجحودك وإنكارك للبعث والجزاء ستجلبُ لك عذاب الله الخالد.

أَمِنُ: أي: آمن بما يطلبُ الله منك أن تؤمن به، ومنه البعث للحياة الأخرى، وما فيها من دار عذاب ودار نعيم.

إِنَّ وَعَدَ اللهُ حَقًّا: أي: إن الله قد وعدَ أن يبعث الناس إلى الحياة الأخرى، ووعدَ أن يُحاسِبهم ويفصلُ القضاء بينهم، ثمّ يجازيهم بحسب أعمالهم، فالكافرون هم أصحاب النار الخالدون في عذابها، والمؤمنون المتقون هم أصحاب الجنّة الخالدون في نعيمها، ووعد الله حقًّا.

أساطير الأولين: أي: مكتوباتُ الأولين الخرافية التي لا صحة لها، وما هي إلا من صنّع أوهامهم.

التدبر التحليلي

يبين هذا النص نموذجاً يتكرر في الناس، وهو يشتمل على بيان دعوة والدين مؤمنين عاقلين رحيمين مشفقين لولدهما الكافر الفاجر العاق، المنكر للبعث، الخارج عما عليه أبواه من إيمان وعمل صالح.

فالوالدان يقولان لولدهما: يا بُنَيَّ إِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا حَيَاةٌ امْتِحَانٌ، وَهِيَ تَنْتَهِي بِالمَوْتِ كَمَا تَعْلَمُ، لَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَدَّ أَنْ تَتِمَّ حِكْمَتُهُ بَبَعْثِ الأَمْوَاتِ إِلَى الْحَيَاةِ الأُخْرَى كَمَا خَلَقَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الأُولَى، لِيَحَاسِبَهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ، وَقَدْ وَعَدَ بِهَذَا البَعْثِ وَعَدَاً جَازِماً قَاطِعاً فِيمَا أَنْزَلَ عَلَى رُسُلِهِ مِنْ كُتُبٍ، وَفِي خَاتَمَتِهَا القُرْآنَ.

فمن آمن بما أمر الله بالإيمان به وأسلم لله على وفق مطلوبه منه في أعماله الإرادية نجا من عذابه، واستحقّ الخلود في جنات النعيم.

ومن كفر بما أمر الله بالإيمان به، ولم يُسلم لله على وفق مطلوبه منه في أعماله الإرادية، أدخله الله في نار جهنم يوم الدين خالداً فيها أبداً.

لكنّ الولد العاقّ الفاجر الكافر الخارج عن دين والديه أظهر تضجّره من دعوتهما له إلى الإيمان والعمل الصالح، ومن إلحاحهما عليه بذلك من فرط شفقتهما عليه ورحمتهما به، فقال لهما متضجّراً مجادلاً: أُمَّ لَكُمَا، أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ المَوْتِ وَالبِلَى وَالفَنَاءِ، وَالحَالُ قَدْ خَلَّتِ القُرُونُ مِنَ النّاسِ مِنْ قَبْلِي، وَتَحَوَّلَتْ أَجْسَادُهُمْ إِلَى تُرَابٍ دُونَ أَنْ يَرْجِعَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ.

إنّ الولد العاقّ يُطلق مقولته هذه بسفاهة وتفكير قاصرٍ محدودٍ بحدود ما تشهد الحواسُّ الظاهرة في مسافة مكانية محدودة، وفي زمن قصير

محدود، مُلغياً الدلالات الفكرية العقلية الاستنتاجية، التي تتجاوز حدود المدركات الحسية، ومتشَبِّهاً بالحسيَّات التي ليست من الوجود الكبير الواسع إلا بمثابة قطرات معدودات من بحور ماء لا سواحل لها.

ويُغمض عينيه عن عوالم الغيب التي قد تُدرِكُ حواسه منها بعض آثار ظاهرة محدودة، وتختفي عنها أبعاد شاسعة تكاد تكون غير متناهية.

وتتفجّر شفقة الوالدين على ولدهما، خشية عليه أن يكون من المعذبين في نار جهنم الخالدين فيها، على الرّغم من عقوقه وإساءته الأدب معهما بالتأفف من إلحاحهما عليه، معبراً عن تضجّره من دعوتهما الملحة له، فيستغيثان بالله أن يقضي له بالهداية، لكنّ الله عزّ وجلّ لا يجبر أحداً على الهداية ولا يحكم لصالّ بالهداية كما لا يجبر أحداً على الضلالة، ولا يحكم على مُتهدّ بالضلالة، بل أعطى كلّ إنسانٍ مكلف إرادة حُرّة ليلوّه، وكلفه أن يؤمن وأنّ يعمل صالحاً باختياره الحرّ، وتركه لنفسه يختار ما يشاء، ليحاسبه يوم الدين على ما اختار لنفسه من اعتقاد وعمل.

وبعد أن يستغيث الوالدان بالله داعيين أن يهدي ولدهما استغاثة غير مُجّابة، لأنّ الله عزّ وجلّ سبق أن قضى بالتّخيير، فلا ينقض قضاءه بالجبر، إذ قضاء الله المُبرّم لا رجعة فيه ولا استئناف له، بعد ذلك يوجّه الوالدان الخطاب لولديهما قائلين له:

﴿وَيْلَكَ ءَايْمِنَ اِنْ وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا﴾.

أي: إنّ وَعَدَ الله بالبعث للحساب وفضل القضاء وتنفيذ الجزاء حقّ لا ريب فيه، غير أنّ تحقيق هذا الوعد إنّما يكون بعد إنهاء ظروف هذه الحياة الدنيا كلّها كما أخبر الله جلّ جلاله، فلا يكون البعث إلى الحياة ما دام نظام هذه الحياة الفانية قائماً، والبعث يكون في زمن يعلمه الله وخده، ويكون إلى حياة أخرى ذات نظام باقٍ خالد.

ولا بُدّ أن يكون الوالدان قد قالاً لولدهما: أيّها الولد لا تخلط بين

الحياتين، ولا تكن في شك من وعد الله الذي خلقك وخلق الخلق أجمعين،
ووعده الله قد جاء في كتابه على لسان رسوله المؤيد بالمعجزات الباهرات.

وهنا يزيد الولد الفاجر الكافر الجاحد لربه، والمكذب لرُسله: ما هذا
الذي تنقلونه عما تسمونه كتاب الله إلا أساطير الأولين، وهي مكتوبات
كتبوها من صنع أوهامهم وخيالاتهم، فهي خرافات لا أساس لها من الصحة.

وبالتأمل تُذكر أن الدافع له الذي دفعه إلى أقواله الجدلية الباطلة
المنكرة للبعث رغبته العارمة في أن ينطلق في حياته فاجراً جباراً أثماً، دون
أن يشعر بأنه سيحاسب وسيجازى على كفره وسيئات عمله.

وهنا يأتي في النص القرآني بيان القضاء الرباني الجازم، الصادر بشأن
كُل الكافرين الجاحدين الفاجرين، المجادلين بالباطل في قضية البعث
للدنونة بالحساب وفضل القضاء وتنفيذ الجزاء، مبيّناً أنهم قد حق عليهم
القول المُبرّم السابق بأنهم سيُعذبون في نار جهنم، بسبب ما اختاروه أو
يختارونه لأنفسهم، مع كافرين قبلهم قد خلّوا في القرون الأولى من الجنّ
والإنس، إذ ماتوا على كفرهم، فكانوا بسبب ذلك خاسرين أنفسهم، بقذفها
إلى العذاب والشقاء الأبدي، وهو قول الله عز وجل في النص:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ

كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾

* * *

النموذج السادس قصة قارون والدُّعاة من بني إسرائيل

وفيهما صورتان:

- ١ - صورة دعوة دعاة بني إسرائيل لقارون الذي بغى على قومه .
- ٢ - صورة دعوة علماء بني إسرائيل للجاهلين منهم الذين فتنتهم مظاهر الحياة الدنيا التي آتاها الله لقارون .

قال الله عز وجل في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ۝

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٧٧﴾ فَسَفَسْنَا بِهِ وِبْدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٧٨﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُكَ اللَّهُ بِسُطِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ

اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ يَنًا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
 عُلُوقًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَاللَّهُ يَهْتَبُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
 فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾

- ١ -

بيان حول قارون

قارونُ رجلٌ كان ذا ثراءٍ عظيمٍ من بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، حتى كانت كنوزُهُ التي يملكها ذات مفاتيح كثيرة يُثقلُ حملها على عُصْبَةٍ مِنَ الرِّجَالِ ذَوِي قُوَّةٍ، وقد بَغَى على قومه معيناً أعداءهم عليهم، وكان يخرج بين قومه في موكبٍ ذي زينةٍ كما كان يخرجُ الأمراءُ وذووا السلطان الفرعوني مُتَبَاهِيًا مُتَفَاخِرًا على بني إسرائيل، ونصحهم قومه فلم يستجب لنصائحهم.

وقد خرج في زينتهِ الكبيرة وموكبه المتباهي به إحدَى المَرَّاتِ، ومَرَّ بين أحياءِ قومه بني إسرائيل، فاندَهَشَ عامَّتُهُمُ بذلك، وتمنَّوا أن يكون الله قد آتاهم من المال ومظاهرِ الزينة والعظمة مثل الذي آتاه الله لقارون، فنصحهم أهل العلم من بني إسرائيل، قائلين لهم: وَيَلِكُكُمْ، أي: هذا التمنيُّ يجلبُ لكم عذاباً فلا تتمنَّوه، إنَّ هذا الذي تروُّنه لقارون من زينة الحياة الدُّنيا هو الأَمْرُ الذي أفسد نفسه، وجعلهُ باغياً عليكم، ومعيناً لأعدائكم، وسيُنزِلُ الله به عقاباً شديداً.

ولم يلبث طويلاً حتَّى خسف الله به وبداره وأمواله الأرض فكان من الهالكين بسبب بغيه وكبره وإجرامه^(١).

(١) جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر «العدد» قصة رجلٍ اسمه «فُورح» من بني لاوي، وانضم إليه: «ذاتان وأبيرام، وأون» من رأيين. وأرادوا مقاومة موسى =

التدبر التحليلي للمقطع الأول من النص

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾.

هذا البيان يدلُّ على أنَّ قارونَ كان من بني إسرائيل، فبنو إسرائيل هم قوم موسى عليه السَّلام من الجهة العرقية النسيئة، ويحتمل أنه كان أيضاً ممن انتَمَى إلى الدِّين الذي دعا إليه موسى عليه السَّلام مع الذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ

= هارون، معترضين على تفردهما برئاسة شعب بني إسرائيل، واستطاعوا أن يجمعوا معهم مائتين وخمسين رجلاً من رؤساء أسباطهم، وواجهوا موسى وهارون عليهما السلام بهذه المعارضة، وكان هذا في صحراء سيناء بعد خروجهم من مصر، وقد سخط الله على هؤلاء الخارجين البغاة، أمَّا قورح وداثان وأبيرام وأون، فانشقت الأرض التي تحتهم وابتلعتهم هم وخيامهم وأموالهم وانضمت عليهم، وأمَّا المثنان والخمسون الذين نصرورهم فأخرج الرِّب ناراً فأكلتهم. ولا نجدُ في كتب العهد القديم ذكراً لرجل اسمه «قارون» ورأى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير» تطبيق قصة قارون التي جاءت في القرآن على «قورح» والذين نصرورهم، ورأى أن لفظ قارون تصرّف عربيٌّ للفظ قورح. لكنِّي أرى أن قصة قارون في القرآن مختلفة عن قصة قورح؛ فقارون كان ذا دار، وأتته كان صاحب كنوز ذات مفاتيح كثيرة، وأنه خرج على قومه في زينته، وهذه أمور لا تليق إلا بساكني المدن المستقرين فيها، يضاف إلى هذا أنه تُوجد في الفيثوم من مصر بركة ماء كبيرة يسميها المصريون بركة قارون، ويتناقلون أنَّ مكانَ البركة هو المكان الذي كانت فيه دار قارون، وحصل فيها الخسف الذي ابتلَعهُ وأمواله ومن معه، وذكر لنا بعض المصريين أنَّ بعض كنوزه قد اكتشفت في منطقة الفيثوم، فإنَّ صحَّ هذا فحادثة قارون قد كانت قبل خروج بني إسرائيل من مصر، وبهذا يكون قارون شخصاً آخر غير قورح، وإنَّ تشابهت القصتان في بغي الرَّجل، وخسف الأرض به.

وبناء على هذا فينبغي تدبّر النصِّ القرآنيّ منفصلاً تماماً عمَّا جاء في سفر العدد بشأن قورح، وأرى أنَّ قارون كان من أنصار فرعون وآله، وأتته لم يتبع موسى وهارون عليهما السلام، وإنَّ كان من بني إسرائيل، وأنَّ بغيه على قومه قد كان بكفره وانحيازه إلى السلطة الباغية في مصر.

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِلَّا أَنْ قَصَّتَهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي بَاطِنِهِ كَافِرًا، فَهُوَ عَلَى هَذَا مُنَافِقٌ فِي انْتِمَائِهِ، إِنْ كَانَ فِي وَاقِعِ حَالِهِ قَدْ تَظَاهَرَ بِالْإِيمَانِ بِمُوسَى وَاتَّبَاعِهِ، وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي أَنَّهُ كَانَ مُتَابِعًا لآلِ فِرْعَوْنَ فِي مِلَّتِهِمْ.

قول الله تعالى: ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾.

البغى: تجاوز الحد، والكبر، والظلم، والإفساد في الأرض. والمعنى أن قارون قد استكبر على بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى عليه السلام واتبعوه، وظلمهم، وشارك في اضطهادهم، وأفسد في الأرض لقمع تحركاتهم الدينية.

أما نوع البغي الذي كان من قارون فلم يأت في قصته تفصيل عنه، لكن يستطيع المتفكر في حال بني إسرائيل يومئذ، وما تعرضوا له من اضطهاد وظلم من قبل فرعون وآله وجنوده أن يدرك أن قارون قد كان من الذين أعطوا فرعون وآله كل ولايتهم، وجندوا أنفسهم في خدمتهم لتحصيل المنافع والثروات، وهذا يكشف لنا أن قارون استغل لآئه الكامل للقصر الفرعوني، ومساعدته للسلطة الحاكمة الظالمة الباغية على اضطهاد بني إسرائيل في مصر، ومقاومة دعوة موسى وهارون عليهما السلام لتحصيل الثروة العظيمة التي جمعتها، واكتنزها في كنوزه الكثيرة.

قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّنَّهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى

الْقُوَّةِ﴾.

أي: وأتيناها من الأموال التي اكتنزها في بيوت محفوظة محمية مغلقة بأبواب عظيمة ذات مفاتيح، قدرًا كبيرًا جعل مفاتيح أبواب هذه الكنوز ذات وزن ثقيل لكثرتها، حتى لو أن عصابة من الناس (أي: جماعة منهم) أولي قوة إذا أرادوا حملها معًا لثقل عليهم حملها، فأمالهم وأخنى ظهورهم.

فإذا كان حال مفاتيح كنوزه كذلك، فكم تكون مقادير الأموال التي

تحتوي عليها كنوزه؟!.

هذه العبارة من الكنايات الجميلة التي لا يبعد إدراك المراد بها.

يقال لغة: ناء الحِمْلُ بحامله، إذا ثَقَلَ عليه حتى أماله، أو حتى أفعده فَعَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ به.

ويقال لغة: مفاتيح، ومفاتيح.

قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وَأَتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾.

أي: اذكُرْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ المهتم بأمر دينك والدعوة إليه، قصة دعوة دعوة بني إسرائيل في عهد موسى بمصر، لقارون الذي هو منهم سلاله ونسباً، إذ دَعَوْهُ إِلَى الْهُدَى وَالرَّشَادِ.

وَدَلَّ التعبير بعبارة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ عَلَى أَنَّ الدُّعَاةَ النَّاصِحِينَ لَهُ قَدْ كَانُوا جَمَاعَةً مِنْ مَجْمُوعِ قَوْمِهِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، ففِيهِمُ الْعُلَمَاءُ الْفُقَهَاءُ فِي الدِّينِ، وَفِيهِمُ الْعَامَّةُ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ الْمَعْلُومَاتِ الْأَسَاسِيَّةَ، الَّتِي لَا يَلِيْقُ بِمُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِهَا، وَمِنْهَا مَا دَعَوْهُ إِلَيْهِ فِي مَقَالَاتِهِمُ الَّتِي لَخَّصَهَا النَّصُّ فِي فِقْرَاتِهِ.

ومن المناسب أن نعتبرها داخلةً تَحْتَ عُنْوَانِ الدُّعْوَةِ، لا تحت عنوان الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِأَنَّ قَارُونََ فِي وَاقِعِ حَالِهِ كَانَ كَافِرًا أَوْ جَاهِلًا بِهَا، أَوْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْجَاهِلِ لِمَا يُوجَدُ عَلَى بَصِيرَتِهِ مِنْ غِشَاوَةِ كَثِيفَةٍ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا طَمَسَتْ مَعْرِفَتَهُ بِالْحَقِّ وَبِأُمُورِ الْآخِرَةِ.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّ الدُّعَاةَ النَّاصِحِينَ لَهُ كَانُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعَامَّةِ عِبَارَةٌ:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴿ هُنَا، وَالْقَوْمُ بِمَجْمُوعِهِمْ يَكُونُ فِيهِمْ عِلْمَاءُ وَعَامَّةٌ، مَعَ
عِبَارَةٍ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿ فِي الْمَقْطَعِ الثَّانِي مِنْ قِصَّةِ قَارُونَ، وَذَلِكَ
لِأَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا بِمَا أُوتِيَ قَارُونَ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بِحَقِيقَةِ
حِكْمَةِ اللَّهِ فِي بَسْطِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ، فَهَمَّ مِنَ الْعَامَّةِ .

أَمَّا الْمَقَالَاتُ الَّتِي وَجَّهَهَا دُعَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عِلْمَائِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ
لِقَارُونَ فِيهِ أَرْبَعُ مَقَالَاتٍ فِيهَا هَدْيٌ وَنُصْحٌ:

المقالة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْفَرِحِينَ ﴾ .

الفرح: نقيض الحزن، ويأتي بمعنى البَطْرِ والأَسْرِ، أَي: بِمَعْنَى
الاسْتِكْبَارِ وَالتَّفَاخُرِ وَالتَّعَالِي عَلَى النَّاسِ، وَمَنْ فَرِحَ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِ طَغَى فَرَحُهُ
عَلَى بَصِيرَتِهِ فَصَارَ يَتَصَرَّفُ تَصَرَّفَ الطُّغَاةِ الْبُغَاةِ، وَهَذَا الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ
الْمَقْصُودُ فِي التَّعْبِيرِ هُنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَي: فَلَا تَفْرَحْ فَرَحًا مُبْطِرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْفَرِحِينَ الْبَطْرِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الطُّغَاةَ، الَّذِينَ يَغْمِطُونَ النَّاسَ وَيُظْلِمُونَهُمْ
وَيَعْتَدُونَ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ بِسَبَبِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ عَمَلٍ يُعَاقِبُهُ، وَقَدْ
يَسْلُبُهُ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ .

المقالة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ
الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ .

أَي: وَاطْلُبْ فِي تَصَرُّفِكَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ مَالٍ وَغَيْرِهِ قَاصِدًا ثَوَابَ
الدَّارِ الْآخِرَةِ الَّتِي أَعَدَّ اللَّهُ عِزَّ وَجَلًّا لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، فَابْتَدَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ
وَمَرْضِيهِ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِبَدَلِهِ، لِيَمْنَحَكَ مِنْ فَضْلِهِ يَوْمَ الدِّينِ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ فِي
جَنَّاتِ النِّعَمِ .

وَلَا تَنْسَ مَهْمَلًا تَارِكًا حَظَّكَ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ لَكَ أَنْ
تَبْتَغِيَ فِي بَعْضِ مَا آتَاكَ حَظُّوْكَ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ، وَمَسَاكِنَ

وزوجاتٍ بغيرِ معصيةٍ ولا طغيانٍ .

فنحن لا نقولُ لك: ابذل كلَّ ما آتاك الله في وجوه الخير، تاركاً حظوظ نَفْسِكَ ممَّا أباح الله لك من متاع الحياة الدنيا، ومهملاً لها، فحظوظك المباحة من الدنيا هي ممَّا يُمكن أن تبتغي به ثواب الآخرة، إذ لا يقتصر ابتغاء ثواب الآخرة على ما تبدلُ لغيرك من خير، بل يدخلُ فيه ما تبدله لنفسك وحظوظك من دنياك، إذا التزمتَ بما أباح الله لك، وقصدتَ به التَّقويَّ على طاعة ربك، وإغفافَ نفسك عمَّا حرَّم الله عليك .

المقالة الثالثة: دَلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

أي: وزد في بذلكِ مِنْ مَالِكَ وَمِنْ نَفْسِكَ فوقَ حُدود ما أوجب الله عليك، ارتقاءً في درجاتِ البرِّ، حتَّى مرتبة الإحسان التي يكون العابدُ فيها لرَبِّهِ كأنَّهُ يراه أمامه رؤياً عين، وقابلُ إْحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْكَ بإِحْسَانٍ مِنْكَ، تَقَرُّباً إليه بمراضيه، وشكراً له على ما أولاك من إْحْسَانٍ زائد على حاجاتك ومطالبك في حياتك .

المقالة الرابعة: دَلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَبِغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يظهر أن بني إسرائيل قوم قارون أحسوا أنه ينصرُ آل فرعون ضدَّهم، إذ يفسدون في أرض مصر، مضطهدين بني إسرائيل ظلماً وعدواناً، وأحسوا أنَّه يَنْقُلُ إليهم أخبار قومه، إذ كانوا يقتلون مواليدهم من الذكور، ويُسَخِّرُونهم في الأعمال الشاقة بالإكراه، ويُتابعون تحركاتهم، وتجمعاتهم، ونشاطاتهم الدنيئة، فقالوا له: ﴿ وَلَا تَبِغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: متابِعاً لسادتكَ فرعونَ وآله الذين تُصِيبُ بخدمتك ونصرتك لهم ضدَّ قومك ما تُصِيبُ من ثراء فاحش، وقالوا له: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: ومن لا يُحِبُّهُ الله بسبب ما يقترف

من إفسادٍ في الأرض، فلا بُدَّ أن ينزل به نِقْمَتُهُ وعقابه الشَّدِيد.

وأحسَّ قارون أن قومه يتهمونه بالخيانة ضدَّهم، وأتته يأخذ ثمن خيانتهم أموالاً كثيرة وتيسير مصالح من فرعون وآله، فردَّ عليهم بادِّعاء أن ما يَمْلِكُ من أموالٍ وكنوزٍ كثيرة، وما يَمْلِكُ من مكانةٍ اجتماعيةٍ، إنما كان بسببِ علمِهِ بوسائل اكتساب الأموال الوفيرة، وطُرُق الوصولِ إلى المكانة الاجتماعية الرفيعة، مع جحوده في ظاهر الرِّدِّ نعمة الله عليه، وأن الله هو الذي آتاه ما آتاه ليَتَلُوهُ في ظروف الحياة الدُّنيا أيشكُّرُ ربَّه أم يكفُرُهُ؟ فقال لهم كما أبان الله عزَّ وجلَّ بقوله:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾.

أي: ما هُذِهِ الاتِّهَامات الباطلات التي تتهمونني بها؟! وما هذه الخرافات الدنيئة التي تزعمون بها أن الله هو الذي آتاني ما أمْلِكُ من أموالٍ ومكانة اجتماعية رفيعة، وأن الله هو الذي أحسن إليَّ به، إنما أُوتيتُ ما أُوتيتُ من قِبَلِ فرعون وآله، مقابلِ عِلْمٍ عِنْدِي، قدَّمْتُ لهم به خدماتٍ جليلات، ومنافع عظيمة، لسلطانهم، ولثرواتهم، ورفض ما وجَّههُ له قومه من دعوةٍ ونُصح، ولم يكثرِث لمقالاتهم.

وهنا يأتي التعليقُ الرِّبَّاني ببيان أن الذي يمنح الأموال، ويمنح المكانة الاجتماعية بقضائه وقدره بغُصَّ عباده ليبلُوهُم فيما آتاهم، هو القادر على أن يسلبهم ما آتاهم، وهو القادر على أن يُهْلِكَهُم، وقارون واحدٌ منهم، وقد سبق في التاريخ قَبْلَ قارون أن الله قد أهلك من أهل القرون الأولى مَنْ هو أكثر منه قُوَّةً وأكثرُ منه جمعاً للأموال، فسلبَهُم بِذَلِكَ كُلَّ ما آتاهم حتَّى أنفُسَهُم، فأخرجَهُم من الحياة الدنيا دارِ الابتلاء، وأماتَهُم لِيَلْقَوْا جزاء أعمالهم التي قدَّموها في الحياة الدنيا، فقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَوْلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ

جَمَعًا وَلَا يَسْتَلُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ .

أَوْلَمَ يَعْلَمُ: استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لقد عَلِمَ قارون بما تَلَقَّى مِنْ أخبار الأولين أَنَّ الله قد أَهْلَكَ من قَبْلِهِ من الأمم السابقة من هو أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمَعًا بسبب ذنوبهم الكثيرة التي كانوا بها مجرمين، والتي جعلتهم يستكبرون في الأرض بغير الحق، ويبيغون الفساد فيها، ويجحدون نعمة الله عليهم، ويتصورون أَنَّ ما أصابوه من دُنْيَا قد كان بسبب ما لديهم من علم وذكاء وحُسنِ تصرُّفٍ في استثمار الأموال والأعمال، فلَمَّا انْحَطُّوا إلى دركة الإِجْرَامِ الذي يقتضي عقوبة الإهلاك الماحق أهلكتهم رُبُّهُمْ، وسَلَبَهُمْ كُلَّ شيءٍ، وحين أنزل بهم المهلكات في الحياة الدنيا لَمْ يسألَهُمْ عن ذنوبهم، ولم يُقِمْ لهم قبل إهلاكهم محكمةً عدلِيَّةً، لأنَّ محكمة العدل الرِّبَانِيَّةَ إِنَّمَا تكونُ يوم الدين، يوم الجزاء الأكبر، أمَّا الجزاءاتُ والعقوبات الدنيويَّة المعجلة فَسُنَّةُ الله عزَّ وجلَّ فيها أَنْ يُجْرِبِهَا دون محاكمات، لأنَّ ظروف الحياة الدنيا ذاتُ أنظمة في العطاء والمنع والسُّلْبِ والجزاء تعتمد على الحكمة الرِّبَانِيَّة التي تقتضيها هذه الظروف، فقال الله تعالى:

﴿وَلَا يَسْتَلُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

أي: لا يُسألُونَ عن ذُنُوبِهِمْ عند تنفيذِ إهلاكهم في الحياة الدنيا عقوبةً لهم على ما قَدَّمُوا من جرائم.

أمَّا يوم الدين فلا يكون فيه الجزاء في النار للعباد على ما قَدَّمُوا من جرائم في الحياة الدنيا إلا بعد سؤال وحسابٍ وفَصْلِ قضاء.

هذا التعليق القرآنيُّ على ما كان من قارون قد تَضَمَّنَ موعظةً مُوجَّهَةً لكلِّ من يُؤْتِيه الله مالاً أو مكانة اجتماعية في الحياة الدنيا، وتتنزع به نوازع نفسه أن يَجْحَدَ نعمة الله عليه كما جحد قارون، وأن يستكبر على عباد الله كما استكبر قارون، وأن يبيغي الفساد في الأرض كما بيغى قارون.

ويلاحظ في دعوة دعاة بني إسرائيل من علمائهم وعامتهم لقارون، اهتمامهم في دعوتهم له بالأساسيات الدينية، من الفكريات التي تولد عن غيابها عن قناعاته انحرافات خطيرة في مفهوماته وأنواع سلوكه الاستكباري الإجرامي الباغي.

فنهوه عن الفرح المُطغني بما أُوتي من أموالٍ ومكانة، إذ ولدَ لدنيه استكباراً وطغياناً. وأمروه بأن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة مع أخذ حظه منه لحياته في الدنيا. ونصحوه بأن يُحسنَ كما أحسنَ الله إليه. وحذروه من أن يبتغي الفساد في الأرض.

وفي ذكر قصة دعوتهم له في القرآن إشادة بها، وتوجيه لاتخاذهم فيها أسوة حسنة، في المواقف المشابهة لمواقفهم تجاه قارون.

- ٣ -

التدبر التحليلي للمقطع الثاني من النص

قول الله عز وجل: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾.

يدلُّ على أن قارون لم يستجب لنصائح دعاة قومه له، بل أصرَّ على قناعاته الخاصة وأنواع سلوكه، وأتبع ذلك بأن رتبَ لنفسه موكباً كبيراً ذا زينة ومظاهر عظمة، وركب مركبه الفارة، وخرج على قومه بني إسرائيل بهذا الموكب الفخم، مظهراً تعاليه واستكباره بماله من مراكب فارهة وخدم وعبيد وأنصار، وبما لديه من أموال كثيرة وفيرة، ليقول لهم بلسان حال موكبه: إن ما اختاره لنفسه هو الأفضل والأحسن مما دعوهُ إليه.

ومع مرور هذا الموكب الكبير الذي اصطنعه قارون لنفسه ليتعالى به على قومه انقسم بنوا إسرائيل إلى قسمين:

القسم الأول: من خدعتهم ظواهر الحياة الدنيا وزينتها، وهم لا يملكون علماً صحيحاً راسخاً يحميهم من أن ينخدعوا، فاشراًبث نفوسهم للتعلق بالحياة الدنيا ومفاتنها.

القسم الثاني: من لدنيهم علمٌ راسخٌ بحقائق أمور الحياة الدنيا، فلم تخدعهم الظواهر.

أما القسم الأول فلما رأوا قارونَ خارجاً على قومه في موكبه الفاره وزينته العظيمة، تمنّوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، ورأوا أنه ذو حظ عظيم من متاع الحياة الدنيا.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ بشأنهم في النصّ:

﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ

عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ .

لم يقتصروا على مُجرّد التّمَنّي بكلمة: «لَيْتَ» بل أضافوا إليها نداء تلهّفٍ وطلبٍ بشدّة، فقالوا: ﴿يَلَيْتَ لَنَا﴾ وأكّدوا أنه ذو حظّ عظيم بمؤكدات ثلاث: (إنّ - والجملة الاسمية - واللام المزحلقة).

هنا رأى العلماء من بني إسرائيل أن يُوجّهوا دعوتهم الناصحة لطلّاب الحياة الدنيا منهم، فبيّنوا لهم أنّ الحياة الدنيا قصيرة الأجل فانية، لا تستحقّ أن يتعلّق بها أهل العقل والرشد، وأنّ ثواب الله يوم الدّين خيرٌ وأعظمُ لمن آمنَ وعَمِلَ صالحاً، وأنّ هذه القناعات والعمل بمقتضاها لا يُمنّحها فيتلقّاها إلا الصّابرون.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَيْتُكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا

يَلْقَاهَا إِلَّا الصّٰبِرُونَ ﴿٨١﴾ .

لقد كانت غيرهُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ من بني إسرائيل على العامة الجاهلين بحقائق أمور الدنيا والآخرة غَيْرَةً عَظِيمَةً، وكان حِرْصُهُمْ عليهم حرصاً شديداً، كحِرْصِ الْوَالِدِينَ الرَّؤُوفِينَ على وَلَدِهِمَا في دعوتهما له إلى الإيمان .

لذلك خاطب العلماء ذوي الجهالة بقولهم لَهُمْ: ﴿ وَيَلِكُمْ ﴾ أي: نخافُ عليكم من أن يُنزلَ اللهُ بِكُمْ عَذَاباً أَلِيماً، بسبب إرادتكم الحياة الدنيا، وعدم تعلقكم بثواب اللهِ الَّذِي أَعَدَّهُ للمؤمنين المتقين، يظفرون به يوم الدين .

وأتبعوا هذا التعبير الدالَّ على حرصهم عليهم، وشدة خوفهم من أن يُنزلَ بهم عذاب الله بقولهم لهم كما جاء في النص: ﴿ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ .

أي: ثوابُ اللهِ في الآخرة خَيْرٌ وأعظم وأجلُّ من كلِّ ما في الحياة الدنيا من أموالٍ وزينةٍ ومتاع، ولكنَّ هذا الثواب لا يكون إلا لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً .

وأبانوا لهم أن عَلَيْهِمْ أَنْ يَصْبِرُوا على كَبْحِ جماح أهوائهم وشهواتهم وَتَطَلُّعَاتِهِمْ إلى زينة الحياة الدنيا، فَإِنَّهُ لا يستطيع الالتزام الصادق بالإيمان والعمل الصالح إلا الصابرون الذين يصبرون على أنواع امتحانات الله لهم بما يخالف رغباتهم وأهواءهم في الحياة الدنيا .

فكانت دعوة علماء بني إسرائيل للمفتونين من عامتهم بما أتى الله قارون مَوْجَّهَةً للعنصر الخاص الَّذِي جَهِلُوهُ من مفهومات حكمة الله في عطائه ومنعِهِ، ومسبوقة بما يدلُّ على حُبِّهِمْ لَهُمْ، وخوفهم عليهم من أن ينزل بهم عذابُ الله المعبرَّ عنه بعبارة: ﴿ وَيَلِكُمْ ﴾ .

وفي ذكر قصة هذه الدعوة إشادةً بها، وتوجيهً للعلماء من المسلمين أن

يكونوا حريصين على إرشاد العامة إلى ما فيه خيرهم عند ربهم، وأن يستفيدوا من قصة هذه الدعوة نموذجاً يتأسون به في مناهج دعوتهم للجاهلين، وذلك بأن يجعلوا دعوتهم مغلقةً ومسبوقةً بما يُشعر المدعوين بـحُبِّ الدعاة لهم، وحرصهم عليهم، وخوفهم الشديد من أن يصيبهم عذاب من الله.

* * *

فماذا كانت عاقبة قارون بعد استكباره على قومه، وتفاخره بموكبه الفخم وزينته التي خدع بها الذين يريدون الحياة الدنيا، وادعائه أن ما أوتيته من آل فرعون قد كان ثواباً على علم عنده ضمن نظام تبادل المنافع، وجُجوده نِعْمَةَ اللَّهِ عليه؟؟

لقد أبان الله عز وجل عاقبته التي فاجأته بسزعة عقب يوم تفاخره بموكبه وزينته، بقوله تعالى في النص:

﴿لَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٤١﴾﴾.

لقد رجع قارون إلى داره بعد أن خرج على قومه في موكبه الاستعراضى مستكبراً متفاخراً متعالياً، وخط رحاله، وأوى إلى أهله فرحاً مُبتهجاً بما استغلى به على قومه، وتمدد على سريره واختصن ما اختصن ليناك هانئاً سعيداً، غير مترقب مفاجات عقاب الله له، لكن الله عز وجل لم يمهله، إذ شاء أن يجعله عبرة لمن يعتبر، فحسف به وبداره الأرض ليلاً، أو عند الفجر، فابتلعت الأرض فكان هو ومن معه من الهالكين.

وحين نزلت به المهلكات الخاسفات لم يكن له أدنى فئة من أعوانه وعبده وخدمه وأنصاره، ينصرونه فيحمونه من عذاب الله، أو ينقذونه، ولم يستطع أن يجد وسيلة يفر باستخدامها من قبضة المهلكات الربانية، بل تغلغل

في الأرض هالكا مُحَاطاً بِأَسْبَابِ الْعَذَابِ .

فماذا كان موقف الجاهلين من عامة بني إسرائيل الذين سَبَقَ أَنْ تَمَنَّوْا
أَنْ يُؤْتَوْا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ؟؟

لقد أبان الله عزّ وجلّ موقفهم بقوله تعالى في النصّ :

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُكُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاءُ وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٦﴾ .

لقد أَصْبَحَ النَّاسُ فِي صَبَاحِ لَيْلَةِ الْخَسْفِ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ الْأَرْضَ تَحْتَ دَارِ
قَارُونَ قَدْ انْخَسَفَتْ، فابْتَلَعَتْهُ وَدَارَهُ وَمَا فِيهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَ بِالْأَمْسِ الدَّابِرِ
يَسْتَكْبِرُ عَلَى قَوْمِهِ بِمُوكِبِهِ وَزِينَتِهِ، وَيَتَفَاخِرُ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ مَالٍ وَمَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ .

ومع إشراق الصباح دُهِلَ الجاهلون من عامة بني إسرائيل بما فعل الله
عزّو جلّ بقارون من مُعَاجَلَةٍ سَرِيعَةٍ بِالْإِهْلَالِ بوسلية الخسف، فأصبحوا
يقولون وفداً بعد وفد وهم يشهدون الخسفَ أَوْ يَسْمَعُونَ خَبْرَهُ: وَيَكَانَ اللَّهُ
يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ. لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاءُ.
وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .

«وَيَكَانَ» تَعْبِيرٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ كَلِمَةِ «وَيَ» الَّتِي تُسْتَعْمَلُ بِتَلْقَائِيَّةٍ سَرِيعَةٍ عِنْدَ
التَّعَجُّبِ الشَّدِيدِ الْبَالِغِ حَدِّ الدَّهْشَةِ مِنْ أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ مُرْتَقِباً وَلَا مُتَوَقِّعاً فِي نَفْسِ
الْمُتَعَجِّبِ الْمُنْدَهَشِ، وَكَلِمَةُ «كَانَ» الَّتِي قَدْ تُضْمُّ إِلَى «وَيَ» مُقَدِّمَةٌ لِلْجُمْلَةِ
الَّتِي اسْتَخْرَجَتْ مِنَ الْعِبْرَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْحَدِيثُ الْمُنْدَهَشِ الْمَثِيرِ لِلتَّعَجُّبِ .

والجملَةُ الْمُسْتَخْرَجَةُ مِنَ الْعِبْرَةِ هِيَ: أَنَّ اللَّهَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ، أَي: يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ اخْتِبَاراً لَهُمْ، وَيَقْدِرُ لِمَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الرِّزْقَ اخْتِبَاراً لَهُمْ، فَهُوَ لَا يَسْطُرُ إِكْرَاماً، وَلَا يَقْدِرُ إِهَانَةً .

وَاسْتَفَادُوا مِنْ عِبْرَةِ الْحَدِيثِ قَضِيَّةَ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ مَنَّ

عليهم، إذ لم يوسّع عليهم في أرزاقهم كما وسّع على قارون، ولو أنه بسط لهم الرزق كما بسط لقارون لفتنوا بالأموال كما فتن قارون، ولجحدوا نعمة الله عليهم كما جحد قارون، ولاستحقوا أن يخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون، فقالوا كما أبان الله عز وجل:

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ .

وهكذا انكشف لهم أنّ من مَنّ الله عليهم أنه لم يَبْسُطْ لهم الرزق، إذ لو بسطه لهم لأفسدهم كما فسّد قارون بسط الرزق، إذ كانت نفوسهم مفتونة بالحياة الدنيا.

واستفادوا من عبّرة الحدث قضيةً ثالثةً كانت غائبةً عن أذهانهم مع علمهم بها وهي أنّ الكافرين لا يُفْلِحُونَ، فقالوا كما أبان الله عز وجل في النصّ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ غَفْلَتِهِمْ عن هذه الحقيقة:

﴿وَيَكَاذِبُونَ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ .

وي: أي: عجباً لنا كيف غاب عنا أنه لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ؟! .

الفلاح: الظفر والنجاح ببلوغ غاية المراد، والمعنى أن الكافرين لا يبلغون غايات مراداتهم، وإن أمدّ الله لهم، وآتاهم بعض ما يشتهون. وفي هذه العبارة إشارة إلى أنّ قارون كان من الكافرين بالدّار الآخرة، وبنعمة الله عليهم، فأنزل الله به عقاب الخسف به وبقاره.

* * *

وجاء التعليق القرآني على قصة إهلاك قارون بقول الله عز وجل:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٧) من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها ومن جاء بالسّئنة فلا يجزي الذين عملوا السّئات إلا ما كانوا يعملون﴾ .

فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ جَلَّ أَنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ الَّتِي هِيَ دَارُ السُّعْدَاءِ يَوْمَ الدِّينِ،
وَهِيَ جَنَاتُ النِّعِيمِ، يَجْعَلُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَيَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ اسْتِكْبَارًا عَلَى عِبَادِ اللَّهِ،
وَلَا يُرِيدُونَ فِسَادًا فِي الْأَرْضِ لِتَحْقِيقِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَاسْتِعْلَانِهِمْ بِغَيْرِ
حَقٍّ وَمِنَ الْفِسَادِ فِي الْأَرْضِ نَشْرُ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ، وَالظُّلْمِ
وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ.

أَمَّا قَانُونُ الْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ فَالثَّوَابُ فِيهِ يَعْتَمِدُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ بِمُضَاعَفَةِ
الْأَجْرِ، وَالْعِقَابُ فِيهِ يَعْتَمِدُ عَلَى عَدْلِ اللَّهِ، فَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا
بِمِثْلِهَا.

* * *

وقرأ نافع، وابن كثير وأبو عمرو: ﴿أَكَلَهَا﴾ بإسكان الكاف.

وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ بضم الثاء والميم جمع ثَمَار. وقرأ عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ بفتح الثاء والميم اسم جنس جمعي.

وقرأ أبو عمرو: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ بضم الثاء وبإسكان الميم تخفيفاً لثَمْر. ونظيرها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ إِلَّا أَنْ رُوِيَ عَنْ يَعْقُوبَ يَقْرَأُ هُنَا بِضَمِّ الثَّاءِ وَالْمِيمِ.

● وقرأ نافع وأبو جعفر: ﴿أَنَا أَكْثَرُ﴾ بإثبات ألف «أنا» وصلأً ووقفاً. وقرأ جمهور القراء العشرة بحذف هذه الألف وصلأً وإثباتها وقفاً.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا﴾ بإفراد هاء الضمير.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا﴾ بتثنية هاء الضمير.

فدلت القراءتان على أن الجنتين المفصولتين بنهر، يجمعهما جامع عام واحد، فهما شطرا جنة واحدة.

● وقرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ﴾ بإثبات ألف «أنا» وصلأً. وقرأ جمهور القراء بحذف هذه الألف وصلأً وإثباتها وقفاً.

● وقرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر أبو عمرو بفتح ياء المتكلم من: ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ ومن ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي﴾ ومن ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن﴾.

وقرأ باقي القراء العشرة بإسكان هذه الياء منها.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿إِنْ تَرَنِ﴾ بحذف ياء المتكلم. وأثبت هذه الياء في الوصل قالون، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها

في الوصل والوقف معاً ابن كثير ويعقوب .

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿فَعَسَى رَفِيحٌ أَنْ يُؤْتِيَنَّ﴾ بحذف ياء المتكلم من ﴿يُؤْتِيَنَّ﴾ وصلّاً ووقفاً، وقرأ بإثباتها وصلّاً نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها ابنُ كثير، ويعقوب وصلّاً ووقفاً.

● وقرأ جمهور القراء العشرة ﴿فَفَتْةٌ﴾ بالهَمْز، وقرأ أبو جعفر ﴿فِيَّةٌ﴾ بقلب الهمزة ياءً، وكذلك قرأ حمزة عند الوقف فقط .

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿الْوَلِيَّةُ﴾ بفتح الواو، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿الْوَلَايَةُ﴾ بكسر الواو، الفتح والضمُّ لغتان للكلمة .

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿عُقْبًا﴾ بضمّ القاف، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿عُقْبًا﴾ بإسكان القاف .

● وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿الْحَقُّ﴾ بكسر القاف على أن اللفظ وصف للفظ الجلالة في ﴿لِلَّهِ﴾ . وقرأ أبو عمرو، والكسائي: ﴿الْحَقُّ﴾ بضم القاف على أن اللفظ وصف للولاية .

* * *

- ٢ -

تحليل النصّ وبيان ما اشتمل عليه من حوار

يعرض الله عزّ وجلّ في هذا النصّ قصة حوارٍ دينيّ جرّى بين رجلين جمعت بينهما صُحبةٌ حوارٍ حول قضيتين:

القضية الأولى: قضية الإيمان بالله الخالق الرّبّ الذي لا شريك له في ربوبيّته، فلا شريك له في إلهيّته .

ومن الإشراك بالله في ربوبيته اعتقادُ أنَّ الأسبابَ تفعل بذاتها، لا أنها بمثابة قنوات تُسْتَرَجَرِيانَ أفعالَ الله في الخلق بمقتضى قضائه وقدره.

القضية الثانية: قضية الإيمان باليوم الآخر الذي يُحَاسِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ الناسَ فيه على ما قَدَّمُوا وأَخَّرُوا في رحلة الحياة الدنيا رحلة الامتحان، وبعد الحساب يُفْصَلُ القضاء بينهم، ثمَّ يجازيهم في جناتِ النعيم، أو في النار بعذاب أليم.

أما أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ فهو كافرٌ بهاتينِ الْقَضِيَّتَيْنِ بتأثير الغرور بزينة الحياة الدنيا وفتنتها، كُفْرًا لم يَصِلْ إلى حالة ميثوسٍ منها، إذ هو ذُو ثَرَاءٍ وَسَعَةٍ من الْعَيْشِ وَزِينَةِ من الحياة الدنيا تَوَصَّلَ إليها بما اسْتَخْدَمَ من أسبابِ هَيَأُهَا اللهُ له، وَذُو قُوَّةٍ بِأَنْصَارِهِ من أولاده وغيرهم. وَمِمَّا يَمْلِكُ جَنَّةً كَبِيرَةً، هي بُسْتَانٌ كَبِيرٌ، يُفْصَلُهُ من وَسَطِهِ نَهْرٌ جَارٍ يَتَدَقَّقُ بلا انقطاع، فصار بمثابة جنتين، إحداهما عن يمين النهر، والأخرى عن شماله.

لقد أنساه ما هو فيه من نعمة أن الله عزَّ وجلَّ هو الذي جعل له بتيسير الأسبابِ كُلِّ ما تَحْتَ يَدِهِ من أموالٍ وَقُوَّةٍ يَعْتَرِّبُهَا.

وأما الآخر فهو رجلٌ مؤمنٌ داعيةً إلى دين الله، حريصٌ على هداية الضالين، وإرشادهم إلى صراط الله المستقيم، عقيدة وعملاً، إلا أنه لم يُؤْتِ سَعَةً من المال، ولا كثرةً من الأولاد والأنصار.

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

الخطاب للرسول ﷺ فلكلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمته، والمعنى: واضرب لمشركي مكة المعترزين المتفاخرين بكثرة أموالهم، وقوة رجالهم الذين

يَنْصُرُونَهُمْ ضِدَّ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، قِصَّةَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ عَرَضَ النَّصُّ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا، وَمَا جَرَى لِلْمُتَفَاخِرِ مِنْهُمَا مِنْ عِقَابٍ تَأْدِيبِيٍّ رَبَّانِيٍّ بَعْدَ ذَلِكَ.

فَقَدْ نَزَلَ هَذَا النَّصَّ قُبَيْلَ أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، حِينَمَا كَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ فِي أَوْجِ تَفَاخُرِهِمْ، وَاعْتَزَّازَهُمْ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالٍ وَأَنْصَارٍ، وَاضْطَهَادِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَصَفٌ كَلَامِيٌّ يَشْتَمِلُ عَلَى تَحْدِيدِ لَخْرِيطةِ جَنَّتِي الرَّجُلِ الثَّرِيِّ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ أَشْجَارٍ وَزُرُوعٍ بِاسْتِثْنَاءِ الْمَسَاحَةِ وَالْعَدَدِ.

فَالجَنَّتَانِ مَزْرُوعَتَانِ بِأَشْجَارِ الْعَنْبِ، ذَوَاتِ الْعُرُوقِ وَالْفُرُوعِ الْمَمْتَدَّةِ، وَأَفْضَلُ بَسَاتِينِ الْعَنْبِ مَا كَانَتْ فُرُوعُ أَشْجَارِهِ مَمْدَدَةً عَلَى عُرُوشٍ مِنْ الْأَخْشَابِ الْمَرْتَفِعَةِ عَنِ الْأَرْضِ بِأَعْمَدَةٍ، لَكِنْ لَمْ يَأْتِ فِي هَاتَيْنِ ذِكْرَ الْعُرُوشِ، إِنَّمَا جَاءَ فِي أَوَاخِرِ النَّصِّ ذِكْرُهَا، بِعِبَارَةِ ﴿وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ عِنْدَ بَيَانِ إِهْلَاكِ نَمَرِ الْجَنَّتَيْنِ.

وَالجَنَّتَانِ مُحْفُوفَتَانِ بِأَشْجَارِ النَّخِيلِ الشَّاهِقَةِ لِتَحْمِيَةِ أَشْجَارِ الْعَنْبِ مِنَ الرِّيحِ الْبَارِدَةِ، وَمِنْ لَفْحَاتِ الصَّقِيعِ الَّتِي تَأْتِي بِهَا، الْمُتَلَفَةَ لِلشَّمَارِ وَالْأَزْهَارِ. وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ: أَي: وَأَحْطَنَاهُمَا بِأَشْجَارِ نَخْلٍ، حَفَّ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ، إِذَا جَعَلَهُ مُحِيطًا بِهِ، وَمُسْتَدِيرًا حَوْلَهُ.

وَفِي الْمَسَاحَاتِ الْفَارِغَاتِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ زُرُوعٍ أَرْضِيَّةٍ نَافِعَةٌ لِأَكْلِ الْإِنْسَانِ وَالْأَنْعَامِ.

وَقَدْ وَصَلَتْ الْأَشْجَارُ إِلَى كِمَالِ نُضْجِهَا، فَآتَتْ فِيهَا سَبَقَ أَكْلِهَا، أَي: ثَمَرَاتِهَا الَّتِي تَوْكَلُ مِنْهَا، دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِنَقْصَانِ، فَلَمْ تَطْلُمْ مِنْ أَكْلِهَا شَيْئًا، أَي: لَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا.

الْأَكْلُ: بِضَمِّ الْكَافِ وَإِسْكَانِهَا مَا يُؤْكَلُ، وَأَكُلُ الشَّجْرَةَ جَنَاهَا الَّذِي يُؤْكَلُ.

وقد فَجَّرَ اللهُ لَهُ خلالَ الْجَنَّتَيْنِ نَهْرًا، أَي: شَقَّ لَهُ عَيْنَ مَاءٍ تَبَعَتْ مِنْهَا المِياهُ بِقُوَّةٍ وَتَدَفَّقَتْ، وَشَقَّ لَهُ نَهْرًا يَجْرِي فِيهِ المَاءُ لِسُقْيَا الْجَنَّتَيْنِ.

وسواءٌ حصل هذا بأسبابٍ اتَّخَذَهَا الرَّجُلُ، أو دون أسبابٍ منه، فالأمر قد تمَّ بقضاء الله وقَدَرِهِ، فالأسبابُ الإنسانيَّةُ إِنَّمَا تَتِمُّ بِإِقْدَارِ اللهِ وَالْهَامِهِ، وتوفيقه، فهي في الحقيقة آثار فعل الله عزَّ وجلَّ، ويمكن تقسيم قصتهما إلى فصولٍ، ثلاثة وخاتمة:

- ١ -

الفصل الأول

يظهر أن الرجل المؤمن الداعية إلى دين الله والتزام صراطه المستقيم، وقد بدأ ينصح مَالِكَ الْجَنَّتَيْنِ ذا القوة بأمواله وأنصاره، المفتون بما آتاه الله من زينة الحياة الدنيا، فيدعوه إلى الإيمان الكامل الصحيح بالله الخالق الرَّبِّ، الذي بيده مقاليد كلِّ شيءٍ في الوجود، والذي لا شريك له في ربوبيته، حتَّى الأسباب فإنها تُؤثِّرُ بقضائه وقَدَرِهِ وخلقِهِ وقُدْرَتِهِ، والذي لا شريك له في إلهيَّته، أي: في استحقاقه العبادة وحده، دون شيءٍ سواه في الوجود، وأخذَ يُقدِّمُ له الأدلة على التوحيد، ويبيِّنُ له أن الله عزَّ وجلَّ خلقَ الناسَ في هذه الحياة الدنيا ليلوهم أيُّهم أحسنُ عملاً، وأن هذه الحياة الدنيا كُلُّها ستنتهي بقيام الساعة، ثمَّ يبعثُ اللهُ الناسَ إلى يوم الدين، يوم الحساب وفضل القضاء، ثم تنفيذ الجزاء، بالثواب في جنَّة النعيم، أو بالعقاب في دار العذاب الأليم.

فَرَدَّ عَلَيْهِ ذُو المَالِ الواسع المَعْتَرُ بكثرة أولاده ونَفَرِهِ، بأنَّ إيمانه برَبِّهِ وطاعته له لم تجلب له مالا كثيرا، ولا قُوَّةً وَمَنَعَةً بأولاده وأنصاره بين الناس، فلو كان ما يدعو إليه صحيحا، لكان اللهُ قَدْ وَسَّعَ عَلَيْهِ وَمَنَحَهُ القُوَّةَ.

أما هو فقد استخدم وسائله وذكاءه وعلمه، فصار أكثر من المؤمن بالله واليوم الآخر الذي يعمل الصالحات مالا، وأعزَّ نَفراً، وهذا دليل على أن الأمر لا يتجاوز ظروف هذه الحياة وأسبابها.

ولا بُدَّ أن يكون المؤمن قد حاوره حول دليله هذا فأبان له أن ظروف الحياة الدنيا ظروفُ امتحان، والامتحان يكون بالغنَى والقوَّة أحياناً ولبعض الناس، وليس هذا تكريماً من الله لهم، ويكون بالتضييق وعَدَم القوَّة أحياناً ولبعض الناس، وليس هذا إهانة لهم، بل كُلُّ من الأمرين للابتلاء والامْتِحَان.

إلا أن ذا الغِنَى المعترِّز بأمواله وأولاده ونفَرِه، والمتفاخِرَ بكلِّ ذلك، لم يَغْبَأ بجواب الرجل المؤمن القائم على الدليل النظريِّ الفكريِّ العلميِّ، المستند إلى أدلَّة الإيمان بالله واليوم الآخر، وحكمته من خَلق الناس في هذه الحياة الدنيا، لأنَّه مفتونٌ بما يَمْلِكُ من زينتها، محجوبُ البصيرة عن إدراك الحقيقة، إذ أكسبهُ افتتانه طغياناً في نفسه.

وفي موسم من مواسم قَطْفِ الثمار، كانت جَنَّتُهُ ذاتَ ثَمَرٍ بهيج، وكان قد دَنَا قِطَافُهُ، فتحركت نفسه برغبة الافتخار على صاحبه المؤمن الداعية الَّذِي لم يؤتِه الله مثل ما آتاه، فأخَذَ يَدِهِ، واستصحبَهُ، لِيُطْلِعَهُ على بُسْتَانِهِ، المفتون بإنشائه وإعمارهِ وإتقانه، ذي الجناحين من ذاتِ اليمين، ومن ذات الشمال، وذي النهر الفاصل بينهما، والذي يتفجَّرُ جارياً مُتَدَفِّقاً بينهما، فكانا بمثابة بُسْتَانَيْنِ مُتَفَصِّلَيْنِ، لكنَّ يجمعهما سورٌ عامٌّ واحد، فهما جَنَّتَانِ متفاصلتان، في جَنَّةٍ عامَّةٍ وَاحِدَةٍ ذاتِ سورٍ عام واحد، وقصد من استصحابه التفاخُرَ عليه، وإفناعه بأنَّ نظام الحياة نظامُ أسبابٍ ومُسَبِّباتٍ:

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ وَدَخَلَ

جَنَّتُمْ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٤﴾ .

وأعزُّ: أي: أقوى وأغلب، قالوا: مَنْ عَزَّ بَرٌّ، أي: من غلب سلب.

نقرأ: التَّفَرُّ الرِّجَالُ من ثلاثة إلى عشرة، وكانوا أولاده وخدمته.

وَدَخَلَ جَنَّتُهُ: جعلها النصَّ جَنَّةً واحدة نظراً إلى السور الواحد الذي

يجمع الجنتين المنفصلتين بنهر يجري بينهما.

وهو ظالمٌ لِنَفْسِهِ: أي: ظالم لنفسه بشركه إذ جعل الأسباب هي الفاعل الحقيقي، جاحداً أنّ الله هو الذي يَخْلُقُ من خلالها، وبإنكاره ليوم الدين، إذ قال: ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذه إبداءً، وما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائمةً كما يَذْكَرُ المُرْسَلُونَ.

إنه لما وصل هو وصاحبه المؤمن الداعية إلى باب بستانه المفتون به، دخله وهو ظالم لنفسه بكفره، وافتتانه بما يملك من زينة الحياة الدنيا، واقتناعه بأن الأسباب التي اتخذها هي التي أوصلته إلى ما هو فيه من ثراء وقوة.

وبما أنه استبعد من تصوّره أن الحياة هذه حياة ابتلاء، وأن وراءها حياة أخرى هي دار الحساب وفضل القضاء والجزاء، تصوّر أن الوجود كُله مُنحصَرٌ في ظروف هذه الحياة، وأن هذا النظام مستمرٌّ فيها من الأزل إلى الأبد، على مذهب الدهريين، وأن أحداثها التي تجري فيها خاضعة لنظام الأسباب والمسببات، فما دام الإنسان يتخذ أسباب الإنشاء والتعمير والترية والتنمية، فإن الأسباب مستمرة العطاء، في نظام أبدي لا انقطاع له، وبما أنه فكّر وقدّر، واتخذ الأسباب الصحيحة السليمة الكاملة، لإنشاء بستانه ذي الجناحين، إنشاء كامل الصفات والشروط التنموية والوقائية، فلا بُدَّ أن يُعطي عطاءه دواماً وافرأ غير منقوص، وهذا الأمر قد امتحنه وأخضعه للتجربة خلال سنوات حياته السابقة.

لذلك فهو لا يَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ جَنَّتُهُ أَبَدًا، ما دَامَتْ أسبابُ إمدادها بالبقاء والتجديد والتحسين والحماية مستمرة، وتَصَوَّرَ أَنَّ هذا هو قانون الوجود الذي لا يتعرَّضُ لما يُلْغِيهِ مِنْ قُوَّةِ رَبَّانِيَّةِ خَارِقَةٍ، فقال:

﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ .

أي: ما دَامَتْ أسبابُ الإمداد والإصلاح والتعمير مُهَيَّأَةً لها بلا نقصان، ونفْيُ الظَّنِّ كُلِّهِ قُوَّةٌ وَضَعِيفَةٌ عَنِ النَّقِيضِ يَتَضَمَّنُ إثباتِ النَّقِيضِ الْآخَرَ بِلَا شَكِّ، أي: فهي دائمةٌ بلا انقطاع، ولا يلزم من هذا أَنَّهُ يُؤْمِنُ بخلود نفسه، إِلَّا أَنَّ وَهْمَهُ جَعَلَهُ يُؤْمِنُ بخلود نظام الكونِ، ونظامِ تعاقبِ صُورِ الحَيَاةِ فِي الْأَرْضِ.

وإذ سَيَظَرَّتْ عَلَى نَفْسِهِ فِكْرَةَ خُلُودِ هَذَا النِّظَامِ الْكُونِيِّ بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ، فَمِنْ لَوَازِمِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ أَنَّ لَا يَظُنُّ أَنَّ السَّاعَةَ الَّتِي حَدَّثَ الرَّسُلُ عَنْهَا، وَأُثْبِتَهَا الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ، سَاعَةٌ قَائِمَةٌ، لَا سَاعَةَ الْإِفْنَاءِ، وَلَا سَاعَةَ الْبَعْثِ، فقال:

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ .

وهذا النَّفْيُ يَتَضَمَّنُ أَيْضًا إثباتِ النَّقِيضِ بِلَا شَكِّ، وهو أَنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ .

لَكِنَّهُ لَمْ يَجْزِمْ جِزْمًا قَاطِعًا بِأَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فقال:

﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ .

أي: وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِحْتِمَالِ الضَّعِيفِ فِي نِظَامٍ غَيْرِ هَذَا النِّظَامِ الْمَشْهُودِ لِلْكَوْنِ، لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ مُنْقَلَبًا أَنْقَلِبُ إِلَيْهِ، فَعِلْمِي وَقُدْرَاتِي الَّتِي جَعَلْتَنِي فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَجْمَعُ مَا جَمَعْتُ، وَأَسَّسُ مَا أَسَّسْتُ، وَأَنْشِئُ مَا أَنْشَأْتُ، سَتُمْكِّنُنِي مِنْ أَنْ أَكْتَسِبَ أَمْثَالَهَا.

فاشتمَلَ كَلَامُهُ عَلَى ثَلَاثِ قَضَايَا:

القضية الأولى: تفاخُرُهُ بوسائله التي اتخذها في الإنشاء والتعمير والإمداد والرعاية والحماية والصيانة، فقال: ما أظنُّ أن تبيد جنتي هذه أبداً، ما دامت وسائل حمايتها ورعايتها وإمدادها وصيانتها موجودةً بالتتابع، فنظامُ الكونِ نظامٌ ثابتٌ على هذا الوضع من الأزل إلى الأبد.

القضية الثانية: مَبْنِيَّةٌ على القضية الأولى، وهي قوله ما دام نظام الكون نظاماً مستمراً على ما هو عليه، فما أظنُّ السَّاعةَ قائمة، الشاملة لساعة إنهاء ظروف هذه الحياة، ولساعة البعث إلى حياةٍ أخرى.

القضية الثالثة: وهي قضيةٌ أوردتها على سبيل الافتراض الاحتماليِّ الضعيف، وقد قال فيها: وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحَيْثُ مَرَّةٌ أُخْرَى، فَلَأَجِدَنَّ عِنْدَهُ خَيْراً مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ مُنْقَلَباً مُنْقَلَبٌ إِلَيْهِ، فلقد مكَّنني في هذه الحياة من اتِّخَاذِ هذه الجنة، ومن المؤكِّدِ أَنَّهُ سَيُمَكِّنُنِي فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى مِنْ اتِّخَاذِ خَيْرٍ مِنْهَا، إِنْ كَانَ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْآخِرَى وَجُودٌ، وَكَانَتْ أَحْوَالُهَا أَحْسَنَ مِنْ أَحْوَالِ هَذِهِ الْحَيَاةِ.

لكئنِّي لا أرى كُلَّ ذَلِكَ، فمزاعم الحياة الأخرى مزاعمٌ لا دليل عليها فيما نشاهد من مقابر أهل القرون الأولى.

- ٢ -

الفصل الثاني

هنا حاول صاحبه المؤمن في محاورته له إعادته إلى المنطلق الأول للفكر الإيماني، وهو الإيمان بالخالق الرَّبِّ المنشيء من التراب، وسأله على سبيل الاستفهام الإنكاري عن نظرتَه إلى النظام السببي الذي تجري بمقتضاه أحداث الكون وأطواره، هل هو يؤمن بالأسباب منقطعة عن الرَّبِّ الذي يخلُق كُلَّ ما في أحداث كونه ضمن قنواتها؟

قال الله عز وجل:

﴿قَالَ لِمَ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ ﴿٧٧﴾.

أي: إنَّ وُجُودَكَ بِخَلْقِ اللَّهِ قَدْ كَانَ خَاضِعًا لِنِظَامِ الْأَسْبَابِ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَجْرَى أَسْبَابَ خَلْقِكَ بَدَأَ مِنَ التُّرَابِ إِلَى النَّبَاتِ إِلَى الْغِذَاءِ إِلَى الدَّمَاءِ ثُمَّ إِلَى النُّطْفَةِ، وَتَتَابَعَتْ سِلْسِلَةُ الْأَسْبَابِ حَتَّى صِرْتَ جَنِينًا، ثُمَّ دَبَّتْ فِيكَ الرُّوحُ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، ثُمَّ يَسَّرَ اللَّهُ أَسْبَابَ وَلَا دَتِكَ، وَتَتَابَعَتْ أَسْبَابُ إِمْدَادِكَ بِالْبَقَاءِ حَتَّى صَيَّرَكَ اللَّهُ طِفْلًا، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا مُكْتَمَلًا، تَتَعَاطَى الْأَسْبَابُ، وَتَتِمُّ الْمُسَبِّبَاتُ بِخَلْقِ اللَّهِ مِنْ خِلَالِ قَنَوَاتِهَا.

فَاللَّهُ الرَّبُّ الْمَتَابِعُ بِرَبُوبِيَّتِهِ مِنْ بَوَاطِنِ الظُّوَاهِرِ السَّبَبِيَّةِ أَعْمَالِ الْخَلْقِ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الْمُسَبِّبَاتِ، كَمَا هُوَ خَالِقٌ لِلْأَسْبَابِ، وَلَوْلَا خَلْقُهُ لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنْهَا، وَالْأَفْعَالُ لَا تَفْعَلُ بِذَاتِهَا شَيْئًا، لِأَنَّهَا أَشْيَاءٌ لَا مَشِيئَةَ لَهَا وَلَا عِلْمَ وَلَا حِكْمَةَ وَلَا غَايَةَ، بَيْنَمَا نُشَاهِدُ أَنَّ كُلَّ أَحْدَاثِ الْكُونِ وَتَطَوُّرَاتِهِ مَقْتَرِنَةٌ بِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ، وَهَمَا لَا تَكُونَانِ إِلَّا بِعِلْمٍ وَمَشِيئَةٍ، وَهَذِهِ صِفَاتُ رَبِّ عَالِمٍ حَكِيمٍ قَدِيرٍ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.

فَهَلْ أَنْتَ نَظَرْتَ إِلَى أَطْوَارِ وُجُودِكَ عَلَى أَنَّهَا أَسْبَابٌ فَاعِلَةٌ بِذَاتِهَا، غَيْرُ مُسَبِّبَةٍ بِخَلْقِ رَبِّ خَالِقٍ؟

وَيُظْهِرُ أَنَّ الْمَفْتُونِ بِأَسْبَابِهِ أَخَذَ يُرَاوِعُ وَيَطْرَحُ الْإِحْتِمَالَاتِ النَّظَرِيَّةِ، وَمِنْهَا أَنَّ الْأَسْبَابَ مَشْهُودَةٌ لَنَا فَنُؤْمِنُ بِهَا، وَكَوْنِ اللَّهِ هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ مِنْ بَوَاطِنِ الظُّوَاهِرِ السَّبَبِيَّةِ أَمْرٌ غَيْرُ مَشْهُودٍ، وَجَعَلَ يَتَهَرَّبُ مِنَ الْإِدْعَانِ لِلْحَقِّ.

وَيُظْهِرُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِوُجُودِ خَالِقٍ أَعْلَى، لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي تَتَابِعِ أَحْدَاثِ

الكون، وَيَجْعَلُ لَهُ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ، وَيُظْهِرُ أَنَّ شِرْكَهٗ مِنْ نَوْعِ شِرْكِ فَاعْلِيَّةِ
الأسباب بذاتها، فهو في هذه القضية على مذهب شبيه بمذهب الدهريين.

فلما علم صاحبه المؤمن الداعية ما هو عليه من اعتقادٍ فاسدٍ، وكُفِّرَ
بربه، وكُفِّرَ بِالذَّنْبِ وَالْجِزَاءِ وَالْحَيَاةِ الْآخِرَى، قال له كما جاء في النص:

﴿ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ
لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَكُنْ مِنْكَ مَا لَمْ يُولَدْ ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعُ صَعِيدًا رَلَقْنَا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصِيعَ مَا وَهَّاءُ غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ
طَلْبًا ﴿٤١﴾ .

لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي: أضلها لَيْكِنَ أَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي، لَيْكِنَ حَرْفِ اسْتِدْرَاكِ،
يَسْتَدْرِكُ بِهِ عَلَى اعْتِقَادِ الْمُفْتُونَ بِأَسْبَابِهِ وَبِمَا لَدَيْهِ مِنْ مَالٍ وَأَنْصَارٍ، فَيُبَيِّنُ لَهُ
أَنَّهُ يَخَالِفُهُ، وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ رَبَّهُ.

ضمير ﴿ أَنَا ﴾ في محل رفع مبتدأ. و ﴿ هُوَ ﴾ ضمير الشأن العظيم
مبتدأ، وخبره جملة: ﴿ اللَّهُ رَبِّي ﴾ وجملة: ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ خبر: ﴿ أَنَا ﴾.

فأبان الرجل اعتقاده بجملة على إيجازها فيها أربع مؤكدات: ﴿ أَنَا ﴾
و ﴿ هُوَ ﴾ ضمير الشأن، و ﴿ اللَّهُ رَبِّي ﴾ وهي جملة اسمية معرفة الطرفين تفيد
القصر، وكون الجملة كلها جملة اسمية.

وَلَوْلَا: أي: وهلاً، فهي هنا حرف تحضيض.

مَا شَاءَ اللَّهُ: أي: هذا الذي أشاهده في جنتي مُعْجَبًا لِي شَيْءٌ شَاءَهُ
الله. فلفظ «ما» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا، والعائد على «ما» محذوف
تقديره «شَاءَهُ».

فالعبرة مختزلة، وهي عبارة تَحْصِينٍ لِلْأَشْيَاءِ الْمُعْجَبَةِ مِمَّا قَدْ يَصِيهُهَا
من سوء، وهي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي شَاءَ وَيَسِّرَ الْأَسْبَابَ وَأَجْرَى أَعْمَالَ

خلقه من بواطنها، وهكذا ينبغي للمؤمن أن يُعَبَّرَ عن إيمانه بِرَبِّه عند كلِّ حَدَثٍ يَرْتَبِطُ بِعُنْصُرٍ مِنْ عُنَاصِرِ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ: أي: لا قُوَّةَ لِأَحَدٍ فِي الْوُجُودِ، وَلَا قُوَّةَ لِشَيْءٍ، إِلَّا بِإِمْدَادِهِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُوَّةِ الَّتِي يُسَخِّرُهَا لَهُ وَيُمْكِّنُهُ مِنْ اسْتِخْدَامِهَا.

وبهذه العبارة يَتَبَرَّأُ الْمُؤْمِنُ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ قُوَّةٌ مَا مَادِيَّةٌ أَوْ مَعْنَوِيَّةٌ، وَيُحِيلُ مَا لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ عَلَى أَنَّهَا مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ وَإِمْدَادِهِ وَخَلْقِهِ.

إِنْ تَرِنَ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَا لَمْ يُولَدْ: «إِنْ» حَرْفٌ شَرْطِيٌّ جَازِمٌ «تَرِنَ» أَضْلُهُ تَرْنِي، حُذِفَتْ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ إِجْزَاءً، وَحُذِفَتْ كَثِيرٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ، وَأَمْثَالُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، وَالْفِعْلُ مَجْزُومٌ بِحَرْفِ الشَّرْطِ، وَعَلَامَةٌ جَزَمَهُ حَذْفُ آخِرِهِ لِأَنَّهُ مَعْتَلٌ الْآخِرِ بِالْأَلْفِ. «أَنَا» تَأْكِيدٌ لِمُضْمِرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُحْذَوفِ لِفِطْرًا، وَالْمَلَاحِظُ ذَهْنًا. «أَقَلَّ» مَفْعُولٌ بِهِ ثَانٍ لِلْفِعْلِ الْمَجْزُومِ بِحَرْفِ الشَّرْطِ.

فَعَسَى: «عَسَى» فِعْلٌ نَاقِصٌ يَعْمَلُ عَمَلُ «كَانَ» فَيَرْفَعُ الْاسْمَ وَيَنْصُبُ الْخَبَرَ، وَلَا يَكُونُ خَبَرَ «عَسَى» إِلَّا فِعْلًا مُسْتَقْبَلًا مُقْتَرِنًا بِحَرْفِ «أَنَّ» الَّذِي يَنْصُبُ الْفِعْلَ الْمَضَارِعَ.

وأصل معنى «عَسَى» يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ الْمُحْتَمَلِ الْمُرْتَقِبِ مِثْلُ: لَعَلَّ، وَكثِيرًا مَا يُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَرْجُوعِ الْوَقُوعِ بِقُرْبٍ، وَاسْتِعْمَالُ «عَسَى» بِمَعْنَى التَّرَجُّحِي هُوَ الْأَكْثَرُ فِي الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا يَقُولُ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّهَا كَلِمَةٌ لِلتَّرَجُّحِي، لَكِنَّهَا قَدْ تَسْتَعْمَلُ لِمَطْلَقِ الْإِحْتِمَالِ الْمَتَوَقَّعِ كَمَا هِيَ هُنَا، إِذْ لَيْسَ مِنَ خَلْقِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَزْجُو زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا، فَحِكْمَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ لَا يُعَارِضُهَا مِنَ الْمُؤْمِنِ رَجَاءٌ يُشْعِرُ بِحَسَدٍ أَوْ اعْتِرَاضٍ عَلَى مَقَادِيرِ اللَّهِ.

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ: أي: فَمِنْ الْمُمْكِنِ احْتِمَالًا بِالنَّظَرِ

إلى التقلبات التي يُجرِّبها الله في عباده، أن يُبدِّلَ اللهُ فقري، فيُغنييني، فيؤتيني خيراً من جنتك.

ويُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا: الحسبان في الأصل مُصَدَّرٌ كَالْحِسَابِ، يقالُ: حَسَبَ يَحْسُبُ حساباً وحُسباناً، وبما أن كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ اللهِ بِمِقْدَارٍ، فَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ سَبْحَانَهُ بِحِسَابِ، لِأَنَّ مِقَادِيرَ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا تُضَبِّطُ بِالْحِسَابِ.

وعقوبات الله وأنواع عذابه ومهلكاته إنما يُنزِلُها بِحُسْبَانٍ دَقِيقٍ، لَا شَطَطَ فِيهِ وَلَا وَكْشَ.

وعلى طريقة الوصف بالمصدر، والاكتفاء بالوصف عن ذكر الموصوف، جاء إطلاق الحُسْبَانِ هنا مُراداً به التَّوَازُلُ المَهْلِكَةُ والمُتَلَفَةُ التي يُرْسِلُهَا اللهُ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ أَوْ بَعْضِ مُمْتَلِكَاتِهِمْ وَأَشْيَائِهِمْ بِحِسَابٍ دَقِيقٍ، تَأْدِيباً لَهُمْ، أَوْ عِقُوبَةً مَعْجَلَةً قَبْلَ عِقُوبَاتِهِ الْمُؤَجَّلَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

ولهذا قالوا في معنى الحُسْبَانِ هُنَا: هُوَ كُلُّ عَذَابٍ، أَوْ كُلُّ شَرٍّ وَبَلَاءٍ، وَبِمَعْنَى مُصِيبَةٍ.

صَعِيدًا زَلَقًا: أَي: أَرْضًا خَالِيَةً مِنْ أَيِّ شَجَرٍ أَوْ زَرْعٍ، وَطِينًا رَغَوِيًّا مُزَلَقًا لَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْأَقْدَامُ.

الصَّعِيدُ: وَجْهُ الْأَرْضِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ كُلُّ وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا إِذَا زَالَ كُلُّ مَا فِيهَا مِنْ شَجَرٍ وَنَبَاتٍ.

الرَّزْلَقُ: الْمَكَانُ الْمَزْلَقَةُ الَّذِي لَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ قَدَمٌ، بِسَبَبِ مَا فِيهِ مِنْ طِينٍ رَغَوِيٍّ.

أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا: غَوْرٌ كُلُّ شَيْءٍ عُمُقُهُ، وَيُقَالُ: مَاءٌ غَوْرٌ، أَي:

غائر، على طريقة الوصف بالمصدر، والماء الغائر في عمق الأرض قد لا يستطيع الناس استخراجَه .

دلّت هذه الآيات على أن الرجل المؤمنَ الداعية قد نصح صاحبه المفتونَ بما لديه من أموال وأولاد ينصرونه نصيحتين كبريين تشتملان على عدّة نصائح :

النصيحة الأولى: قَالَ له فيها: هَلَّا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ذَاتَ الْجِنَاحَيْنِ عَلَى شَاطِئِي النَّهْرِ الَّذِي يَجْرِي وَسَطَهَا، قُلْتَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، أَي: هَذَا الَّذِي أَرَاهُ فِي جَنَّتِي هُوَ شَيْءٌ قَدْ شَاءَهُ اللَّهُ، فَهُوَ الَّذِي هَيَّا لِي الْأَسْبَابَ، وَأَمَدَّنِي بِالْقُوَّةِ لِاتِّخَاذِهَا، فَقَوَّتِي الَّتِي اتَّخَذْتُ بِهَا أَسْبَابِي لَمْ تَكُنْ لِي إِلَّا بِخَلْقِ اللَّهِ وَمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ .

النصيحة الثانية: قَالَ له فيها: إِنَّ تَفَاخُرَكَ عَلَيَّ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِكَ وَأَوْلَادِكَ، تَفَاخُرٌ بِأَمْرٍ غَيْرِ مَضْمُونِ الثَّبَاتِ وَالذَّوَامِ، فَمِنْ سُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ أَنَّهُ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، لِيَمْتَحِنَ كُلًّا بِمَا آتَاهُ بِالشُّكْرِ أَوْ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا، وَمَنْ أَعْطَاهُ فِي حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ رُبَّمَا سَلَبَهُ مَا كَانَ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ فِي حِينٍ آخَرَ، وَمَنْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ رُبَّمَا وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي حِينٍ آخَرَ، فَلَا يَغُرَّتْكَ مَا أَنْتَ فِيهِ الْآنَ، إِنَّهُ صُورَةٌ مِنْ صُورِ امْتِحَانِكَ، وَمِنْ الْمُمْكِنِ الَّذِي قَدْ يَخْضَلُ، أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ فَيُعْطِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ، وَمِنْ الْمُمْكِنِ أَيْضًا أَنْ يَسْلُبَكَ جَنَّتَكَ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكُونِيَّةِ، الَّتِي نُشَاهِدُ فِي صُرُوفِ الدَّهْرِ أَمْثَالَهَا .

كَأَنَّ يُرْسِلَ عَلَى جَنَّتِكَ نَوَازِلَ مِنَ السَّمَاءِ مُهْلِكَةً مُتَلَفَةً مُتَبَرَّةً، مُقَدَّرَةً بِحُسْبَانٍ دَقِيقٍ لَا تُصِيبُ غَيْرَ جَنَّتِكَ، كَلْفَحَاتِ صَقِيعٍ، أَوْ لَفْحَاتِ سَمُومٍ مُحْرِقَةٍ، أَوْ صَوَاعِقِ مُحْرِقَةٍ، أَوْ بَرْدٍ مُحَطَّمٍ، لَا يُبْقِي مِنَ الْجَنَّةِ شَيْئًا، فَتَغْدُو صَعِيدًا، أَرْضًا خَالِيَةً مِنْ أَيِّ شَجَرٍ أَوْ نَبَاتٍ، قَدْ اخْتَلَطَ تَرَابُهَا وَنَبَاتُهَا بِمَا نَزَلَ عَلَيْهَا مِنْ بَرْدٍ وَثَلْجٍ، فَتَصِيرُ زَلَقًا لَا تَثْبُتُ عَلَيْهَا الْأَقْدَامُ، كَمَا يَحْدُثُ أحيانًا فِي

بعض البساتين والغابات التي تنزل عليها مُهْلِكَاتٌ من السَّمَاءِ، وهذا أمرٌ مُشَاهِدٌ.
 ومن الممكن أيضاً أن يُصْبِحَ الماءُ الجاري الذي تُسْقَى منه جِثَّتُكَ ماءً
 غَوْرًا، أي: غائراً في أعماق الأرضِ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ له طَلْبًا، وإذا غَارَ الماءُ في
 أعماق الأرضِ يَسِرَ كُلُّ ما في بستانك الذي تُفَاخِرُ فيه، وتَزْعُمُ أَنَّهُ لن يبيدَ
 أبداً، فَكَمْ من ماءٍ كان نهراً جاريًا فغَارَ في أعماق الأرضِ، فبيستِ الأشجارِ
 والزُّروعِ التي كان يَسْقِيها.
 أليسَ هذا احتمالاً قائماً؟! .

موقف المغرور من هاتين النَّصِيحَتَيْنِ:

لكنَّ الرَّجُلَ المَفْتُونِ المَعْتَمِدِ على أسبابه ظلَّ مغروراً بنفسه، وبما
 يَمْلِكُ من أسباب، مخدوعاً بالظواهر، غيرَ مؤمِنٍ بأنَّ ما هُوَ فيه قد كان
 بَعطاءَ اللَّهِ له، لِيَمْتَحِنَهُ في ظروف الحياة الدنيا.

- ٣ -

الفصل الثالث

وَشَاءَ اللَّهُ أَن يُعَاقِبَ المَغْرُورَ المَفْتُونِ بِأسبابه عقابَ تَأْدِيبٍ لِيَرُدَّهُ إلى
 صَوَابِهِ، ويوقظه من غفواته، وَيُقَدِّمَ له ما يُفْنِعُهُ بالجزاءِ المؤجَّلِ إلى يَوْمِ
 الدينِ، فأرسلَ على جَنَّتِهِ حُسْبَانًا من المتلفاتِ أحاطتْ بِكُلِّ ثَمَرِهِ فَأَتَلَفَتْهُ،
 كَلَفَحَتْ من الرِّيحِ الشديدة البرودة، التي تُحوِّلُ الثمراتِ وأوراقَ الأشجارِ
 والنباتِ إلى جليدٍ مُتَلَفٍ مُهْلِكٍ، فمن المعروف أن الصَّيْفَ يُتَلَفُ الثَّمَرُ
 وأوراقُ الشَّجَرِ.

وحيث أنَّ اللَّهَ له ثَمَارَ جَنَّتِهِ لَمْ تكن له فئة من دون الله يَنْصُرُونَهُ
 فيحْمُونَ جَنَّتَهُ من إتلافِ ثَمَارِهَا، وما كان هو بِقُوَّتِهِ مُنتَصِراً على مقاديرِ الله
 العِقَابِيَّةِ.

وذهب الرجلُ المغرورُ المفتونُ إلى جنتِهِ صباحاً كعادته، فوجد كلَّ ثمارها وأوراقها متفحمةً بالصَّقيع، فَصَارَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ حَسْرَةً على ما أَنْفَقَ من أموالٍ في جنتِهِ لاستثمارها، ورآها خاويةً من الثمار، مُتَساقِطَةً الأَغْصَانِ والعُرُوقِ على عُرُوشِها، فقد كانت ثمارها من العنب، في موسمِ قِطافه، ومن الجيدِ في أشجارِ العنب أن تُمدَّدَ أَعْصَانُها على عروش، أي على أخشابٍ متفرقةٍ بينها مساحات فارغات، وهي مرفوعة عن الأرض، حتَّى تتدلَّى عناقيد العنب من الأَغصَانِ، وتأخذ الأَغصَانُ حَظَّها الذي تحتاج إليه، من الشمس والهواء، وتكون مَحْمُولَةً على العروش.

ومن عادة الرَجُلِ العاقلِ الرزينِ، الذي يتحسَّرُ على ما فقد من أموالٍ أن يضربَ كَفَّ اليدِ اليُمْنَى على كَفِّ اليدِ اليُسْرَى، فكَفَّ اليَدَ اليُسْرَى على كَفِّ اليَدِ اليُمْنَى بعد قَلْبِهما، وهكذا بالتتابع، يُقَلِّبُهُما وَيَضْرِبُ العُلْيَا منهما على السُّفْلَى تَحْسُراً وندماً.

أما غير العاقلِ الرزينِ، فربما بكى وصاح وضرب رأس نفسه بيده، أو بشيء يراه قريباً منه.

وَأَعْظَمَ الرَّجُلُ بما جَرَى له من عِقَابٍ تَأديبيّ، فصار يقولُ مُكرِّراً، يا ليتني لم أشركَ بِرَبِّي أحداً، كما يُكرِّرُ حركةَ تحسُّره بتقلُّبِ كَفَّيْهِ. وكانت هذه العقوبةُ الرَبَّانِيَّةُ التَّأديبِيَّةُ سَبَبَ تَخَلُّصِهِ مِنَ الشُّرْكَ، واستِمْسَاكِهِ بالإيمانِ الصحيحِ الكاملِ، وَرَجَعَتْهُ إلى رَبِّهِ تائباً مُنِيئاً.

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴿١٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِراً ﴿١٣﴾ ﴾.

وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ: جَاءَ الفعلُ على صيغةِ المَبْنِيِّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ،

إيجازاً، لِلْعَلْمِ مِنَ السَّبَاقِ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي عَاقَبَهُ عِقَابَ التَّأْدِيبِ، فَأَرْسَلَ عَلَى جَنَّتِهِ مَا يُحِيطُ بِشَمَرِهِ مِنَ الْمُتَلَفَاتِ الْمَهْلِكَاتِ، فَأَتَلَفَتْهُ لَهُ.

يُقَلَّبُ كَفِّهِ: جاء هذا التعبير كنايةً عن الحالة التي سبقَ بيانها، من ضرب كفِّ اليد اليمنى على كفِّ اليد اليسرى، وبالعكس، مع التكرار، عند التحسُّرِ والتَّدَمُّ.

وهي خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا: أي: وَحَالَ جَنَّتِهِ أَنَّهَا خَاوِيَةٌ مِنْ ثِمَارِهَا، مُتَسَاقِطَةٌ الْأَغْصَانِ وَالْفُرُوعِ عَلَى عُرُوشِهَا، بِسَبَبِ مَا أَصَابَهَا مِنَ الصَّقِيعِ الَّذِي أَتَلَفَهَا فَأَفْقَدَهَا مَا فِيهَا مِنْ حَيَاةٍ تَنْهَضُ بِهَا مِتْسَامِيَّةً فِي السَّمَاءِ.

فعبارة: «على عُرُوشِهَا» معمولٌ لاسمِ فاعِلٍ محذوفٍ تَدَلُّ عَلَيْهِ الْقَرَائِنُ، وَالتَّقْدِيرُ، مُتَسَاقِطَةٌ الْأَغْصَانِ عَلَى عُرُوشِهَا.

العُرُوشُ: هي لأشجار العنب، أَخْشَابٌ تُوَضَعُ بِشَكْلِ أَقْفِيٍّ مُتَفَاعِلَةٍ عَنْ بَعْضِهَا، عَلَى جُسُورٍ تُزْفَعُ، وَتُوَضَعُ فَوْقَ أَعْمِدَةٍ تُنْصَبُ عَمُودِيَّةً وَاقِفَةً، فَتَتَمَدَّدُ عَلَيْهَا أَغْصَانُ شَجَرَاتِ الْعَنْبِ وَفُرُوعِهَا، وَتَتَدَلَّى الْعِنَاقِيدُ مَحْمُولَةً بِالْأَغْصَانِ الْمَحْمُولَةِ بِالْعُرُوشِ.

يَا لَيْتَنِي: الَّذِي تَرَجَّحَ لَدَيَّْ أَنَّ «يَا» فِي مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ هِيَ يَاءُ التُّدْبَةِ، فَهِيَ يَنْدُبُ أُمِّيَّةً فَاتَهُ تَدَارِكُهَا، وَهِيَ أُمِّيَّةُ التُّوبَةِ قَبْلَ نَزُولِ الْعِقَابِ.

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُتَّصِرًا: أي: حينما نزل به العقاب التأديبي، لم يَنْفَعُهُ أَوْلَادُهُ الَّذِينَ كَانَ يَفْتَخِرُ بِكَثْرَتِهِمْ عَلَى صَاحِبِهِ الْمُؤْمِنِ النَّاصِحِ لَهُ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ تَحْمِيهِ مِنْ نَزُولِ عِقَابِ اللَّهِ فِي ثِمْرَاتِهِ، لِأَنَّ النَّاسَ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَاهُمْ لَا يَحْمُونَ أَنْفُسَهُمْ وَلَا غَيْرَهُمْ مِنْ مَقَادِيرِ اللَّهِ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَ مُتَّصِرًا لِنَفْسِهِ بِوَسَائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ، فَمَقَادِيرُ اللَّهِ لَا تَعَانَدُ، وَعُقُوبَاتُهُ لَا تُرَدُّ.

التعليق الختامي

وتعليقاً على الظواهر السببية التي رتبها الله في كونه لنظام الحياة الدنيا، ومنها أن يكون للإنسان فيها أعواناً وأنصاراً ينصرونه، أبان الله عز وجل أن هذا النظام السببي القائم في الحياة الدنيا، لن يكون له وجود يوم الدين في الحياة الأخرى، بل ستكون هنالك الولاية كلها ظاهراً وباطناً لله الحق، وخذ له شريك له ظاهراً ولا باطناً، وهو خير ثواباً لمن قدم إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملاً صالحاً، وخير عاقبة لمن علق عاقبته به مؤمناً به وبما جاء من عنده، ومُتبعاً وصاياهُ، وسالكاً صراطه المستقيم.

فقال الله عز وجل في خاتمة النص:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

الولاية: بفتح الواو وكسرها هنا بمعنى: النصرة والملك التام الذي لا تسترهُ ظواهر سببية.

وخير عُقْبًا: أي: وخير عاقبة، العقب والعقب، بإسكان القاف وضمها، العاقبة.

* * *

الفصل الثالث

نماذج من وصايا الآباء للأبناء

بما أنّ الوصايا تدخل ضمن أساليب تبليغ دين الله والنصح والإرشاد والموعظة الحسنة، وبما أنّ الآباء أحرص الناس على سعادة الأبناء، كان من الخير في هذا الكتاب أن أدوّن فيه نماذج من وصايا الآباء للأبناء.

الوصية الأولى: وصية كل من إبراهيم ويعقوب لابنه.

الوصية الثانية: وصية لقمان الحكيم لابنه.

الوصية الأولى

وصية كل من إبراهيم ويعقوب لبنيه

قال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَاءَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدْنَا وَالنَّحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ۞ .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ: أي: ومن يُعْرِضُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ويتركها. يقال لغة: رَغِبَ فِي الشَّيْءِ إِذَا أَرَادَهُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَانَ مِمَّا يُؤْخَذُ أَوْ يُسْتَمْسَكُ بِهِ أَخَذَهُ أَوْ اسْتَمْسَكَ بِهِ. وَيُقَالُ: رَغِبَ عَنْهُ إِذَا أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَرَكَهُ غَيْرَ مُرِيدٍ لَهُ.

إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ: أي: إِلَّا مَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى السَّفْهِ.

السَّفْهُ: نقصان العقل، والخفَّة والطيش.

وقيل: «سَفِهَ نَفْسَهُ» هو بمعنى: خَسِرَ نَفْسَهُ، أقول: هذا على تضمين

فعل «سَفِهَ» معنى فعل «خَسِرَ» والتقدير: سَفِهَ خَاسِرًا نَفْسَهُ.

اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا: أَي: وَجَدْنَا صَفْوَةً، فَخَصَّصْنَاهُ وَمَنَّا عَلَيْهِ بِالنَّبُوَّةِ
وَالرِّسَالَةِ.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلَمَ: هَذِهِ إِحْدَى كَلِمَاتِ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي
ابْتَلَاهُ رَبُّهُ بِهَا، فَاتَّمَهَّنَ كَمَا طَلَبَ مِنْهُ، طَاعَةً وَامْتِثَالاً لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ: أَي: فَقَالَ مُسْتَجِيباً لِلتَّكْلِيفِ الرَّبَّانِيِّ:
أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الَّذِي هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

هَذَا التَّكْلِيفُ الرَّبَّانِيُّ الَّذِي وَجَّهَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَالْإِسْتِسْلَامُ الْكَامِلُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، قَدْ وَصَّى بِهِ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ.

وكَذَلِكَ وَصَّى بِهِ يَعْقُوبُ بَنِيهِ، وَكَانَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلِداً، أَحَدُهُمْ يُوسُفُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَكُلٌّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَالَ لَبَّيْهِ فِي وَصِيَّتِهِ لَهُمْ:

﴿يَبْنَیْ إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

أَي: إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمْ عَقَائِدَ الدِّينِ وَشَرَائِعَهُ وَأَحْكَامَهُ فَاخْتَارَ لَكُمْ
أَحْسَنَهَا، وَكَلَّفَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِهَا وَتَعْمَلُوا فِي حَيَاتِكُمْ بِمَقْتَضَاهَا، وَأَمْرُكُمْ أَنْ
تَكُونُوا مُسْلِمِي قِيَادَتِكُمْ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِكُمْ إِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ، تَطِيعُونَهُ فِيمَا
أَمْرَكُمْ بِهِ فَتُؤَدُّونَهُ، وَتَطِيعُونَهُ فِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَتَجْتَنِبُونَهُ.

فَالْتَزِمُوا بِإِسْلَامِكُمْ لَهُ كُلَّ أَوْجَانِ حَيَاتِكُمْ، حَتَّى إِذَا جَاءَكُمْ الْمَوْتُ الَّذِي
لَا تَعْلَمُونَ وَقْتَهُ نَزُولَهُ بِكُمْ، عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنْتُمْ
فِيهَا مَمْتَحَنُونَ، جَاءَكُمْ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ مُسْتَسْلِمُونَ مُنْقَادُونَ مُطِيعُونَ رَبِّكُمْ،
فِيمَا أَمْرَكُمْ بِهِ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، لِتَلْقَوْا رَبَّكُمْ صَالِحِينَ، مُؤَدِّينَ مَا طَلَبَهُ مِنْكُمْ

في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا، وتكونوا من الناجين والفائزين بالمنازل
الرفيعة في جنّات النعيم.

أما يعقوبُ عليه السلام فمع وصيته لبيه بأن لا يموتوا إلا وهم
مسلمون، قد كانت له وصية لهم عندما حضره الموت، وقد أخذ عليهم
العهد بما وصّاهم به حينئذٍ.

قال لهم: ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟.

قالوا له: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

فَأَدْخَلُوا عَمَّهُ إِسْمَاعِيلَ ضِمْنَ آبَائِهِ، لَأَنَّ الْأَعْمَامَ لَهُمْ مِثْلُ مَنْزِلَةِ الْأَبَاءِ،
وَيَدْخُلُونَ فِي عَمَمِ الْأَبَاءِ عِنْدَ إِطْلَاقِ لَفْظِ الْأَبَاءِ فِي مَعْتَادِ النَّاسِ.

وذكروا هنا لفظ الإله بمعنى: «المعبود» ومعلوم أن إله إبراهيم
وإسماعيل وإسحاق هو رَبُّ الْعَالَمِينَ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، فَهُوَ إِذَا إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا
شَرِيكَ لَهُ.

* * *

الوصية الثانية

وصية لقمان الحكيم لابنه

قال الله عز وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ، وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَكَ الشِّرْكَ لَظْمًا عَظِيمًا ﴿٣١﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ إِلَى الْآصِرِ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ يَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ يَبْنِي أَفِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٣٥﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٣٦﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿٣٧﴾ ۞

وهنا على وهن: أي: ضعفاً على ضعف.

وفصاله: أي: وفطامه.

ولا تُصعِّرْ خدك: أي: ولا تُثمله كبراً على عباد الله، وهو كناية عن كل

كبر.

ولا تمشي في الأرض مرحاً: المرخ في المشي الاختيال والتبختر،

وهذا يفعله بعض الناس حينما يفرحون بما هم فيه من قُوَّةٍ أو شيءٍ من زينة الحياة الدنيا ومتاعها.

واقصِدْ في مَشِيكَ: القَصْدُ في المشي هو المشيُّ المستوي، مع التوسُّطِ بين التكاثُلِ والضعف، وبين الإفراطِ في السرعة، الدالَّ على الخفَّةِ والطيش.

واغْضُضْ من صَوْتِكَ: أي: وانقُصْ منه حتَّى يكون بقدر حاجة المستمعين لك.

اشتمل هذا النَّصُّ على وصايا وجَّهَهَا لُقْمَانُ الحكيم لابنه، وأَدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ضِمْنَ وصايا لقمانَ لابنه، وصيَّته للإنسانِ بوالديه، في الآيتين (١٤ - ١٥) للإشعار بأنَّ وصايا لقمان لابنه هي من الوصايا التي أنزلها اللهُ في رسالاته قبل لُقْمَانَ، واستفادها لقمانُ منها.

فجميع هذه الوصايا سواءً ما جاء منها حكايةً عن لقمان، أم ما جاء بياناً مباشراً عن الله عزَّ وجلَّ، هي من وصايا الله للناس في رسالاته السابقة.

ولعل لقمان عليه السلام قد ذكر لابنه في ضمن وصاياه، النَّصُّ الذي حفظه ممَّا أنزل اللهُ في الكُتُبِ الأولى، وهو قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُ اللَّهِ فِي عَمَيِّنَ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْاَصْبِرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يُشعرُ بأنَّ هذه الوصية ممَّا أنزلهُ اللهُ على آدمَ الإنسانِ الأوَّلِ لِيبَلِّغَهُ إلى ذُرِّيَّتِهِ، فكلُّ إنسانٍ مُنذُ بَدْءِ وجودِ الناس في الأرض، قد وُجِّهَتْ لَهُ هذه الوصية الرِّبَّانِيَّة.

البيان التحليلي :

اشتملت هذه الوصية اللقمانية على أربع عشرة قضية :

القضية الأولى: التَّهْيُ عَنِ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ، فَالشَّرْكَ بِاللَّهِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْإِشْرَاقَ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ، وَهَذَا ظُلْمٌ عَظِيمٌ فِي حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِذْ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ غَيْرَهُ، وَيَشْمَلُ الْإِشْرَاقَ فِي إِلَهِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا أَيْضاً ظُلْمٌ عَظِيمٌ، فَالْإِلَهِيَّةُ وَهِيَ اسْتِحْقَاقُ الْعِبَادَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلرَّبِّ الْمَمْدُوعَاتِ الرَّبُوبِيَّةِ، وَبِمَا أَنَّهُ لَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ فِي الْوُجُودِ فَلَا مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَةِ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، فَعِبَادَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ إِشْرَاقٌ بِهِ فِيمَا هُوَ مِنْ حَقِّهِ وَخَدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَمَعْنَى: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاهُ.

وعلى الرغم من أن الإشراق في إلهية الله عز وجل أخف من الإشراق في ربوبيته، فإن الله عز وجل لا يغفر لمن مات عليه.

وأخف أنواع الإشراق في إلهية الله عبادته الذين يقولون: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ وهذا أول ذركات الكفر.

وَكُونُ الشَّرْكَ ظُلْمًا عَظِيمًا لَا يُفِيدُ أَنَّهُ أَعْظَمُ الظُّلْمِ، فَجُحُودُ الرَّبِّ الْخَالِقِ جُحُودًا كُلِّيًّا أَشَدُّ وَأَعْظَمُ ظُلْمًا، وَأَكْثَرُ بَغْيًا وَعُدْوَانًا عَلَى حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

دل على هذه القضية :

﴿يَبْتغِي لَاتَشْرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

القضية الثانية: الأَمْرُ بِالشُّكْرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعِبَادُ، فَفِي الشُّكْرِ مَعْنَى مَقَابَلَةِ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ بِفِعْلِ جَمِيلٍ.

ويدخل في الشكر لله عز وجل عبادته بما شرع لعباده من عبادات، والتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَرَضِيهِ، وَحَمْدُهُ وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ وَالتَّوَجُّهُ لَهُ بِالْدُّعَاءِ وَحَدِهِ.

وفي الشكر معنى مقابلة المنة الحسنة بما يُرضي مُولِها.
أما الحمدُ فهو أعمُّ من الشكر لأنَّه مطلقُ الثناء على المحمود بصفاته
الحسنة، ولو لم يكن له على الحامدِ منَّةٌ ما.

دلّ على هذه القضية:

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي...﴾.

القضية الثالثة: الأمر بالشكر للوالدين على ما تحمّلا وما قدّمَا في
تنشئتهما وتربيتهما من عطاءاتٍ ومِنّ لولدهما.

وقد تكرر في القرآن المجيد الأمر بالشكر لله وللوالدين معاً، ودلّ هذا
النص كما ذكرتُ آنفاً على أن هذه الوصية مما أوصى الله به الإنسان بوجه
عام، فهي من الوصايا التي تلقّاها آدم عليه السلام من ربه، وبلغها آدم عن ربه
لأولاده، واستمرّ تنزيل هذه الوصية الرّبانية في الرسالات الرّبانية كلّها.

ومع الوصية بالشكر لله وللوالدين التنبؤ على الجزاء يوم الدين، بإشارة
قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾.

أي: وإذا كان إليه وحده المصير فهو جلّ وعلا يثيب على الشكر،
ويُعاقب على الجحود والكفر.

دلّ على هذه القضية:

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾.

القضية الرابعة: النهي عن طاعة الوالدين الكافرين إذا جاهدا الولد على
أن يشرك بالله شيئاً، ويُلحق به كلّ ما فيه معصية لله عزّ وجلّ.

ولكن على الولد أن يصاحب والديه الكافرين في الدنيا مصاحبةً حسنةً،
وأن يُقدّم لهما معروفاً.

دلّ على هذه القضية :

﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا... ﴾ (١٥) .

إنّ أيّ مشرك بالله لا يملك دليلاً علمياً، ولكنّ الله عزّ وجلّ إذ حمّل الإنسان مسؤولية اعتقاد ما يثبتّ لديه بعلم صحيح، ومسؤولية العمل به، فقد تركّ له في هذا النصّ حرّية التزام ما يثبتّ لديه بعلم صحيح في موضوع الشرك، مع أنّ قضية الإشراك بالله يستحيل إثباتها بدليل علمي، وفي هذا تمجيد للعلم، والعمل بمقتضاه.

وقوله تعالى: ﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ أي: وصاحبهما في الدنيا مصاحبةً حسنةً وقَدِّمَ لهما معروفاً، كمالٍ وتكريمٍ وخدمة، فعل: «صاحب» ضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلٍ «قَدَّمَ» فَتَصَبَّ لَفْظَ «مَعْرُوفًا» عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ، أَي: وَقَدَّمَ لهما مَعْرُوفًا فِي مصاحبتك لهما.

أو نقول: التقدير: وصاحبهما في الدنيا اصطحاباً معروفاً، فيكون لفظ معروفاً صفة لمفعول مطلق محذوف، فهو نائب مفعول مطلق.

القضية الخامسة: أمره بأن يتبع سبيل من أناب إلى الله، أي: سبيل من رجع إلى الله عزّ وجلّ بالإيمان والطاعة وسُلوِك الصراط المستقيم.

والذين أنابوا إلى الله في حياتهم هم الرُّسُل والنبيُّون والصدِّيقُونَ ومن اتَّبَعَهُمْ بإحسانٍ من المؤمنين.

دلّ على هذه القضية :

﴿ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ . ﴾ .

وقد تكرر في القرآن وجوب اتباع سبيل جماعة المؤمنين، لأنّ الجماعة العامة للمؤمنين يكون سبيلها العامّ الذي أجمعوا عليه سبيلاً صالحاً مُنجياً

عند الله عز وجل، نظراً إلى أنّ جماعة المؤمنين قد عصمهم الله عز وجل من أن يتفقوا اتفاقاً عامّاً على ضلالة.

القضية السادسة: الوصية بملاحظة اليوم الآخر يوم الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، مع كل فعل أو ترك في رحلة الحياة الدنيا.
دلّ عليها من النص:

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

القضية السابعة: بيان شمول علم الله لكل شيء مهما كان دقيقاً وصغيراً، وشمول قدرة الله على خلق ما يُريد، وإحضار أي شيء يُريد من أقصى شيء في الكون، ومن باطن أي شيء في الكون، وهو جلّ وعلا لا يضلّ عنه شيء مهما صغر واختفى، ولا يُعجزه شيء من الممكنات العقلية.

دل على هذه القضية قول لقمان لابنه:

﴿ يَبْنِيٰ إِنَّمَا إِنْهَا إِنْ تَكُ مِنْقَالِ حَبَوٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

القضية الثامنة: الأمر بإقامة الصلاة.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه:

﴿ يَبْنِيٰ أَقْرِبِ الصَّلَاةَ ﴾.

إن الصلاة فريضة فرضها الله على عباده في كل رسالته للناس.

القضية التاسعة: توصية لقمان لابنه بأن يأمر بالمعروف ويأمن ينهي عن

المنكر.

فدلّ هذا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من التكاليف التي

اشتملت عليها الرسالات الربانية السابقة للإسلام.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه :

﴿ . . . وَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ . . . ﴾

القضية العاشرة: توصية لقمان لابنه بأن يصبر على كل مكروه أصابه، سواءً أكان من المصائب التي تنزل من عند الله بالأنفس أو الأموال أو الأهل أو الأولاد، أو من المصائب التي يواجهها من الناس حامل رسالة الهداية والتذكير والإصلاح والحماية، في مجال أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ودعوته إلى دين ربه، أو غير ذلك من مجالات الخير.

وأبان له أنّ الصبر على المصائب من عزم الأمور، أي: من الأمور التي تحتاج إرادة قويّة من مُستوى العزم.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه :

﴿ . . . وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

القضية الحادية عشرة: توصية لقمان لابنه بأن لا يصغر خذه للناس، أي: بأن لا يستكبر عليهم بأيّة حركة تدلّ على كبره وتعاليه على الناس، أو بأيّ قول.

يقال لغة: صَغَرَ خَدَّهُ، إذا أماله كِبْرًا.

فتصغير الخدّ كناية عن الكبر على عباد الله، لأن عادة المستكبرين أن يُميلوا رؤوسهم إلى جانب، فيظهر أحد الخدّين مائلًا.

دلّ على هذه الوصية قول لقمان لابنه :

﴿ وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ . . . ﴾

القضية الثانية عشرة: توصية لقمان لابنه بأن لا يمسي في الأرض مَرَحًا، أي: بأن لا يمسي في الأرض مشي الفرحين المستكبرين باختيال وتبختر.

المَرَحُ في المشي: الاختيال والتبختر، وأصلُ المرح شدة الفرح

والنشاط، وتجاوز الحد في الحركات عما يتحلّى به الناس عادة من سَمْتٍ واعتدال، ويكون هذا التجاوز عن فَرَحٍ أخرج النفس عن اعتدالها، وسَوَائِهَا، وبسبب ذلك يتكبَّرُ ويتبخترُ الفَرِحُ المتجاوز الحدَّ.

دلّ على هذه القضية قولُ لقمان لابنه:

﴿... وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

القضية الثالثة عشرة: توصية لقمان لابنه بأن يَقْصِدَ في مَشْيِهِ، أي: بأن يكون مَشْيُهُ قَصْدًا مستويًا متوسطًا بين التكاثر والتضاعف، وبين الإفراط في السرعة.

فالتَّبَاطُؤُ والتضاعف كَسَلٌ مذموم، والسرعة الزائدة حِقْفَةٌ وطَيْشٌ.

أما الاستواء والاعتدال مع التوسط بين التَّبَاطُؤُ والسرعة فهو الذي يدلُّ على الرزانة والعقل وسلامة النفس.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه:

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ...﴾.

القضية الرابعة عشرة: توصية لقمان لابنه بأن يُعْضِضَ من صَوْتِهِ، أي: بأن يخفضه ويكتفي منه بقدر حاجة المستمعين، وهذا من آداب استخدام الصوت للحاجات.

وأبان له أن رفع الصوت من غير حاجة أمرٌ مستنكر مستهجن، ووضرب له مثلاً صوت الحمير، مبيّنًا له أنه أنكر الأصوات.

دلّ على هذه القضية قول لقمان لابنه:

﴿... وَأَعْضِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

أصل الغضّ النقص من الشيء.

الفصل الرابع

صور ونماذج عامة

وفيه خمسة عشرة صورة:

- ١ - الدعوة إلى الدخول في الإسلام المصحوبة بالإنذار (دعوة الرسول لليهود).
- ٢ - إقامة الحجة على المخالف المراوغ من نصوص ما يؤمن به (حوار الرسول لبعض أحبار اليهود).
- ٣ - حُسن الاستقبال والحوار بانتزاع الاعتراف بالمقدمات (قصة إسلام عديّ بن حاتم).
- ٤ - تكريم الأسير وإطلاقه الحكيم من الأسر وأثرهما (قصة إسلام ثمامة بن أثال).
- ٥ - تنزيل الناس منازلهم تأليفاً لقلوبهم (قصة إسلام وائل بن حُجر).
- ٦ - امتلاك القلوب بمكارم الأخلاق (قصة إسلام الحبر اليهودي زيد بن سعة).

٧ - الدعوة والنصح بتوجيه الكتب والرسائل.

(رسالة الرسول إلى كسرى).

(رسالة الرسول إلى هرقل).

(رسالة الرسول إلى المقوقس).

(رسالة الرسول إلى النجاشي).

٨ - رسائل الأقربين إلى الأقربين وأثرها (رسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد بن الوليد).

٩ - الجرأة في الحق (جرأة الصحابي عائذ بن عمرو بن هلال عند الأمير عبيدالله بن زياد).

١٠ - من طلب الموعظة فتح أبواب نفسه لتقبلها.

(ابن السمّك وهارون الرشيد).

(الحسن البصري وعُمر بن عبد العزيز).

(والد عبد العزيز بن أبي حازم وعمر بن عبد العزيز).

(الأوزاعي والخليفة العباسي المنصور).

(عائشة أم المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان).

١١ - الشجاعة الأدبية في إنكار المنكر (العزّ بن عبد السلام وسلطان مصر نجم الدين أيوب).

١٢ - زهد العلماء بما في أيدي الأُمراء يمنحهم الجرأة في الحق (سفيان الثوري وأبو جعفر المنصور).

١٣ - قوة تأثير الموعظة (صالح بن بشير المرّي والخليفة المهدي).

١٤ - شجاعة العالم الرّباني في أخطر المواقف (الإمام ابن تيمية وقازان طاغية التتر).

١٥ - ذكاء ودهاء العالم الداعية (مناظرات الباقلاني ودهاؤه في بلاد الروم).

الصورة الأولى

الدعوة إلى الدخول في الإسلام المصحوبة بالإنذار
بعد سبق تبليغ أركان الإيمان وأركان الإسلام بما يكفي للبلاغ والعلم

دعوة الرسول ﷺ لليهود:

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

(بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ»
فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمِذْرَاسِ^(١)، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ
يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا».

فقالوا: بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ أُرِيدُ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا».

فقالوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

فقال لهم: «ذَلِكَ أُرِيدُ» ثُمَّ قَالَهَا الثَّالِثَةَ، فَقَالَ:

«اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِبِكُمْ مِنْ هَذِهِ
الْأَرْضِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلَّا فَاغْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ
وَرَسُولِهِ».

انظر فتح الباري الحديث رقم ٧٣٤٨

(١) المِذْرَاسُ: الموضع الذي يُدرَسُ فيه كتاب الله، ومنه مدراس اليهود الذي يدرسون فيه التوراة والكتب الدينيّة المنزلة على أنبياء بني إسرائيل.

هذه الحادثة تدلُّ على أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَبَلَّغُوا الدَّعْوَةَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَعَلِمُوا أَرْكَانَ الْإِيمَانِ وَأَرْكَانَ الْإِسْلَامِ عِلْمًا كَافِيًا، وَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَرَادَ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ عَنْ طَرِيقِ تَبْلِيغِ رِجَالِ أَكْبَرِ مُؤَسَّسَةِ دِينِيَّةِ لَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ هِيَ بَيْتِ الْمِذْرَاسِ، الْبَلَاغُ الْأَخِيرَ الْمَوْكَّدَ الْمَصْحُوبَ بِالْإِنْذَارِ، بِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُسَلِّمُوا لَمْ يَسَلِّمُوا عِنْدَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ فِي الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَسَلِّمُوا أَيْضًا فِي الدُّنْيَا عِنْدَ رَسُولِهِ وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَصَارِحَهُمْ بِخَطِيئَتِهِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ إِجْلَاءَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ مُشِيرًا إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا، وَرَبَّمَا كَانَ يَقْصِدُ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ كُلَّهَا، وَمِنْحَهُمُ الْفُرْصَةَ لِيَتَأَهَّبُوا لِهَذَا الْإِجْلَاءِ، إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ بِبَيْعِ مَمْتَلِكَاتِهِمُ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ نَقْلَهَا، لِأَنَّهُ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الْإِجْلَاءِ طُرِدُوا دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعُوا حَمْلَ شَيْءٍ مِنْ مَمْتَلِكَاتِهِمُ الَّتِي لَا يُمْكِنُ نَقْلُهَا.

وقد أكد الرسول ﷺ لهم عبارة: أَسَلِّمُوا تَسَلِّمُوا. ففي الأولى قالوا له: بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. وفي الثانية والثالثة أضافوا إلى عبارتهم حرف «قَدْ» الدالَّ على التأكيد، فقالوا له: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَي: قَدْ قُمْتَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْكَ مِنْ تَبْلِيغٍ، لَكِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ نَسْتَجِيبَ لِدَعْوَتِكَ.

* * *

الصورة الثانية

إقامة الحجّة على المخالف المراوغ من نصوص ما يؤمن به

حوار الرسول ﷺ لبعض أحيار اليهود في حكم الرجم:

روى أبو داود بسننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

(أَتَى نَفَرٌ مِنْ يَهُودَ، فَدَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْقَفِّ^(١)، فَأَتَاهُمْ فِي بَيْتِ الْمِدْرَاسِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ رَجُلًا مِمَّنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ، فَأَحْكُمُ، فَوَضَعُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ:

«اِثْنُونِي بِالتَّوْرَةِ».

فَأْتِيَ بِهَا، فَتَرَعَ الْوَسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ، وَوَضَعَ التَّوْرَةَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَنْتُ بِكَ وَبِمَنْ أَنْزَلَكِ» ثُمَّ قَالَ: «اِثْنُونِي بِأَعْلَمِكُمْ» فَأْتِيَ بِشَابٍّ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الزَّانَا؟» فَقَالُوا: نَقَضَحُهُمْ وَيُجْلِدُونَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ^(٢): كَذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا آيَةَ الرَّجْمِ، فَتَشَرُّوا التَّوْرَةَ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، ثُمَّ جَعَلَ يَقْرَأُ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: ازْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَهَا، فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا:

(١) القَفِّ: اسم وادٍ في المدينة.

(٢) من فضلاء من أسلم من اليهود.

صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَجِمَا.
قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَجُنُّ^(١) عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا
الْحِجَارَةَ).

فَأَقَامَ الرَّسُولُ ﷺ الْحِجَّةَ عَلَيْهِمْ مِمَّا يُؤْمِنُونَ بِهِ فِي كِتَابِهِمْ.

* * *

(١) يَجُنُّ عَلَى الْمَرْأَةِ: أَي: يُكِبُّ عَلَيْهَا لِيُخِمَّيَهَا.

الصورة الثالثة

حُسْنُ الاستقبال والحوارُ بانتزاع الاعتراف بالمقدمات
التي تستلزم النتائج التي يُرادُ الإلزام بها
مع استعطاف النفس بما تحبُّ

قصة إسلام عدي بن حاتم^(١):

ذكر ابن كثير في تفسيره قال: روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طُرُقٍ، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، أنه لما بلغته دعوة الرسول ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأَسْرَتْ أُخْتُهُ وجماعةٌ من قومه، ثُمَّ مَنَّ رسول الله ﷺ على أُخْتِهِ وأعطاهَا، فرجَعَتْ إلى أُخِيهَا، فرَعَبَتْهُ في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فتقدَّم عَدِيٌّ إلى المدينة وكان رَئِيساً في قومه طَيِّءٍ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم.

فتحدَّث النَّاسُ بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عُتُقِ عَدِيٍّ صليْبٌ من فضةٍ، وهوَ (أي: الرسول) يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا آخْبَارَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾.

قال عَدِيٌّ: فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ.

فقال: «بلى، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْنِهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ».

(١) انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا آخْبَارَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ آية ٣١ من التوبة.

وقال رسول الله ﷺ: «يَا عَدِيّ، مَا تَقُولُ؟ أَيُضْرِكُ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئاً أَكْبَرَ مِنْ اللَّهِ؟ مَا يُضْرِكُ؟ أَيُضْرِكُ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ؟».

ثم دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ.

قال عدِيّ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ».

وجاء عند ابن إسحاق كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن عدِيّ بن حاتم أنه كان يقول: ما رَجُلٌ من العرب كان أشدَّ كراهةً لرسول الله ﷺ حين سَمِعَ به مِنِّي، أمَّا أَنَا فَكُنْتُ امراً شَرِيفاً، وَكُنْتُ نَضْرَانِيّاً، وَكُنْتُ أُسَيْرُ فِي قَوْمِي بِالْمِزْبَاعِ^(١)، وَكُنْتُ فِي نَفْسِي عَلَى دِينِ، وَكُنْتُ مَلِكاً فِي قَوْمِي، لِمَا كَانَ يَصْنَعُ بِي.

فلَمَّا سَمِعْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَرِهْتَهُ، فَقُلْتُ لِغَلَامٍ كَانَ لِي عَرَبِيّ، وَكَانَ رَاعِيّاً لِإِبِلِي: لَا أَبَا لَكَ، أَعِدِّدْ لِي مِنْ إِبِلِي أَجْمَالاً ذُلَّلاً سَمَاناً، فَاخْتَبَسْتُهَا قَرِيباً مِنِّي، فَإِذَا سَمِعْتَ بِجَيْشٍ لِمُحَمَّدٍ وَقَدْ وَطِئَ هَذِهِ الْبِلَادَ فَأَذِّنِي، فَفَعَلَ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَانِي ذَاتَ عِدَاةٍ، فَقَالَ: يَا عَدِيّ، مَا كُنْتَ صَانِعاً إِذَا غَشِيَتْكَ خَيْلُ مُحَمَّدٍ فَاصْنَعُهُ الْآنَ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَايَاتٍ فَسَأَلْتُ عَنْهَا، فَقَالُوا: هَذِهِ جُيُوشُ مُحَمَّدٍ.

قال عدِيّ: قُلْتُ: فَقَرَّبْ إِلَيَّ أَجْمَالِي، فَفَرَّيْتُهَا، فَاخْتَمَلْتُ بِأَهْلِي وَوَلَدِي، ثُمَّ قُلْتُ الْحَقَّ بِأَهْلِ دِينِي مِنَ النَّصَارَى بِالشَّامِ، فَسَلَكْتُ الْجَوْشِيَّةَ^(٢)، وَخَلَفْتُ

(١) المرباع: رُبْعُ الْغَنِيْمَةِ الَّذِي كَانَ يَأْخُذُهُ الرَّئِيسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

(٢) الْجَوْشِيَّةُ: جَبَلٌ لِلضَّبَابِ. قُرْبُ صَرِيَّةٍ، مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ.

بِنْتًا لِحَاتِمٍ فِي الْحَاضِرِ، فَلَمَّا قَدِمْتُ أَقَمْتُ بِهَا، فَتُخَالِفُنِي خَيْلُ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ، فَتُصِيبُ ابْنَةَ حَاتِمٍ فَيَمَنُّ أَصَابَتْ، فَقَدِمَ بِهَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي
سَبَايَا مِنْ طَيْءٍ، وَقَدْ بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَرَبِي إِلَى الشَّامِ.

قال عدي: فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا
تُخَبَسُ بِهَا، فَمَرَّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَزَلَةً^(١)،
فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَ الْوَالِدُ، وَعَابَ الْوَالِدُ^(٢)، فَاْمَنْنُ عَلَيَّ مِنَ اللَّهِ
عَلَيْكَ،

قال: «وَمَنْ وَافِدُكَ؟»

قالت: عدي بن حاتم.

قال: «الفاؤ من الله ورسوله».

قالت: ثُمَّ مَضَى وَتَرَكَنِي، حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ مَرَّ بِي، فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ
ذَلِكَ وَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ بِالْأَمْسِ.

قالت: حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْدَ الْغَدِ مَرَّ بِي، وَقَدْ يَسُنْتُ، فَأَشَارَ إِلَيَّ رَجُلٌ
خَلْفَهُ أَنْ قَوْمِي فَكَلَّمِيهِ، فَقَمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَ الْوَالِدُ وَعَابَ
الْوَالِدُ، فَاْمَنْنُ عَلَيَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكَ.

فقال ﷺ: «قَدْ فَعَلْتُ، فَلَا تَعْجَلِي بِخُرُوجِ حَتَّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِكَ مَنْ
يَكُونُ لِكَ ثِقَةً، حَتَّى يُبَلِّغَكَ إِلَى بِلَادِكَ، ثُمَّ أَذِنِي، فَسَأَلْتُ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي
أَشَارَ إِلَيَّ أَنْ كَلَّمِيهِ، فَقِيلَ لِي: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

قالت: فَقَمْتُ حَتَّى قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بِلْيٍّ أَوْ قُضَاعَةَ.

قالت: وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ آتِيَ أَخِي بِالشَّامِ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ:

(١) جزلة: أي: ضخمة الجسم.

(٢) الوافد: أي: الذي يفد علي من حين لآخر.

يا رسول الله، فذ قدِمَ رَهْطٌ من قومي، لي فيهم نَفَقَةٌ وبِلاغٌ.

قَالَتْ: فَكَسَّانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَحَمَلَنِي، وَأَعْطَانِي نَفَقَةً، فَخَرَجْتُ معهم حَتَّى آتَيْتُ الشَّامَ.

قال عديٌّ: فوالله إني لقاعدٌ في أهلي، إذ نَظَرْتُ إلى طعينة^(١)، تُصَوِّبُ إِلَيَّ تَوْمُنًا، فَقُلْتُ: ابْنَةُ حَاتِمٍ، فَإِذَا هِيَ هِيَ، فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَيَّ انْسَحَلَتْ^(٢) تقول: الفاطع الظالم، احْتَمَلَتْ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ، وَتَرَكْتَ بَقِيَّةَ وَالِدِكَ عَوْرَتَكَ؟!

قال عديٌّ: قُلْتُ: أَيُّ أُخِيَّةٍ لَا تَقُولِي إِلَّا خَيْرًا، فوالله ما لي من عُذْرٍ، لَقَدْ صَنَعْتُ مَا ذَكَرْتَ.

قال: ثُمَّ نَزَلَتْ فَأَقَامَتْ عِنْدِي، فَقُلْتُ لَهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً حَازِمَةً: مَاذَا تَرَيْنَ فِي أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ؟

قالت: أَرَى وَاللَّهِ أَنْ تَلْحَقَ بِهِ سَرِيعًا، فَإِنْ يَكُنِ الرَّجُلُ نَبِيًّا، فَلِلسَّابِقِ إِلَيْهِ فَضْلُهُ، وَإِنْ يَكُنْ مَلِكًا فَلَنْ تَدَلَّ فِي عِزِّ الْيَمَنِ، وَأَنْتِ أَنْتِ.

قال عديٌّ: قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الرَّأْيَ. فَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَسْجِدِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَنْ الرَّجُلُ؟» فَقُلْتُ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاَنْطَلَقَ بِي إِلَى بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لِعَامِدٌ بِي إِلَيْهِ، إِذْ لَقِيْتُهُ امْرَأَةً ضَعِيفَةً كَبِيرَةً، فَاسْتَوْقَفْتُهُ، فَوَقَفَ لَهَا طَوِيلًا تُكَلِّمُهُ فِي حَاجَتِهَا.

قال: قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللَّهِ مَا هَذَا بِمَلِكٍ. قال: ثُمَّ مَضَى بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ بِي بَيْتَهُ، تَنَاوَلَ وَسَادَةً مِنْ أَدَمٍ مَحْشُوءَةً لِيْفًا،

(١) الطعينة: المرأة في هودجها.

(٢) انْسَحَلَتْ: أي: أخذت في اللوم الشديد.

فَقَدَفَهَا إِلَيَّ، فقال: «اجلس على هذه» فقلت: بل أنت فاجلس عليها. فقال:
«بل أنت» فجلستُ عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. فقلتُ في نفسي:
والله ما هذا بأمرٍ مَلِكٍ.

قال عديُّ: ثُمَّ قال: «إيه يا عديُّ بن حاتم، ألم تك رَكُوسِيًّا^(١)؟». قُلْتُ: بلى. قال: «أولم تكن تسيِّر في قومك بالمزباع؟». قُلْتُ: بلى. قال: «فإنَّ ذلكَ لم يكن يحلُّ لك في دينك». قُلْتُ: أجل والله، وعرفتُ أنَّه نبيُّ مُرسَلٌ يعلم ما يُجهل. ثُمَّ قال: «لعلك يا عديُّ إنَّما يَمْنَعُكَ من دُخُولِ في هذا الدِّين، ما ترى من حاجتِهِمْ، فوالله ليُوشِكَنَّ المَالُ أن يفيضَ فيهِمْ، حتَّى لا يوجدَ من يأخذه، ولعلك إنَّما يَمْنَعُكَ من دُخُولِ فيهِ، ما ترى من كثرةِ عدوِّهِمْ، وقلةِ عددهم، فوالله ليُوشِكَنَّ أن تسمعَ بالمرأةِ تخرجُ من القادسيَّةِ على بغيرها حتَّى تزورَ هذا البيتَ، لا تخافُ، ولعلك إنَّما يَمْنَعُكَ من دُخُولِ فيهِ، أنَّك ترى أنَّ المُلْكَ والسُّلطانَ في غيرِهِمْ، وإيُّمُ الله ليُوشِكَنَّ أن تسمعَ بالقُصورِ البِيضِ من أرضِ بابلٍ قد فُتِحَتْ عليهِمْ».

وجاء في رواية: «ولتفتحنَّ كنوزَ كِسْرَى بنِ هرمز، وليبذلنَّ المَالُ حتَّى لا يقبلَهُ أحدٌ».

قال عديُّ: فأسلمتُ.

وكان عديُّ يقول: قَدْ مَضَتِ اثنتانِ وبقيتِ الثالثةُ، والله لتكوننَّ، قَدْ رَأَيْتُ القُصورَ البِيضَ من أرضِ بابلٍ قَدْ فُتِحَتْ، وقَدْ رَأَيْتُ المرأةَ تخرجُ من القادسيَّةِ على بغيرها لا تخافُ، حتَّى تخرجَ هذا البيتَ، وإيُّمُ الله لتكوننَّ الثالثةُ، ليفيضنَّ المَالُ حتَّى لا يوجدَ من يأخذه.

وجاء في رواية، أن الرسول ﷺ قال لعدي:

(١) الركوسية: قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين.

«يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ مَا أَفْرَكَ؟ أَفْرَكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟ مَا أَفْرَكَ؟ أَفْرَكَ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟».

قال عديُّ: فاسلَمْتُ، فرأيتُ وجهَهُ استَبَشَرَ، وَقَالَ: «إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ، وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى».

* * *

الصورة الرابعة

تكريم الأسير وإطلاقه الحكيم من الأسرٍ وأثرهما

قصة إسلام ثُمَامَةَ بْنِ أَنَالٍ:

قَصَّةُ إِسْلَامِ «ثُمَامَةَ بْنِ أَنَالٍ» مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، أَحَدِ مَلَكَي الْيَمَامَةِ، وَقَدْ كَانَ عَدُوًّا مُحَارِبًا لِلْإِسْلَامِ وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

بعث رسول الله ﷺ خَيْلًا قَبْلَ نَجْدِ فَاسَرُوا ثُمَامَةَ بْنَ أَنَالٍ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَنْ هُوَ، حَتَّى أَتَوْا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَتَذَرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ؟ هَذَا ثُمَامَةُ بْنُ أَنَالِ الْحَنَفِيِّ، أَحْسِنُوا إِسَارَهُ».

فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ: «اجْمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ فابْعَثُوا بِهِ إِلَيْهِ» وَأَمَرَ بِلِقْحَتِهِ (أَي: بِنَاقَتِهِ الْحَلُوبِ ذَاتِ اللَّبَنِ) أَنْ يُغَدَى عَلَيْهِ بِهَا وَيُرَاحَ، لِتُحَلَبَ لَهُ، وَيُسْقَى مِنْ لَبَنِهَا.

فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟».

فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فتركه الرَّسُولُ ﷺ، حَتَّى كَانَ الْغَدُ فَمَرَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟».

فقال: ما قُلْتُ لَكَ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فتركه الرسول ﷺ، حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْعَدِ، فَمَرَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا نُمَامَةَ؟».

فقال: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

فقال رسول الله ﷺ: «أَطْلِقُوا نُمَامَةَ» فَأَطْلَقُوهُ.

فَانْطَلَقَ إِلَى نَحْلِ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فِيهِ مَاءٌ، فَأَعْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوَجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلِكَ أَخَذْتَنِي، وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟

فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمَرَ.

فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لَا وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حَنْطَةٌ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(١).

* * *

(١) عن ابن كثير في البداية والنهاية، وعن الإمام مسلم في صحيحه.

الصورة الخامسة

تنزيل الناس منازلهم تأليفاً لقلوبهم

قصة إسلام وائل بن حُجر:

كان وائل بن حُجرٍ أحدَ أقبالِ حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم، وكان له صنمٌ من العقيق الأحمر، يعبُدُهُ، ويُحِبُّهُ، حبًّا شديدًا، ويكثر السُّجُود له، ويعقر عنده العقائر.

وبينما هو نائمٌ في الظهيرة، إذ أيقظه صوتٌ منكرٌ من المخدع الذي فيه الصنم، فقام من مضجعه وأتاه، فسجدَ بين يديه، وإذا قائل يقول له: لو كنت عاقلاً لأطعتَ أمرِي.

قال وائل: فرفعتُ رأسي، واستويت جالساً، ثم قلتُ: قد سَمِعْتُ أَيُّهَا الناصح، فماذا تأمرني؟

قال: اذهب سريعاً إلى المدينة.

قال وائل: ثم خرّ الصنم إلى وجهه، وانكسرَ أنفُهُ، واندقت عنقه، فقامت إليه فجعلته رفاتاً، ثم سرتُ مُغِداً، حتّى أتيت المدينة، وأتيت المسجد، فلما رأني رسول الله ﷺ أدناني، وبسط لي رداءً، فجلستُ عليه، ثم صعدَ المنبر، وأقامني دونه، ثم قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ: هَذَا وَائِلُ بْنُ حُجْرٍ» أتاكم من أرضٍ بعيدة، من حضرموت، راغباً في الإسلام».

قال وائل: يا رسول الله، بلغني ظُهُورُكَ، وأنا في مُلْكٍ عظيم، فَمَنَّ
اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ رَفَضْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَآثَرْتُ دِينَ اللَّهِ.

قال: «صَدَقْتَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي وَائِلٍ وَوَلَدِهِ، وَوَلَدِ وَوَلَدِهِ».

فما لقيني أَحَدٌ من أصحابه إِلَّا قَالَ لِي: بَشَّرَنَا بِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ
قُدُومِكَ بثلاث^(١).

(١) عن كتاب «من الذي يغير المنكر وكيف» للدكتور: محمود محمد عمارة عن كتاب
خير البشر.

الصورة السادسة

امتلاك القلوب بمكارم الأخلاق

قصة إسلام الجبر اليهودي «زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ»:

روى الطبراني وابن ماجه وابن حبان والحاكم وغيرهم أنّ زَيْدَ بْنَ سَعْنَةَ

قال:

ما من علامات التَّجْوَةِ شيءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ

نظرتُ إليه، إِلَّا اثْنَيْنِ لَمْ أَخْبِرْهُمَا هُما منه:

● أَنَّهُ يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ.

● وَلَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ إِلَّا حِلْمًا.

حَتَّى جَاءَ رَجُلٌ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِي نَفَرٌ فِي قَرْيَةِ بَنِي فُلَانٍ،

حَدَّثْتُهُمْ إِنْ أَسْلَمُوا أَتَاهُمْ الرِّزْقُ رَغَدًا، فَأَسْلَمُوا.

وَقَدْ أَصَابْتُهُمْ سَنَةٌ (أَي: سَنَةٌ قَحْطٌ) وَأَخْشَى أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ

طَمَعًا كَمَا دَخَلُوهُ طَمَعًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بِشَيْءٍ فَعَلْتُ.

فَنظَرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى رَجُلٍ إِلَى جَانِبِهِ، أَرَاهُ عَلِيًّا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

مَا بَقِيَ مِنْهُ شَيْءٌ.

قال زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، وَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ لَكَ أَنْ تَبْعَنِي

تمراً معلوماً إلى أجلٍ معلوم؟ فباعني، فأعطيتُهُ ثمانينَ مثقالاً من ذهبٍ في تمرٍ معلوم، إلى أجلٍ كذا وكذا.

فأخذَ هذاَ الذهبَ، وأعطاهُ للرَّجلِ، وقالَ له: اعدِلْ عليهم وأغنيهم.

قالَ زيدُ بنُ سَعْنَةَ: فلَمَّا كانَ قَبْلَ مَحَلِّ الأَجْلِ بيومينِ أو ثلاثة، خَرَجَ رسولُ الله ﷺ ومعه أبو بكرٍ وعُمَرُ وعثمانُ رضي اللهُ عنهم في نَفَرٍ من أصحابه.

فلَمَّا صَلَّى علىَ الجنازة، ودَنَا إلى الجِدارِ ليَجْلِسَ إليه، أتيتُهُ فَأَخَذَتْهُ بمجامعِ قَمِيصِهِ وَرِدَائِهِ، ونَظَرْتُ إِلَيْهِ بوجهِ غليظٍ، وَقُلْتُ له: يَا مُحَمَّدُ، أَلَا تَقْضِينِي حَقِّي؟ فواللَّهِ ما علمتُ بني عَبْدِ المَطْلِبِ إِلَّا مُطْلاً، ولَقَدْ كُنْتُ لي بمخالطتِكُمْ عِلْمٌ.

قالَ زيدُ بنُ سَعْنَةَ: ونَظَرْتُ إلى عُمَرَ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ في وجْهِهِ كالفَلَكِ المستديرِ، ثمَّ رَمَانِي ببَصَرِهِ، وَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللهِ، أَتَقُولُ لرسولِ اللهِ ﷺ ما أَسْمَعُ، وتَضَعُ بِهِ مَا أَرَى؟ فوالذي نفسِي بيده، لولا ما أَحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ، ورسولُ اللهِ ﷺ يَنْظُرُ إِلَيَّ في سُكُونٍ وَتَوَدَّةٍ، فقالَ:

«يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا في حَاجَةٍ إِلَى غَيْرِ هَذَا، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ الطَّلَبِ، إِذْهَبَ بِهِ يَا عُمَرُ فَأَعْطِهِ وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رَوَّعْتَهُ».

قالَ زيدُ بنُ سَعْنَةَ: فَذَهَبَ بِي عُمَرُ فَأَعْطَانِي حَقِّي، وزادني عِشْرِينَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ.

فقلتُ: ما هذه الزيادةُ يا عُمَرُ؟

قالَ: أَمَرَنِي رسولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رَوَّعْتَكَ.

فقلتُ: أوتَعْرِفُنِي يا عُمَرُ؟

قال: لا .

قلت: أنا زيدُ بنُ سَعْنَةَ .

قال: الحَبِيرُ؟

قلت: الحَبِيرُ، وَقَدْ خَبِرْتُ فِيهِ عَلامَتَيْنِ وَوَجَدْتُهُمَا، فَأُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي
رَضِيْتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَأُشْهِدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي
صَدَقَةٌ عَلَى بَعْضِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ .

فرجع عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

* * *

الصورة السابعة

الدعوة والنصح بتوجيه الكتب والرسائل

من وسائل الرسول الدعوية الحكيمة ﷺ توجيهه الكتب والرسائل إلى الملوك وكبراء أقوامهم، بعد أن عَلِمَت الملوك بشأنه، وأنه صارَ لَهُ سُلْطَانٌ في جزيرة العرب وجيشٌ، فمنها ما يلي:

١ - رسالته ﷺ إلى كسرى مَلِكِ فارس، كما روى البخاري في كتاب المغازي:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارَسٍ، سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَأَمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ اللَّهِ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لِيُنذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحَقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ.

أَسْلِمُ تَسْلِمًا، فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمُجُوسِ»،

٢ - رسالته ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، كما روى البخاري في كتاب

الجهاد:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمِ تَسْلَمَ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ
مَرَّتَيْنِ، فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ.

وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ،
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِن تَوَلَّوْا
فَقُولُوا: اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

٣ - رسالته ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى الْمِقْوَقِسِ
عَظِيمِ الْقِبْطِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمِ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمِ يُؤْتِكَ اللَّهُ
أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْقِبْطِ.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا
نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا:
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

٤ - رسالته إلى النجاشي ملك الحبشة كما جاءت عند مسلم في كتاب

الجهاد: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ
الْحَبَشَةِ، أَسْلِمِ أَنْتَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ
السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها
إِلَى مَرْيَمَ الْبُتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى، فَخَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ رُوحِهِ
وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ.

وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَخُدْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمُؤَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ
تَتَّبِعَنِي، وَتُؤْمِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ
إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ، فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى». .
يلاحظ في كِتَابِ الرَسُولِ ﷺ إِلَى النُّجَاشِيِّ، أَنَّهُ زَادَهُ عَمَّا بَعَثَ إِلَى
الْمَلُوكِ الْآخَرِينَ زِيَادَاتٍ تَتَنَاسَبُ مَعَ مَا يَعْلَمُ الرَّسُولُ مِنْ حَالِهِ تُجَاةَ الْإِسْلَامِ،
وَأَنَّ مَا جَاءَ الْإِسْلَامَ بِهِ مُوَافِقٌ لِمَا يُؤْمَنُ هُوَ بِهِ فِي شَأْنِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،
فَهُوَ فِي اعْتِقَادِهِ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، لِذَلِكَ
طَلَبَ مِنْهُ الرَسُولُ ﷺ أَنْ يُوَالِيَ طَاعَتَهُ لِرَبِّهِ، بِاتِّبَاعِهِ دَعْوَةَ الدِّينِ الْجَدِيدِ،
فِيؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ وَبِالَّذِي جَاءَ بِهِ .

* * *

الصورة الثامنة

رسائل الأقربين للأقربين وأثرها

رسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد بن الوليد:
ذكر ابن كثير في البداية والنهاية^(١) عن الواقدي عن خالد بن الوليد
يحدّث عن إسلامه .

فمما ذكر خالد رضي الله عنه عن نفسه أنه قال:

وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضاء،
فطلبني فلم يجدني، فكتب إلي كتاباً فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم
أمّا بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك
عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألت رسول الله ﷺ عنك،
وقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به فقال: «مثل جهل الإسلام؟
ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيراً له، ولقد مناه على
غيره».

فاستدرك يا أخي ما فاتك من مواطن صالحة».

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج،
وزادني رغبة في الإسلام، وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني.

(١) انظر الجزء الرابع ص ٢٣٩.

ثم انطلق خالد رضي الله عنه مهاجراً إلى المدينة، واستقبله الرسول ﷺ
ببشرٍ ووجهٍ طلقٍ، وأدناه إليه، ثم قال له: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ
أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسَلِّمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ».

وأسلم معه عثمان بن طلحة، وعمرو بن العاص، كانا قد خرجا معه
إلى المدينة ليُسَلِّما.

* * *

الصورة التاسعة

الجرأة في الحقّ

دَخَلَ الصحابي «عائذ بن عمرو بن هلال» على «عبيد الله بن زياد» وكان أميراً على العراق أيام يزيد بن عبد الملك، فقال له:

أَيُّ بُنْيَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرَّعَاءِ الْحُطَمَةَ»
فإيّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ.

فقال له: اجلس، فإنما أنتَ مِنْ نُخَالَةٍ أصحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فقال: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتْ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ، وفي غيرهم^(١).

الْحُطَمَةُ: هُوَ الَّذِي يَسُوقُ الإِبِلَ سَوْقاً عَنِيفاً حَتَّى يَحْطِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

* * *

(١) انظر أسد الغابة ج/٢ ص ١٤٧/١٤٨.

الصورة العاشرة

مَنْ طَلَبَ الموعظة فتح أبواب نفسه لتَقْبِلَهَا

١ - معاوية وعائشة رضي الله عنهما:

عن معاوية أنه كتب إلى عائشة: أن اكتبي إليّ كتاباً توصيني فيه ولا تكثري، فكتبت:

سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«مَنْ التَّمَسَّ رِضَاَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَوْئِنَةَ النَّاسِ،
وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَاَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَكَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ».

والسلام عليك

٢ - عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَطَلَبَهُ الموعظة:

● كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري: عظني وأوجز.
فكتب إليه الحسن:

«أَمَا بَعْدُ: فَإِنَّ رَأْسَ مَا هُوَ مُصْلِحُكَ وَيُصْلِحَ اللَّهُ بِهِ عَلَى يَدَيْكَ الزُّهُدُ فِي
الدُّنْيَا.»

وَإِنَّمَا الزُّهُدُ بِالْيَقِينِ، وَالْيَقِينُ بِالتَّفَكُّرِ، وَالتَّفَكُّرُ بِالاعتبارِ، فَإِذَا أَنْتَ
فَكَرَّرْتَ فِي الدُّنْيَا لَمْ تَجِدْهَا أَهْلًا لِأَنَّ تَبِيعَ بِهَا نَفْسَكَ، وَوَجَدْتَ نَفْسَكَ أَهْلًا
لِأَنَّ تُكْرِمَهَا بِهَوَانِ الدُّنْيَا، فَإِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ، وَمَنْزِلُ غَفْلَةٍ.»

● وَرَوَى عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: عظيمي، فقلت له:

«اضطجع، ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة، فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة، فدعه الآن».

٣ - الخليفة العباسي (المنصور) وطلبه الموعظة:

دخل الإمام الأوزاعي على الخليفة العباسي «المنصور» فقال له: عظيمي.

قال الأوزاعي: «يا أمير المؤمنين، إن الله هو الحق المبين، ومن كره الحق فقد كره الله».

يا أمير المؤمنين، إن الملك لا يدوم لأحد، وإنما الملك لله وحده، ولو دام لأحد ما وصل إليك، واعلم أن أعز الناس عند الله التقاة، فمن طلب العز بطاعة الله تعالى، رفعه الله وأعزه، ومن طلبه بمغصيته وضعه الله وأذله».

فلما انتهى الأوزاعي من موعظته أمر له المنصور بمال، فاعتذر عن قبوله، وقال: يا أمير المؤمنين، ما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا فأخرم ثوابها، وأقلل من نفعها، وما دام أمير المؤمنين قائماً فينا بالعدل، فنحن في خير الله ثم في خيرك^(١).

٤ - هارون الرشيد وطلبه الموعظة:

أورد ابن كثير في البداية والنهاية^(٢) في أخبار هارون الرشيد، قال:

(١) عن كتاب «من الذي يغير المنكر وكيف؟» للدكتور محمود محمد عمارة.

(٢) انظر الجزء (١٠) ص ٢٢٤.

ودخل عليه ابنُ السَّمَاكِ^(١) يوماً، فاستَقَى الرّشيدَ، فَأَتِي بِقُلَّةٍ فِيهَا مَاءٌ مُبَرَّدٌ، فقال لابنِ السَّمَاكِ عِظَنِي.

فقال: يا أمير المؤمنين، بِكُمْ كُنْتُ مُشْتَرِيًا هَذِهِ الشَّرْبَةَ لَوْ مُنَعْتَهَا؟
فقال الرّشيد: بنصفِ مُلْكِي.

فقال: اشربْ هنيئاً، فلَمَّا شَرِبَ قال: أَرَأَيْتَ لَوْ مُنَعْتَ خُرُوجَهَا مِنْ
بَدَنِكَ بِكُمْ كُنْتُ تَشْتَرِي ذَلِكَ؟
قال: بِنِصْفِ مُلْكِي الْآخِرِ.

قال ابنُ السَّمَاكِ: إِنَّ مُلْكَاً قِيَمَةُ نِصْفِهِ شَرْبَةُ مَاءٍ، وَنِصْفُهُ الْآخِرُ قِيَمَةُ
بَوْلَةٍ، لَخَلِيقٌ أَنْ لَا يُتَنَافَسَ فِيهِ.
فبَكَى هَارُونَ الرّشيدَ.

* * *

(١) أحد الوعاظ العبّاد.

الصورة الحادية عشرة

الشجاعة الأدبية في إنكار المنكر

العزُّ بن عبد السلام وسلطان مصر نجم الدين أيوب :
قال الباجي : طَلَعَ شيخنا عَزُّ الدِّينِ مرَّةً إلى السلطان نجم الدين أَيُّوبَ ،
في يوم عيد بالقلعة ، فشهدَ العسكرَ مصطفينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَدْ خَرَجَ على قومِهِ
في زِينَتِهِ على عادة سلاطين الدِّيارِ المِصرِيَّةِ .

فالتفت إليه الشيخ وناداه : يا أَيُّوبُ ، ما حُجِّتَكَ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا قالَ لَكَ :
أَلَمْ أَبُؤْيِءَ لَكَ مُلْكَ مِصرَ ، ثُمَّ تَبِيحُ الخُمورَ ؟!

فقال السلطان : هل جَرَى ذلك ؟!

فقال الشيخ : نعم ، الحانة الفلانية تباح فيها الخُمور ، وغيرها من
المنكرات ، وَأَنْتَ تَتَقَلَّبُ في نعمة هذه المملكة .

يناديه بأَعْلَى صوتِهِ ، والعساكِرُ واقفون .

قال السلطان : يا سَيِّدِي ، هذا أَنَا ما عَمِلْتُهُ ، هذا من زَمَانِ أَبِي .

قال الشيخ : أَنْتَ من الذين يَقُولون : «وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ» ؟ ! .
فأضدَّر السلطان مرسوماً بإبطال تِلْكَ الحانة .

قال الباجي: سألتُ الشيخَ لَمَّا جاءَ من عندِ السُّلطانِ وقد شاعَ هذا الخبرُ، يا سَيِّدي كيفَ الحالُ؟ . فقال: يا بَنِي رَأَيْتُهُ فِي تِلْكَ العِظْمَةِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَهِينَهُ لئَلَّا تَكْبُرَ عَلَيهِ نَفْسُهُ فَتُوذِيهِ، فقلتُ: يا سَيِّدي، أَمَّا خِيفَتُهُ؟ فقال: وَاللَّهِ يا بَنِي اسْتَحْضَرْتُ هَيْبَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَصَارَ السُّلطانُ قُدَّامِي كَالْقِطِّ^(١).

* * *

(١) بتصرف عن كتاب «من الذي يغير المنكر»، عن كتاب من أخلاق العلماء ص ١٧٤ .

الصورة الثانية عشرة

زهّد العلماء بما في أيدي الأمراء يمنحهم الجرأة في الحقّ

سُفْيَانُ الثوري، وأبو جعفر المنصور:

لَقِيَ «أبو جعفر المنصور» أمير المؤمنين «سُفْيَانَ الثوري» العالم الزاهد، في الطواف، و «سفيان» لا يعرفه.

فَضْرَبَ «أبو جعفر المنصور» على عاتقه، وقال: له: أَنْعِرْ فُنِي؟

قال: لا، وَلِكِنَّكَ قَبَضْتَ عَلَيَّ قَبْضَةَ جَبَّارٍ.

قال أبو جعفر: عِظْنِي أبا عبد الله.

قال سفيان: وَمَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ فَأَعْظَكَ فِيمَا جَهِلْتَ؟!

قال أبو جعفر: فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَأْتِينَا؟

قال سفيان: إِنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْكُمْ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(١).

فَمَسَحَ أَبُو جَعْفَرٍ يَدَهُ بِهِ. ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى أَصْحَابِهِ، فقال: أَلْقَيْنَا الْحَبَّ

إِلَى الْعُلَمَاءِ فَلَقَطُوا، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سُفْيَانَ، فَإِنَّهُ أَعْيَانًا فِرَارًا.

أقول: هذا من أثرِ عِفَّةِ «سُفْيَانَ الثوري» وزهده في الدنيا، وترفُّعه عن

أَنْ يَشْتَرِيَ الدُّنْيَا بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ، وَمَنْ مَبْلَغِ تَقْوَاهُ وَوَرَعِهِ، وَطَلَبِهِ

لِرِضْوَانِ اللَّهِ وَالْجَنَّةِ.

(١) الآية ١١٣ من سورة (هود/١١).

الصورة الثالثة عشرة

قُوَّةُ تَأْتِيرِ الموعظة التي تنفذ إلى أعماق القلب

صالحُ بنُ بَشِيرِ المُرِّي، والخليفة المهدي:

جاء في البداية والنهاية لابن كثير^(١)، أن صالح بن بشير المرّي الواعظ العابد الزاهد، جلس يوماً في مجلس الخليفة المهدي، فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه، قال له فيها:

(اعْلَمْ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ خَضِمَ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ أُمَّتِهِ، وَمَنْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَضِمَهُ كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَضِمَهُ، فَأَعِدَّ لِمُخَاصِمَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ حُجْجاً تَضْمَنُ لَكَ النِّجَاةَ، وَإِلَّا فَاسْتَسَلِمِ لِلْهَلَكَةِ.

واعْلَمْ أَنَّ أَبطأ الصَّرْعَى نَهَضَ صَرِيحُ هَوَى بَدْعَتِهِ، واعْلَمْ أَنَّ الله قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَأَنَّ أَثْبَتَ النَّاسِ قَدَمًا، آخَذَهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ).

واستَمَرَّ يَعِظُ الخليفة حتى بكى بكاءً شديداً، وأمر بتدوين موعظته في دواوينه.

* * *

(١) انظر ج ١٠ ص ١٧٠.

الصورة الرابعة عشرة

شجاعة العالم الرّباني في أخطر المواقف

الإمام ابنُ تيمية، وقازان طاغية التتر:

لَمَّا قَدِمَ التتر بقيادة طاغيتهم قازان بآتجاه دَمَشَق، بعد أن استباح العراق وفارس وحكهما، وذُِعِرَ أهل دَمَشَق من مَقْدَمِهِمْ، اجتمع الإمام أحمدُ بنُ تيمية بأعيانهم للتفكير والتشاور في المصيبة القادمة، فاتفقوا على المسير إلى قازان، في وفدٍ من العلماء والأعيان، بغية أخذ الأمان لأهل دَمَشَق.

وانطلقوا للاجتماع به في بلدة «النَّبَك» وهي بلدة تقع بين دَمَشَق وحمص.

وفي يوم الاثنين الثالث من ربيع الآخر من سنة ٦٩٩ هجرية التقى الوفد الدمشقي بقازان طاغية التتر، وكان الإمام ابن تيمية هو السفير المتحدث بلسان القوم.

قال الشيخ كمال الدين بن الأنجا، وكان قد شهد اللقاء مع الوفد:

«كُنْتُ حَاضِراً مَعَ الشَّيْخِ فَجَعَلَ يُحَدِّثُ السُّلْطَانَ بِقَوْلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي الْعَدْلِ وَغَيْرِهِ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ عَلَى السُّلْطَانَ وَيَقْرُبُ مِنْهُ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثِهِ، حَتَّى قَرَّبَ أَنْ تُلَاصِقَ رُكْبَتَهُ رُكْبَةَ السُّلْطَانَ، وَالسُّلْطَانُ مَعَ ذَلِكَ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ مُضْغٍ لَمَّا يَقُولُ، شَاخِصٌ إِلَيْهِ لَأَ يُعْرِضَ عَنْهُ.

وإنَّ السُّلْطَانَ مِنْ شِدَّةِ مَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَيْبَةِ لَهُ،

سَأَلَ: مَنْ الشَّيْخُ؟ فَإِنِّي لَمْ أَرِ مِثْلَهُ، وَلَا أَثْبَتَ قَلْبًا مِنْهُ، وَلَا أَوْفَعَ مِنْ حَدِيثِهِ فِي قَلْبِي، وَلَا رَأَيْتُنِي أَعْظَمَ انْقِيَادًا لِأَحَدٍ مِنْهُ.

فَأَخْبَرَ بِحَالِهِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

فَقَالَ الشَّيْخُ لِلتَّرْجَمَانِ: قُلْ لِلْقَازَانِ:

«أَنْتَ تَزَعُمُ أَنَّكَ مُسْلِمٌ، وَمَعَكَ قَاضِيٌّ، وَإِمَامٌ، وَشَيْخٌ، وَمُؤَدِّتُونَ عَلَيَّ مَا بَلَّغْنَا، فَغَزَوْتَنَا.

وَأَبُوكَ وَجَدُكَ كَانَا كَافِرَيْنِ، وَمَا عَمِلَا الَّذِي عَمِلْتَ، عَاهِدَا فَوْقِيَا، وَأَنْتَ عَاهَدْتَ فَغَدَرْتَ، وَقُلْتَ فَمَا وَقَيْتَ، وَجُرْتَ».

وخرج الإمام ابن تيمية من عند الطاغية «قازان» معزراً مكرماً، بما وهبه الله من صدق وشجاعة وتضحية بنفسه من أجل حقن دماء المسلمين، وقد حقق الله له كثيراً مما جاهد لبلوغه، فكان سبباً في فكِّ إيسارٍ مُعْظَمِ أُسْرَى المسلمين لدى جيش قازان.

وذكر قاضي القضاة «أبو العباس» أنهم لما حضروا مجلس قازان، قُدِّمَ لَهُمْ طَعَامٌ فَأَكَلُوا مِنْهُ إِلَّا ابْنَ تَيْمِيَّةَ.

فَقِيلَ لَهُ: لِمَ لَا تَأْكُلُ.

فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ أَكُلُ مِنْ طَعَامِكُمْ، وَكُلُّهُ مِمَّا نَهَيْتُمْ مِنْ أَغْنَامِ النَّاسِ، وَطَبِخْتُمُوهُ بِمَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّاسِ.

ثُمَّ إِنَّ قَازَانَ طَلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ، فَأَيَّدَهُ وَأَنْصَرَهُ، وَإِنْ كَانَ لِلْمُلْكِ وَالدُّنْيَا وَالتَّكَاثُرِ فَاسْأَلُكَ أَنْ تَفْعَلَ بِهِ وَتَصْنَعَ، وَكَانَ يَدْعُو عَلَيْهِ، وَقَازَانُ يُؤْمِنُ عَلَى دَعَاةِ، وَنَحْنُ نَجْمَعُ ثِيَابَنَا خَوْفًا أَنْ يُقْتَلَ فَتَقَعَ دِمَاؤُهُ عَلَيْهَا.

قال قاضي القضاة: ثم لما حَرَجْنَا قُلْتُ له: كِذَّتْ تُهْلِكُنَا مَعَكَ، وَنَحْنُ مَا نَصْحَبُكَ مِنْ هُنَا.

فقال: وَأَنَا لَا أَصَاحِبُكُمْ.

فَانْطَلَقْنَا عُضْبَةً، وَتَأَخَّرَ هُوَ، فَتَسَامَعَتْ بِهِ الْخَانَاتُ وَالْأَمْرَاءُ، فَاتَّوَهُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَصَارُوا يَتَلَحِّقُونَ بِهِ لِيَتَبَرَّكُوا بِرُؤْيَيْتِهِ، فَمَا وَصَلَ إِلَّا فِي نَحْوِ ثَلَاثِ مِائَةِ فَارِسٍ فِي رِكَابِهِ.

وَأَمَّا نَحْنُ فَخَرَجَ عَلَيْنَا جَمَاعَةٌ مِنْ قُطَاعِ الطُّرُقِ فَسَلَبُونَا^(١).

وكان للشيخ مواقفٌ أُخْرَى جِهَادِيَّةً ضَدَّ أَمْرَاءَ قَازَانَ وَتُؤَابِهِ تَدُلُّ عَلَى بَطُولَتِهِ النَّادِرَةِ ثِقَةً بِاللَّهِ وَاعْتِمَاداً عَلَيْهِ.

وفي بعض الأعمال الجهادية التي كان يقوم بها ضدَّ الغزاة الطُّغَاةِ كان الشيخ ابن تيمية يَدُورُ كُلَّ لَيْلَةٍ عَلَى أَسْوَارِ دِمَشْقٍ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الصَّبْرِ وَالْقِتَالِ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ الْجِهَادِ، وَيَذَكِّرُهُمْ بِأَحَادِيثِ فَضْلِ الْمِرَابِطَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

واشترك رحمه الله رحمةً واسعةً في عدَّةِ معاركٍ قتاليةٍ ضدَّ الغزاةِ المفسدين، وكان يقود طائفةً من تلاميذه ومريديه المجاهدين في سبيل الله، وَيُحَرِّضُ السُّلَاطِينَ وَالْأَمْرَاءَ وَالْقَادَةَ وَالْأَجْنَادَ وَالْعَامَّةَ عَلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ يَجَاهِدُ وَيُقَاتِلُ ضَمَّنَ الْمُقَاتِلِينَ حَامِلِي رَايَاتِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

* * *

(١) نقل هذه الحادثة الشيخ أبو الحسن علي الحسن الندي في ترجمته لابن تيمية عن الكواكب الدرية ص ٢٥ - ٢٦ وقد تصرف في بعض العبارات.

الصورة الخامسة عشرة

ذَكَاءٌ وَدَهَاءُ الْعَالَمِ الدَّاعِيَةِ

مناظرات الباقلاني ودهاؤه في بلاد الروم وأساليبه البارعة

التعريف به :

هو أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمّد المشهور بالباقلاني، عاش ما بين سنة (٣٣٨ - ٤٠٣ هجرية).

عراقي وُلِدَ في البصرة، وتلقّى العلم على كبار علمائها في عصره، وأنّصل بعُضدِ الدولة البُوَيْهِي الذي كانت السلطة العظمى في يده بعهد الخليفة العباسي «الطائع لله» فعظمت لديه منزلته، فأُسند إليه القضاء.

اختياره رسولاً إلى ملك الروم :

وجّه عُضدُ الدولة القاضي أبا بكر الباقلاني إلى ملك الروم لإجراء معاهدة بين الرّوم وبين المسلمين في المشرق يومئذٍ، وليكون الناطق الدينيّ الكاشف لحقائق الإسلام، والكاشف لما في النصرانيّة من باطلٍ وخللٍ.

فاستجاب القاضي أبو بكر الباقلاني للأمر، وخرج قاصداً بلاد الروم، حتى وصل القسطنطينية^(١)، حيث يقيم ملك الروم، ولما علم ملك الروم بقدم وفد عضد الدولة، أرسل إليهم من يستقبلهم ويدخلهم على الملك،

(١) هي اسطنبول اليوم.

وقال لهم رسولُ الملك لا تدخلوا عليه حتَّى تخلعوا عمائمكم ونعالكم^(١).

فأبى القاضي الباقلاني، وقال لرسول الملك: لا أدخل إلا على ما أنا عليه من الزّي واللباس، فإن أبيتم فخذوا الكتب فافرؤوها، وتُرسلون لي جوابها، وأعودُ بها.

فأرسل ملكُ الروم رسولاً يسأل القاضي عن سبب هذا الامتناع، مع أن المراسيم الملكية عنده تقضي بذلك مع رُسل كل الملوك.

قال القاضي أبو بكر: أنا رجلٌ من علماء المسلمين، وما تحبّونه ممّا ذُلب وصغار، والله تعالى قد رَفَعْنَا بالإسلام، وأَعَزَّنَا بِنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، ومن شأن الملوك إذا بعثوا رُسُلَهُمْ إلى مَلِكٍ آخَرَ أَنْ يَرْفَعُوا أَقْدَارَهُمْ، ولا يقصدوا إذلالهم، ولا سيّما إذا كان الرسول من أهل العلم، فإذا وُضِعَ قَدْرُهُ انهدم جاهُهُ عند الله وعند المسلمين، ولو أنّي فعلتُ ما تقضي به مراسيمكم عَيَّرَنِي المسلمون، وطعنوا في ديني، وسقطتُ من أعينهم.

فإن أرادني ملككم دخلتُ عليه كما أدخل على خليفة المسلمين، وإن كرهَ هذا فليقرأ كتابنا، وليرِدْ إلينا الجواب، ولا حاجة لنا في اللقاء.

فقال ملك الروم: دعوهُ يدخُلْ هو ومن معه كما يشتهون، وأدرك الملك مكانة هذا الرسول.

حيلة القاضي تغلب حيلة الملك:

علم ملك الروم أن رسول المسلمين إليه لا يسجد له على عادة رعيته إذا دخلوا عليه، فوضع سريره وراء باب قصير لا يدخل الداخل منه إلا راعياً، ودُعي القاضي الباقلاني ليدخل منه، فلما رآه باباً قصيراً فطن إلى أن

(١) تنظيم رَسْمُوهُ لتعظيم ملوكهم.

في الأمر حيلة يراد بها إدخاله على الملك وهو على هيئة راعٍ له، فأدار ظهره وحناه ودخل يمشي إلى خلفه مستقبلاً الملك يدُبُّره، حتى دنا منه، ثم رفع رأسه، ونصّب ظهره، وأدار وجهه إلى الملك.

فعجب الملك من فطنته وهابه، وقد دخل بنفس ثيابه، وعمامته وطيلسانه.

براعته في إجابته:

لما وقع بصر ملك الروم عليه أدناه منه، ورفع فوق جميع الحاضرين، وسأله عن إصراره على الدخول عليه وهو بكامل كسوته.

قال القاضي الباقلاني: بهذا الزّي ندخل على ملكنا الأعظم جلّ جلاله، وندخل على سلطاننا الأكرم، الذي أمرنا الله ورسوله بطاعته، فلماذا تنكرون عليّ هذا، وأنا رجلٌ من علماء المسلمين، إنني إن دخلتُ عليك بغير هيئتي أهنتُ العلمَ ونفسي، وذهبَ جاهي عند المسلمين.

فقال ملك الروم لترجمانه: قل له: قد قبلنا عُذْرَكَ، ورفعنا قدرك.

وسلم القاضي كتاب عضد الدولة للملك، وكان في الكتاب عبارة:

«وإني أرسلتُ لِسَانَ أَهْلِ المَلَّةِ تعظيماً لك وتكريماً».

فسأل الملك عن المراد بعبارة «لسان أهل الملة».

فأبان له القاضي ما حباه الله من علم يستطيع به أن يرُدَّ على أهل الملل والنحل المخالفة لمبادئ الإسلام وعقائده وشرائعه.

وأنزلهم الملك في منزل ضيافةٍ أعدَّه لهم.

حيلة عجيبة يحفظ بها القاضي رزاقته:

أراد ملك الروم أن يستخفَّ القاضي الباقلاني بالطرب، فأحضره في مجلس موسيقي، وفيه آلة طربٍ ما سمعها سامع إلا طرب واستخفَّته.

فلَمَّا سمعها الباقلاَني خاف على نفسه من أن تظهر عليه حركةٌ فيها خفةٌ بحضرة ملك الروم، فاجتهد في معالجة رجله، حتَّى أحدث بها جرحاً خرج منه دمٌ كثير، فشغله الألم عن الطَّرب، فلمْ تظهرْ عليه حركة ما تشعر بأنَّ السَّماعَ قد استخفَّه .

فعجب ملك الروم من رزاقته، ثم لَمَّا اكتشف حيلته تحقق من أنَّ الرَّجُل وافر الهمة عالي العزيمة .

دعوته إلى مائدة الملك :

ولَمَّا كان يوم الأحد بعث إليه ملك الروم، وطلب حضوره إلى مائدته، وقال له رسول الملك، من شأن الرسول أن يحضُرَ مائدة الملك، ويجيب إلى طعامه، ولا ينقص شيئاً من الرسوم المتَّبعة .

فاعتذر القاضي عن اتِّباع رسوم مائدة الملك، وعن تلبية الطلب، وقال: أخشى أن يكون على مائدة الملك لحوم الخنازير، أو شيءٌ ممَّا حرَّمه الله ورسوله على المسلمين .

فعاد رسولُ الملك يبلغه بأنَّ الملك يقول له : ليس على مائدتي ولا في طعامي شيءٌ تكرهه، وما أنت عندنا كسائر الرُّسُل بل أعظم .

وحضر القاضي المائدة، وأوهم أنه يأكلُ إلاَّ أنه لم يأكلُ شيئاً، ولَمَّا انتهى مجلس المائدة نشر الخدم البخور والعطور .

حوار مع الملك في مجلس أوَّل :

بعد استكمال مراسيم المائدة، واستقرار المدعوين في مجالسهم، قال ملك الروم للقاضي سائلاً :

هذا الذي تدعونه من معجزات نبيِّكم من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟ .

قال القاضي: هو صحيح عندنا، وقد انشقَّ القمر على عهد محمد رسول الله ﷺ، حتى رأى الناس ذلك، وإنما رآه الحاضرون ومن اتَّفَقَ نظرُهُ إليه في تلك الحال.

قال الملك: وكيف تثبتُ انشقاقه مع أن الناس في غير بلادكم لم يَرَوْه؟! .

قال القاضي: لأنهم لم يكونوا على أهبةٍ ووعْدٍ لانشقاقه حتى يتوجهوا لمشاهدته.

قال ملك الروم متهكماً: هل بينكم وبين القمر نسبةٌ أو قرابةٌ؟! لا يبي شيء لم تعرفِ الرُّومُ وسائرُ الناس انشقاقه، وإنما رأيتموه أنتم خاصة، مع أنه في السماء وهو غير مختصٍّ بكم؟! .

قال القاضي: هل بينكم وبين المائدة التي أنزلها الله لعيسى من السماء استجابةً لطلب الحواريين نسبةً أو قرابةً؟! .

فأنتم وحدكم الذين رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد، حتى اليونان جيرانكم، فإنهم جميعاً يُنكِرُونَهَا، فهل أنتم وحدكم رأيتموها دون غيركم؟! .

فلم يجد الملك جواباً بل انقطع متحيراً.

حوارُه مع أحد القساوسة:

وأمر الملك بإحضار أحد قساوسته ليحاوِر القاضي الباقلاني حول الموضوع نفسه.

قال القاضي: فجاءوا برجل كالذئب، أشقر الشعر مُسْبِلِه، فقعد للمحاوره، وحكيَّتْ له قصة الحوار مع الملك.

قال القسّيس: الذي قاله القاضي لازم، وهو الحقّ، ولا أعرف جواباً إلاّ ما ذكره.

وقال القاضي للقسّيس: ألسْتَ ترى أنّ الأرض كروية؟

قال القسّيس: بلى، هي كروية.

قال له القاضي: أفتنكر أن يُرى في هذا الإقليم ما لا يُرى في إقليم آخر، كالكسوف يُرى في موضع دون موضع، وكذلك كواكب السماء تُرى في موضع دون غيره، أم تقول: إنّ الكسوف إذا وقع رآه أهل الأرض كلّهم؟! .

قال القسّيس: بل لا يراه إلاّ من كان في محاذاته.

قال القاضي: فما الداعي لإنكار انشقاق القمر إذا كان في ناحية لا يراه فيها إلاّ أهل تلك الناحية، ومن تأهّب للنظر إليه، أمّا من أعرض، أو كان في أمكنة لا يُرى القمر منها فإنه لا يراه.

قال القسّيس: هو كما قلّت، إنّما الكلام في الرّواة الذين نقلوا الخبر.

قال الملك: وكيف يُطعنُ في الرّواة.

قال القسّيس: مثل هذه الآيات إذا صحّت وجب أن ينقله الجُمّ الغفير، حتّى يتصل بنا العلمُ به، ولو كان كذلك لوقّع عندنا العلم الضروريُّ به، فلمّا لم يقّع لنا العلم الضروريُّ به دلّ على أنّ الخبر مفتعلٌ وباطل.

فالتفت الملك إلى القاضي الباقلاني وقال له: هاتِ الجواب.

قال القاضي: يلزمه في نزول المائدة من السماء ما لزمني من انشقاق القمر، فيقال له: لو كان نزول المائدة صحيحاً لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ولا وثنيٌّ إلاّ وهو يعلمُ هذا بالضرورة، ولمّا لم يعلموا ذلك بالضرورة، دلّ على أنّ الخبر كذب.

فبهت القسيس والملك، ومن ضمَّهم المجلس، وانتهى المجلس على هذا.

حوار مع الملك في مجلس آخر:

ودعا ملك الروم القاضي الباقلاني إلى مجلس آخر.

فقال الملك: ما تقولون في المسيح عيسى ابن مريم؟

قال القاضي: هو روح الله، وكلمته، وعبده، ونبيّه، ورسوله، كمثل آدم خلّقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون، وتلا قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥١).

قال الملك: تقولون: المسيح عبْدٌ؟

قال القاضي: نعم، كذا نقول، وبه ندين.

قال الملك: ولا تقولون: إنّه ابنُ الله؟

قال القاضي: معاذ الله، وتلا قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١).

وقال القاضي: إنكم لتقولون قولاً عظيماً، فإذا جعلتم المسيح ابنَ الله، فمن كان جدُّه وأخوه وعمُّه وخاله وسائر الأقارب؟!

فتحير الملك.

قال الملك: العبدُ يخلُق ويُحيي ويميت، ويُبْرِئ الأكمه والأبرص؟

قال القاضي: لا يَقْدِرُ العبدُ على ذلك، وإِذَا ذلك كُلُّهُ من فعل الله تعالى.

قال الملك: كيف يكون المسيح عبداً لله، وخلقاً من خلقه، وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كُلُّهُ؟!!

قال القاضي: معاذ الله، ما أحيا المسيح الموتى، ولا أبرأ الأكمه والأبرص.

فتحير الملك وقلَّ صبره، وقال: أُنْكَرُ ذَا مع اشتهاهه في الخلق، وأخذ الناس له بالقبول؟

قال القاضي: ما قال أحدٌ من أهل الفقه والمعرفة: إِنَّ الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم، وإنما هو شيءٌ يفعله الله تعالى على أيديهم تصديقاً لهم، وهو يَجْرِي مَجْرَى الشهادة لهم بأنَّهُمْ صادقون.

قال الملك: إِنَّ آيات عيسى موجودةٌ عندكم في كتابكم.

قال القاضي: أيها الملك، في كتابنا أَنَّ ذلك كُلُّهُ كان بإذن الله تعالى، وتلا عليه قول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١١﴾ ﴾

وتلا عليه قول الله عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ

الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ
وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ .

وقال القاضي للملك: إنما فعل المسيح ذلك كله بإذن الله وخذته لا
شريك له، لا من ذات المسيح، ولو كان المسيح يُخَيِّب الموتى ويبرئ
الأكمة والأبرص من ذاته وقوته لجاز أن يُقال: إن موسى فلق البحر وأخرج
يده بيضاء من غير سوء من ذاته.

إن معجزات الأنبياء عليهم السلام ليست من أفعالهم دون إرادة الخالق
فلما لم يَجْزُ هذا لم يَجْزُ أَنْ تُسَنَدَ المعجزات التي ظهرت على يد المسيح
إِلَيْهِ.

قال الملك: كل الأنبياء من آدم إلى من بعده كانوا يتضرعون للمسيح
حتى يفعل لهم ما يطلبون.

قال القاضي: هذه دعوى يستطيع أن يدعي مثلها كل أتباع الرسل، أفي
لسان اليهود عظم حتى لا يقدرُوا أن يقولوا: إن المسيح كان يتضرع لموسى،
وكذلك أتباع كل رسول، يستطيعون أن يقولوا: إن عيسى كان يتضرع
لرسولهم.

قال أحد أساقفة الملك: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها فيما
رُميت به؟

قال القاضي الباقلاني: هما امرأتان ذكرتا بسوء، مريم وعائشة،
فبرأهما الله عز وجل، وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأنت مريم
بولد، ولم يكن لها زوج.

فبُهِتَ مَنْ فِي مَجْلِسِ الْمَلِكِ.

حوارٌ مع الملك في مجلس ثالث :

قال القاضي للملك لِمَ اتَّحَدَ اللاهوتُ بالناسوت؟! (أي: لِمَ اتَّحَدَتِ الطبيعةُ الربَّانيةُ بالطبيعةِ البشريةِ).

قال الملك: أراد الله أن ينجي الناس من الهلاك.

قال القاضي: وهل دَرَى اللهُ بأنه سَيُقْتَلُ وَيُصَلَّبُ وَيُفْعَلُ به ذلك؟. فإن قُلْتَ: إنه لم يَدْرِ ما كان اليهود يريدون به بطل أن يكون إلهًا، وإذا بطل أن يكون إلهًا بطل أن يكون ابنًا لله، وإن قُلْتَ: إنه دَرَى، ودخل في هذا الأمر وهو عالمٌ به، فهو ليس بحكيم، لأن الحكمة تمنع من التعرُّض للبلاء. فلم يجد الملك ما يجيب به.

إفحامه للملك وكبير بطاركته ومن معه من رؤساء ملتهم في مجلس رابع:

وفي مجلس رابع بمحفل من محافل النصارى دعا ملك الروم القاضي الباقلاني لحضوره، ليريه المظاهر الباهرة التي يتخذونها احتفاءً بدينهم، وبرؤساء ملتهم، عسى أن يتأثر بهذه المظاهر المدهشة التي لا نظير لها عند المسلمين.

وفي اليوم المحدد الموعود حضر الباقلاني هذا المجمع الحافل، الذي بالغوا في زيناته.

فأدناه الملك ولاطفه، وأجلسه على كرسيٍّ دون سريره بقليل، والملك في أبهى وخصته، وعليه التاج والألبسة الدرزية، ورجال مملكته على مراتبهم.

وبينما هم على ذلك، إذ جاء في آخر الناس بطركهم الأعظم، وهو قيّم ديانتهم، وكان قد أوعز إليه الملك بالتحفظ من قاضي المسلمين الباقلاني، وأبان له أنه داهية، وعسى أن يتعلق منه بسقطة، أو يعثر منه على زلة.

وأقبلَ كبير البطارقة محفوظاً بأتباعه في زِيٍّ حَسَنِ يَتَلَوْنَ الأناجيل،
ويَنشُرُونَ البخور.

فلَمَّا تَوَسَّطَ المجلس قامَ الملكَ ورجاله تعظيماً له، ففَضَّوْا حَقَّهُ من
الاحترام والتعظيم، وتَمَسَّحُوا بأطرافه، وأجْلَسَهُ الملكَ إلى جَنْبِهِ، وأقبلَ
الملكَ على القاضي الباقلاني، وَقَالَ له: يا فقيه، هذا البطرِك، قِيِّمُ الدِّيَانَةَ،
ووليُّ النُحْلَةِ.

فَسَلَّمَ القاضي عليه أحفل سلام، وسأله: كيف الأهلُ والأولاد؟.

فَعَظَّمَ قَوْلُهُ هذا على البطرِك، وعلى جميع القوم، وتَغَيَّرُوا له، وأنكَرُوا
على أبي بكر الباقلاني قوله.

قال القاضي: وَمَاذَا أَنْكَرْتُمْ من كلامي؟.

قال الملك: إِنَّا نُنَزِّهُ هؤُلاءِ عن الزوجة والولد.

قال القاضي: يا هؤُلاءِ، تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذا الزوجة
والولد، وتَزَبُّونَ به عن ذلك، ولا تستعظمونه لربكم عزَّ وجهُهُ، فَتُضَيِّفُونَ
ذلك إليه.

سَوَاءٌ لهذا الرأي ما أثبِنَ غَلَطَهُ.

فَسُقِطُوا في أيديهم، وبُهِتُوا، وانكَسَرُوا، ولم يُحِيرُوا جواباً،
وتداخلتهم هيبةٌ عظيمة له.

خاتمة أحداث سفارة القاضي الباقلاني:

ثم قال ملك الروم لبطركه: ما ترى في أمرِ هذا الشيطان؟.

قال البطرِك: تقضي حاجته، وتُلاطفُ صاحِبَهُ، وتبعث بالهدايا إليه،

وَتُخْرِجُ هَذَا الْعِرَاقِيَّ مِنْ بَلَدِكَ مِنْ يَوْمِكَ هَذَا، وَإِلَّا لَمْ آمَنِ الْفِتْنَةُ بِهِ عَلَى
النَّصْرَانِيَّةِ.

فَفَعَلَ الْمَلِكُ ذَلِكَ، وَأَحْسَنَ جَوَابَ عَضُدِ الدَّوْلَةِ، وَأَحْسَنَ هِدَايَاهُ،
وَعَجَّلَ بِتَسْرِيحِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِي، وَبِعَثَ مَعَهُ عِدَّةً مِنْ أَسَارِي
الْمُسْلِمِينَ، وَالْمَصَاحِفَ الَّتِي كَانُوا قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا، وَوَكَّلَ بِالْقَاضِي مِنْ
جُنْدِهِ مَنْ يَحْفَظُهُ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَأْمَنِهِ.

* * *

خاتمة الكتاب

هذا ما فتح الله به عليّ في موضوع هذا السفر المتعلق بفقهِ الدعوة إلى الله، وفقهِ النَّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد دَوَّنت معظم بحوثه استخراجاً من كتاب الله المجيد، ومن سيرة الرسول ﷺ الشريفة، وسنته المطهَّرة، بطريقة مباشرة، ثم من النظر في سير طائفة من دعاة الإسلام الموفقين وعلمائهم وفقهائهم ووعاظهم المؤثرين، ولم أهمل الاطلاع على معظم ما كُتِبَ في هذا الموضوع قديماً وحديثاً، مستفيداً منها عناصر أفكار، ومفاتيح بحوث، وأمثلة وشواهد.

وكان لي في هذا السفر منهجي العلمي الخاص الذي تمَّرسْتُ بالتزامه في كلِّ ما كُتِبْتُ من كُتُبِ فتح الله بها عليّ، وقد حاولتُ استقصاء كلِّ النصوص القرآنية التي ظهر لي أنَّها مشتملة على عناصر فكرية تتصل بموضوعه، ودرستها دراسة تدبُّر، لأستخرج منها عناصر وأحكام ووصايا وفقهِ الدعوة إلى الله، وفقهِ النَّصْح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأنَّه عليها في أبوابها وفصولها حسب مقتضيات التصنيف العلمي، الملتزم بروابط النظام الشجريّ ذي الجذور والفروع وفروع الفروع، حتى الأوراق والثمار.

وأرجو أن يسير حملة الرسالة على منهاجها العام، وأن يستفيدوا من التحرك في مسالكها بحسب مقتضيات الأحوال.

وقد استفدت لدى كتابتي هذا السفر من مخزونات المعرفة التي تراكمت لدي، من علوم عقلية وفلسفية واجتماعية، ولا سيما علوم التربية والنفوس والاجتماع والإعلام، وكان لهذا المخزون الذي كنت أستعيد مراجعته أحياناً تأثيراً في التصنيف وبناء أفكار البحوث بناءً شجرياً، وفي كثير من الأفكار الصحيحة أو الراجعة القابلة للأخذ بها، أو الانتفاع منها.

وقد فتح الله عليّ باستخراج قواعد عامة ينبغي لحامل الرسالة أن يستذكرها دوماً، حتى تكون هادية له في مسيرته وهو يؤدى رسالته.

ولا أزعم أنني استوفيتُ بهذا السفر كل ما يتعلق بموضوعه استخراجاً واستنباطاً واستنتاجاً، لكن الله قد فتح عليّ فيه كثيراً ممّا لم أجده لدى مَنْ كُتِبَ في موضوعه قبلي، وكان هذا الفتح ببركة رجوعي رجوعاً مباشراً إلى تدبّر ما في كتاب الله عزّ وجلّ تدبّراً بتعمّق وأناة.

ولا يفوتني أن أثنى على الباحثين قبلي في هذا الموضوع، فطبيعة الدراسات الإنسانية أن تعتمد في المجتمع البشري على التراكم والتكامل، واستفادة اللاحق من السابق.

وأرجو أن يأتي بعدي باحثون يضيفون أو يعدّلون، أو يجمعون بين الإضافة والتعديل.

وأنا مدركٌ تماماً أنّ كثيراً من بحوث هذا السفر قابلة للاختصار، إلا أنّ الاستخراج المباشر من النصوص القرآنية، مع التأملات التدرّجية، أمورٌ تلجىء الباحث إلى البسط، للإقناع بما أوصله إليه تدبّره.

وأسأل الله الجليل المتأن، أن ينفع بهذا السفر وبما احتوى من قواعد
ومناهج ومسالك ووسائل ونصائح ووصايا، وأن يجعله خالصاً لوجهه
الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة

في يوم السبت ٧ ربيع الثاني/ ١٤١٦ هـ

الموافق لـ ١٩٩٥/٩/٢ م

عبد الرحمن جنكة الميداني

فهرس المجلد الأول

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٥

الباب الأول مقدمات عامات

■ الفصل الأول: الأمة الإسلامية حملة رسالة هداية وإصلاح	١٣
● بالدعوة إلى الله	١٣
● وبالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وفيه ثماني مقولات:	١٣
المقولة الأولى: تعريفات عامات «للدعوة - والتبليغ - والتذكير - والنصح - والإرشاد - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»	١٥
المقولة الثانية: الدعوة والتبليغ	٢٢
المقولة الثالثة: الشهادة يوم الدين على الذين تلقوا البلاغ ...	٣٣
المقولة الرابعة: حكم تبليغ دين الله للناس	٤٧
المقولة الخامسة: التذكير والنصح والإرشاد	٥٠
المقولة السادسة: وظيفتا:	

الموضوع	الصفحة
● الهداية بالدعوة والتذكير والنصح والإرشاد	٦٣
● والإصلاح والحماية بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٦٣
المقولة السابعة: منزلة الدعوة إلى دين الله في سلم الأولويات الجهادية	٧٧
المقولة الثامنة: أقسام الدعاة إلى الله والآخرين بالمعروف الناهين عن المنكر	٧٩
■ الفصل الثاني: أثر النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إصلاح المجتمع الإسلامي وحمايته وصيانته	٨٣
وفيه مقولتان:	
المقولة الأولى: نظرات تحليلية	٨٥
١ - ظاهرة تعاويّة	٨٥
٢ - الجسدية الواحدة للمجتمع الإسلامي ومقتضياتها من الحماية والإصلاح	٨٨
٣ - من شروط بقاء التمكين للمؤمنين في الأرض	٨٩
٤ - حماية سفينة المجتمع الإسلامي من الغرق	٩١
٥ - ما يجب على حامل الرسالة عند أدائها	٩٤
وما يجب على من توجه له الرسالة	٩٨
المقولة الثانية: استعراض طائفة من النصوص	١٠٠
■ الفصل الثالث: نظرة عامة إلى أصناف الناس الذين توجه لهم وظائف الرسالة	١٠٥
١ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة منفتح النفس لها، غير رافض عرضها عليه	١٠٧

الصفحة	الموضوع
١٠٩	٢ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة إلا أنه مُغلق النفس دونها لانصرافه للدنيا
١١٢	٣ - صنف جاهل خالي الذهن من المعرفة إلا أنه مغلق النفس دون الإسلام لأن لها عقائد سابقة مخالفة له
١١٥	٤ - صنف عالم بالعقائد الإسلامية مستيقن متابع إلا أنه ناقص المعرفة وتغلبه أهواؤه وشهواته
١١٦	٥ - صنف عالم بأسس الإسلام وعقائده إلا أن علمه لم يقترن باعتماد وإيمان جازم، فهو منتسب ولما يدخل الإيمان إلى قلبه ...
١١٧	٦ - صنف عالم مستيقن إلا أنه غافلٌ عن مقتضيات إيمانه مستغرق بدنياه
١١٨	٧ - صنف عالم مستيقن بقلبه إلا أنه جاحد في نفسه غير داعٍ إلى الضلال
١١٩	٨ - صنف عالم مستيقن بقلبه إلا أنه جاحد وشيطان مضلٌّ فتان فاسد مفسد

الباب الثاني

الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها حَمَلَةُ الرسالة

١٢١	وفيه ستة فصول
١٢٣	■ الفصل الأول: وجوب تحلِّي حامل الرسالة بصفة الصبر وعدم التضجر واليأس مهما اشتدَّ عليه الأذى وضعفت آثار أعماله الرشيدة .
١٢٥	وفيه أربع مقولات
١٢٨	المقولة الأولى: قيمة خلق الصبر ووجوب تحلِّي حامل الرسالة به . المقولة الثانية: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر لحاملي الرسالة من أمة محمد ﷺ

- المقولة الثالثة: نصوص قرآنية يلاحظ فيها توجيه الأمر بالصبر
 للرسول ويلحق به حاملو رسالته من أمته ﷺ ١٤٢
- المقولة الرابعة: نماذج من سيرة الرسول ﷺ في الصبر ١٦١
- الفصل الثاني: وجوب تحلي حامل الرسالة بصفة التجرد من
 المصالح الشخصية لدى من يُوجّه له رسالته ١٦٣
 وفيه ثلاث مقولات:
- المقولة الأولى: نظرة تحليلية ١٦٥
- المقولة الثانية: البيانات القرآنية حول تجريد الرسل من
 المصالح الشخصية الدنيوية لدى أقوامهم ويلحق بالرسول سائر حملة
 رسالاتهم ١٦٩
- المقولة الثالثة: معاش حملة الرسالة المتفرغين لها ١٨٢
- الفصل الثالث: وجوب تحلي حامل الرسالة بمكارم الأخلاق
 ومحاسن الشيم، وبتطبيقه لما يدعو إليه ١٨٧
 وفيه مقولتان:
- المقولة الأولى: تحليل وتفصيل ١٨٩
- ١ - بيان تحليّي عام ١٨٩
- ٢ - بيان تفصيلي ١٩٢
- أولاً: أهمية البراءة من التطلع إلى ما وهب الله الناس ١٩٢
- ثانياً: أهمية البراءة من الفظاظة وغلظ القلب ١٩٦
- المقولة الثانية: أمثلة من أخلاق الرسول وسيرته العظيمة ﷺ . ٢٠٤

- الفصل الرابع: وجوب تحلي حامل الرسالة بالصفات التي ذكر
الله عزّ وجلّ أنّها صفات عباد الرحمن ليكون أسوة حسنة ٢٠٩
وفيه مقولتان:
- المقولة الأولى: مقدمة تحليلية عامة مع بيان الشروط التي هي
بمنزلة الأسس الأولى لكل داع وناصح ٢١١
- ١ - مقدمة تحليلية ٢١١
- ٢ - الشروط الأساسية الأولى لكلّ داع لأمر، أو ناصح به
مرشد إليه ٢١٢
- المقولة الثانية:
- ١ - نظرة إجمالية إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين ٢١٩
- ٢ - نظرة تفصيلية إلى صفات المرشح لأن يكون إماماً للمتقين ٢٢١
- الفصل الخامس: وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية البيانية .
وفيه ثلاث فقرات:
- ١ - وظيفة البيان في حياة الإنسان ٢٣٣
- ٢ - الكلام ذو وجوه كثيرة مختلفة وأساليب شتى ٢٣٦
- ٣ - البيان المطلوب من حامل الرسالة والصفات التي ينبغي
أن يتحلّى بها ٢٤٠
- الفصل السادس: وجوب تحلي حامل الرسالة بالأهلية العلمية .
وفيه مقدمة وفقرتان:
- مقدمة ٢٤٩
- ١ - بيان وجوب تحقّق الأهلية العلمية ٢٤٩
- ٢ - عناصر الأهلية العلمية المطلوبة للمستوى التخصصي ٢٥١

الباب الثالث

قواعد ووصايا كلية عامة

وبيان لطائفة من آفات حملة الرسالة

٢٧٥ وفيه مقدمة وفصلان
٢٧٣ مقدمة
٢٨١ ■ الفصل الأول: قواعد كلية بوصايا لحامل الرسالة
 وفيه إحدى وخمسون قاعدة:
٢٨١ بيان القواعد دون شرح
٢٩١ شرح القواعد
٢٩١ ١ - شرح القاعدة الأولى
٢٩٢ ٢ - شرح القاعدة الثانية
٢٩٣ ٣ - شرح القاعدة الثالثة
٢٩٤ ٤ - شرح القاعدة الرابعة
٢٩٦ ٥ - شرح القاعدة الخامسة
٢٩٧ ٦ - شرح القاعدة السادسة
٣٠٢ ٧ - شرح القاعدة السابعة
٣٠٥ ٨ - شرح القاعدة الثامنة
٣١٠ ٩ - شرح القاعدة التاسعة
٣١١ ١٠ - شرح القاعدة العاشرة
٣١٣ ١١ - شرح القاعدة الحادية عشرة
٣١٥ ١٢ - شرح القاعدة الثانية عشرة
٣١٧ ١٣ - شرح القاعدة الثالثة عشرة
٣٢٠ ١٤ - شرح القاعدة الرابعة عشرة

الصفحة	الموضوع
٣٢٣	١٥ - شرح القاعدة الخامسة عشرة
٣٢٥	١٦ - شرح القاعدة السادسة عشرة
٣٢٦	١٧ - شرح القاعدة السابعة عشرة
٣٢٧	١٨ - شرح القاعدة الثامنة عشرة
٣٢٨	١٩ - شرح القاعدة التاسعة عشرة
٣٤١	٢٠ - شرح القاعدة العشرين
٣٤٢	٢١ - شرح القاعدة الحادية والعشرين
٣٤٤	٢٢ - شرح القاعدة الثانية والعشرين
٣٤٥	٢٣ - شرح القاعدة الثالثة والعشرين
٣٤٧	٢٤ - شرح القاعدة الرابعة والعشرين
٣٤٨	٢٥ - شرح القاعدة الخامسة والعشرين
٣٥٢	٢٦ - شرح القاعدة السادسة والعشرين
٣٥٤	٢٧ - شرح القاعدة السابعة والعشرين
٣٥٥	٢٨ - شرح القاعدة الثامنة والعشرين
٣٥٨	٢٩ - شرح القاعدة التاسعة والعشرين
٣٥٩	٣٠ - شرح القاعدة الثلاثين
٣٦٠	٣١ - شرح القاعدة الحادية والثلاثين
٣٦٢	٣٢ - شرح القاعدة الثانية والثلاثين
٣٦٤	٣٣ - شرح القاعدة الثالثة والثلاثين
٣٦٧	٣٤ - شرح القاعدة الرابعة والثلاثين
٣٧٠	٣٥ - شرح القاعدة الخامسة والثلاثين
٣٧١	٣٦ - شرح القاعدة السادسة والثلاثين
٣٧٢	٣٧ - شرح القاعدة السابعة والثلاثين

الصفحة	الموضوع
٣٧٤	٣٨ - شرح القاعدة الثامنة والثلاثين
٣٧٥	٣٩ - شرح القاعدة التاسعة والثلاثين
٣٧٨	٤٠ - شرح القاعدة الأربعين
٣٧٩	٤١ - شرح القاعدة الحادية والأربعين
٣٨٢	٤٢ - شرح القاعدة الثانية والأربعين
٣٨٤	٤٣ - شرح القاعدة الثالثة والأربعين
٣٨٥	٤٤ - شرح القاعدة الرابعة والأربعين
٣٨٦	٤٥ - شرح القاعدة الخامسة والأربعين
٣٨٩	٤٦ - شرح القاعدة السادسة والأربعين
٣٩١	٤٧ - شرح القاعدة السابعة والأربعين
٣٩٢	٤٨ - شرح القاعدة الثامنة والأربعين
٣٩٣	٤٩ - شرح القاعدة التاسعة والأربعين
٣٩٥	٥٠ - شرح القاعدة الخمسين
٣٩٦	٥١ - شرح القاعدة الحادية والخمسين
٣٩٧	■ الفصل الثاني : آفات حملة الرسالة
	وفيه مقدمة وبيان إحدى وعشرين آفة خطيرة :
٣٩٩	مقدمة
٤٠١	شرح الآفات الخطيرات
٤٠١	١ - شرح الآفة الأولى
٤٠٣	٢ - شرح الآفة الثانية
٤٠٣	٣ - شرح الآفة الثالثة
٤٠٤	٤ - شرح الآفة الرابعة
٤٠٥	٥ - شرح الآفة الخامسة
٤٠٦	٦ - شرح الآفة السادسة

الصفحة	الموضوع
٤٠٧	٧ - شرح الآفة السابعة
٤٠٨	٨ - شرح الآفة الثامنة
٤١٠	٩ - شرح الآفة التاسعة
٤١٢	١٠ - شرح الآفة العاشرة
٤١٣	١١ - شرح الآفة الحادية عشرة
٤١٤	١٢ - شرح الآفة الثانية عشرة
٤١٥	١٣ - شرح الآفة الثالثة عشرة
٤١٦	١٤ - شرح الآفة الرابعة عشرة
٤١٧	١٥ - شرح الآفة الخامسة عشرة
٤١٨	١٦ - شرح الآفة السادسة عشرة
٤١٩	١٧ - شرح الآفة السابعة عشرة
٤٢٠	١٨ - شرح الآفة الثامنة عشرة
٤٢٢	١٩ - شرح الآفة التاسعة عشرة
٤٢٣	٢٠ - شرح الآفة العشرين
٤٢٤	٢١ - شرح الآفة الحادية والعشرين

الباب الرابع

مناهج توصيل الرسالة وسبلها ووسائلها وأدواتها

٤٢٥	وفيه سبعة فصول
٤٢٧	■ الفصل الأول: التوجيه المباشر والتوجيه غير المباشر
	وفيه مقدمات عامات وثمانية مقولات حول وسائل التوجيه غير المباشر:
٤٢٩	المقدمات العامات

الصفحة	الموضوع
٤٢٩	● التعريف بالتوجيه المباشر وغير المباشر
٤٢٩	● طريق التوجيه المباشر
٤٣١	● مواطن وأحوال التوجيه المباشر
٤٣٣	● ضرر التوجيه المباشر أحياناً
٤٣٤	● طريق التوجيه غير المباشر
٤٣٦	● ميزات طريق التوجيه غير المباشر
٤٣٧	● واجب حامل الرسالة
المقولة الأولى من سبل التوجيه غير المباشر:	
٤٣٩	البيان الكلامي غير المباشر
٤٤٦	أغراض البيان الكلامي غير المباشر
٤٥٠	المقولة الثانية من سبل التوجيه غير المباشر: القدوة الحسنة ..
٤٥٠	١ - فطرة التقليد
٤٥٢	٢ - أسباب تأثير القدوة
٤٥٤	٣ - استغلال دعاة الشر ودوافع التقليد في الناس
٤٥٦	٤ - واجب المسلمين عموماً وحملة الرسالة خصوصاً
٤٥٩	٥ - أهمية التربية بالقدوة الحسنة
المقولة الثالثة من سبل التوجيه غير المباشر: البيئة والرفقة	
٤٦٢	الصالحة
٤٦٢	١ - مقدمة
٤٦٢	٢ - أسباب تأثير البيئة الاجتماعية
٤٦٥	٣ - تكييف الإنسان مع بيئته الاجتماعية
٤٦٧	٤ - واجب تهيئة البيئة الإسلامية الصالحة
٤٦٩	٥ - الغزو الفكري عن طريق البيئة

الموضوع	الصفحة
المقولة الرابعة من سبيل التوجيه غير المباشر: القصة النافعة	
والمشاهد التمثيلية المفيدة	٤٧١
١ - القصة النافعة	٤٧١
● مسؤولية حملة الرسالة بشأن القصة النافعة	٤٧٤
٢ - المشاهد التمثيلية المفيدة	٤٧٤
المقولة الخامسة من سبيل التوجيه غير المباشر: القراءة الحرّة	
وأثرها	٤٧٦
١ - سبب تأثير القراءة الحرّة	٤٧٦
٢ - استغلال المفسدين لوسيلة القراءة الحرّة	٤٧٨
٣ - واجب الأمة الإسلامية تجاه القراءة	٤٧٩
المقولة السادسة من سبيل التوجيه غير المباشر: الترنيم والنشيد	
بطريقة إسلامية شكلاً ومضموناً	٤٨٣
١ - الميول والتأثيرات الفطرية	٤٨٣
٢ - استغلال المفسدين للأغاني والموسيقى	٤٨٥
٣ - موقف الإسلام من استخدام هذا السبيل	٤٨٦
المقولة السابعة من سبيل التوجيه غير المباشر: إدخال البيان	
الإسلامي ضمن العلوم المختلفة عند المناسبات الملائمات	٤٩٣
١ - المطلوب في الفرص المتاحة	٤٩٣
٢ - انتهاز المناسبات التي تُتاح في مختلف العلوم	٤٩٣
٣ - استغلال المفسدين للعلوم والآداب والفنون	٤٩٦
المقولة الثامنة من سبيل التوجيه غير المباشر: البثّ العرضي	
المفيد عند المناسبات الملائمات	٤٩٩
١ - التعريف	٤٩٩

الصفحة	الموضوع
٥٠٠	٢ - المطلوب من حملة الرسالة تجاه هذا السبيل
٥٠١	٣ - استغلال المفسدين سبيل البث العرضي
٥٠٣	■ الفصل الثاني: العقبات الصّادات للتوجيه وأساليب معالجتها ..
٥٠٣	وفيه مقدمة وخمس عشرة مقولة منقسمة إلى ثلاثة أقسام:
٥٠٣	القسم الأول: عقبات تكون أسبابها من حملة الرسالة، وفيه ستُّ عقبات
٥٠٤	القسم الثاني: عقبات تكون أسبابها ممّن توجّه لهم الرسالة، وفيه ست عقبات
٥٠٤	القسم الثالث: عقبات تكون أسبابها في الوسط بين موجه الرسالة وبين من توجّه له، وفيه ثلاث عقبات
٥٠٥	مقدمة: نظرة عامة
	شرح عقبات القسم الأول: وهي العقبات التي تكون أسبابها من حملة الرسالة وهي ست عقبات.
٥٠٧	المقولة الأولى من العقبات الصّادات:
٥٠٧	(١) عقبة المصلحة الشخصية الدنيوية لدى حامل الرسالة ...
٥٠٩	موقف التربية الإسلامية
	المقولة الثانية من العقبات الصّادات:
٥١٠	(٢) عقبة كِبْر حامل الرسالة وعُجْبِهِ بنفسه
٥١٠	١ - الكبر والعجب بالنفس من أقبح الصفات المنفرة
٥١١	٢ - واجب حملة الرسالة
٥١٣	٣ - الترغيب في التواضع والتحذير من الكبر
	المقولة الثالثة من العقبات الصّادات:
٥١٧	(٣) - عقبة ما في حامل الرسالة من قبائح منفرة للحواس ..
٥١٨	● المطلوب من حامل الرسالة

الصفحة	الموضوع
٥١٩	● بدعة التبذّل والرثانة
	المقولة الرابعة من العقبات الصادّات:
٥٢٠	(٤) عقبة سوء خلق حامل الرسالة
	المقولة الخامسة من العقبات الصادّات:
	(٥) عقبة كَوْن حامل الرسالة غيرَ موثوقٍ به وغير محترم
٥٢٢	من قِبَلٍ من يُؤدّي بينهم رسالته
٥٢٢	١ - شرح العقبة
٥٢٣	٢ - الصفات التي تكتسب بها ثقة الناس واحترامهم
٥٢٣	٣ - حكمة الله في اصطفاء رُسله
	٤ - المطلوب من حامل الرسالة الذي لم يكتسب بَعْدُ الثقة
٥٢٤	والاحترام
	المقولة السادسة من العقبات الصادّات:
٥٢٦	(٦) عقبة كراهية شخص حامل الرسالة
٥٢٦	١ - شرح هذه العقبة
٥٢٧	٢ - وسائل معالجة عقبة كراهية شخص حامل الرسالة ...
	شرح عقبات القسم الثاني: وهي العقبات التي تكون أسبابها من
	حملة الرسالة وهي ست عقبات:
	المقولة السابعة من العقبات الصادّات:
٥٢٩	(١) عقبة كبر من توجّه له الرسالة وعجبه بنفسه
٥٢٩	١ - مقدمة
	٢ - وسائل تفادي عقبة الكبر والعجب بالنفس لدى من
٥٣٠	تُوجّه له الرسالة
٥٣٢	٣ - التربية على فضائل الأخلاق

المقولة الثامنة من العقبات الصادات:

- (٢) عقبة شعور من توجه له الرسالة بالحرمان من حرية التفكير أو حرية العمل ٥٣٣
- ١ - حرية الإرادة إحدى عناصر الفطرة الإنسانية ٥٣٣
- ٢ - المنهج الرباني لتحاشي هذه العقبة ٥٣٥
- ٣ - النصوص القرآنية حول الحرية المقترنة بالتكليف والمستتعبة بالمسؤولية والحساب والجزاء ٥٣٦

المقولة التاسعة من العقبات الصادات:

- (٣) عقبة سوابق الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والعادات ٥٥٣
- ١ - البيان التحليلي ٥٥٣
- السبب النفسي لهذه العقبة ٥٥٣
- ٢ - طائفة من أساليب اجتياز هذه العقبة ٥٥٥

المقولة العاشرة من العقبات الصادات:

- (٤) عقبة التقليد الأعمى ٥٥٨
- ١ - مرض التعصب الذميم يتولد منه مرض التقليد الأعمى ٥٥٨
- ٢ - بيانات قرآنية حول التقليد الأعمى ٥٦٢
- ٣ - وسائل علاج التقليد الأعمى ٥٧٠

المقولة الحادية عشرة من العقبات الصادات:

- (٥) عقبة الحسد ٥٧٤
- ١ - تأثير داء الحسد في النفس والسلوك ٥٧٤
- ٢ - وسائل تخطي أو تحاشي عقبة داء الحسد ٥٧٦

المقولة الثانية عشرة من العقبات الصادات:

- (٦) عقبة الأهواء والشهوات من متاع الحياة الدنيا ٥٧٨

الصفحة	الموضوع
٥٧٨	١ - شرح هذه العقبة
٥٧٩	٢ - وسائل معالجة عقبة الأهواء والشهوات
٥٨١	شرح عقبات القسم الثالث: وهي العقبات التي تكون أسبابها في الوسط بين حامل الرسالة ومن توجه له وهي ثلاث عقبات
	المقولة الثالثة عشرة من العقبات الصادات:
٥٨١	(١) عقبة الوسوس والتسويلات الشيطانية
٥٨١	١ - شرح هذه العقبة
٥٨١	٢ - وسائل معالجة مكايد الشيطان للإضلال والإغواء
	المقولة الرابعة عشرة من العقبات الصادات:
٥٩٦	(٢) عقبة أعمال المضلين وجنود الغزو الفكري المفسدين ..
٥٩٦	١ - شرح هذه العقبة
٥٩٩	٢ - وسائل معالجة هذه العقبة
	المقولة الخامسة عشرة من العقبات الصادات:
٦٠١	(٣) عقبة عدم توافر وسائل الاتصال الإعلامي المؤثر
	■ الفصل الثالث: المنهاج البياني ومسالكه «الحكمة - والموعظة الحسنة - والجدال بالتي هي أحسن»
٦٠٥	وفيه خمس فقرات:
٦٠٧	الفقرة الأولى: نظرة إجمالية إلى مسالك منهاج الدعوة البيانية .
٦٠٧	١ - تعريف عامّ بالمسالك
٦١٠	٢ - منافع الحكمة في الدعوة إلى سبيل الله
٦١٢	٣ - البيان القرآني بالنسبة إلى المسالك الثلاثة
٦١٣	٤ - الأركان الداخلية للنفس الإنسانية والمؤثرات فيها
٦١٧	٥ - حكمة حامل الرسالة في هذا المجال

الصفحة	الموضوع
٦١٩	الفقرة الثانية: شرح مسلك الحكمة وبيان لبعض عناصرها . . .
٦٢٠	● طائفة من عناصر الحكمة في البيان الدعوي
٦٢٠	١ - القول اللين
٦٢٠	٢ - مراعاة المنزلة الاجتماعية لمن تُوجّه له الرسالة
٦٢٢	٣ - البيان المقرون بالبرهان أو بالحجّة الصحيحة المقبولة .
	٤ - البيان المقرون بالدليل على أفضليّة ما جاء في الدين
٦٢٣	على غيره من الاحتمالات الممكنة
٦٢٤	٥ - البدء بجذور القضايا والانتقال منها إلى الفروع شيئاً فشيئاً .
٦٢٧	٦ - مراعاة المستوى الفكري لدى من تُوجّه له الرسالة . . .
٦٢٧	٧ - مراعاة المستوى العلمي لدى من تُوجّه له الرسالة . . .
	٨ - مراعاة الجوانب العاطفية التي تقتضيها الصّلات
٦٢٨	والعلاقات الاجتماعية
٦٢٧	٩ - مراعاة الحالة النفسيّة لدى من تُوجّه له الرسالة
٦٣١	الفقرة الثالثة: شرح مسلك الموعظة الحسنة وبيان لعناصرها . .
٦٣٢	● بيان تحليلي لمحاوّر النفس
٦٣٤	● وسائل الترغيب والترهيب البيانيّة
٦٣٥	● فطرة النفس تجاه المطامع والمخاوف
٦٣٦	الفقرة الرابعة: شرح مسلك الجدل بالتي هي أحسن
٦٣٦	١ - بيان عامّ
٦٣٧	٢ - الجدل بالتي هي أحسن هو من وسائل الدعوة إلى سبيل الله
٦٣٩	٣ - قواعد عامّة للجدل بالتي هي أحسن
٦٤٩	الفقرة الخامسة: نماذج من تعليمات جدلية قرآنية
٦٦٣	خاتمة حول ما تفيده التعليمات الجدلية القرآنية

فهرس المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة
■ الفصل الرابع : وسائل الأداء البياني	٥
الوسيلة الأولى : الخطبة	٧
١ - أهمية الخطبة	٧
٢ - تعريف الخطبة	٨
٣ - وظائف الخطبة	٩
٤ - مراحل الخطبة	١١
٥ - ما يجب التزامه في الخطبة	١٣
٦ - إعداد الخطبة	١٥
٧ - هل الخطابة استعداد فطري أم ملكة تكتسب؟	١٩
٨ - الصفات المفضلة للخطيب عند الخطبة	١٩
٩ - زخرفيات الخطبة بصفة عامة	٢١
١٠ - عيوب الخطبة	٢٣
١١ - الخطيب وجمهوره	٢٦
١٢ - أمثلة من خطب الأسوة الحسنة	٢٦
١٣ - انتكاسة في تاريخ الخطب المنبرية	٣٣
الوسيلة الثانية : الدرس	٣٥
١ - بيان عام	٣٥
٢ - مسؤولية حامل الرسالة	٣٧
٣ - الدروس التعليمية ومنهجيتها المفضلة	٣٨
٤ - وصايا للمدرّس ينبغي أن يتعهّد مراعاتها ما أمكنه	٤٠

الصفحة	الموضوع
٤٦	الوسيلة الثالثة: المحاضرة
٤٦	١ - التعريف
٤٦	٢ - هدف المحاضرة
٤٧	٣ - مستويات المحاضرات
٤٧	٤ - كبرى المهمات
٤٧	٥ - إعداد المحاضرة وأدائها
٤٨	٦ - الأسئلة والمناقشات والاعتراضات
٤٨	٧ - عنوان المحاضرة
٤٨	٨ - خطبة في محاضرة
٤٩	٩ - نفع المحاضرة الدينية
٥٠	الوسيلة الرابعة: الحديث والمحادثة
٥٠	١ - التعريف
٥٠	٢ - القرآن حديث بين الله وبين عباده
٥٢	٣ - أهمية الحديث
٥٤	٤ - الأحوال التي يظهر فيها الأثر الأكبر للحديث
٥٨	الوسيلة الخامسة: مجالس السؤال والجواب
٥٨	١ - البيان العام
٦٠	٢ - مسؤولية حامل الرسالة
٦٢	٣ - خاتمة
٦٣	الوسيلة السادسة: الكتاب
٦٣	١ - الأمة الإسلامية أمة (اقرأ)
٦٥	٢ - الكتاب قديماً
٦٦	٣ - الكتاب بعد انتشار المطابع
٦٧	٤ - الدعوة إلى القراءة
٦٨	٥ - حُسن اختيار الكتاب الذي ينبغي أن يُوجّه لقراءته

٦٩	٦ - صفات الكتاب الجدير بالاعتبار والتقدير
٧٧	الوسيلة السابعة: المقالة
٧٨	الوسيلة الثامنة: الشعر
٨١	الوسيلتان التاسعة والعاشر: القصة والتمثيل
	■ الفصل الخامس: أدوات التوصيل الإعلامي ومسؤولية حَمَلَة
٨٣	الرسالة بالنسبة إليها
	وفيه ثلاث فقرات:
٨٥	١ - استعراض تاريخي
٨٨	٢ - أدوات التوصيل الحديثة
٩٠	٣ - مسؤولية حَمَلَة رسالة الهداية والإصلاح
٩٢	٤ - الرأي في حكم التصوير بالأدوات المستحدثة
	■ الفصل السادس: المنهج الربّاني للسياسة الحكيمة الموجهة
٩٥	لِلرَسُول ﷺ ولحملة رسالته من أمته
	وفيه مقدمة عامة وواحد وعشرون تعليماً:
	المقدمة العامة: وفيها ثنتان وثمانون وصية أخذاً من اثنين
٩٧	وعشرين نصّاً
٩٧	أولاً: أخذاً من سورة (ق)
٩٨	ثانياً: أخذاً من سورة (الأعراف)
٩٩	ثالثاً: أخذاً من سورة (العن)
١٠٠	رابعاً: أخذاً من سورة (يس)
١٠٠	خامساً: أخذاً من سورة (الفرقان)
١٠٢	سادساً: أخذاً من سورة (النمل)
١٠٤	سابعاً: أخذاً مما جاء في سورة (يونس)

- ١٠٤ ثامناً: أخذاً مما جاء في سورة (الحجر)
- ١٠٦ تاسعاً: أخذاً من سورة (الأنعام)
- ١٠٦ عاشراً: أخذاً من سورة (الصفافات)
- ١٠٦ أحد عشر: أخذاً من سورة (غافر)
- ١٠٧ اثنا عشر: أخذاً من سورة (فُصِّلَتْ)
- ١٠٨ ثلاث عشرة: أخذاً من سورة (الزخرف)
- ١٠٨ أربع عشرة: أخذاً من سورة (الذاريات)
- ١٠٩ خمس عشرة: أخذاً من سورة (المؤمنون)
- ١٠٩ ست عشرة: أخذاً من سورة (السجدة)
- ١١٠ سبع عشرة: أخذاً من سورة (الطور)
- ١١١ ثماني عشرة: أخذاً من سورة (المعارج)
- ١١٢ تسع عشرة: أخذاً من سورة (الروم)
- ١١٢ عشرون: أخذاً من سورة (الأحزاب)
- ١١٣ إحدى وعشرون: أخذاً من سورة (الرعد)
- ١١٤ اثنان وعشرون: أخذاً من سورة (الإنسان)
- ١١٦ تفصيل التعليمات من السور
- ١ - شرح التعليم الأول من سورة (ق/٥٠ مصحف/٣٤
- ١١٦ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا
- ٢ - شرح التعليم الثاني من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩
- ١٢١ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا
- ٣ - شرح التعليم الثالث من سورة (الجن/٧٢ مصحف/٤٠
- ١٣٣ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا
- ٤ - شرح التعليم الرابع من سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١
- ١٣٧ نزول) وقد اشتمل على وصية واحدة

- ٥ - شرح التعليم الخامس من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/
- ١٣٩ ٤٢ نزول) وقد اشتمل على اثنتي عشرة وصية
- ٦ - شرح التعليم السادس من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨
- ١٤٥ نزول) وقد اشتمل على ست وصايا
- ٧ - شرح التعليم السابع من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١
- ١٥١ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا
- ٨ - شرح التعليم الثامن من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤
- ١٥٦ نزول) وقد اشتمل على تسع وصايا
- ٩ - شرح التعليم التاسع من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥
- ١٦٦ نزول) وقد تضمن هذا التعليم وصية واحدة
- ١٠ - شرح التعليم العاشر من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/
- ١٦٩ ٥٦ نزول) وقد اشتمل على وصيتين
- ١١ - شرح التعليم الحادي عشر من سورة (غافر/ ٤٠
- ١٧٢ مصحف/ ٦٠ نزول) وقد اشتمل على ثلاث وصايا
- ١٢ - شرح التعليم الثاني عشر من سورة (فصلت/ ٤١
- ١٧٤ مصحف/ ٦١ نزول) وقد اشتمل على أربع وصايا
- ١٣ - شرح التعليم الثالث عشر من سورة (الزخرف/ ٤٣
- ١٨٥ مصحف/ ٦٣ نزول) وقد اشتمل على وصيتين
- ١٤ - شرح التعليم الرابع عشر من سورة (الذاريات/ ٥١
- ١٨٩ مصحف/ ٦٧ نزول) وقد اشتمل على وصيتين
- ١٥ - شرح التعليم الخامس عشر من سورة (المؤمنون/ ٢٣
- ١٩٢ مصحف/ ٧٤ نزول) وقد اشتمل على وصيتين
- ١٦ - شرح التعليم السادس عشر من سورة (السجدة/ ٣٢

الصفحة	الموضوع
١٩٧	مصحف/ ٧٥ نزول) وقد اشتمل على وصيتين.....
	١٧ - شرح التعليم السابع عشر من سورة (الطور/ ٥٢ مصحف
٢٠٠	مصحف/ ٧٦ نزول) وقد اشتمل على خمس وصايا.....
	١٨ - شرح التعليم الثامن عشر من سورة (المعارج/ ٧٠
٢٠٥	مصحف/ ٧٩ نزول) وقد اشتمل على وصيتين.....
	١٩ - شرح التعليم التاسع عشر من سورة (الروم/ ٣٠
٢٠٧	مصحف/ ٨٤ نزول) وقد اشتمل على وصيتين.....
	٢٠ - شرح التعليم العشرين من سورة (الأحزاب/ ٣٣
٢٠٩	مصحف/ ٩٠ نزول) وقد اشتمل على ثلاث وصايا.....
	٢١ - شرح التعليم الحادي والعشرين من سورة (الرعد/ ١٣
٢١٢	مصحف/ ٩٦ نزول) وقد اشتمل على ثلاث وصايا.....
	٢٢ - شرح التعليم الثاني والعشرين من سورة (الإنسان/
٢١٦	٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) وقد اشتمل على خمس وصايا.....
٢١٩	■ الفصل السابع: المجتمع الإسلامي والمنكرات حمايةً وتغييراً .
	وفيه ثماني فقرات:
٢٢١	١ - مسؤولية الأمة الإسلامية تجاه المنكرات فيها.....
٢٢٤	٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....
٢٢٨	٣ - تأديب العصاة بالعزل الاجتماعي والهجر.....
٢٣١	٤ - الراعي داخل الأسرة ومسؤولياته.....
٢٣٣	٥ - المنكرات من الأحاديث الكفرية في مجالس الكافرين.....
٢٣٥	٦ - المنكرات ذات الخطر العام.....
٢٣٧	٧ - المنكرات الفردية التي لا تشكل خطراً عاماً على المسلمين.....
٢٣٩	٨ - إنكار المنكر بالقلب واللسان وضوابط التغيير باليد.....

الصفحة	الموضوع
٢٣٩	● أهم ما ورد من النصوص
٢٤١	● شروط العمل على تغيير المنكر
٢٤٢	● من المسؤول عن تغيير المنكر باليد
٢٤٣	● إنكار المنكر باللسان
٢٤٤	● إنكار المنكر بالقلب

الباب الخامس

نماذج تطبيقية من هَدْي الرُّسُل عليهم السلام

ومن سار على هديهم

٢٤٧	وفيه أربعة فصول
	■ الفصل الأول: صور من سياسة الرُّسُل في أدائهم رسالات ربهم .
٢٤٩	وفيه ست صور:
	الصورة الأولى: لقطات من سياسة نوح عليه السلام في أدائه
٢٥١	رسالات ربه
	وفيه ست فقرات:
٢٥٢	الفقرة الأولى: سياسة نوح عليه السلام في دعوته
٢٥٥	الفقرة الثانية: سياسة نوح في دفع الاعتراضات التي وُجّهت له
٢٦٢	الفقرة الثالثة: سياسة نوح في دفع الشتائم التي وُجّهت له
٢٦٥	الفقرة الرابعة: سياسة نوح في مجادلته لقومه
	الفقرة الخامسة: سياسة نوح في الدعوة والتذكير على توالي
٢٦٧	الأيام
	الفقرة السادسة: سياسة نوح في مقابل إيذاء قومه وتهديدهم له
٢٧٠	بالإخراج أو بالقتل

- الصورة الثانية: لقطات من سياسة هود عليه السلام في أدائه
رسالات ربّه ٢٧٣
وفيها خمس فقرات:
- الفقرة الأولى: سياسة هود عليه السلام في دعوته ٢٧٤
الفقرة الثانية: سياسة هود في دفع الاعتراضات التي وُجّهت له ٢٧٧
الفقرة الثالثة: سياسة هود في دفع الشتائم التي وُجّهت له .. ٢٨١
الفقرة الرابعة: سياسة هود في مجادلته قومه ونصحه لهم ... ٢٨٣
الفقرة الخامسة: سياسة هود في مقابل إيذاء قومه وتهديدهم له
بالإخراج أو بالقتل ٢٨٩
الصورة الثالثة: لقطات من سياسة صالح عليه السلام في أدائه
رسالة ربّه ٢٩١
وفيها ثلاث فقرات:
- الفقرة الأولى: سياسة صالح عليه السلام في دعوته ٢٩٢
الفقرة الثانية: سياسة صالح في دفع اعتراضات قومه وشتائمهم
وتطيرهم وجدلياتهم ٢٩٧
الفقرة الثالثة: سياسة صالح في تحدي قومه له باستعجال
العقاب ٣٠٠
الصورة الرابعة: لقطات من سياسة إبراهيم عليه السلام في أدائه
رسالة ربّه ٣٠٣
وفيها ثلاث فقرات:
- الفقرة الأولى: سياسة إبراهيم عليه السلام في دعوته ٣٠٤
الفقرة الثانية: سياسة إبراهيم في حججه ومجادلته لقومه ... ٣٠٧
الفقرة الثالثة: صفات إبراهيم عليه السلام في ذاته وفي

الصفحة	الموضوع
٣٣٧	سياسته الدعوية.....
	الصورة الخامسة: لقطات من سياسة شعيب عليه السلام في أدائه
٣٤١	رسالات ربّه.....
	وفيها ثلاث فقرات:
٣٤٢	الفقرة الأولى: سياسة شعيب عليه السلام في دعوته.....
	الفقرة الثانية: سياسة شعيب في دفع اعتراضات قومه عليه
٣٤٦	وجدلّياتهم له واتهاماتهم وشتائمهم.....
	الفقرة الثالثة: سياسة شعيب في معالجة اضطهاد قومه له
٣٤٩	وللذين آمنوا به منهم.....
	الصورة السادسة: لقطات من سياسة موسى عليه السلام في أدائه
٣٥٥	رسالات ربّه.....
	وفيها أربع فقرات:
٣٥٦	الفقرة الأولى: كيف تلقّى موسى عليه السلام نبوّته ورسالته .
	الفقرة الثانية: كيف تلقّى موسى عليه السلام تكليفه أن يبلغ
٣٦١	رسالات ربّه إلى فرعون وقومه.....
	الفقرة الثالثة: تعليم الله عزّ وجلّ موسى وهارون كيف يدعوان
٣٦٤	فرعون.....
	الفقرة الرابعة: سياسة موسى في أدائه رسالته وفي مواقفه
٣٦٧	الجدليّة وفي معالجته الاضطهاد.....
	■ الفصل الثاني: نماذج دُعاةٍ من غير الرُّسل عرض القرآن الكريم
٣٨٣	دعوتهم ونصرتهم لدينه.....
	وفيه مقدمة وسبعة نماذج:
٣٨٥	مقدمة.....

النموذج الأول: دعوة مؤمن آل فرعون لقومه انتصاراً لموسى

- ٣٨٧ عليه السلام ولدعوته
- ٣٨٨ ١ - نظرة إجمالية عامة
- ٣٩٣ ٢ - منهج مؤمن آل فرعون في الدعوة إلى الله
- ٣٩٦ ٣ - التدبّر التحليلي للنص

النموذج الثاني: دعوة مؤمن أصحاب القرية التي جاءها

- ٤٢٤ المرسلون وانتصاره لهم ولدعوتهم
- ٤٢٥ ١ - نظرة إجمالية عامة
- ٤٢٦ ٢ - منهج مؤمن أصحاب القرية في الدعوة إلى الله
- ٤٢٩ ٣ - التدبّر التحليلي للنصّ المبين قصة الرسل الثلاثة
- ٤٣٤ ٤ - التدبّر التحليلي للنصّ المبين قصة مؤمن أهل القرية

النموذج الثالث: دعوة نفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم

- ٤٤٣ سورة (الجنّ)
- ٤٤٣ ١ - نظرة إجمالية عامة
- ٤٤٤ ٢ - المنهج الدعويّ الذي اتخذه نفر من الجنّ الذين
- ٤٤٤ أخبر الله عنهم في سورة (الجنّ)
- ٤٤٦ ٣ - التدبّر التحليلي للنصّ

النموذج الرابع: دعوة نفر من الجنّ الذين عرضت قصتهم

- ٤٥٩ سورة (الأحقاف)
- ٤٥٩ ١ - نظرة إجمالية عامة
- ٤٦١ ٢ - المنهج الدعويّ الذي اتخذه نفر من الجنّ الذين
- ٤٦١ أخبر الله عنهم في سورة (الأحقاف)
- ٤٦٣ ٣ - التدبّر التحليلي للنصّ

- النموذج الخامس: صورة من دعوة الوالدين المؤمنين لولدهما الكافر.. النص من سورة (الأحقاف)..... ٤٦٧
- ١ - فكرة هذا النصّ ٤٦٧
- ٢ - شرح بعض الألفاظ ٤٦٨
- ٣ - التدبّر التحليلي ٤٦٩
- النموذج السادس: قصة قارون والدّعاة من بني إسرائيل من سورة (القصص) وفيها صورتان ٤٧٢
- صورة دعوة دعاة بني إسرائيل لقارون الذي بغى على قومه
- صورة دعوة علماء بني إسرائيل للجاهلين منهم الذين فتنتهم مظاهر الحياة الدنيا التي آتاها الله لقارون ٤٧٢
- ١ - بيان حول قارون ٤٧٣
- ٢ - التدبر التحليلي للمقطع الأول من النصّ ٤٧٤
- ٣ - التدبر التحليلي للمقطع الثاني من النصّ ٤٨١
- النموذج السابع: قصة الرجلين المتحاورين ٤٨٨
- صاحب الجنتين المستكبر بهما وبأولاده والمنكر ليوم الدين.
- والآخر المؤمن الذي لم يؤت سعة من المال والولد والأنصار. وقد جاءت في الآية من (٣٢ - ٤٤) من سورة الكهف .. ٤٨٨
- ١ - القراءات ٤٨٨
- ٢ - تحليل النص وما جاء فيه من حوار ٤٩٠
- الفصل الأول ٤٩٣
- الفصل الثاني ٤٩٧
- الفصل الثالث ٥٠٣
- ٣- التعليق الختامي ٥٠٦
- الفصل الثالث: نماذج من وصايا الأباء للأبناء ٥٠٧

وفيها وصيتان:

- الوصية الأولى: وصية كل من إبراهيم ويعقوب لابنيه، الآيات من
 ٥٠٩ من سورة (البقرة) (١٣٣ - ١٣٠)
- الوصية الثانية: وصية لقمان الحكيم لابنه، الآيات من (١٣ - ١٩)
 ٥١٢ من سورة (لقمان)
- البيان التحليلي. وفيه (١٤) قضية ٥١٤
- الفصل الرابع: صور ونماذج عامة ٥٢١
- وفيه أربع عشرة صورة:
- الصورة الأولى: الدعوة إلى الدخول في الإسلام المصحوبة
 ٥٢٣ بالإنداز، بعد سبق التبليغ بما يكفي للبلاغ والعلم
- دعوة الرسول ﷺ لليهود ٥٢٣
- الصورة الثانية: إقامة الحجّة على المخالف المراوغ من نصوص
 ٥٢٥ ما يؤمن به
- حوار الرسول ﷺ لبعض أئمة اليهود في حكم الرجم .. ٥٢٥
- الصورة الثالثة: حُسْنُ الاستقبال والحوارُ بانتزاع الاعتراف
 بالمقدمات التي تستلزم النتائج التي يراد الإلزام بها مع استعطاف
 النفس بما تحبّ ٥٢٧
- قصة إسلام عدي بن حاتم ٥٢٧
- الصورة الرابعة: تكريم الأسير وإطلاقه الحكيم من الأسر وأثرهما
 ٥٣٣ ٥٣٣
- قصة إسلام ثمامة بن أثال ٥٣٣
- الصورة الخامسة: تنزيل الناس منازلهم تأليفاً لقلوبهم ٥٣٥
- قصة إسلام وائل بن حجر ٥٣٥
- الصورة السادسة: امتلاك القلوب بمكارم الأخلاق ٥٣٧

الصفحة	الموضوع
٥٣٧	● قصة إسلام الحبر اليهودي زَيْد بن سَعْنَةَ
٥٤٠	الصورة السابعة: الدعوة والنصح بتوجيه الكتب والرسالة
٥٤٠	١ - رسالة الرسول ﷺ إلى كسرى
٥٤٠	٢ - رسالة الرسول ﷺ إلى هرقل
٥٤١	٣ - رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس
٥٤١	٤ - رسالة الرسول ﷺ إلى النجاشي
٥٤٣	الصورة الثامنة: رسائل الأقربين للأقربين وأثرها
٥٤٣	● رسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد بن الوليد
٥٤٥	الصورة التاسعة: الجرأة في الحق
	● قصة الصحابي عائذ بن عمرو بن هلال والأمير
٥٤٥	عبيد الله بن زياد
٥٤٦	الصورة العاشرة: من طلب الموعظة فتح أبواب نفسه لتقبلها .
٥٤٦	١ - هارون الرشيد وطلبه الموعظة من ابن السَّمَاك
٥٤٧	٢ - عمر بن عبد العزيز وطلبه الموعظة من الحسن البصري .
٥٤٧	٣ - الخليفة العباسي (المنصور) وطلبه الموعظة من الأوزاعي
٥٤٨	٤ - معاوية وطلبه الموعظة من عائشة أم المؤمنين
٥٤٩	الصورة الحادية عشرة: الشجاعة الأدبية في إنكار المنكر
٥٤٩	● العزّ بن عبد السلام وسلطان مصر نجم الدين أيوب
	الصورة الثانية عشرة: زهد العلماء بما في أيدي الأمراء
٥٥١	يمنحهم الجرأة في الحق
٥٥١	● سفيان الثوري، وأبو جعفر المنصور
	الصورة الثالثة عشرة: قوة تأثير الموعظة التي تنفذ إلى أعماق
٥٥٢	القلب

الصفحة	الموضوع
٥٥٢	● صالح بن بشير المرّي، والخليفة المهدي
	الصورة الرابعة عشرة: شجاعة العالم الربّاني في أخطر المواقف
٥٥٣	● الإمام ابن تيميّة، وقازان طاغية التتر
٥٥٦	الصورة الخامسة عشرة: ذكاء ودهاء العالم الداعية
٥٥٦	● مناظرات الباقلّاني ودهاؤه في بلاد الروم وأساليبه البارعة
٥٦٨ الخاتمة
٥٧١ الفهرس

أثار المؤلف

أولاً: في سلسلة أعداء الإسلام

- ١ - مكايد يهودية عبر التاريخ ٤٤٠ صفحة
- ٢ - صراع مع الملاحدة حتى العظم ٥٠٠ صفحة
- ٣ - أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها «التبشير والاستشراق والاستعمار» ٦٨٠ صفحة
- ٤ - الكيد الأحمر «دراسة واعية للشيوعية» ٤٠٠ صفحة
- ٥ - غزو في الصميم «دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العام» ٣٣٤ صفحة
- ٦ - كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة ٧٥٠ صفحة
- ٧ - ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين مجلدان ١٤٠٠ صفحة
- ٨ - أجوبة الأسئلة التشكيكية الموجهة من قبل إحدى المؤسسات التبشيرية العاملة تحت تنظيم الآباء البيض ١١٨ صفحة

ثانياً: في طريق الإسلام

- ١ - العقيدة الإسلامية وأسسها ٨٠٠ صفحة
- ٢ - الأخلاق الإسلامية وأسسها مجلدان ١٥٠٠ صفحة

- ٣ - براهين وأدلة إيمانية (مع ديوان، آمنت بالله) ٥٠٠ صفحة
- ٤ - الصيام ورمضان في السنة والقرآن «دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسنة» ٤٨٠ صفحة
- ٥ - أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ٤١٢ صفحة
- ٦ - روائع من أقوال الرسول ﷺ «دراسة لغوية وفكرية وأدبية» ٥٧٥ صفحة .
- ٧ - الأمة الزبانية الواحدة ١٢٢ صفحة .
- ٨ - ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة ٤١٦ صفحة
- ٩ - تيسير فقه فريضة الزكاة «تبيين وتقنين وترجيح» ٨٢ صفحة
- ١٠ - فقه الدعوة إلى الله وفقه النصيح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجلدان ١٢٥٠ صفحة

ثالثاً: دراسات قرآنية

- ١ - قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ ٨٠٠ صفحة
- ٢ - تدبر سورة (الفرقان) في وحدة موضوع ٤٥٠ صفحة
- ٣ - تفسير سورة (الرعد) في وحدة موضوع ٢٩٠ صفحة
- ٤ - أمثال القرآن وصوّر من أدبه الرفيع ٤٠٠ صفحة
- ٥ - نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد «دراسة في طريق التفسير الموضوعي» ٣٧٢ صفحة

رابعاً: سلسلة من أدب الدعوة الإسلامية

- ١ - مبادئ في الأدب والدعوة ١٧٧ صفحة
- ٢ - ديوان «آمنت بالله» شعر ٨٠ صفحة
- ٣ - ديوان «ترنيمات إسلامية» شعر للنشيد ١٢٥ صفحة

- ٤ - ديوان «أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدّعاة» ٢٥٥ صفحة
- ٥ - البلاغة العربية
«أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها»
بهيكل جديد من طريف وتليد
مجلدان ١٢٠٠ صفحة
- خامساً: كتب متنوعة
- ١ - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ٤٧٠ صفحة
- ٢ - بصائر للمسلم المعاصر ٤٥٥ صفحة

وغير ما ذكر من متفرقات

* * *

اقراً للمؤلف
في آخر ما أخرج للناس من كتب

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَقَوْمُهُ

في القرآن المجيد

دراسة

في طريق التفسير الموضوعي

قَوْلُهُ

الْبَيْتُ الْأَمْثَلُ

لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

تَأَمَّلْهُ

طَبْعَتُهُ ثَانِيَةً مَزِيدَةً زِيَادَاتٍ وَاسِعَةً

دار الفقه

دمشق

تَدْبِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ

فِي وَحْدَةِ مَوْضُوعٍ

وهي السُّورَةُ الثَّانِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ

تَدْبِيرُ بَعْضِ كِتَابِي

قَوَاعِدِ التَّرْبِيَةِ الْأَمْثَلِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

ولم يلقه

رشي

